

الدكتور/ عبد العليم عبد الرحمن خضر

أصل الأجناس البشرية

بين

العلم والقران الكريم

الطبعة الأولى

١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م

جدة المملكة العربية السعودية

100

100

100

100

100

100

100

100

100

100

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

Handwritten text at the top of the page, possibly a title or header, which is mostly illegible due to blurring and low contrast.

الناشر
تهامة

ص.ب ٥٤٥٥
حيدرة ٢١٤٢١
هاتف ٧٤٤٤٤٤
المملكة العربية السعودية

٥١٤٠٧ (١٩٨٧م)

تهامة للنشر
TIHAMA PUBLICATION



جميع حقوق النشر والطبع والتوزيع محفوظة. غير مسموح بطبع أي جزء من أجزاء هذا الكتاب، أو تخزينه في أي نظام تخزين المعلومات واسترجاعها، أو نقله على أي هيئة أو باية وسيلة، سواء كانت إلكترونية أو شرائط ممغنطة، أو ميكانيكية، أو استنساخاً أو تسجيلاً، أو غيرها، إلا بإذن كتابي من صاحب حق النشر.

تصميم وتنفيذ وطباعة شركة دار العلم للطباعة والنشر
ص.ب ٤٧٩٧ جدة ٢١٤١٢ ت ٦٧١٢١٠٠ المملكة العربية السعودية



أصل الأجناس البشرية
بين العلم والقرآن

1. The first part of the document is a list of names and addresses of the members of the committee.

2. The second part of the document is a list of names and addresses of the members of the committee.

المقدمة

لقد خلق الله سبحانه وتعالى الانسان وهو أعلم بمن خلق، وهو الذى يعلم الطريقة الصحيحة في بيان الحقائق الكبرى في هذا الوجود الذي يتعامل معه الانسان .

وإنني في هذا الكتاب أحاول أن أوضح للبشرية جمعاء أن القرآن الكريم ينهج منهجاً خاصاً متميزاً في شرح قصة خلق الانسان .

وقبل كل شيء اهتم القرآن الكريم بايضاح أن الله سبحانه وتعالى قد نصب من إيجاد هذا الانسان وخلقته ابتداءً واعادته بعد البعث ثانية دليلاً على وجوده وقدرته . . قال تعالى : ﴿إن كنتم في ريب من البعث فإننا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم﴾ .

وقال تعالى : ﴿قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم﴾ . ونستشهد بقول [ابن تيمية] في كتابه : «النبوت» على أن الانسان خلق خلقاً متكاملأ في أحسن صورة . . يقول شيخ الاسلام : «فالاستدلال على الخالق بخلق الانسان في غاية الحسن والاستقامة، وهي طريقة عقلية صحيحة، وهي شرعية دل القرآن عليها وهدى الناس إليها، فإن نفس كون الانسان حادثاً بعد أن لم يكن، ومخلوقاً من نطفة ثم من علقة، فإن هذا يعلمه الناس كلهم بقولهم، فهو إذن عقلى لأنه بالعقل تعلم صحته، وهو شرعى أيضاً» . .

وقد تأرجحت آراء [غير المسلمين] في النظر إلى الانسان وأصل الأجناس البشرية تأرجحاً هذه الضلال والتخبط والضياع . . فالكنيسة المسيحية تريد من الانسان فوق ما يحتمله، فهي تكبت نوازعه وتضغط عليه وتجعله واقعاً تحت سيطرة الصراع بين الجسد والروح، والرهبانية دليل على ذلك .

ومدارس علم النفس التجريبي في الغرب أفسدت الحقائق الانسانية والنظرة

الصحيحة للإنسان ، لأنها كانت لا تخرج بعد كل تجربة إلا بمزق وجزيئات تعجز عن تفسير الكيان الإنساني المتكامل . والمدرسة السلوكية تفسر الإنسان على أساس سلوك [الحيوان] وردود أفعاله المنعكسة . والمدرسة الميكانيكية تفسر انضباط الإنسان بما يشبه الجهاز الآلى ، وتنفى عنه كل شعور واحساس وروح!!!

أما فرويد ، فإن أسس نظريته للإنسان أنه كائن أرضى بحت ، لا يرتفع بمشاعره عن عالم الأرض إلا في حالات الشذوذ ، وهو يقطع الصلة بين الروح والجسد ، ويفسر كل سلوك على أساس اللذة الجنسية .

وجاء [داروين] لينظر إلى الإنسان على أنه [حيوان] تطور من بعض القردة وتأثرت بهذه النظرية المشثومة كل الأفكار الغربية عن أصل الأجناس البشرية . .

وهنا جاء دورى فى هدم كل الأفكار الغربية ونظرتها لنشأة الإنسان ، وقد أخذت من المفهوم الإسلامى لنشأة الإنسان محوراً أساسياً لهذا الكتاب ، وهدفت الأساسى فى هذا الكتاب هو إثبات أن الإنسان فى نظر الإسلام أكرم الكائنات على الله ، خلقه فى أحسن تقويم وتولاه بالإلهام والتعليم ، وحلاه بالعقل الكريم والقلب السليم وأعدده لشرف خلافة الأرض .

كما كان هدفى من هذا الكتاب اثبات إن الإسلام الذى يرميه الملحدون بداء غيره من الديانات ، وينسبون إليه معاداة العلم (أحياناً) . . ومنافاة العقل أحياناً أخرى . . هو وحده الذى احتضن العلم وتحاكم الى العقل ، وميز الحق بخصائصه . . وما على هؤلاء إلا أن يرددوا النظر فى القرآن الكريم وفى السنة المطهرة ليروا الدليل تلو الدليل على أن الإسلام هو دين العلم والعمل والحق والعقل ، وأنه هو (وحده) من بين الأديان السماوية الذى عرف الفطرة (الطبيعة) وسماها باسمها ، ووصفها بأوصافها ، وشهد لنفسه أنه دين الفطرة ، بل أنه نفس الفطرة التى فطر الله الناس عليها .

وفى كتابى هذا

أصل الأجناس البشرية بين العلم والقرآن

أقدم الدلائل الملموسة على شمول القرآن وصدقه ودقة منهجه فى معالجة الموضوعات التى تخص الإنسان ونشأة الأجناس البشرية . . فى [الفصل الأول]

شرحت أهم نظريات العلم عن بدء الحياة على الأرض، والنظرة القرآنية لأصل الحياة، وبرهنت على سبق القرآن للمس هذه المفاهيم. وإذا كان العلم قد قال بنشأة الحياة من الماء فقد قال القرآن بذلك قبل ألف وأربعمائة عام.. قال تعالى:

﴿وجعلنا من الماء كل شيء حي﴾ (الأنبياء: ٣٠)

ولما كان غرض الأول هو هداية الفكر العام وتوجيهه وتيسير تلك المفاهيم على سائر الأذهان، أو على الأقل أغلبها فقد لمست جوانب الموضوع لمسا علميا مبسطا، حيث شرحت دعوة القرآن الى السير في الأرض لمعرفة ما كان عليه (الخلق) في بداية النشأة، وذلك من خلال دراسة «الحفريات».. فهي بالفعل سجل حافل بأسرار الحياة وفيها ألف دليل ودليل على عظمة الله وانفراده بالخلق..

وفي [الفصل الثاني] تناولت بالشرح والتحليل والمقارنة التاريخ الجيولوجي للأرض ونشأة الحياة.. وسوف نرى كيف يدعونا القرآن الكريم الى استخدام القياس العقلي، ذلك في قوله تعالى:

﴿فاعتبروا يا أولى الأبصار﴾ (الحشر: ٢)

ومن المؤسف المبكى - بعد كل ذلك - أن يأتي العلم بكل أسباب التقدم المادى، سواء كان في دوائر البحث أو التطبيق التكنولوجى وأساليب المعيشة، ومن المؤسف المبكى أن يأتي بها في شكل آلى سطحى، يحيط بالظواهر ولا يلمس البواطن.. قد يشبع الأجساد، ولكنه لا يطفىء ظمأ النفوس..

ولكننى في [الفصل الثالث] اكتشفت أن (العلم) برىء من نتائج انحرافه، وأن العلماء أنفسهم هم الذين حرفوا مناهجه.. وتوصلت إلى أنه لا تعارض بين العلم والإيمان (إذا) كان القائمون على أمر العلم ممن خشعت قلوبهم لملك الملوك وفاطر السموات والأرض، الواحد الأحد، الفرد الصمد، الكبير المتعال..

وتقدم بى البحث فى الفصل الثالث إلى مرحلة الشرح العلمى للخصائص العامة للأجناس البشرية حسب الرأى العلمى المعتدل عند علماء الجغرافية البشرية، ثم شرحت وسائل انتشار الانسان فى الأرض تحقيقا لقوله سبحانه وتعالى:

﴿هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه وإليه

النشور﴾.

وفي [الفصل الرابع] شرحت كيف هاجر الإنسان القديم في عصور ما قبل التلويخ من موطن النشأة الى كل بقاع الأرض، وتحقيق الخلافة في الأرض.

وفي [الفصل الخامس] تحدثت عن أصل الإنسان في القرآن الكريم وبينت أن القرآن الكريم نص على أن الإنسان خلق خلقاً مستقلاً ومتكاملاً، ولم ينحدر من (أصل آخر).

قال تعالى: ﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم﴾ (التين: ٤)

وبرهنت على أن القرآن في هذا (الاطار) يشرح حقيقة تطور الإنسان من مادة الأرض (تراهما) إلى مرحلة الطين ثم إلى مرحلة الحمأ المسنون، ثم إلى مرحلة الصلصال، ثم كانت نفخة الخالق سبحانه وتعالى في هذا الكائن المصور (على صورة الانسان).

قال تعالى: ﴿ولقد خلقنا الانسان من سلاله من طين، ثم جعلناه في قرار مكين، ثم خلقنا النطفة علقه، فخلقنا العلقه مضغه، فخلقنا المضغه عظاما، فكسونا العظام لحما، ثم أنشأناه خلقا آخر، فتبارك الله أحسن الخالقين﴾ (المؤمنون: ١٢-١٤).

وفي [الفصل السادس]. . بينت الأسس الواهية التي استند إليها [داروين] في تفسيره لأصل الأنواع والإنسان، كما تابعت مسيرة (التطور) وحللت الملامح العامة للفكر التطوري، مبينا أن ذلك يتعارض مع أبسط معطيات المنطق والعقل، وأن الدراورنية ما هي إلا فكر تدميري متسلط على الأديان السماوية لهدمها وتقويض دعائمها.

وتناولت في [الفصل السابع] ملامح «الداروينية» الحديث عند [روبرت ليرمان]، [ووليم هويلز]، [ولويس ليكي]، [وجون نابيير]، [وياكيموف]، [وبير ليروي]، [وتيلهارد]، [وفيتكتور بوناك]، [والعالم الالماني بولك]، [وهكسلي]، وغيرهم.

وبرهنت على فساد أفكارهم، وشططها وبعدها عن العلم والايان. وفي [الفصل الثامن]، شرحت كيف تتحقق التوافقية بين العلم والقرآن، وقلت أن ذلك لا يتحقق إلا إذا كان العلم صادقاً نابعاً من نفس مؤمنة بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر. . عندئذ فقط يمكن أن تقترب (الحقيقة العلمية) من القرآن ومفاهيمه. . أما النظرية العلمية مهما كان صاحبها، فلن ترقى في يوم من الأيام إلى درجة الاقتراب من

الحقيقة القرآنية لأن النظرية مجرد فرضية قد تصدق وقد تنهدم غدا .
وفي [الفصل التاسع] شرحت الأسس العلمية التي نخرج بها من المفهوم القرآني
لنشأة الإنسان . وكيف تعمق تلك الأسس إيذان المرء بالله خالق السموات والأرض
الواحد، القهار .

وتذكرت كيف سلك الملاحدة، وعلماء الأديان من فلاسفة ومتكلمين وغيرهم
مسالك مختلفة في الدفاع والهجوم في أمر وجود الله تعالى . . . وكان الله سبحانه وتعالى
موضوع اختلاف أو نقاش .

وتذكرت على الفور أيضاً ما جاء في القرآن الكريم في تساؤل رائع . .
﴿أم خلقوا من غير شيء؟ أم هم الخالقون؟ أم خلقوا السموات والأرض؟ بل لا
يوقنون﴾ . . (الطور: ٣٥-٣٦) .

وفي [الفصل العاشر] أعلنت على العالم أجمع سقوط نظرية (داروين) وفسادها
وتحريفها، ولم يكن ذلك تعصبا مني، أو انغلاقاً داخل فكرة شخصية أو انتهاء لجماعة
أو مدرسة فكرية معينة .

وإنما جاء اعلاني بسقوط نظرية [داروين] من خلال دراسات علمية معمقة، لكل
من المفهوم القرآني والعلمي لنشأة الإنسان ووجدت أن كلا من العلم والقرآن قد
اتفقا على فساد (النظرية المنحرفة) وعدم استنادها إلى أي دليل علمي أو منطقي .

وجاء في الفصل الأخير (الحادى عشر) . . تأكيداً على خطورة الفكر «الدارويني»
الذي يروج له أعداء البشرية والملحدون، وبرهنت على وجود الصلة والرابطة القوية
بين نظرية [داروين] وأتباعه وظهور التفرقة العنصرية المسعورة بين الأجناس البشرية
على أساس اللون أو الجنس أو الدين .

وبرهنت على رفض الإسلام لأي تفرقة بين إنسان وآخر لا تقوم على التقوى .
عملاً بقوله تعالى :

﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن
أكرمكم عند الله أتقاكم، إن الله عليم خبير﴾ . (الحجرات: ١٣) .

إننى في هذا الكتاب المتواضع : [أصل الأجناس البشرية بين العلم والقرآن] أثبت
بالدليل على وجود التوافقية المطلقة بين العلم والقرآن، فالعلم يبحث في الكون وهو

كتاب الله المنظور، والقرآن كتاب الله المقروء . . كلاهما من عند الله . . العلم علم الله، والقرآن كلام الله . . ولا تعارض بينهما .

وفي هذا الكتاب سلخت الجلود المزيف عن الأفكار الهدامة في المجتمع البشرى ومنها «الداروينية القميئة»، فأصبحت عارية مفضوحة أمام الجميع، المسلم وغير المسلم على السواء . . ليعرفوا الأبعاد الخطيرة التي ترمى إليها التيارات المناهضة للأديان ومنها [الداروينية] القديمة والحديثة التي ثبت ضلالها، وزيفها وبطلانها .

وخير ما أختتم به مقدمة كتابي . . دعاء الله الخالق القادر المتعال :

«اللهم اهدنى الصراط المستقيم، وأرنى الطريق الذى يوصلنى إليك، إنك يا رب نعم المولى، ونعم النصير» .

دكتور/ عبدالعليم عبدالرحمن خضر

سنتريس / منوفية

الفصل الأول

بدء الحياة على الأرض بين نظريات العلم وحقيقة القرآن

- استحالة نشأة الحياة حسب قانون الصدفة
- فجر الحياة على الأرض
- فشل العلم في تفسير كيفية نشأة الحياة
- الماء والحياة بين العلم والقرآن
- كيف يقيس العلماء عمر الصخور
- ما هي الخلية الحية؟
- العلم يهدم نظرية الخلق الذاتى
- مقدمات الحياة
- قراءة في السجل الحيوى لصخور القشرة الأرضية
- من مظاهر عظمة الخالق سبحانه وتعالى
- نظرية الانتقال وموقف الاسلام منها

الفصل الاول

بدء الحياة على الأرض بين نظريات العلم وحقيقة القرآن

دعنا نسير مع فرضيات العلم ونتصور الأرض بالحالة التي كانت عليها قبل بدء الحياة، وربما كان ذلك منذ ثلاثة بلايين من السنين . فالجبال والبحار جرداء، وليس من نباتات تفيد من النشادر في ماء المطر المتساقط من السحب مندفعاً الى البحار. والواقع أنه ليس بين جميع الكائنات الحية التي تعيش اليوم كائن يمكن له أن يحيا لو أنه وجد في ذلك الزمن البعيد. وكانت الأنهار والبحار والاجواء تكاد تتكون من الماء والنشادر وحدهما، إذ لم تكن النباتات الخضراء قد وجدت بعد لتكوين الأكسجين، ولا البكتريا لتكون النتروجين. وكانت الأشعة الشمسية فوق البنفسجية القاتلة تخترق طريقها خلال الجو الى سطح الأرض إذ لم يكن هناك حزام من الاكسجين يحول دون وصولها. ولم تكن مياه البحار والمحيطات مالحة بعد، إذ لم تكن الأنهار قد جرت زمناً كافياً لاذابة الاملاح من الأرض ونقلها الى البحار.

ولكن المحيط أخذ في التغير. فقد جرت تفاعلات كيميائية بأمر الخالق سبحانه وتعالى بين الماء والصخور المحتوية على عنصر الكربون، فتكونت مركبات كيميائية جديدة عديدة. وقد زاد من سرعة هذه التفاعلات الاشعة المنبعثة من المواد المعدنية المشعة والاشعة الشمسية فوق البنفسجية والصواعق حتى أصبح المحيط كالحساء الغني بالمركبات الكربونية. وبمرور الزمن اتحدت هذه المركبات البسيطة وكونت الجزيئات الكبيرة المعقدة التركيب التي تتميز بها المواد الحية. وكان من بين هذه الجزيئات احماض امينية، وبروتينات، وسكر وأحماض نيوكليكية ومركبات كربونية أخرى وهي التي تتكون منها الآن المادة الحية.

والمحاليل التي على هذه الشاكلة تكوّن، في ظروف غامضة، نقيطات دقيقة غاية

في الصغر من المواد الكيماوية المركزة . وقد تكون في المحيط ملايين لا حصر لها من هذه النقيطات ، كادت تكون جميعا غير ثابتة في تركيبها ، وسرعان ما تفككت وأعدت محتوياتها الى المحيط الفسيح . ولكن القليل النادر منها كون ، مركبات ثابتة بل كان للبعض منها أيضا خاصية امتصاص المزيد من المواد التي تتركب منها من المحيط فازداد حجمها . ولا بد هنا أن نعترف بعجزنا عن تفسير النقطة التالية ، وهي أن النقيطات الأكبر من غيرها أصبحت غير ثابتة وانشقت الى نصفين .

والحقيقة أن تسابق الفطريات الحديثة حول نشأة الحياة تجعلنا نتوجس خيفة من الاندفاع وراء أى منها وتصديقها ، فقد وضعت حديثاً نظريات عديدة لكي تفسر نشأة الحياة من عالم [الجماد] . . فذهب بعض الباحثين الى أن الحياة قد نشأت من [البروتين] أو من [الفيروس] أو من تجمع بعض الجزيئات «البروتوجينية» الكبيرة . لكن الواقع الذى ينبغى أن نسلم به : هو أن جميع الجهود التي بذلت للحصول على المادة الحية من غير الحية قد باءت بفشل وخذلان ذريعين .

ويظل القرآن الكريم هو صاحب الاجابة الشافية عن أصل الحياة من ذلك الربط بين نشأة الكون ونشأة الحياة . .
قال تبارك وتعالى :-

﴿أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقنهما وجعلنا من الماء كل شئ حى أفلا يؤمنون﴾ .
[الأنبياء/ ٣٠] .

استحالة نشأة الحياة حسب قانون الصدفة

يزعم الملحدون من أصحاب نظرية [الصدفة] ان الحياة وجدت هكذا بالصدفة في صورة هلامية أو كما يسمونها [بروتوبلازمية]، وهى الجبله الأولى التى تتضمن جسماً مستديراً هو [النواة] ومن كليهما تكونت [الخلية] . . وأن الحيوانات كثيرة الخلايا قد نشأت فيما بعد من احادية الخلية، بينما كثيرات الخلايا كانت لدى أول أمرها بسيطة التركيب كحيوان المرجان وقناديل البحر وغيرها .

وهؤلاء الملحدون لا يستطيعون - واتحداهم أن يستطيعوا - إقامة الدليل العلمى على مجرد [تجمع] الذرات والجزيئات فى بحر البروتوبلازم القديم يمكن أن يودى الى ظهور الحياة عن طريق [الصدفة] . .

● لن يستطيع الملحدون الاثيان بالدليل على صدق تحريفهم المسمى [الصدفة] . . لسبب بسيط . . هو أن البروتينات من المركبات الأساسية فى جميع الخلايا الحية . . وهى تتكون من خمسة عناصر هى الكربون والايروجين، والنروجين والأكسجين والكبريت . . ويبلغ عدد الذرات فى الجزيء الواحد ٤٠ ألف ذرة، ولما كان عدد العناصر الكيماوية فى الطبيعة [٩٢] عنصراً موزعة بقدر معلوم، فان احتمال اجتماع هذه العناصر الخمسة لكى تكون جزئياً واحداً من جزيئات البروتين يمكن حسابه لمعرفة كمية المادة التى ينبغى ان تخلط خلطاً مستمراً لكى تؤلف هذا [الجزيء] . . وقد حاول أحد العلماء حساب الفترة الزمنية التى يجب أن تستغرقها عملية خلط العناصر المذكورة هى (١٠) ٢٤٣ سنة . . معنى ذلك أنه قبل وجود الكون وما بعد أيامنا هذه بمليون سنة أمامه ٢٣٩ صفر . . واشترط العلماء توفر مواد كونية تساوى حجم الكون مليون أمامه ٤٣١ صفر مرة . . فهل هذا معقول؟ . . كل تلك الأرقام المستحيلة يطلبها قانون الصدفة لتكوين [جزء] واحدة من جزيئات الخلية الحية . . ألا يكفى خلق الانسان من بلايين الخلايا [الحية] التى تحركها اشعاع الحياة «تلك النفخة الالهية العظمى فى المادة» ألا يكفى هذا لكى يؤمن الملحدون بالخالق الواحد الأحد الفرد الصمد؟

يقول العلماء أن الأبحاث الحديثة في الكيمياء الحيوية Biochemistry وعلم الخلية والفيروسات Viruses قد وضعت تصورات لا بأس بها لتقريب فكرة ظهور الاحياء على كوكبنا الأرضى إلى أذهان الناس . وبالطبع لا يمكن أن يدعى احد أن العلماء قد وصلوا إلى رأى حاسم حول سر ظهور الحياة على الأرض . . وأغلب الظن [حسب اعتقادى الشخصى] - انهم لن يصلوا إليه وإلى الأبد . .

لكن الأمر الذى لا مجال فيه لأى شك أن كل القرائن من علوم الاحياء ووظائف الأعضاء ومن علوم الجيولوجيا والحفريات (١) القديمة أن الأرض بعد أن تكونت ظلت لمدة ملايين من السنين تتركب من كتلة ملتهبة لا تسمح اطلاقا - خلال ذلك الوقت الموعلى فى القدم - بأن تترك أية حفريات (Fossils) (٢) فى طبقات الصخور القديمة، لسبب بسيط . . وهو أن تلك الكائنات لم تكن تحتوى على عمود فقرى، (٣) أو أى أعضاء صلبة يمكن أن تترك أثرا فى صفحات التاريخ الرسوبى للصخور. ويقول العلماء أنه كانت هناك طرق عديدة مختلفة فى انتاج الطاقة من تلك المواد، وعاشت الخلايا الاولى على انواع كثيرة مختلفة من الغذاء . . بعد عدة تحولات متعددة فالبكتريا التى فى التربة منها ما يتحول الى نيتريت، والبعض الآخر يؤكسد مركبات الحديد، وغيرها تحول كبريتيد الايدروجين (وهى غاز كريبه الرائحة له رائحة البيض الفاسد) الى كبريتات، ومنها ما يفسد اللبن أو الكربن (الملفوف) بتحويل سكر الحليب الى حمض اللاكتيك (وهذا التفاعل أساس صناعة «اليوغورت» أو اللبن الزبادى والكربن المخمر). وزيادة على ذلك فالبعض منها يفسد النبيذ بتحويل الكحول الى

(١) الحفرية «Fossil» هى كل مخلف نباتى أو حيوانى وجد مدفونا دفنا طبيعيا فى الصخور الرسوبية . . وقد تكون الحفرية اجزاء من نباتات أو عظام حيوانات مدفونة فى الرسوبيات القديمة، وقد تكون اجزاء من نباتات كجذوع وفروع متحجرة، وقد تكون طابعا أو صورة للفراغ الداخلى للجسم المدفون بعد أن تضى مادته مثل القواقع والمحار والاصداف وأوراق الشجر المطبوعة على الفحم النباتى، وقد يبقى الحيوان كما هو بلحمه وعظمه فى طبقات الجليد . . ولكن ذلك امر نادر الوقوع . .

(٢) أنظر فى ذلك : عثمان جمعة خميرية - التصور الاسلامى للكون والحياة والانسان - دار الأرقم - الكويت - ص ٥٩ .
(٣) أ. كريسى موريسون - العلم يدعو للايان - ترجمة محمود صالح الفلكى - مكتبة النهضة المصرية - ص .
وكذلك : د. فاروق كامل عزالدين - دراسات فى جغرافية الانسان - دار الثقافة للطباعة والنشر - القاهرة - ص ٨٣ .
وكذلك : موريس بوكاى - القرآن الكريم والتوراة والانجيل والعلوم - [الطبعة العربية] - دار المعارف - ص ٢١١ .

خل، ومنها ما يفسد الزبد بتحويل ما به من دهن الى حمض بوتيريك (١). وكانت أمثال هذه العمليات اكثر كثيراً مما هي عليه الآن عند بدء الحياة في المحيط. وقد توقف معظمها بعد أن استهلكت المواد الخام أو ادخلت في تركيب الخلايا الحية. وتحويل المحيط بدوره من «حساء» الى ماء قراح. (٢)

لقد كان المورد الأصلي للغذاء في طريقه الى الزوال، فمن أين للكائنات الحية أن تأتي بالمزيد؟ الظاهر أنها «تعلمت» أن تنتج المواد العضوية الجديدة من المواد التالفة التي تتخلف في المحيط عن العمليات الحيوية للخلايا وكيف لا وقد ضمن الخلاق العظيم رزقها...!! وأبسط أنواع النباتات الخضراء في أيامنا، وهي الطحالب «الزرقاء - الخضراء» تتكون من خلايا ليس لها نويات واضحة فهي، في تركيبها، تشبه البكتريا كثيراً، إلا أنها تحصل على الطاقة عن طريق العملية الكيماوية التي تقوم بها جميع النباتات والحيوانات الراقية، أي بأكسدة المواد السكرية. (٣)

غير أن محاولات العلماء للكشف عن أقدم أشكال الحياة فوق الارض لم تنته (٤). فقد فحص بعضهم صخوراً قدروا عمرها بحوالى ٢٠٠٠ مليون سنة ولم يعثروا فيها على أى أثر للمراحل المفقودة من سجل الحفريات على الأرض. ولكن بعضهم يقول أنه وجد أدلة على وجود أشكال بدائية للحياة بين صفحات رسوبيات يقدر عمرها

(١) روبرت ل. ليرمان - الطريق الطويل الى الانسان - ترجمة د. ثابت جرجس قصبجي - بيروت ص ٢٤٢.

(٢) المرجع نفسه ص ٢٤٢.

(٣) المرجع نفسه ص ٢٤٤.

(٤) اسحق ازيموف - السؤال الذى أجاب عنه داروين - ترجمة: اليونيسكو العدد ٢٥٢ سنة ١٩٨٢ ص ١٥. وفي مسألة الكشف عن أصل الحياة يقول ازيموف: «ومع أن العلماء قد بدأ يخامرهم الشعور بأن التطور البيولوجي حقيقة واقعة، فإن الأمر لم يكن مقنعاً تمام الاقتناع نظراً لأن احدا منهم لم يكن يعرف كيف حدث هذا التطور، إذ ما الذى يجعل من الممكن تحول نوع إلى آخر؟ ولم ير أحد قط نوعاً من الأنواع وهو يتحول. فالقطط كانت دائماً تضع هريراتها والكلاب جرائها والأبقار عجولها، ولم يحدث قط أن ولدت القط جرواً أو البقرة هريرة أو وقع أى خطأ من الأخطاء. وأول من حاول من العلماء أن يقوم بدراسة جادة لكيفية حدوث التطور هو العالم الفرنسى جان باتيست دى لامارك. وقد ظن أن التطور يحدث نتيجة لحياة الكائن الحى. فلو أن ظبياً كان يتغذى بأوراق الأشجار، فإنه سوف يقضى حياته كلها مشرباً بعنقه ليلبغ الأوراق في قمم الاشجار. وبذلك يطول عنقه قليلاً على مدى سنوات عمره، وترث صغاره العنق الأطول ثم عند بدورها اعناقها الى علو أكبر وهكذا الى أن تظهر الزرافة بعد وقت متناهي الطول. ويعرف ذلك «بالتطور عن طريق وراثة الصفات المكتسبة».

بحوالى ٥٠٠ مليون سنة وهى مرحلة يطلق علماء الجيولوجيا (الحقب الفجرى). (١)
فإذا رجعنا القهقرى الى الماضى البعيد، وجدنا ان كوكبنا هذا الذى نعيش على
سطحه كان كرة ملتهبة تدور فى الفضاء يغلفها خليط من الغازات والابخرة الساخنة،
أو هكذا تصورها علماء الجيولوجيا وعلماء الفلك وكان ذلك فى البداية السحيقة منذ
٥٠٠٠ مليون من السنين أو ما يزيد .

= غير أن هذه النظرية لم يحالفها التوفيق . [أولاً] لأن الصفات المكتسبة لا تورث . فانت تستطيع أن تبتز ذيل القار
ولكن صغاره ستولد جميعا بذيول لا يقل طولها قط عن الطول المعتاد . [وثانياً]: كيف تأتى للزرافة أن يكون لها جلدها
المزركش الذى يختلط على نحو بالغ النفع من الظلال المبرقشة التى تلقها الأشجار على الارض وبذلك تحفيها عن عيون
اعدائها؟ هل يمكن أن تكون الزرافة قد حاولت أن تزيد من نقش جلدها؟ كلا بالطبع .
وجاء تشارلز داروين العالم الانجليزى [فشرح] عام ١٨٥٩م كتابا بعنوان [أصل الأنواع] قدم فيه حلا حقيقيا
للمشكلة .

وهو يرى أن الكائنات الحية على وجه العموم تنتج صغارا تفوق اعدادها ما يمكن أن تفى بحاجته موارد الغذاء
المتوافرة . ولو أن ولد الظباء شبت كلها وكبرت جيلا بعد جيل لسرعان ما يبلغ عددها ما يكفى لتعرية جميع الأشجار
والنباتات ولحاقت المجاعة بها جميعا . ولكن ذلك لا يحدث، لأن قلة من ولد الظباء هى التى تعيش لتكبر، واغلبها
تأكلها حيوانات أخرى . فهناك منافسة، إن جاز القول، بين صغار الظباء فى سبيل البقاء على قيد الحياة وقتا يسمح
لها التكاثر .

ثم هناك ظاهرة أخرى جديرة بالنظر . فعند دراسة الحيوانات الصغيرة نجد أنها ليست متماثلة تماما وانه يوجد بينها
دائما بعض الفروق بعضها أقوى قليلا من البعض الآخر أو أسرع عدوا أو له لون ينسجم على نحو أفضل مع الوسط
المحيط فيمكنه من الاختفاء وما الى ذلك . وبعبارة أخرى فإن لبعضها، فى مجال المنافسة فى سبيل النمو الأمن مميزات
تعمل لصالحه . ومن ثم فهذا البعض هو الذى يرجح له أن يعيش ليكبر وينقل صفاته الى صغاره . وعلى ذلك فإن
هذه الصفات كما نرى ليست مكتسبة بل فطرية . وذلك هو ما يعرف بـ «الانحرافات الطبيعية» عند علماء الاحياء .

(١) د . عبدالعليم عبدالرحمن خضر - الانسان فى الكون بين القرآن والعلم عالم المعرفة - جدة - ص ١٧ .

فجر الحياة على الأرض

ما لبث سطح الأرض أن برد رويداً رويداً وتقلصت قشرتها فكونت التضاريس المعروفة وهطلت أمطار غزيرة كما انبثق من باطن الأرض كميات كبيرة من المياه، ملأت السهول والمنخفضات وكونت البحار والمحيطات الأولى . . إنها إرادة الخلاق العظيم في إعداد الأرض للحياة، وتهيئتها لتكون مستقراً للإنسان ومتاعاً الى حين . ثم مرت من بعد ذلك فترة طويلة جداً من عمر الأرض، كانت وحدة الزمن فيها تقدر بملايين السنين، وذلك من قبل أن تدب الحياة [بالأمر الإلهي كن] على سطح الأرض ممثلة في صورة كائنات أولية بسيطة التركيب عاشت ردهاً من الزمن لا يعلمه إلا الله، في مياه البحار الأولى .

وما لا ريب فيه أن الكثير من هذه الكائنات الهلامية الأولى التي عمرت البحار القديمة قد اندثرت كلية من سجل الحفريات، ولم تترك أثراً يستدل به عليها، وكان ذلك أبان الحقيين الأركي، والأول القديم، اللذين استغرقا نحواً من ١٥٠٠ مليون سنة من حساب الزمن في عمر الأرض^(١) . . وقد استطاع «وليم سميث W. Smith» أن يجمع بعض أنواع الحفريات وأن يرتبها بحيث يكون المحتوى منها على أنواع بسيطة من الأحياء منها ضمن الطبقات الرسوبية السفلى . . بينما الطبقات التي فوقها تحتوي على أنواع أبعد من البساطة وأقرب الى التعقيد، وهكذا حتى نصل الى الطبقات السطحية . ومعنى ذلك أن الطبقات التي وجدت فيها الأنواع المعقدة^(٢)، قد أصبحت على السطح في متناول البحث العلمي .

ولم يبدأ السجل الحفري المعروف للكائنات التي تعاقبت على وجه الأرض بعد ذلك الا منذ نحو ٥٠٠ مليون سنة فقط من عمر الأرض الطويل . . وهذا هو التاريخ الذي اتخذته العلماء أساساً لبدء حقب الحياة القديمة ذلك الحقب الذي استغرق بدوره نحواً من ٣٠٠ مليون من السنين تطورت الحياة خلاله من كائنات أولية بسيطة الى أخرى معقدة التركيب، وتميزت فيه المملكة الحيوانية عن المملكة النباتية^(٣) .

(١) د. انور عبد العليم - قصة الانسان القديم وحضاراته - الدار المصرية للتأليف والترجمة - سنة ١٩٦٥ ص ٦ : ٧ .

(٢) د. عبد العليم عبد الرحمن خضر - المرجع السابق ص ١٧ .

(٣) د. انور عبد العليم - المرجع السابق ص ٨ .

أما النباتات فقد اكتسبت القدرة على إنتاج السكر، واستعملت ثاني أكسيد الكربون، وهو المادة التالفة الرئيسية التي تخرجها عمليات الحياة، كإمادة خام. ولكن كيف توصلت الخلايا الى ذلك؟ والرد أن السر كامن فى اللون الأخضر للنباتات، فالمادة الخضراء فى خلايا النبات وتعرف بالكلوروفيل، تقوم فى حالة توفر ضوء الشمس، بتركيب السكر من الماء وثاني أكسيد الكربون. وقد ورثت الخلايا الخبيرة فى تخضير واستعمال الكلوروفيل من الطحالب الزرقاء - الخضراء الأولى^(١)، إنها فطرة الله التى فطر الخلق عليها، فتبارك الله أحسن الخالقين.

وبقيام الطحالب الزرقاء - الخضراء يصنع الطعام، استمرت بعض خلايا الأخرى هذا المرعى فاخذت فى الاستفادة من هذا المورد بالتهام وهضم الطحالب الزرقاء - الخضراء بما تحتويه. وكان ذلك فى مبدأ الامر مجرد غذاء اضافى. وهناك نوع يسمى «كريسامبيا» (Chrysameba) استمر يزاوول هذه الطريقة فى التغذية الى يومنا هذا، وهو كائن نباتى - حيوانى وحيد الخلية وله نواة كاملة التكون وسوطان طويلان (فلاجلا) يعوم بهما فى الماء. ويحتوى كريسامبيا على مادة الكلوروفيل مما يجعله قادرا على تكوين غذائه بنفسه، ولكنه قادر فى الوقت ذاته على ابتلاع وهضم الخلايا الأخرى الدقيقة. والكثير من أقربائه تعتبر حيوانات لاشك فى أمرها إذ أنها فقدت الكلوروفيل واصبحت تعتمد كل الاعتماد على ما تتناوله من غذاء. ولعل الحيوانات الأولى كانت من انواع السوطيات البسيطة عديمة الاخضرار التى على هذه الشاكلة، وقد نشأت عن سلف أخضر اللون^(٢). . ولكن هذا التفسير رغم أهميته العظمى فإنه لم يؤكد لنا مثلا عما اذا كانت اول الأشياء الحية التى ظهرت على الارض قد اخذت شكل خلايا ام صورة أشياء ايسط من الخلايا كأن تكون جزئيات حية (Living molecules) مثلا. . كما ان دراسة الحفريات لم تجب عن السؤال التقليدي: كيف بدأت الحياة. .

(١) روبرت ل. ليرمان - المرجع السابق - ص ٢٤٧.

(٢) المرجع نفسه - ص ٢٤٨.

■ فشل العلم في تفسير كيفية نشأة الحياة

● - لم يبق بعد هذا - والحالة هذه - إلا أن نصغى لصوت القرآن الكريم وهو يشرح لنا مقدار عظمة الله تعالى وإرادته في خلق الحياة على هذه الارض بالارادة الالهية المباشرة: «إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون» .

وقد شاء الله سبحانه وتعالى أن يبدأ الحياة البشرية بخلق آدم من تراب نشأة [ذاتية]، ثم شاءت إرادته أيضاً أن يجعل لاعادة النشأة الانسانية طريقاً معيناً، طريق التقاء ذكر وأنثى، واجتماع بويضة وخلية تذكير في الانسان، وكذلك في كل المخلوقات الأخرى . . ومنذ البدء، أخرج الله الحي من الميت . . «يخرج الحي من الميت، ويخرج الميت من الحي» ولا يقدر إلا الله سبحانه وتعالى أن يصنع ذلك . . (١) . . . لا يقدر إلا الله أن ينشئ الحياة منذ البدء من الموات . . . ولا يقدر إلا الله أن يجهز الكائن الحي بالقدرة على إحالة الذرات الميتة إلى خلايا حية . . .

.. ولا يقدر إلا الله على تحويل الخلايا الحية مرة أخرى إلى ذرات ميتة، في دورة لم يعلم أحد يقيناً بعد متى بدأت ولا كيف تتم؟ . .

■ - ونحن لن نستطيع استعراض النظريات التي حاولت الاجابة عن هذا السؤال الا اذا تذكرنا قوله سبحانه وتعالى . . «قل سيروا في الارض فانظروا كيف بدأ الخلق» . . (العنكبوت: ٢٠) فالسير في الارض وعلى ضفاف الانهار وشواطئ البحيرات القديمة، والقيام بدراسات ميدانية هي السبيل الى اكتشاف أصل الحياة (٢) .

● - والنظر في قوله تعالى: «وجعلنا من الماء كل شيء حي» . . (الانبياء: ٣٠) . . يعطينا بداية الخيط لتتبع آراء العلماء في هذا الشأن . . فالآية - كما يقول أصحاب الفضيلة المفسرون - يمكن ان تعنى ان صورة للحياة لا بد وان يكون مصدرها الماء كمادة جوهرية . . ولعل ذلك يتفق مع قول العلماء بأن اصل الحياة مائي وأن الماء هو العنصر الاول لكل خلية حيه، فلا حياة ممكنة بلا ماء . .

(١) عثمان جمة ضميرية - المرجع السابق - ص ٦٠ . (٢) د. عبد العليم عبد الرحمن خضر - المرجع السابق ص ١٨ .

الماء والحياة بين العلم والقرآن

يقول سبحانه وتعالى :

«أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقاً ففقتنهما وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون» (الأنبياء/ ٣٠)

ـ وحول تلك الآية الكريمة يقول «موريس بوكاي» . .

ليس هناك شك في مفهوم المصدر. فالعبارة يمكن أن تعنى أن كل شيء مصدره الماء كمادة جوهريّة، أو أن أصل كل شيء حي هو الماء، ويتفق هذان المعنيان تماماً مع البحث العلمي: فالثابت بالتحديد أن أصل الحياة مائي وأن الماء هو العنصر الأول المكون لكل خلية حية، فلا حياة ممكنة بلا ماء.

ـ وتسمح المعطيات الحديثه بالاعتقاد بأن أقدم الكائنات الحية كانت تنتمي إلى عالم النبات، فقد اكتشفت طحالب ترجع إلى ما قبل العصر الكمبري «Precambrien» أي في أقدم الأراضى المعروفة، ولا بد أن عناصر عالم الحيوان قد ظهرت بعد ذلك بقليل . . وقد أتت - كما يقول موريس بوكاي - من المحيطات.

وتشير كلمة ماء، إلى ماء السماء، كما تعنى ماء المحيطات، أو أى سائل آخر، وبالمعنى الأول، فالماء هو العنصر اللازم لأى حياة نباتية.

- قال تعالى: «وأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى» (طه/

٥٣).

وتلك هى أول عبارة عن [الزوجية] فى النباتات . . أما كلمة [ماء] بمعناها الثانى أى ذلك الذى يعنى «سائل» دون تحديد مستخدمة فى شكلها غير المحدد للدلالة على ما هو أصل تشكل أى حيوان . .

- وقال سبحانه وتعالى :-

«والله خلق كل دابة من ماء». [النور/ ٤٥].

■ - وقد اختلف العلماء فى طريقة وجود الماء فى الارض.

● - قالوا . . نشأت الارض أول مرة . . ومن حولها غلاف جوى من غازات وأبخرة . . ومع الزمن، بردت الارض فتكثف بخار الماء - أحد مكونات الغلاف الجوى الأول وتساقطت الأمطار الأولى فوق الأرض . .

● - وقالوا . . عند درجات الحرارة والضغط العالية . فان الماء المصهور الصخري والمعدنى يمكن ان يمتزج كلية وبأية نسبة . ولكن عندما يبرد المصهور ويتجمد . فان الماء يندفع الى الخارج ويتبخر، ويضاف الى غلاف الكرة الارضية الهوائى . وبينما القشرة الارضية تبرد وتعطى ما بها من بخار ماء الى الجو المحيط، فان كميات كثيفة من السحب تتكون، وتبدأ الأمطار الأولى تنهمر، فإذا السيول تجرى فى اخاديد الارض . ولكن ماء الامطار الاولى المتساقطة، لم يمكث طويلا، لان درجة حرارة القشرة الارضية كانت ما تزال اعلى من درجة غليان الماء . ولهذا استمرت عملية التبخير الى الهواء عشرات بل مئات السنين . . تتساقط الامطار على سطح ساخن فلا تلبث ان تتبخر، لتتكثف فتساقط من جديد، حتى اصبحت درجة حرارة الصخور السطحية، أقل بكثير من درجة غليان الماء . وعلى هذا الاساس بدأت المياه تتجمع فى برك، وتندفع فى بحار على هيئة شلالات وسيول الى التجاويف والمنخفضات العظمى فى الارض، مكونة البحار والمحيطات تحت تأثير عمليات التعرية المختلفة على سطح الكرة الارضية .

وجدير بالذكر، ان تلك البحار الاولى ليست هى بحار ومحيطات اليوم بذواتها . ذلك لان توزيع الماء على سطح الكرة فيما تتبع العلماء، قد تغير كثيرا، علة ذلك التغير، هى ما تسمى بالتحركات الارضية وزحزحة القارات والكتل السطحية للارض، حتى اضحى اليوم حوالى ۷۰٪ من سطح الكرة الارضية مغطى بالبحار والمحيطات بمتوسط عمق من اثنين الى ثلاثة اميال، ومساحة كلية تبلغ ۱٤٣,٣٩٠,٠٠٠ ميل مربع .

ولقد تبقى القاع العميقة للمحيطات فى الغالب الاعم بطبوغرافية تشبه ما كانت عليه فى النشأة الأولى .

وقد تطرأ عليها تغييرات تماثل ما طرأ على اليابسة من تشققات وخسوف لاخاديد وانبثاق لجبال .

وكل ذلك بالطبيعة فوق ما يسمى بالقشرة الارضية .

وهى تحت المحيطات لا تعدو عدة أميال .

وهى فوق القارات تقارب العشرين ميلا .

■ . كيف يقيس العلماء عمر الصخور؟

● . استخدام ظاهرة الاشعاع:

اكتشف العلماء سنة ١٨٩٦ ان عنصر اليورانيوم ومركباته المختلفة تقوم تلقائياً بإرسال أشعة غير مرئية شبيهة في مظهرها بأشعة اكس . واستخدام العلماء تلك الحقيقة في حساب عمر الصخور . إذ أن قياس عمرها بواسطة حساب معدلات الاشعاع أمكن التوصل اليه بمعرفة الزمن الذى يمضى منذ تبلور العنصر المشع إلى وقتنا الحاضر عن طريق حساب كمية العنصر الوليد ومعرفة معدل تحلل العنصر المشع الى وليده غير المشع . وبعضهم يستخدم طريقة تحول اليورانيوم الى رصاص فى المعادن الغنية بعنصر اليورانيوم فى ذلك . وقد وجد العلماء أن انسب الصخور لقياس العمر المطلق هى الصخور النارية والتحويلة والتي تحتوى على معادن متبلورة بأحجام معقولة .

ومن ذلك توصل العلماء إلى أن أقدم الصخور الظاهرة من القشرة الأرضية تبلغ من العمر ٣٦٠٠ مليون سنة ، وأنها صخور جرانيتية جينيسية .

● . حساب معدل زيادة ملوحة البحار والمحيطات:

وتتلخص تلك الطريقة فى معرفة العمر الظاهري للمحيطات والبحار ومن ثم عمر أقدم الصخور على الأرض ، وقد بنى « E. Hally » تلك الطريقة على أساس أن مياه البحار والمحيطات كانت فى الأصل مياه عذبة ، ملوحتها الحالية متجمعة أصلاً من صخور القشرة الأرضية بواسطة المجارى المائية التى تقطعها فتذيب كل ما يمكن اذابته من الأملاح المكونة للصخور ، ثم تحمله الى البحار والمحيطات فتركز نسبة الملوحة فى مياه البحار عاماً بعد عام . وقد تمكن العالم البريطاني « Joly » من التوصل الى عمر البحار والمحيطات عن طريق قسمة = مجموع كميات الأملاح فى البحار والمحيطات الحالية ÷ معدل الزيادة السنوية فى ملوحة البحار والمحيطات الحالية = ١٥ × ١٠ طن ÷ ٦ × ١٠ طن = العمر الظاهري للمحيطات والبحار = ٢٥٠ مليون سنة .

● استخدام معدل تجمع الصخور الرسوبية وسمكها في معرفة عمر الصخور:

توصل العلماء الى طريقة أخرى لقياس العمر الزمني للصخور عن طريق قياس أقصى سمك للطبقات الرسوبية الموجودة على سطح الأرض، ثم معرفة العمر النسبي لكل فترة جيولوجية عن طريق قياس متوسط معدل تجمع هذه الطبقات الرسوبية، وبقسمة الرقم الأول [سمك الصخور] ÷ الرقم الثاني [معدل التجمع السنوي لها] = الزمن اللازم لتجمع طبقات كل فترة جيولوجية من فترات التاريخ الجيولوجي للأرض. ثم بقسمة [مجموع سمك الطبقات الرسوبية على سطح الأرض ÷ معدل المتوسط السنوي لتجميع الصخور الرسوبية] = عمر الصخور الرسوبية.

● استخدام معدل تبرد الأرض في قياس عمر الصخور:

وفي هذه الطريقة يتم حساب عمر الصخور من معرفة الزمن الذي انقضى على تجمد القشرة الأرضية بواسطة رسم منحنيات حرارية مبنية على أساس أن هناك تياراً حرارياً مندفعاً خلال القشرة الأرضية يمكن قياسه بواسطة حساب معدل الارتفاع في درجة حرارة الاعماق كلما توغلنا في باطن الأرض.

● - ويستدل الجيولوجيون أيضاً على عمر الصخور بعدة طرق، من بينها الحفريات. وعن طريق الكائنات المائية، يمكن للإنسان معرفة ما اذا كان أى جزء من الأرض غمرته المياه في وقت من الاوقات، وكذلك تحديد الزمن الذي كانت المياه تغمر فيه. وهكذا. عرفنا ان البحر الابيض المتوسط قد غمر بمياهه جزءا كبيرا من أرض مصر حتى بلغ قريبا من أسوان فيما بين الواحات غربا والقصير شرقا. هل، أجبنا عن سؤال. . الماء، من أين؟. .

لا. . فذاك تتبع واستقراء لحوادث الأرض، ولكن النشأة الاولى، يعلمها من أنشأها. ولا يعلمها سواه. . فتلك ارادة الخلق عند الخالق. . اراد فكان، ولا اراد لإرادته سبحانه وتعالى له الحمد وله الملك وهو على كل شيء قدير.

قال تعالى: ﴿ما أشهدتهم خلق السموات والأرض﴾.

● - وكما تغير شكل البحار والمحيطات كما ذكرنا من قبل حدث كذلك تغير في التركيب كما يقول علماء البحار والمحيطات . .

. . فالاصل . . هو الماء العذب، تساقطت به الامطار الاولى . . وقد تساقطت الامطار وتكونت المجارى المائية، فقد أخذت تغسل الارض من املاحها ومعادنها المختلفة، فتذيب وتحمل معها ما تصبه اخيرا في البحار والمحيطات .

● - واذا نوقشت امكانية الحياة على كوكب ما . . فان اول سؤال يطرح هو: أيمتوى هذا الكوكب على كمية كافية للحياة من الماء؟ . . وجاء في تفسير [المراغى] . . «ان الماء أصل جميع الأحياء، وهو الذى ينزل اليه امر التدبير والتكوين»^(١) . . وقد اخرج الإمام [احمد] عن [ابى هريرة] قال: عن كل شىء، قال: (كل شىء خلق من ماء)^(٢) . . وتسمح المحيطات الحديثة بالاعتقاد بأن أقدم الكائنات الحية من طحالب أو حيوانات وحيدة الخلية ترجع إلى ما قبل الكمبرى وانها نشأت في المحيطات القديمة، بقدرته سبحانه وتعالى .

ويرجح العلماء أن تكون الحياة الأولى قد حدثت في الماء الذى احتوى على كمية هائلة من المادة فى السائل والذى بدونه ما استطاعت أن تشكل التكوين الكيميائى المعقد، والخالق وحده هو الذى يعرف سر ذلك .

■ - ويرى بعض العلماء أن نشأة الحياة الأولى فى الماء..

. . لا يمكن ان تكون قد جرت فى المحيطات المفتوحة، وبدلا من ذلك ربما تكون قد حدثت فى بيئات هادئة مثل البحيرات على طول الشواطىء للبحار القديمة جدا .
وكم من الوقت مضى للتطور الكيميائى لكى ينتج اول شىء بدائى حتى فذلك غير معروف، ومن المحتمل انه لن يعرف ابدا . وقبل ٦٠٠ مليون سنة او نحو ذلك، كشف سجل الصخور عن شواهد متفرقة من الحياة ولكن الاكتشافات الجديدة قد

(١) تفسير المراغى ج ١٢ ص ٦ .

(٢) الحديث اخرجه الامام احمد واسناده على شرط الصحيحين، واخرج ابن ابي حاتم بعضه .

- انظر فى ذلك مختصر تفسير ابن كثير - تحقيق الشيخ محمد على الصابونى، الجزء الثانى ص ٥٠٦ .

اثبت وجود خلايا حية حقيقة ترجع الى نحو ٣٠٠٠ مليون سنة (١).

ونحن نعلم الى تقسيم جميع الاشياء الحية الى حيوانات او نباتات . . وأول سخلايا حية لا بد انها كانت فى النباتات ففى حين ان النباتات تستطيع ان توجد بغير حيوانات لكن الحيوانات لا تستطيع ان تبقى بدون نباتات ، والنباتات وحدها قادرة على صناعة الجزئيات العضوية لتي تتكون بها المادة الحية . والحيوانات قد تحصل على بعض المواد مثل الاكسجين والاملاح البسيطة اللازمة لمعيشتها من الهواء والماء ولكن امداد الغذاء الاساسى للحيوان يأتى من عالم النبات ، سواء مباشرة عن طريق أكل النبات او أكل حيوانات اخرى تعيش بالتالى على النباتات . والنباتات بالاكثر عبارة عن مصانع تستطيع ان تأخذ موادا كيميائية بسيطة من ثانى اكسيد الكربون والماء والنيتروجين وتضمها فى مركبات عضوية (حيث يكون فيها الكربون من العناصر الرئيسية) لتكون بروتوبلازما حية . وما ان تتكون هذه المركبات عن طريق النباتات حتى يمكن ان تستخدمها الحيوانات التي ربما تحطمها وتعدها فى هيئات كيميائية جديدة . ولكن الحيوانات ذاتها لا تستطيع ان تصنعها .

ولضم المواد فى مركبات معقدة فان ذلك يحتاج الى طاقة ، وبالرغم انه فى البدء كان هناك احتمال بعض اختلاف فى الوسائل ، فان معظم النباتات وجدت مصدر طاقتها فى أشعة الشمس . وكان أول «اختراع» للنباتات عبارة عن مركب [الكلوروفيل] الذى يعطى اللون الاخضر لكل ورقة نبات حية وعود عشب على سطح الارض ، ومعظم أعشاب البحر والنباتات البدائية للبحر فالطاقة المشعة من الشمس بأسرها [الكلوروفيل] وتستخدمها النباتات فى نشاطاتها الصانعة (٢) ، فسبحان الله الذى أتقن كل شىء صنعته وهو الخلاق العظيم . .

ومن المعروف أن أجنة معظم الحيوانات الراقية تمر بدور يشبه الكرة الجوفاء فى الفترة الأولى من نموها الجنينى ، ولذلك فمن المعقول ان نستنتج قياسا على ذلك ان بعض المخلوقات المشابهة لهذا الدور فى التاريخ المترامى البعد أسلفا تمثل خطوة الانتقال من الطور ذى الخلية الواحدة الى الطور عديد الخلايا .

(١) الفرد شيرود رومر - اصل وتطور الحياة فى البحر ص ٣٩٥ ، وكذلك : د . محمد فتحى عوض الله - الماء - الهيئة

المصرية العامة للكتاب القاهرة ص ٦٥ .

(٢) انظر: خلق لا تطور - تعريب: د . احسان حقى - دار النفائس - ص ٣٥ .

وقد تحولت مستعمرة الخلايا الى الحيوان عديد الخلايا يتحول خلاياها الى عدة انواع . ومن الحيوانات عديدة الخلايا البسيطة للغاية نوع يبلغ طوله نحو بوصة يعيش في الماء العذب ويسمى [الهيدرا Hydra] و(جسمه مركب من أنبوبة بسيطة يوجد في طرفها العلوى عدد من الاذرع تحيط بفتحة تعمل فماً وإستا في الوقت ذاته . ويؤدى هذا [الفم - الإست] الى تجويف في وسط الجسم يبطنه نسيج داخلى يسمى «الاندودرم» وظيفته الرئيسية هضم الطعام . والطبقة الخارجية من الخلايا تكون نسيجاً مختلفاً تمام الاختلاف يسمى «الاکتودرم»^(١)، فبإذن الله الذى أحسن صنع كل شىء خلقه .

■ - وتقول [نظرية التطور]: بأن الحياة الأولى ظهرت على سطح الارض من الجماد بوسائلها الخاصة!!! . ولكن كل المواد الارضية مركبة من عناصر كيميائية، والعنصر مكون من ذرات ذات عدد ذرى موحد لا يمكن تفكيكه بالتحليل الكيماوى العادى فاذا كان الجماد قادرا على ان يتطور من تلقاء نفسه كما تخرف نظرية التطور فهل شوهدت هذه القدرة فى العناصر الأرضية؟ الجواب هو بالنفى ، وسبب ذلك [علمى بحث] . . وهو أن اكثر الذرات مستقرة وبعضها يتحول بالتفكك الى عناصر مستقرة أكثر بساطة أى أنه ينحط ويرجع الى الوراء لا يتطور ويتقدم، وهذا الامر يتم تبعا للمبدأ العلمى المعروف باسم (ضابطة التغيير)^(٢) وهذا يعنى ان كل كيان منظم يكمن فيه ميل الى التراجع إلى كيان أقل تنظيماً، ولا يمكن الحصول على نظام جديد من غير تدخل قوة خارجة .

● - تلك القوة الخارجة . . هى قوة [الله سبحانه وتعالى] . . الخالق . . البارئ . . المصور . . القادر . . العزيز . . الرحمن ذو القوة المتين .

● - وهذا الرأى الذى يستند الى اساس سليم - لأنه من القرآن الكريم - يهدم نظرية [النشؤ الذاتى او التلقائى Spontaneous Generation] والتي تقول بأن الحياة تنشأ تلقائياً من مواد غير حية ، ومن مؤيديها القدامى [أرسطو Aristotle] ، وشارك فى هدمها بعد ذلك كل من الطبيب الايطالى «ردى» Redi فى القرن السابع عشر

(١) المرجع نفسه - ص ٣٦ .

(٢) المرجع نفسه ص ٣٧ .

والقسيس الايطالى [سبالانزاني Spalanzani] فى القرن الثامن عشر حيث أثبتا خطأ نظرية النشؤ التلقائى من مواد غير حية(١) . . . ولكن بعد اكتشاف البكتريا Bacteria ظل بعض العلماء يؤمنون بإمكانية نشؤ الكائنات الدقيقة جدا تلقائيا من اى وسط عضوى «Organic Medium» حتى تمكن العالم البكتريولوجى الفرنسى الشهير «باستير» Pasteur من إثبات خطأ هذا الرأى كلية . . . وبالتجربة(٢) . . . ويمكننا محاولة تقديم عرض مختصر لقصة الحيوانات فى البحر. وفى ذلك يقول العلماء: لقد بدأت المملكة الحيوانية بهيئات ذات خلية وحيدة هى البرزويات (الحيوانات الوحيدة الخلية) والموجودة بوفرة اليوم. ولكن قبل ان نعثر على أقدم حفرية للحيوان بزمن طويل فى العصر [البلوزويك] هناك حدث التقدم نحو اعضاء حية ذات خلايا متعددة اكبر، وأول خطوة غير صحيحه فى هذا الاتجاه نتجت فى عقدة كتل من الخلايا معا فى الهيئات التى تسمى الاسفنج مع اعضاء غير صحيحه من تكوينها، وبدا هذا على أنه خط جانبى اعمى لم يؤد الى شىء اعلى. وفى نحو نفس الوقت فان تطور نوع منظم تنظيما جيدا من الحيوانات ذات الخلايا المتعددة بدأ يظهر على هيئة مخلوق له طبقتان صغيرتان. ويحتمل ان هذا الحيوان (اذا كان ذلك مؤكداً) عاش ملتصقا بالاسطح مع اختلاف أنسجته بحيث اختصت الطبقة الخارجية لحمايته، فيما يسمى «بالعلاقات الخارجية». فى حين ان الطبقة الداخلية عملت على هضم المواد الغذائية التى جاءت بها فتحات الفم عند نهاية واحدة(٣). ولا يوجد مثل هذا الحيوان اليوم، وبالرغم من ان بعض الحيوانات البحرية الدنيئة سميت حيوانات بحرية لافقارية إلا انها ذات تجويف بطنى يقوم مقام القناة الهضمية (الهيدريات والمرجان وغير ذلك) وهى متشابهة فى كثير من الخواص. وحيوان من هذا النوع ذو اعضاء ذات خلايا متكاثرة واختلاف فى الانسجة يعرف باسم المنزويات، وجميع الحيوانات غير ذات الخلية الواحدة بروتوزويات والاسفنج الشاذ يضعه علماء الحيوان كأعضاء فى المملكة العظيمة: الميتازويات - الحيوانات ذات الخلايا الكثيرة - وهذه الحيوانات البدائية قد تطورت

(١) د. عبد العليم عبد الرحمن خضر - المرجع السابق ص ٣٨.

(٢) د. علم الدين كمال - تطور الكائنات الحية - عالم الفكر - المجلد الثالث - العدد الرابع ص ٩٥٣.

(٣) المرجع نفسه ص ٩٥٤ - وكذلك

وانخرطت في مجموعة او نحو ذلك من تقسيمات الى اجزاء اصغر تسمى «سلائية» والتي حصل معظمها على تكوينات مميزة عندما ظهرت لأول مرة في سجل الحفريات للحياة البحرية(١).

ان مظاهر قليلة هامة تميز تاريخ واسلوب حياة هذه الهيئات البحرية المتنوعة. فحيوان البحر كان له طريقتان ليعيش بهما - وربما كان يبحث عن غذائه بنشاط او ربما كان يظل ساكنا ينتظر وصول المواد الغذائية اليه ، وربما اضطر اما ان يذهب ليجث عن طعامه او ظل «جالسا» وكان هناك بالتأكيد مناهج متوسطة للعمل ، ولكن للجزء الاكبر تصنف الحيوانات في صنف واحد أو آخر.

ومن المحتمل ان بقاء الحيوان بدون حركة منتظرا ذرات الطعام لتأتى اليه في تيارات الماء التي تتدفق امامه كان اسلوب الحياة لاقدام عصور الحيوانات العضوية البدائية .

وهكذا فان الواقع لا يكشف عن اى تطور تدريجي للعناصر الارضية ، نحو مواد أكثر تعقيدا او نحو مركبات عضوية . هذا بالاضافة الى أنه لو كان التطور امرا واقعا لكان من الواجب على العناصر غير الحية ان تتطور وتتحول لا الى عناصر اخرى فقط او الى اجسام عضوية مركبة بل الى اشياء اكثر تعقيدا كالخلية الحية(٢) . وهذا ما لم يحدث بالطبع .

■ - ما هي الخلية الحية؟

ان الهوة التي تفصل بين الخلية الحية وبين العناصر غير الحية هوة عميقة ، حتى ان احسن المختبرات تجهيزا غير قادرة على إعداد خلية بسيطة من الجهاد ، وحينما تكون قادرة على ذلك فان التجارب لا تفيد الا بان تثبت بانه لايد للعناصر من ان تخضع لفعل قوة مدبرة لكى تنتج مادة حية .

ومن الخطأ الظن بان الخلية شىء بسيط وانه بالمستطاع ان تنشق عن المادة غير الحية بسهولة ومن غير يد القدرة . إذ أن كل شىء يرجع الى قدرة الله سبحانه وتعالى .

(١) المرجع نفسه ص ٩٥٥ .

(٢) د . احسان حقى - المرجع السابق ص ٣٩ .

وقد كتبت مجلة «لوك» في عددها الصادر في ١٦ (كانون الثاني) يناير ١٩٦٢ تقول: «ان الخلية لا تقل تعقيداً عن مدينة نيويورك». هذا، واننا بقدر ما نفحص الخلية الحية بدقة بقدر ما نجدتها معقدة. وقد كتب العالم التطوري «لورن ايزله» في كتابه: (السفرة الواسعة) بهذا الصدد يقول: «قال العالم بالاحياء الالماني - فون برتالانفي - ان الامام بتفصيل النظام الفيزيائي الكيماوى لابسطة خلية يفوق طاقتنا» «وقال العالم بعلم الحيوان الاستاذ في جامعة كمبردج» سرجيس غرى»^(١) القول ذاته في مجلة (العلم اليوم)^(٢) اذا يقول: «ان الجرثومة هي اشد تعقيدا من اى نظام جمادى يعرفه الانسان، ولا يوجد مختبر في العالم يمكن ان يوازي في نشاطه الحيوى الكيماوى اصغر جهاز حى».

■ - ولا شك ان جميع الكائنات الحية تتكون من مادة كانت موجودة قبلا كالتراب والماء. . ولكنها لا تتمثل (حية) الا اذا نفخ فيها الله سبحانه وتعالى من روحه - وهذا ما سنشرحه بمشيئة الله في (المبحث التالى) من هذا الكتاب عند الحديث عن التطور البيولوجي للكائنات الحية في القرآن - فأجسام الناس والنباتات والحيوانات في حد ذاتها ليس لها حول ولا قوة. . اذ انها جميعا تتحلل الى العناصر التى بدأت بها: التراب، الماء، الهواء. . اذ الفرق بين انسان ميت وانسان حى ان ذلك الانسان بموته لم يفقد في الواقع شيئا من مكونات جسمه، ولكنه فقد شيئا كان به قبل ذلك. . انه الروح الخفية او جوهر الحياة، التى لا يعرف سرها إلا خالقها سبحانه وتعالى.

وقد ظهرت نظريات كثيرة عن (جوهر الحياة). . منها ما قال به تاليس «Thalis» الاغريق القديم من أن الكائنات الحية تتولد من تأثير اشعة الشمس والهواء والحرارة على زبد البحر، وبالطبع لم يعط اى تفسير على الاطلاق لكيفية حدوث الحياة من هذه العناصر. . وماتت النظرية^(٣).

(١) المرجع نفسه ص ٤٠.

(٢) روبرت ل. ليرمان - المرجع السابق ص ٢٤٣.

(٣) د. عبد العليم عبد الرحمن خضر - المرجع السابق ص ٤١.

■ . العلم يهدم نظرية الخلق الذاتى

سادت نظرية الخلق الذاتى فى أوربا ردهاً من الزمن حتى جاء العالم الايطالى [فرنسيسكو ريدي] سنة ١٨٦٨ ، وهدم ما كان سائداً من أن المواد غير الحية يمكنها ان تنتج انواعاً من المخلوقات الحية!!!! . . .

وفى سنة ١٦٧٥ اكتشف [فان ليفنهوك] عن طريق اختراع عدسات قوية وجود مخلوقات حية صغيرة جداً مستقلة بذاتها ولا تنتج انواعاً أخرى .

وفى سنة ١٧٦٧ قام العالم الايطالى [لزارو سبلترانى] بأول هجوم حقيقى على نظرية الخلق الذاتى . وفى سنة ١٨٣٦ خطا العالم الألمانى [تيودور شوان] خطوة موفقة إذ أثبت انهدام تخريف الملحدىن الذين زعموا بتولد الحياة فى السوائل ذاتياً ، بأن قضى على ما فى [السائل] من أى أثر للحياة بالتسخين حتى الغليان . . ووجد أن أى نوع من الكائنات لم يتولد مرة أخرى من تلقاء نفسه فى هذا السائل .

وفى سنة ١٨٦٠م نجح العالم الفرنسى [باستير] فى اقتلاع آخر جذور الادعاء بالخلق الذاتى من عقول الناس بتجاربه المشهورة التى اثبتت على وجه اليقين أن الحياة من عند [الله] ، ولم يكن سببها الهواء ولا الروح المزعومة فيه ، وانما نتجت من [سر الحياة] الذى وضعه الله فى الكائنات .

وقال أوجستين « Augustine » أن المادة نفسها التى تدخل فى عملية التولد الذاتى تحتوى على بذور غير مرئية للحياة . . من أين؟ . . لم يستطع الاجابة . .

كما قال ديكارت Descartes ونيوتن بالتولد الذاتى للحياة دون تدخل اى نوع من جوهر الحياة يأتى من وراء الطبيعة . . كيف؟ . . هكذا بدون تحليل . .

✓ * يقول العالم التطورى « لورن ايزله » فى كتابه «الظفرة الواسعة» : «ولقد ادت الجهود الكثيرة التى بذلت الى التأكيد على ان المتحول (اميب) هو ايضا مصنع كىاوى معقد يعمل بوسائله الخاصة ، وان ما كان يقال من أنه قطرة بسيطة من البروتربلازما (الأجسام الحية) اصبح أمراً معروفاً ، وانه متى عرف تركيبه اصبح بالامكان خلق كائنات حية مثله ، قد ثبت الآن انه قول هراء ليس له ادنى نصيب من الصحة ، [إذ

(١) د . حسين فرج زين الدين ، وآخرون - المرجع السابق - ص ٣٧٦ .

لا يملك الخلق إلا الخلاق العظيم سبحانه وتعالى . [

وكان فشل الجهود الكثيرة التي بذلت في هذا المجال من العلماء، جعلتهم في وضع مضطرب وجعلتهم يلحون في تقديم النظريات بشأن [أصل الحياة] من غير ان يقدروا على اثبات نظرياتهم . . . وبعد ان اتهم العلماء رجال الدين بانهم يعتمدون في اقوالهم على الاساطير والخوارق عادوا مضطربين واخترعوا لانفسهم اساطير جديدة هي ان «ما لا يستطيع العلم ان يوجده اليوم قد استطاع ايجاده عند خلق العالم» .

● - ان هذه الاقوال المناهضة للواقع تثبت ان العناصر الارضية غير الحية لا تنقلب الى كائنات حية فجأة وقد اعترف بذلك «لورن ايزله» بهذه العبارات :

«من الجدير بالملاحظة ان اول كتاب في علم طبقات الارض بعد ان اغرق المتدئين البسطاء في بعض المستنقعات الصغيرة او في حفر خيالية من المحيط، حملهم بقفزة واحدة، باطمئنان وسرعة، الى اول مراحل الحياة بحيث جعلهم يرون السر الغامض، اذا كان هناك من سر، وكأنه شيء بسيط، وقد انتقد هذا الوضع العالم بالاحياء الانكليزي «ودغر» الذي نبه منذ بضع سنوات الى هذا الواقع بقوله : «ان المركبات العضوية غير مستقرة في الطبيعة وان جسيم الكلوروفيل لا يستمر في البقاء ولا يأتي الى الحياة من عند نفسه، فالاصرار على ان الظروف في الماضي كانت تسمح بحدوث هذه الظاهرة، على الرغم من ان معلوماتنا بالطبيعة لا تؤيد هذا الافتراض، انما هو عقيدة اعتقدوها، ولا يريدون ان يتحولوا عنها، لكي يؤكدوا على ان ما اعتقدوه قد وقع حقا»^(١) .

وكتب العالم التطوري «رويتز فورد بلات» في كتابه (نهر الحياة) بشأن الخلية الحية يقول : «ان وحيدة الخلية الاولى هي من الكمال في حالة لم تحتج معها الى التطور قط، ولم يطرأ على حجمها وطبيعتها اى تغيير منذ ان ظهرت في عالم الحياة على الارض والى يومنا هذا» .

فذا كانت الخلية حصيللة التطور فلماذا لم تستمر في تطورها؟ او هل كانت هذه الآلة المعقدة كاملة، بطريق المصادفة، منذ يومها الاول؟ وهل نعرف آلة من صنع الانسان لم يحتج بلوغها درجة الكمال سنوات من البحث والدراسة؟ انه لم يحدث حتى الآن ان

(١) د. احسان حقي - المرجع السابق ص ١٨ .

اخترع ، حتى أعظم الناس عبقرية ، آلة كاملة لا يمكن ادخال تحسين عليها . في حين أن الخلية آلة كاملة . فهل من العلم في شيء ادعاء [التطوريين] الذين يزورون الواقع ، ويقولون بان المواد غير الحية والمحرومة من الذكاء قد استطاعت ان تصنع مالم تستطع اكثر العبقريات الانسانية رفعة أن تصنعه؟ ..

● - نعم .. اذا كانت الخلية حصيلة التطور ، فلماذا لم تستمر في تطورها؟ .. ثم .. كيف حدث تطور الخلية؟

● - هل يستطيع العلم الاجابة؟ .. بالطبع لا .. !!

■ - الجميع يتوقفون عند كيف؟ .. ولم يعط اى منهم فكرة عن شكل الحياة الاولى ولا الظروف التى ادت الى ظهورها . كل ما عرفه البشر أن ثمة كائنات احادية الخلية ظهرت (بطريقة ما) وانها استطاعت ان تتميز عن العالم غير العضوى بانها تنمو وتتكاثر.

ومن هذه البدأة الغامضة في جوف الزمن انبعثت تلافيف الاحياء الاخرى .. «فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون ، وله الحمد في السموات والارض وعشيا وحين تظهرون يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ، ويحيى الارض بعد موتها وكذلك تخرجون ، ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم اذا انتم بشر تنتشرون» .. (سورة الروم : ١٧ - ٢٠) .

■ - ومن النظريات التى حاولت تفسير كيفية الحياة . . [النظرية الكونية] .

«Cosmosic theory» وهى تعتبر أن (البذور او الجراثيم الاولى للحياة Apores) وصلت الى الارض «بطريقة ما» من مكان اخر في الكون . . واهم ما يوجه اليها من نقد ، انها لا تضع التفسير العلمى المقبول لكيفية نشوء الحياة . . وكل ما فعلته انها نقلت مكان النشأة من الارض الى مكان بعيد (وغير محدود) من الكون . . كما يُعْتَرَضُ - عليها باستحالة مرور (بذور الحياة) من كوكب الى اخر لعدة اسباب منها : الجفاف الشديد والبرد القارس والاشعاع القوى الذى يتميز به الفضاء فيما بين الكواكب المختلفة (١) . .

(١) د . علم الدين كمال - المرجع السابق ص ١٥ - كذلك : جيمس س هانران و . دايفد بوشنيل . . بيولوجيا الفضاء - ترجمة زكريا فهمى - دار النهضة العربية ص ١١٨ : ١٦٣ . . والنظرية الكونية (الكوزموزا) تعتبر الفضاء مليء بجراثيم الحياة الطافية في جميع ارجائه ، وهى التى تخصب الارض بالحياة وغيرها من الكواكب المسكونة . . وهذه الفرضية تضع =

وبعد ان اكتشف ليونيهوك « Leeuwenhoek » المجهر القوى ظهرت معظم أنواع الكائنات الدقيقة التى نعرفها الان ، ولم يكن تعليقه الا وصفا لما هى عليه فقط . . بل ان الوصف فى حد ذاته لم يكن كاملا شاملا لمظاهر الحياة فى هذه الكائنات (١) . .

● . مقدمات الحياة

حاول ميللر « Miller » منذ سنوات قليلة البحث عن أسباب (أدنى) صور الحياة ، أو مقدماتها ، فوجد ان احداث تفريغ كهربى خلال جو خال من الاكسجين ، وبه ايدروجين وامونيا ، وميثان ، وبخار ماء ، يحدث مجموعة مدهشة من المركبات العضوية ، ووجد ان هذه المجموعة تشتمل على كثير من الاحماض الامينية التى لا تقل عن « البروتينات » فى التعقيد غير درجة واحدة ، وظلت هذه (الدرجة) مجهولة حتى توصل الانسان الى طرق الكروماتوجرافيا الدقيقة . . ولكن . . كل ما استطاع الانسان التوصل اليه هو معرفة التركيب الكيماوى للبروتين . . ولكن أين هذا من قدرة صاحب الروح وواهبها فى الصخر اذ يقول له : «كن فيكون»!!!

● - وهكذا سقطت جميع الفرضيات التى نادى بها العلماء . . سقطت بلا أى اجابة عن السؤال الدائم . . من أين؟ . . لكننا نحن . . بعد استعراض بعض التصورات البشرية عن نشأة الحياة . . نعود للقرآن الكريم الذى اتخذنا منه المنهج الايمانى للدراسات الكونية فى كل كتاباتنا . . نعود لقوله تعالى :

«وجعلنا من الماء كل شىء حى» (الانبياء : ٣٠) . وحول ذلك المعنى العظيم يرى «أناكسياندر» الفيلسوف اليونانى [٦١١ - ٥٤٦ ق . م] . . أن الأرض ظهرت الى الوجود بفعل نوع من تكثيف الماء . . وكذلك من عنصر الطين الاول أو البدائى ثم أخذت فى الصلابة ، وأنها طفت - كما هى - على الماء فى شكل جسم كروى .

الحياة على قدم المساواة مع المادة ، واعتبرت كليهما وحدات ازلية خالدة منذ خلقنا فى الماضى اللانهائى . . وقال اصحابها بان (جرثومة) الحياة تاتى الى الارض ممتطية صهوة أحجار الشهب . وقد رأينا كيف سقطت هذه (الفرضية) التى لا اساس لها . .

* من بين الذين هدموا هذه النظرية كيماوى سويدى يدعى «ارهينوس» ولكنه لم يات بجديد .

(١) د . عبد العليم عبد الرحمن خضر - المرجع السابق - ص ٢٥ .

كما يرى ان الكائنات الحية قد تولدت من أصول أولية في الطين الذى كان يغطى
- يوما ما - سطح الأرض، وأن أول ما نشأ: النبات والحيوان، ثم الانسان .
وقد أیده تلميذه «زينوفانس» الذى ولد بمدينة «كولوفون» بآسيا الصغرى [ت/
٤٩٠ ق. م]، وقال بأن العالم نشأ من تكثيف الماء ومن عنصر الطين الأول، وقال
بأزلية الله الذى لا يدرك كنهه، وعارض الاعتقاد بتعدد الآلهة .

✓ - والماء هو الجسم الوحيد الذى يوجد بحالته الطبيعية فى المراحل الثلاث ؛
الصلابة والسيولة والبخار. والحرارة الكامنة فى انتقال الماء من مرحلة الى اخرى .
حرارة كبيرة، ولذا فهى بحكم الانتقال المستمر من مرحلة الى مرحلة، تستطيع ان
تلعب دورا هاما فى تنظيم درجة الحرارة. ويرجع الفضل الى هذه الظاهرة فى احتفاظ
جسم الانسان بدرجة حرارة تكاد تكون ثابتة، وفى ان الفروق فى درجة حرارة الجو،
لا تبلغ حدا كبيرا قد يؤدى بالحياة. والواقع ان الماء يستطيع ان يخفض درجة حرارة
[وسط] حار، بالتكاثف والتبلور. وبالعكس، فهو يستطيع ان يرفع درجة حرارة
[وسط] بارد بالانصهار او التبخر. وبالرغم من التغيرات التى تتعرض لها تلك
الثوابت الطبيعية، فان الماء يشترك فى تعريف بعض الوحدات القياسية: فالسعر
الحرارى يقاس بالنسبة للحرارة النوعية للماء وكذلك اتخذت الدرجة المئوية وحدة
لقياس بالنسبة لحدين معينين، هما الصفر والمائة، والنقطة الثلاثية للماء، وهى نقطة
تقاطع منحنيات التبخر والتصعيد والانصهار للثلج العادى. . وهكذا.

ان تحليل الماء الذى لا يمكن اجراؤه الا بالتسخين لدرجة حرارة عالية او بالكهرباء
أو بتأثير بعض الاشعاعات يتطلب قدرا كبيرا من الطاقة كما ان للماء خاصية تسمح
له بتعديل الاتصالات الأيونية، مما يجعل له قوة اذابه بالغة. ولذلك فهو فى حالته
الطبيعية يمكن ان يحتوى على اثار لمعظم العناصر المعروفة سواء فى حالة ذائبة أو
عالقة.

✓ ولقد اوضح (كافندش Cavendish) فى القرن الثالث عشر، ان الماء يتكون من
الايدروجين والاكسجين، وبذلك بطل الاعتقاد القديم (الفيثاغورسى) بان الماء
ليس الا عنصر بسيط له رمز كيميائى عبارة عن (يد ١٢ - اى ذرتين من الايدروجين
وذرة واحدة من الاوكسجين). الا ان مزيداً من التقدم العلمى ادى الى اعتبار ان الماء
يعد فى الحقيقة مزيجاً من ١٨ جسماً مركباً، تبدأ بثلاث ذرات من الايدروجين ومثلها

من الاوكسجين . . ويعد ذلك نظيراً للماء^(١) .

وكان المحلول المائى للبحار البدائية يحتوى على خليط معقد للغاية من الاملاح المعدنية والطين اللازب والاحماض ومزيج ضخم من الكربون والغروانيات الطينية . . في هذا الوسط المائى المخلوط نزلت اشعاع الحياة بالأمر الالهى . . «كن» . . فاذا بالمزيج يتحرك ويتخلق على الصور التى ارادها الله ان تظهر على الارض .

اى أن حالة البحار البدائية من حيث درجة الحرارة والاشعاع والتركيب الكيميائى كانت قد بلغت درجة الاستعداد لاستقبال الامر الالهى الاعظم بانطلاق الحياة فوق الكوكب الارض . .

ويبدو ان ثمة مركبات من الكربون (Carbon) متعددة الانواع كانت اول ما استقبل اشعاع الحياة من الخالق الاعظم فدبت فيها حركة شاملة من اتحاد عناصرها ببعضها البعض ونجم عن ذلك تواصل سلسلة التطور التى رسمها الخالق الاعظم فى قانونه الالهى العام للكون . . فتكونت تبعا لذلك أجهزه فيزيائية كيميائية . Physico- Chemical تتمتع بفطرة [طبيعة] ثابتة نسبيا وتتميز بالصفات الاساسية للحياة^(٢) . .

وإذا جاز لنا ان نطلق على تلك الاجهزة الفيزيائية والكيميائية اسم كائن حى فانه يجدر ان يكون مفهوما للقارىء (انه) ليس عبارة عن اجتماع الذرات من الكربون والطين والماء والاملاح هكذا بالصدفة^(٣)، ولكنه (مجتمع) على مستوى رفيع من التنظيم يشتمل على تسلسل من الذرات والجزيئات والمجموعات الغروية التى هيئت لوظائف معينة، وواضح انها لحكمة معينة . . من [خالق] مقتدر بصير، فطر الحياة وأبدع خلقها وتنسيقها . . وكل شىء عن الحياة يؤكد خضوعه لقانون منظم ثابت - هو القانون الالهى العام للكون - مطلق الصدق، والشمولية لأحداث الماضى والحاضر والمستقبل . .

(١) د . محمد فتحى عوض الله - المرجع السابق ص ٦٦ .

(٢) يعتقد بعض العلماء ان هذه الكائنات البدائية او الاولية Proto- Organisms كانت تشبه فى اول مراحلها (الجين) Gene اى يمكن اعتبارها كرموزوما يعيش عيشة مستقلة «والجين» هو الذى يحمل الصفات الوراثية ويوجد على من الكروموزومات داخل النواة «Nucleus» فى خلايا جميع الكائنات الحية على الارض .

(٣) د . عبد العليم عبد الرحمن خضر - المرجع السابق - ص ٢٦ .

فالنظام الشمسى (مثلا) له قانون منظم يتفرع من القانون الالهى العام الاعظم للكون - هو ما نسميه (بالتجاذب) وليس من المصادفة ان يتحد الايدروجين بالاكسجين دائما بنسبة (٢ : ١) وهذا الميل للاتحاد بهذه النسبة هو نتيجة (لقانون كياوى) نسميه - نحن البشر - التكافؤ، وهو ملازم للتركيب الاليكترونى للذرات، وهو الذى يعتمد بدوره على (تركيب النواة) . . وهكذا . . وبمعنى اخر . . فان اتحاد ذرتين من الايدروجين بذرة من الاكسجين ليس قانونا (مفروضا) على الخواص الطبيعية لهذه الذرات، ولكن نسبة الاتحاد (ملازمة) لتنظيم الذرات نفسها، وهو الذى وُضِعَ بقانون الهى دائم ثابت مسيطر على الذرات وحركتها وطاقاتها لانه الله هو (خالقها) . . وهو وحده الذى وضع معادلات تسييرها وتنظيمها وتثبيتها لاستقبال الحركة والحياة(١) . .

■ - اننا لا نستطيع ان (نتصور) كيف كان شكل الكرة الارضية (بالتحديد) عند فجر الحياة . . وكيف نستطيع ذلك وقد قال الله سبحانه وتعالى :

● - ﴿ مَا أَشْهَدْتَهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ ﴾ [الكهف / ٥١]

قراءة في السجل الحيوى لصخور القشرة الأرضية

كل ما يمكن تصوره . . (مجرد تصور) بناء على المعطيات الحالية ومحاولة الرجوع بها الى الوراء . . ان كل شىء مادى تقع عليه عيوننا يمثل خلاصة مركزة لتاريخه الماضى القديم . فاذا قمنا بدراسة حصة من الكوارتز حصلنا عليها من شاطىء مجرى ماء مثلا وجعلنا صفاتها تقص علينا قصة ماضيها لعلمنا منها الشىء الكثير . ففى شكلها الناعم المستدير وسطحها المصقول الدليل الساطع على مرور فترة زمنية طويلة كان تيار الماء خلالها يدحرجها فى قاع النهر فتفصل عنها الاجزاء البارزة ويتولى الاحتكاك صقل سطحها . والآن فلنكسر الحصة ونلقى نظرة فاحصة على شكلها الحبيبي المكتنز وتركيبها الكياوى، فالعين الخبيرة تستنبط تاريخ الحصة من مثل هذه الاشياء(٢) .

(١) المرجع نفسه ص ٢٧ .

(٢) روبرت ل . ليرمان - المرجع السابق ص ٥٨ .

لقد كانت في بادئ الامر جزءا من كتلة من الصخر الضخم المحتوى على معدن الكوارتز. وتفتت الصخر الى أجزاء صخرية صغيرة بفعل عوامل التعرية المختلفة مثل الجليد والحرارة والتغيرات الكيميائية وجذور النباتات. ثم حملت تيارات مياه الانهار الصخور الصغيرة ودفعتها الى البحار حيث قامت الامواج بدورها الى حبيبات من الرمل، وطحنت المواد المعدنية الاكثر ليونة الى حبيبات دقيقة ناعمة حملتها التيارات المائية السفلية الى قاع المحيط تاركة الرمال البيضاء اللامعة المكونة من الكوارتز الصلب النقي. وتلا ذلك تماسك حبيبات الرمل اثر عمليات كيميائية فتكونت صخور رملية. وتعرضت الصخور بدورها الى الضغط المتناهي في الشدة الناتج عن تقلصات القشرة الارضية فتحوّلت الى كوارتزيت كثيف. ومنذ ذلك الحين ومياه النهر الحالى دائبة على حمل قطع من هذا الكوارتزيت والقيام بتنعيمها وصلقلها وهذا التاريخ من ألفه إلى يائه مسجل في الحصى الصغيرة التي نحملها في يدنا، اذ لا يمكن تفسير صفات هذه الحصى الا بتعاقب الحوادث بالترتيب الذي اوردناه دون غيره(١).

يقول العالم الانجليزى (هويل Fred Hoyle): ان اول الزمان لا حد له، وهو في الماضى اللامتناهى الذى لا اول له. . وهكذا حاول العلماء ان يغوصوا بعلمهم في غياهب الماضى فما اهدوا. وهم اقل هديا. بل اضل بالنسبة للمستقبل. ويقول عالمنا الكبير الدكتور [احمد زكى] رحمه الله:-

ان الانسان يحيا حياة دنياه هذه بجسمه، ويستمد الجسم الهدى في الحياة من عقله. ولقد فهم الانسان، بعقله الكثير من اشياء الحياة، ولا اقول كلها. والذى فهمه انما يتصل. بممارسة العيش اشد اتصال أما ما وراء العيش، فتتعثر عقول الناس فيه. وبالعيش، اقصد حاجات الطعام، والفكر ايضا والعواطف. وكأنى بخالق الخلق عندما اراد خلق الانسان، شاء ان يجعل العقول التى يصنعها بشتى الخلائق، درجات. واعطى الانسان تلك الدرجة من العقول التى تتفق وحاجة هذه الاجسام، وحاجة العيش على سطح هذه الارض.

(١) المرجع نفسه ص ٥٩.

ويقحم الانسان هذا العقل في تفهم مالم يخلق لفهمه، فيكون كناطح صخرة، تنكسر عليها قرونه(١).

... هذا الانسان ..

ميزه الله سبحانه وتعالى بطبيعة خاصة، وخلق خاص، وكرمه بفطرة معينة، ترتفع به فوق طبائع الموجودات الأخرى، بما فيه من عقل يفكر به، واردة يختار بها ما يشاء أن يفعله أو يتركه، ولذا أسند إليه عمارة الكون، واستخلفه في اثراء الحياة بالحركة والنشاط، وجعله موضع تكريمه الذى أكده في قوله تعالى :-

«ولقد كرمنا بنى آدم، وحملناهم فى البر والبحر، ورزقناهم من الطيبات، وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً» . . .
.. هذا الانسان ..

وقد كرمه الله تعالى، مطلوب منه أن يتعرف طبيعته البشرية المتفوقة، وأن يعلن عن هذا التفوق في تصرفاته كإنسان، والفروض التى فرضها الانسان، وتهدف جميعها إلى معاونة الانسان فى ايقاظ معنى الانسانية فيه، وفى حمله على أن يكون انسانيا فى سلوكه، وفى تحريك وجدانه ليتجه إلى فعل الخير، وتلبية ضميره ليكون حيا يعصم صاحبه من الزلل، ويقيه شر الانحراف(٢).

ان الانسان خلق اعمى، رغم ما له من عينين، وعليها فقط ان يبصر ما أذنَ لهما أن يبصره. والانسان قد يكون أشد جهلا بالذى خرج منه النور، أو وقع عليه النور. فيحسبه الانسان علما. ثم لا يكون الا متاهات مظلمة يوقع الانسان نفسه فيها، إذا كان بعيداً عن الخط الالهى للانسان فى الأرض.

من مظاهر عظمة الخالق سبحانه وتعالى

■ - إن الله سبحانه وتعالى، هو رب الازل ورب الابد ورب الكون وكل ما فيه خلق الأنهار لتصب حمولتها من الرمل والطين ومفتتات الصخور والمعادن المذابة فى البحار. . وخلق الغلاف الجوى ففى أول عصور خلق الأرض لم يكن هناك أكسجين

(١) د. عبد العليم عبد الرحمن خضر - المرجع السابق ص ٢١ .

(٢) د. فاروق عز الدين - دراسات فى جغرافية الانسان - دار الثقافة للطباعة والنشر القاهرة - ص ٣ .

في الهواء الجوى، ولذلك كان الفضاء خاليا من الطيور والهوام . . ولم تتمكن الكائنات الحية من توطيد أقدامها الا في (الماء) في المستنقعات والسهول المبللة والمياه الضحلة ومصبات الانهار، والشواطىء، . . ومن المحتمل ان بعض انواع من الكائنات رسخت أقدامها في المحيطات، اذ كانت تقف بصعوبة بالغة على الاغذية الشحيحة المبعثرة على سطح الماء العميق . . حتى البحار كانت خالية من الاسماك، ولم يكن هناك أثر للطحالب الخضراء، لكى تغشى سر الاحداث الثورية الخطيرة التى كانت تجرى تحت سطح المياه الهادئة(١) . .

ومن المؤكد . . ان تلك الكائنات البدائية لم تترك سدى . . فقد هيات لها الرعاية الالهية جزئيات في الهواء الجوى، وفي البحار في العصور البدائية الاولى . فتيسر امتصاصها بسهولة على سطح المياه الغروية . . ولقد توافرت تلك الجزئيات من الطين اللازب وغيره من المواد الرسوبية عند مصبات الانهار، وفوق المياه الضحلة بتأثير الرياح، والمد والجزر، ثم تماسكت تلك الرواسب بحمولتها من الكربون ثم ترسبت في قيعان البحار الضحلة بفعل عملية (التخثين)، وأصبحت (مواداً غذائية) دسمة في هذا الوسط الذى (يحتمل) ان يكون مهد الحياة الذى استقبل الاشعاع الالهية الاولى بالامر المقدس «كن» .

■ - والسؤال الان . ترى كيف (تطورت) هذه الصور «البدائية للحياة» الى المستوى الحالى الذى اراده الله سبحانه وتعالى أن تكون عليه؟(٢) .

● - وقبل اى شىء في هذا الشأن . . نقول لكل البشر:

كل آدمى «مخلوق فريد» خلقه الله متكاملًا لا يشمله تطور الطحالب والفيروسات الى ديناصورات وحشرات وغابات . . ان كان هذا التطور قد حدث أساساً . .

- قال تعالى . . «لقد خلقنا الانسان في أحسن تقويم» . (الزيتون : ٤) .

- وقال تعالى . . ﴿وصوركم فأحسن صوركم، ورزقكم من الطيبات، ذلكم الله

ربكم فتبارك الله رب العالمين﴾ . (غافر: ١٦٤) .

* فقد جعل الله الانسان أرفع الأحياء وأرقاها، وخصه بالسمو على مجرد الوجود

(١) د . عبد العليم عبد الرحمن خضر - المرجع السابق - ص ٢٢ .

(٢) خصصت للحديث عن نشأة الانسان في القرآن الكريم مبحثاً خاصاً به .

البيولوجى بما نفخ فيه من روحه ووهبه من طاقات وقوى انفراد بها دون سائر مخلوقات الله(1) .

الانسان إذن وجد على الارض متكامل الصورة . . ولم يتدرج من صفده الى تمساح الى قرد . . الى انسان . . لماذا؟

● - لأن لعالم الاحياء قانوناً لا تستطيع الكائنات تجاوزه وقد أكدته العلوم تأكيداً قاطعاً، وكتبت «مجلة العلوم الامريكية» فى عدد ديسمبر ١٩٦٦، بهذا الصدد تقول: «تتمثل الحياة فى أشكال لا اعداد لها، ونسل كل شكل من هذه الاشكال مثله، فالخنائير تلد خنائير، والحمير تلد حميرا، والسنديانة تظل سنديانة جيلا بعد جيل . وتأكيذا لهذا القانون فقد وجد العلم جماعات من الحيوانات وأخرى من النباتات، وليس بينها وسيط، بل كل كائن فى كل جماعة يستطيع أن يتكاثر وأن يلد ابناء من جنسه ولكنه لا يستطيع ان ينسل اذا تلاقح مع كائن من غير جنسه . وقد ثبت علميا بأن الافراد التى يكون تلاقحها مثمرا تنتج نوعا واحدا مثلها، ومجموعة الانواع تشكل جنسا ومجموعة الاجناس تشكل اسرة . وعلى سبيل المثال نقول: ان اسرة السنوريات يدخل فيها فيما يدخل النمر والاسد والهر وغيرها، وهى انواع كثيرة تنتمى الى جنس واحد . وأسرة السنوريات تضم أيضا جنس (أوس) الذى منه الذئب، وفيما وراء الاسرة الصنف والطبقة والمعلقات . وليس هناك من كائنات انتقالية بين الكائنات الموجودة فى أيامنا هذه(1) .

● - يقول كتاب «علم الاحياء اليوم»: [باستطاعة نوعين مختلفين - ولكنها من جنس واحد - ان يتلاقحا بغية جمع احسن صفات النوعين فى واحد . ويكون النقل اقوى من ابويه جسما وقد يكون عقيبا ولا بد من تكرار التلاقح].

يجب ان يلاحظ بان [النغل] يأتى من كائنات حية متقاربة ارثيا، بحيث يمكن تصنيفها فى نوع واحد، وكثير من النغولة تكون عقيمة، واذا تركت لنفسها فانها لا تسعى الى الانتاج، واما ما كان خصيبا منها، فانه اذا استمر بالتلاقح فانه ينتهى عند حدود النغولة اى [العقم]، ولذا فاننا نشاهد فى النوع الواحد أنواعا مختلفة محدودة،

(1) Lynn White J., Op. Cit., FF. 1205- 1227.

بينما يفترض الا تكون محدودة ومثالا على انتهاء التلاقح عند حدود معينة نأخذ الذرة الصفراء فقد زيد محصولها خلال بضع سنين زيادة خيالية بفضل التلاقح ، ثم وصلت الى حد لم يعد بالامكان زيادة انتاجها اذا استنفدت كل عوامل التحسين ومن الجدير بالملاحظة هو أن ما حصل من التلاقح كان ذرة صفراء ولم يؤثر التلاقح فيها فيحولها الى نبات اخر، بل ان التحسن حدث في الذرة نفسها، وهذا ينطبق على عالم الحيوان وقد حبطت كل الجهود التي بذلت من أجل الاستمرار في التلاقح الى ما لا نهاية ولكنها اصطدمت بحواجز العقم التي لا يمكن اجتيازها. ان هذا الحاجز الذي لا يخترق هو الذي يحدد الاختلاف بين الأنواع الكبيرة⁽¹⁾.

● - ان نظرية [التطور العضوي] تدور حول فكرة تقول بان انتقالات ذات مجال ضيق قد احدثت تغييرات ادت الى تبديل شكل كائن حي بشكل اخر. فما هي الحقيقة في هذا الامر؟ وهل الانتقال يأتي بالافضل المفيد؟ وهل يأتي بأشكال حياة جديدة؟.

ان عبارة الانتقال تعنى التغيير الارثي في داخل بلازما الخلايا التناسلية وهذا مالم يحدث إلا نادرا جدا، ويؤكد الاستاذ «دوبز هنسكى» بان الانتقال بسبب تغييرات في الجينات المورثات واختلافات في الكيان الارثي أمر محتمل ضمن العوامل الاولية للتطور. ويقول الاستاذ «شينفيلد» في كتابه: (الانسان الجديد والوراثة) ما يلي:

● - «نستطيع في أيامنا هذه تفسير آلية التطور اعتمادا على حالات نادرة لانتقالات نافعة من كل نوع حدثت مرات كثيرة ومتتابة على فترات طويلة» . ونحن نؤكد أن ذلك كله مجرد فرضيات ساقطة لم يثبت صدقها . .

(1) Ibid., P. 1230

نظرية الانتقال وموقف الاسلام منها

■ - لماذا ظهر الانتقال؟ يقول كتاب: (علم الاحياء اليوم) ما يلي: لعل حدوث الانتقال كان بسبب عوامل توجد عادة في البيئة مثل الاشعة الفضائية وغيرها من الاشعاعات الكهربائية، وحالات استقلاب داخل الخلايا او بالتالى لاختفاء في اعادة انتاج المورثات^(١).

وعلى سؤال: هل يحدث الانتقال كثيرا؟ اجاب كل من الاستاذين «والنس ودوبز هنسكى» في كتابهما: (الاشعاعات والمورثات والانسان) بما يلي:
ان الانتقالات في مورث ما هي حالات استثنائية ومعنى هذا القول ان المورثات تتوالد، عادة بدقة.

ويؤكد العالم التطورى «وادنكتن» في كتابه: (العلم اليوم) قائلا «تحدث هذه الظاهرة نادرا، ولعلها تحدث مرة في مليون حيوان او في مليون كائن حى»^(٢).
اما مستعمرات الحيوان والنبات فقد ساق العلماء المؤمنون بنظرية التطور العضوى للكائنات الحية بعض الادلة التى تدعم تصوراتهم ونحن هنا نستعرضها لنرى مدى امكانية الاخهد بها. . او بشىء منها حسبما يتفق والعقل وقوانين الفطرة^(٣)، التى فطر الله المخلوقات عليها.

● - يرى العلماء ان الحيوانات الموجودة الآن، وانواع عديدة من الحيوانات التى عاشت منذ زمن بعيد تشتمل على كثير من الاشكال التى تتدرج من البساطة الى التعقيد ابتداء من الحيوانات الاولية وحيدة الخلية الى الفقاريات الراقية، ويستندون فى ذلك الى أدلة مادية من الحفريات التى تم العثور عليها وترتيبها. . واذا كان الخالق الاعظم [سبحانه وتعالى] قد امرنا فى سورة العنكبوت^(٤) بالسير فى الارض والبحث عن صورة بداية الحياة، فإنه [سبحانه وتعالى] يشير الى حقيقة علمية هامة. . هى . .

(1) John R.Platt, 1966: The step to man, Wiley, PP. 185- 186.

(2) Ibid, P. 890.

(٣) د. عبد العليم عبد الرحمن خضر - المرجع السابق ص ٢٨ .

(٤) سورة العنكبوت - الآية : ١٩ .

وجود اثار الحياة الاولى البدائية بالفعل فى صخور الارض . . فى نفس الوقت يؤكد لنا الخالق الاعظم جل وعلا أننا لو سرنا فى الارض جادين فى البحث فاننا سنجد كيف كانت صور الحياة الاولى . .

● - وتكشف لنا الآية الكريمة عن كشف علمى عظيم لأول مرة . . هو: (لو كانت صورة الحياة الاولى تشبه تماما صور الحياة الحالية . . لما امرنا ان نسير فى الارض بحثا عن بداية الخلق، ولاكتفى بأمرنا أن ننظر فيما حولنا وامامنا فقط لان فيه الكفاية والنسخة من الخلق الاول . .

[فما الذى نستنتجه من ذلك؟]

■ - نستنتج ان امر الله سبحانه وتعالى لنا (على لسان محمد عليه الصلاة والسلام) بالسير فى الارض لنرى الادلة على بدء الحياة الاولى يدل على مرور الحياة بعدة مراحل من (التطور) تاهت فيها معالم الحياة الاولى وسط ما آلت اليه من انماط جديدة تماما، ومن ثم وجب على العلماء خاصة والناس عامة ان يسيروا ويفتشوا عن ملامح الحياة الاولى فى الحفريات ليلتمسوا مقدار عظمة الخالق الاعظم فى تطوير صور الحياة والخلق من الشكل البدائى الى الشكل الحالى . . تطور الكائنات اذن يتم من عند الله . . لانه وحده المنفرد بالخلق . . والمملك . . أما مسألة ما الذى كانت عليه صورة الحياة الأولى، فلا علم لنا به . . وعلمه عند خالقه، سبحانه وتعالى وهو الخالق العظيم، وهو بكل شىء عليم .

* *

الفصل الثانى

التاريخ الجيولوجى للأرض ونشأة الحياة

- الحفريات . . صفحات من التاريخ الجيولوجى للأرض .
- نظريات علمية حول نشأة الكواكب .
- التقلبات الجيولوجية وأثرها فى توزيع الأحياء على الأرض .
- السلف المشترك للكائنات الحية قبل ظهور الانسان .
- «كوفيه» يهدم نظرية السلف المشترك للكائنات الحية .
- العقم التطورى والانقراض .
- نظرية النماذج الأصلية .
- عالم الفقاريات فى التاريخ الجيولوجى القديم .
- صور الحياة على اليابسة فى العصر السيلورى .

الفصل الثانى

التاريخ الجيولوجى للأرض ونشأة الحياة

لقد استعان العلماء بعلم الجيولوجيا (طبقات الارض) فى تقدير عمر الرواسب التى وجدت بها هياكل الانسان القديم او اجزاء منها . كما يسهل العلم لهم ايضا وسائل اخرى جديدة على جانب كبير من الاهمية لتقدير عمر الحفريات او المخلفات التى تركها الانسان القديم فى المواقع التى عثر على بقاياها فيها . وبعض هذه الوسائل يعتمد على الخواص الطبيعية والكيميائية لعناصر موجودة فى تلك المخلفات» ومن هذه الطرق الطريقة الكيميائية المعروفة باسم «كشف الفلورين» وطريقة الكربون المشع او طريقة النظائر المشعة للاكسجين او البوتاسيوم والارجون كما سيرد ذكره . واغلب هذه الطرق قد تم التوصل اليها مؤخرا واصبحت مفاتيح هامة ، ليس فقط لعلماء الحفريات بل ايضا لعلماء الاثار .

ولقد كشف العلماء فى مملكة النبات نماذج لمراحل التطور العضوى للكائنات الحية تبدأ بالبسيط منها وتنتهى بالمعقد . . ومن ثم برزت اهمية تتبع طبقات الرسوبيات والبحث عن الحفريات التى نلمس فيها ما طرأ على الكائنات من تغييرات . .

الحفريات.. صفحات من التاريخ الجيولوجى للأرض

● - الأحفورة :

هى كل ما يحفر عليه فى صخور القشرة الأرضية من بقايا وآثار الحياة السابقة - نباتية كانت أو حيوانية - فعندما تموت الكائنات التى تحيا فى البحار - [على سبيل المثال] - فان بقاياها تهبط الى القاع حيث تتحلل أجزاءها الحية ، أما هياكلها الصلبة

كالأصداف والعظام والأسنان ، فانها تدفن بين الرسوبيات التي تتكون على قاع البحر والتي تتضاغط بعد ذلك متحولة الى طبقات صخرية ترتفع من قاع البحر بالحركات الأرضية أو بانحسار الماء عنها نتيجة لهبوط منسوب المياه في البحار والمحيطات بصفة عامة ، فتظهر هذه الصخور على سطح القشرة الأرضية ، وتعرض لفعل عوامل التعرية المختلفة التي تتيح الفرصة للانسان لاكتشاف أسرار الحياة القديمة .

أما على اليابسة ، فان الفرص المواتية لتكوين هذه الحفريات نادرة جداً ، فان بقايا الحيوانات البرية لا يمكن أن تحفظ على هيئة حفريات الا في الرواسب التي تتكون في قيعان البحيرات . أما في المناطق القاحلة ، فلا يتسنى ذلك إلا حين يتعرض المستوى العام لسطح الأرض للارتفاع ، نتيجة لتراكم الرمال والأترية عليه بفعل الرياح ، وحين يحدث ذلك فان هيكل الحيوان بعد موته قد تنهياً له الفرصة في التحول إلى حفرية إذا غطته الرياح بالتراب . وبذلك يظل محفوظاً عبر ملايين السنين اذا لم تجرفه السيول وعوامل التعرية .

وفي كثير من الأحيان لا تبقى [الفضلة] النباتية أو الحيوانية على الاطلاق ولكن تبقى آثار غير مباشرة تدل عليها . ومن أمثلة ذلك الطبقات على الرسوبيات الرطبة [كطبقات الأقدام ، وطبقات أوراق الشجر ، والأصداف . وحفر بعض الديدان ، وآثار تفرعات جذور بعض النباتات في الأرض .

■ - ويمكن القول أن اكثر الطرق شيوعاً لتكوين الحفريات هي الدفن داخل الصخور الرسوبية ، ولكن قد تتكون حفريات بواسطة أربع طرق أخرى هي :-

● - استرجعت هياكل بعض الحيوانات من حفر القطران Tar Pits الذي حفظها من التحلل .

● - وجدت بعض حفريات الحشرات وغيرها من اللافقاريات الأرضية مدفونة في العنبر .

(١) د . زغلول راغب محمد النجار - صور من حياة ما قبل التاريخ - دار البحوث العلمية - الكويت - ص ١٦ .

- وكذلك : Hussey, R. C, 1947 Historical geology, N.Y.P.460 .

(٢) كانون «أ» جراهام - نظرات في تطور الكائنات الحية - ترجمة عبد الحافظ حلم - الانجلو المصرية - القاهرة -

١٩٥٨ - ص ٢٨ : ص ٦١ .

- كذلك linton D.L. and Mosely. F. 1958: The Geological ages, Cambridge Univ Press, P. 38.

- - وجدت الجثث الكاملة لبعض حيوانات العصر الجليدى (Glacial Period) متجمدة فى الثلج مثل [الماموث Mammoth] فى ألاسكا وسيبيريا.
- - وجدت بقايا أشجار متحجرة من ملايين السنين عن طريق [الاحلال]، وهى اكثر العمليات شيوعاً فى حفظ بقايا الحياة، بحيث تحل مادة السيلكا أو كربونات الكالسيوم محل المادة الخشبية فى جذوع واغصان الأشجار.
- - فى بعض الأحيان تحفظ الهياكل الصلبة المكونة من مواد عضوية بواسطة تفحمها ودفنها بمعزل عن الهواء فى طبقات الصخور أو الافرازات الصحفية [الكهرمان].

■ - أهمية الحفريات :

تعتبر الحفريات أحسن مصدر لمعلوماتنا عن أنواع الحياة التى عاشت فى الماضى السحيق والتى يأمرنا الله سبحانه وتعالى بالسير فى الارض لاكتشافها ومعرفة صور الحياة الأولى، وذلك فى قوله تعالى :-

«قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق». [سورة العنكبوت / ٢٠].

* فماذا تقول الحفريات للعلماء عن التطور البيولوجى للكائنات الحية قبل ظهور الانسان؟ . . وما الأدلة التى يستند اليها العلماء فى اثبات ذلك؟ .

- - يقول علماء الفيزياء الكونية ان سطح الارض - بعد ان انفصلت عن الشمس - منذ خمسة الاف مليون سنة كان مثل باطنها . . كره هائلة من النار المشتعلة تدور فى الفضاء . . وبمرور مئات الالوف من السنين بردت تدريجياً وخرجت منها غازات وأبخرة ظلت تحيط بها بالقرب من نهاية (ما قبل الكمبرى)^(١) . . واصبح لها سطح ذو قشرة متجمدة ازدادت سمكا شيئاً فشيئاً وتكونت التضاريس السالبة او الموجبة، أى - المرتفعات والاحواض والقيعان، وتجمعت الابخرة لتكون سحباً عظيمة تكشفت ونزلت امطاراً هائلة استمرت الاف السنين دون انقطاع^(٢).

(١) ينقسم هذا الحقب الى :

- ما قبل الكمبرى الرابع وعمره يزيد على ٣٠٠٠ مليون سنة .

- ما قبل الكمبرى الثالث وعمره بين ٢٠٠٠ - ٣٠٠٠ مليون سنة .

- ما قبل الكمبرى الثانى وعمره بين ١٠٠٠ - ٢٠٠٠ مليون سنة .

- ما قبل الكمبرى الاول وعمره بين ٦٠٠ - ١٠٠٠ مليون سنة .

(٢) انظر فى ذلك :

ويرى البعض ، ان هذا الكون ظل يتطور ملايين الملايين من السنين قبل ان تولد الكرة الارضية الصغيرة التى عليها يحيا الانسان اليوم . . وفى رأيه ان ميلادها كان كحادث الامس القريب فى تاريخ الكواكب . وان الشمس ليست الانجما صغيرا من بين ملايين النجوم ، وان حياة الانسان على الارض ، اذا قيست الى قصة الارض ذاتها ، وعلى قصرها ، اشبه بالثوانى الاخيرة فى يوم طويل . وان الانسان نفسه ، لم يترك عن وعى وقصد مدونات لاخباره الا عن جزء من خمسين جزءا من وجوده . انظر اذن الى مدى حدائته فى هذا الكون وقصر مشواره على الارض ولكن برغم ذلك ، فقد تميز عن سواه من خلائق بعقل متطور لا جامد ، تشحذ همته الايام ، وتزيد من حدته تصارييف الزمان ففكر وفرض ودرس وجرب واستنتج ، وسار فى درب البحث العلمى المنظم ، وخلص الى حقائق وفروض منها :

- ليس فى الامكان اقامة حد محدود لعمر الكون . .

- كانت المادة الام فى الاصل سديبا هيوليا ، وتطورت الى نجوم ولا تزال الالوف من السحب من الغاز الرقيق تشاهد متناثرة فى السموات فى جميع اطوار الارتقاء ، البطيء والمطرد . وقد كتب [جينز J. H. Jeans] العالم البريطانى المعروف ، كثيرا يوضح كيف تؤدى الموازنة الطويلة الدائبة بين سحابة واخرى من هذه السحب الى استنباط تقلصها ودورانها وتكثفها ، وكيف تنشأ فى آخر الامر من كل سحابة ، مجموعة من النجوم ، وكل نجم يستحدث لنفسه مجموعة او اسرة من الكواكب ، بطريقة او باخرى ، الله يعلمها ، وتعددت فيها نظريات البشر^(١) . . وكلها مجرد نظريات وفروض . .

● - نظريات وفروض ، فما شهدوا خلق السموات والارض .

(١) د . محمد فتحي عوض الله - المرجع السابق - ص ٧٤ : ٧٥ .

■ - نظريات علمية حول نشأة الكواكب

ثم جاء القرن العشرون . .

ومعه اتساع وتركيز للحضارة المعاصرة والعلم الحديث . . . وفي ركابه فروض اخرى مغايرة لفروض السابقين في مجالات الاستطلاع الكونى . . وتعددت الاراء وتشعبت الافكار ولكنها فى مضمونها ومجموعها، لم تأت بعد بالخبر اليقين . . وقال بعض العلماء :

. . انما نشأت الكواكب من جزئيات صغيرة وصلبه كانت تدور حول الشمس وتعاصرها فى ظهورها . وان مصدرها هو المواد التى تناثرت بشدة من الشمس المنصهرة ابان دورانها السريع . وبردت الجزئيات المتطايرة تلك، وتجمعت، وتركزت بالدوران، فكانت الكواكب .

وقالوا . . حقا، قد تكون المادة التى تكونت منها الكواكب قد تمزقت فعلا عن الشمس، ولكن ليس بالتناثر اثر الدوران السريع، ولكن بالانجذاب اثر اقتراب نجم هائل وكبير من الشمس . . وظل [بعض] الشمس المنجذب ذاك، حائرا، لا هو الى النجم الهائم يقترب، ولا هو الى الشمس الام يعود . كان ذلك، عندما تعادلت قوتا الجذب بين الشمس والنجم الهائم والدخيل فأخذ ذلك [البعض] المنجذب يدور حول الشمس الام، بذات السرعة وذات الاتجاه وفى مدارات مختلفة . . وكانت الكواكب .

- وقال آخرون . . ولكن كيف يكون ذلك، والكواكب تبعد عن الشمس مسافات جد شاسعه تصل بها التقديرات الى آلاف المرات قدر أقطارها؟! شىء لا يصدقه عقل، هكذا قال البعض من العلماء .

- وقال فريق اخر - بل بتحليل الحركة للكواكب، يمكن القول باطمئنان ان الكواكب قد تكونت اصلا من مادة منتشرة أو سدم . . عوداً على بدء لنظريات (كانط ولا بلاس)، وان تلك المادة تدور بانتظام، بما قد أدى الى دوران كل الكواكب التى تكونت عنها، فيما بعد حول الشمس، وفى ذات الاتجاه . كيف كان ذلك؟ امر لم تتم قصته فصولا بعد، وقد قارب القرن العشرون على نهايته . ولكن قصارى قولهم، انه

قد تكونت أجنة، وحيث تكونت تلك الأجنة، كبرت، ونمت بأسرع من غيرها من تجمعات المادة خلال بلايين السنين، وتركزت المادة فيها ومن حولها. .

● واختلفت الأقوال. . !!!

- فمن قائل بان الأرض تكونت متوهجة بانفصالها عن الشمس. . ثم بردت.
- ومن قائل بأن الأرض تكونت باردة من السدم. . ثم سخنت.
- وعلى أية حال، فسواء كانت الارض، بداية، ساخنة أم باردة، فان هناك بعض الشك في انها بعد تكوينها الاول مباشرة، مرت بحالة الانصهار الكامل. واذا لم يكن ذلك، فإنه لا توجد طريقة مقبولة لشرح توزيع المواد الثقيلة والخفيفة في هذا الكوكب، حيث يتكون الجوف العميق من المواد الثقيلة كالحديد والنيكل - بقطر يصل حوالى ٤٠٠٠ ميل، يحيط به رداء سمكه ٢٠٠٠ ميل تقريبا متكونا من الاحجار السليكية الخفيفة الغنية بالحديد والمغنسيوم. ثم الغلالة الخارجية أو القشرة الأرضية وهى من طبقة رقيقة من الأحجار الخفيفة يبلغ سمكها من خمسة الى عشرين ميلا بحسب مكانها في قاع المحيط أو فوق القارات(١).

- واذا سلمنا مع القائلين بأنها بلغت حد الانصهار بعد النشأة الاولى. فانه مع مرور الزمن، لا شك قد حدث فقدان للحرارة، قدر العلماء معدله بما وصل بعد حوالى عشرة الاف سنة بالارض الى ان تفقد كمية من الحرارة كافية لتجمد سطحها الخارجى. وبالتالي يظل الجوف العميق منصهرا. وقد يتعجب بعض القوم ويتساءلون. . ولماذا لا نشعر بهذه الحرارة تحت اقدامنا؟ والجواب، هو أن القشرة الارضية ترقد فوق طبقة أخرى من الصخور البلاستيكية بسمك حوالى مائة ميل، وهى موصل ردىء للحرارة، مما يمنع وصول الحرارة الكامنة فى الباطن الى السطح. . ومع ذلك، فان الكتلة المنصهرة لم تزل، دائمة الغليان والفوران بها هى فيه من درجات حرارة عالية وما هى تحته من ضغوط هائلة ورهيبية. وفى مثل تلك الظروف يختلط مصهور المعادن والصخور والماء ويمتزج امتزاجا. ومع دوام ذلك الفوران، تجدد المادة لها منفذا في اماكن الضعف من القشرة الارضية فتندفع الى السطح، فتكون

(١) المرجع نفسه ص ٧٦.

بركانا يقذف بالحمم الى السطح ، ويضيف الى الماء فوق الارض ماء چديدا لأول مرة
(Meteoric Water) .

وانفجرت الارض عيونا وينابيع سلكت طريقها الى القيعان والمنخفضات فملأتها
مع مياه الامطار . وهكذا تكونت البحار الأولى في ظروف تكوينه بالغة العنف ، اذ
شهد هذا الحقب حدوث الزلازل الرهيبة واندلاع البراكين والتغير المتطرف في
المناخ . . وفي هذا الحقب (ما قبل الكمبرى) .

(Pre-Cambrian Era) . . تحمرت في البخار الاولى القديمة محاليل الاملاح
وذرات الطين ودقائق المعادن الارضية . . وتكونت منها المواد الخام اللازمة لحمل
اشعاع الحياة القادمة من السماء . . من عند الله سبحانه وتعالى . . ويقول العلماء أن
أحدى صفات الانسان وهى صفة كيميائية محضة ، ترجع الى صفات الاسلاف التى
عاشت في المحيط . فاذا ازيلت المواد العضوية والماء من كمية من بلازما الدم البشرى
فان المواد تبقى فيه تماثل ما تحصل عليه عملية تبخر كمية من ماء البحر . أى أن نسبة
الصوديوم والبوتاسيوم والكلسيوم والمغنسيوم واليود والكلور وسائر المواد المعدنية في دم
الانسان تتفق مع نسبتها في ماء البحر . فقد كانت خلايا الجسم في الكائنات البحرية
ملائمة للحياة في الوسط الكيميائى لماء البحر ، وعندما تركت البحار حملت معها جزءا
من هذا الوسط على صورة سائل يغمر الخلايا ، وقد أصبح فيما بعد جزءا من تيار
الدم . وقد زُوِد الاسلاف «بالكلية» للتحكم في مقدار الاملاح في الدم بحيث تبقى
نسبتها ملائمة لما كانت الخلايا قد اعتادت عليه .

✓ ● - وفي حقب الباليوزوى «Palaeozoic Era» (١) . . وصل الامر الالهى بنشأة

(١) وينقسم هذا الحقب الى العصر الكمبرى ، والاردوفيشى ، والسيلورى ، والديفونى ، والكربونى ، وينتهى
بالعصر «البرمى» . . وترجع كلمة (الكمبرى) الى جبال كمبريا في ويلز بانجلترا وقد استغرق زمنه (٥٢٠ - ٤٢٠ مليون
سنة) . . اما «الاردوفيشى» فقد استمر فيما بين (٤٣٠ - ٣٦٠ مليون سنة) . . وكان العصر «السيلورى الذى استمر فيما
بين ٣٦٠ - ٣٣٠ مليون سنة ، ويمتاز بالدفء ، والاعتدال . . ثم العصر «الديفونى» الذى استمر فيما بين (٣٣٠ -
٢٨٠ مليون سنة) أى ٥٠ مليون سنة ، وفيه ظهرت (البرمائيات) . . ثم (الكربونى) الذى امتد من (٢٨٠ - ٢٢٠ مليون
سنة) وظهرت الغلبات الضخمة والحشرات والزواحف الاولى . . ثم «البرمى» من (٢٢٠ - ٢٠٠ مليون سنة) وهو
العصر الجليدى الاول على الارض والذى شهد حركات ارضية عنيفة ، وارتفعت الجبال ، وظهرت الصحارى وانقرضت
خلاله معظم صور الحياة التى كانت تميز حقب الحياة القديمه .

✓ الحياة على الأرض . . فدبت في الطين اللاذب اشعاع الحياة الاولى . وتحركت (الهلاميات) بقدرة الواحد القهار، وهكذا وجدت أول خلية حية في محيط من «البروتوبلازم» . . ويطلق العلماء على تلك الصور البسيطة من الحياة: «العصوبات» ✓ «Flagellata» وهى نصف نباتية ونصف حيوانية . . وبعدها تعددت الخلايا لتكون مخلوقات بسيطة التركيب . . مثل «قناديل البحر» و «ازهار البحر»^(١) . . وعلى ذلك يمكن اعتبارها طلائع الاحياء «Protozoa»^(٢) وقد ظلت تلك الطلائع سابحة في (المحيطات الاولى) التى نشأت فيها ردحا من الزمن، حتى ظهرت فيما بعد الحيوانات الدودية (Worms) ومنها الرخويات «Mollusks» مثل المحار وحبارات الاسماك . . ويبدو أن الحياة في فجرها كانت تشق طريقها بصعوبة وببطء شديد . . ففي اواخر عصر ما قبل الكامبرى تقدم موكب الحياة خطوة حاسمة أخرى بعد فترات طويلة جدا من التطور، حيث تفرعت (الديدان) الى فرعين^(٣) . . فرع مباشر انتهى الى الاسماك النجمية وطحالب البحر وما أشبهها، وفرع الفقاريات «Vertebrata» . . ومنذ ظهور هذه الفقاريات (أى الاحياء ذات الهيكل العظمى) بدأ السجل الحفرى في التنوع والشراء^(٣) .

وبطبيعة الحال لا يمكن تصور تطور الديدان الى فقاريات مرة واحدة . . وانما تدرجت من خيار البحر Sea urchin وقنافذ البحر «Sea urchins»، ونجوم البحر «Star Fishs» وقشريات السرطين «Lob stars» . . الى الحشرات «Insects» ويقول العلماء أن تلك الكائنات قد تدرجت في سلم (الحياة) حين صار لها حبل ظهرى . . ثم صارت اسماكا غضروفية، ثم اسماكا عظمية، وتحول (الحبل الظهرى) الى (عمود فقري) وبذلك ظهرت الفقاريات، وصارت ثنائية التنفس في الماء بالحياشيم، وفوق الطين اللازب بالثرات البدائية البسيطة . . ثم ظهرت البرمائيات ✓ Amphibia ومنها نشأت الزواحف «Reptiles» ففي العصر الترياسى . . حيث كانت صفحة من الحياة القديمة قد اغلقت تماما^(٤) .

(١) يمكن الرجوع في ذلك الى : G.Shubert, C.O.Dunbar 1941: Historical Geology, New York, PP.17-28

(2) Ibid., P. 31.

(3) Ibid., PP. 33-35

(4) Ibid., PP. 38-40.

ويمتاز العصر الترياسى علاوة على ذلك - وهو اول الصور من الحياة الوسطى -
بظهور الغابات المخروطية والصنوبرية والسرخسيات . . واختفت فيه ثورات البراكين
والهزات الارضية . . فتعرضت الجبال والتضاريس الموجبة كلها بعوامل التعرية وخفت
معظم الاراضى وتكونت الصحارى . . وذابت معظم (الثلجات) . . وغمرت
البحار الضحلة اغلب منخفضات اليابسة . . وانتشرت المستنقعات فى معظم
الاراتضى^(١) وفيه تنوعت الزواحف وتفرعت الى عدة فروع ، منها السلاحف
والثعابين وظهر حدود الطيور الحديثة والتمايح والديناصورات ، والتي تسمى « Sa
Itoposuchus » وكانت حيوانات صغيرة نحيفة يزيد طولها على اربعة اقدام تقريبا
وكانت سريعة الحركة وتقف على ساقها الخلفيتين . . وقد استمر ذلك فيما بين (٢٠٠
- ١٧٠ مليون سنة) . .

(1) Ibid., PP. 51-63

التقلبات الجيولوجية وأثرها في توزيع الأحياء على الأرض

لقد انتاب الكوكب الأرض تقلبات جيولوجية نتج عنها اختلاف العلاقة بين اليابس والماء فظهرت جبال لم يكن لها وجود من قبل ذلك بالإضافة الى انه ظهر في خلال هذه الفترة التي استغرقت ما يقرب من ١٣٠ مليون سنة انواع من الكائنات الحية اطلق عليها اسم الدقاصر امتازت بضخامة الحجم والتخصص الشديد والملائمة الفريدة للانهاط المختلفة للبيئات التي وجدت فيها . هذه الكائنات الضخمة بلغت درجة عالية من التخصص والنمو، غير أن شعار الطبيعة الأبدى هو التغير ومن ثم دارت عجلة الزمان فمحت دولة الزواحف واندثرت كائناتها الضخمة حيث خلفت وراءها فراغا كبيرا لم تقو غيرها من الكائنات أن تملأه .

ورغم ان هذا التغير كان فجائيا بسبب تغير البيئة او بسبب اخر الا انه كان بداية لصفحة جديدة في التاريخ الجيولوجي حيث بدء زمن الحياة الحديث أو (الكايينوزويك) الذي ظهرت فيه الثدييات وعمر في نهايته الانسان . ففي هذه الحقبة التي استغرقت ما يقرب من ٧٠ مليون سنة لم يظهر الانسان فيها الا في خلال المليون سنة الاخيرة فقط رغم ان كثيرا من الكائنات التي تنتمي الى الرئيسيات قد عاشت طوال زمن الحياة الحديثة .

وفي العصر الجوراس - وهو العصر الثاني من زمن الحياة الوسطى الذي استمر ٢٥ مليون سنة فيما بين (١٧٠ - ١٤٥ مليون نسمة) - سادت فصائل الزواحف العملاقة . . ومنها «الديناصورات» الرهيبة آكلة اللحم . . والأخرى آكلة العشب . . ومنها نوع طائر .

وفي العصر الكريتاس - وهو العصر الثالث من زمن الحياة الوسطى والذي استمر ٧٠ مليون سنة فيما بين (١٤٥ - ٧٥ مليون سنة) - تعاظمت سيطرة الديناصورات الأرضية والتي ابيدت مرة واحدة في نهاية هذا العصر بشكل غريب ومريب ودون مقدمات أو أسباب واضحة . . وفيه ايضا ظهرت الثدييات الكيسية، وحدث طغيان من البحر على اليابس . . ونبتت انواع مزدهرة من النباتات على الأرض لأول مرة . . وانتشرت اوائل الحشرات الصغيرة بين الغابات .

ثم دارت عجلة الزمان التي لا تتوقف دورة أخرى فمحت دولة الزواحف الجبارة وانقرضت تلك الكائنات من الوجود فجأة فتركت فراغا هائلا لم يقو غيرها من الكائنات على ان يملأه بنفس الكفاءة. وتضاربت آراء العلماء في اسباب هذا الانقراض المفاجيء للزواحف المارده، فمن قائل: انه نتيجة كارثة من الكوارث التي تنتاب الارض والكائنات من حين الى آخر دون سبب معروف، ومن قائل: انه تغيير مفاجئ طرا على الجو فلم تقو تلك الكائنات على تحمله، ومن قائل: ان هذه الزواحف قد تضخمت تضخما افقدها القدرة على السعى فلم تعد تقوى على السباحة أو المشى أو الطيران فهاتت جوعا، أو أن المجاعة كانت بسبب نقص في الاشجار والاعشاب وجذب في الثمرات نتيجة الجفاف الذي اعتور سطح الارض. .

ومهما يكن من شيء فتلك سنة التطور والحياة ولم يحدث ان عرفت الخلود فصيلة بعينها من الكائنات الحية أو جنس بعينه من الاجناس العديدة التي ظهرت على مسرح الحياة.

وكان انقراض الزواحف نذيرا ببداية عهد جديد او حقبة جديد من الاحقاب الجيولوجية المعروفة، وهو الحقب السيلوري أو حقب الحياة الحديثة، آخر الأحقاب الجيولوجية وأقصرها أمداً، الذي استغرق نحو 70 مليون سنة. ويعتبر هذا الحقب بوجه عام حقب الحيوانات الثديية وفي الجزء الأخير منه ظهر الانسان.

ولهذا الحقب بالذات اهمية خاصة عند علماء [اصل الانسان]، ولهذا السبب لا نرى بأسا من ان نذكر تلك العصور التي احتواها هذا الحقب والمدى الذي استغرقه كل عصر منها. وخليق بالذكر ان هذا المدى قد حسب عن طريق دراسة الخواص الاشعاعية للمعادن الموجودة في طبقات الصخور المتراكمة بعضها فوق بعض والتي تحتوى على عنصر اليورانيوم واشباهه. من النظائر المشعة التي تفقد اشعاعها بمعدل ثابت وتتحول في النهاية الى عنصر خامد هو الرصاص، ومن ثم تتخذ هذه النظائر بمثابة ساعة دقيقة لحساب عمر الصخور، بل عمر الارض التي نعيش عليها وانقضت مدة طويلة جدا من عمر الارض كما تقدم القول حتى ظهر الانسان

وأكشفت أقدم الحفريات الأدمية للذين عاشوا في المليون السنة الاخيرة فقط من عمر الارض، وكل ذلك في رواسب العصر المعروف بعصر البليستوسين آخر عصور

الحقب السيلورى التى تقدم ذكرها .

● - ويعتبر هذا العصر من أهم العصور الجيولوجية لعدة أسباب منها ظهور الانسان خلاله، واكتشاف الحضارات الاولى للبشرية فى رواسبه الصلصالية وبالنظر ايضا الى انه اقرب العصور الجيولوجية الى العصر الذى نعيش فيه، ومن ثم فالبحت والتنقيب والحفر للحصول على ادلة عن أصل الانسان ومقومات حضارته القديمة فى صخور هذا العصر ليس امرا بالغ الصعوبة، فلا غرو والحال كذلك أن نال هذا العصر الكثير من اهتمام العلماء من ذوى التخصصات المختلفة من جغرافيين وبيولوجيين وعلماء اصل الانسان وغيرهم .

يمكن القول اخيرا انه حينما جاء زمن الحياة الحديثة، الذى استمر ٥٠ مليون سنة، كانت كل الزواحف المردة العملاقة والتنين الطائر قد انقرضت تماما . وظهرت الثدييات ومنها الماشية والافيال والكلاب والخيول والحفافيش وسباع البحر والقردة . وتطورت الحياة البحرية الى صورتها الحالية وازدهرت الغابات والاشجار والمراعى وذلك خلال عصور «الايوسين» و «البليوسين» و «الميوسين» و «البلايوسين» .

■ - ثم ظهرت البشرية الاولى وكانت متميزة عقلا لا جسما . ومع الزمن، ظهر منها من سكن الكهوف ومنها من سكن الجروف عند ضفاف الانهار . ولقد كان اقدم ما عثر عليه من بقايا الانسان يرد الى اواخر العهد الحديث المتأخر (البليوسينى) - Pleis tocene وبناء على ذلك فقد قُدِّر عمر الانسان على هذه الارض بما لا يقل عن مليون سنة تقريبا . وفى أواخر ذلك العهد الحديث المتأخر طرأ على الارض ما اصطلح على تسميته بالعصر الجليدى . فقد استفاضت الاغطية الجليدية من القطبين، وتراكت الثلوج على سلاسل الجبال، وانحدرت الانهار الجليدية فى الوديان فغطت السهول بالجليد، وعانت اذ ذاك بقاع كثيرة فى أوروبا من حالة الاقاليم القطبية الشمالية . وضاع انسان ذاك العهد بين الثلوج .

بيد ان ذلك العصر الجليدى لم يكن ظاهرة متجانسة . فقد اتفق فى اثناء العهد الاحدث (البليوستوسيتى) - وذلك حسبا يعتقد العلماء - ان تقدم الجليد وانحسر فى كر وفر مرات عديدة . وفيما بينها كانت الحياة هينة رفيقة بالكائنات البشرية . وكانت الفترة الطويلة نوعا، الدافئة، هى ذلك العصر العظيم الشأن، عصر ساكنى الجروف

حول الانهار. ومع رجعة أخرى للجليد يفزع الانسان ويهرب الى الكهوف، ويتعلم مناهضة الزمهرير وتضطره الحاجة الى الاختراعات والاكتشافات الانسانية الاولى.

● - وهكذا يمكن القول ان الماء . . في احدى صوره . . هو الذى حفز الانسان على التأقلم والاختراع والملاءمة، التى أدت الى تقدم فكرى عظيم الشأن فى حياة الانسان .

■ - وبعد استعراض مراحل التطور البيولوجى للكائنات الحية قبل ظهور الانسان . . نتساءل: وما الادلة التى يستند اليها العلماء فى اثبات ذلك؟ . .

● - قال علماء الاحياء ان «داروين» قال (ان الانتخاب) اى - انتخاب المتفوقين فى معركة التنافس يعود الى كونهم أكثر تكيفا مع الوسائل التى يفرضها التنافس، ويسأل [داروين] اذا كان التحول العضوى قد يحدث فى ظل الطبيعة الصرفة حدوثه فى ظل التكيف مع الظروف البيئية المختلفة، وان ذلك التنافس لا بد ان ينتهى بانتخاب الاكثر تكيفا مع مختلف حالات الحياة.

ومن هذا المنطلق طلع «داروين» بنظرية انتخاب التحولات النافعة التى تولدها الاسباب الطبيعية عن طريق ظاهرة التكيف التى اظهر عجزه سابقا عن تحليلها وأثبت العلماء فيما بعد بطلانها وفسادها.

● - ويذهب داروين الى ان الانتخاب الطبيعى انما يقوم اساسا على مقومة التكيف . اذا لا فرق عنده مطلقا بين قولنا ان الفرد الناجح فى معركة التنافس هو الاصلح للبقاء . . أو قولنا هو الاكثر تكيفا مع البيئة .

■ - واذا كان داروين قد اعتمد فى افكاره على انتخاب الاكثر انسجاما او تكيفا مع مختلف حالات الحياة، يكون قد خالف عقليا وعرفانيا ما تقول به الآراء والمذاهب السماوية من ناحية، ومن ناحية اخرى اراء الفلاسفة والحكماء الذين ردوا كافة الأمور الابداعية الى قدرة الخالق المبدع المصور، علة العلل، وأسباب وجود كافة الموجودات العلوية والسفلية .

وينتمى معظم [الملحدين] المشتغلين بعلم التطور - ان كان للتطور علم - الآن إلى [المذهب الداروينى] الجديد فى التطور . . ويتلخص هذا المذهب الهدام، فى أن التقدم التطورى قد تم اساساً عن طريق [الانتخاب الطبيعى].

ويزعم هؤلاء الملحدون أن [الطبيعة] تختار الصفات الأصلح من تلك التغييرات الفجائية المزعومة، التي حدثت للكائن الحي نتيجة للطفرة. . . وزعم [داروين] وزميله الملحد أيضا [الفريد والاس] من قبل أن [الطبيعة] تختار الصفات الصالحة من الاختلافات الصغيرة المستمرة التي تتراكم بمرور الأجيال، حتى تصبح في آخر الأمر صفات جديدة مميزة، تعين الكائن الحي على الشواء والارتقاء!!! . . . وتبعها بعد ذلك الملحد «هيجو دى فريز» الهولندي الأصل وزعم بأهمية الطفرة في أحداث تغيير أو تنوع مفاجيء تختلف به السلالة عن الأصل اختلافا واضحا، ويزعم أن تلك الطفرة يمكن أن تورث، وأنه إذا كان للصفة الجديدة قيمة في الكفاح والتناحر من أجل البقاء، فإن الكائنات الحية التي تحمل هذه الصفة تورثها للأجيال التالية، وأنه حتى إذا لم تظهر هذه الصفة في الجيل الأول، فإنها تظل مخفية في جيل لتظهر بعد ذلك في الجيل الذى يليه .

وبتقدم علم الوراثة Genetics وعلم استئناس الحيوانات والتربية الانتقائية (Domestication and selective breeding) توصل العلماء الى بعض الأدلة التي يستشهدون بها على مرور الكائنات بعدة مراحل تطورية قبل ظهور الانسان . . . منها ثبوت (الجينات) وانتقالها الى الاجيال التالية بالوراثة حسب قواعد يمكن معرفتها مقدما . . . كما سجل العلماء حدوث طفرات صغيرة وكبيرة في الكائنات، ينجم عنها تغير فجائى في الصفات الموروثة يؤدي بالتالى الى أجيال جديدة مختلفة عن الاجداد وذلك بسبب تحورات طارئة على الجينات، من ذلك ما سجله العالم الهولندي دى فريز De Vries على زهرة الربيع *Oenothera* ⁽¹⁾ كما سجل العلماء حدوث طفرات في

(1) د. علم الدين كمال - المرجع السابق ص ١٧٨، وفي ذلك يقول «اسحق ايزيموف» أن:
فكرة التطور البيولوجى فكرة ضاربة في القدم. فقد نشأت عندما حاول علماء البيولوجيا تصنيف الكائنات الحية. وكان ارسطو الفيلسوف الاغريقى فى طليعة من فعلوا ذلك فى القرن الرابع قبل الميلاد.
وفى عام ١٧٣٧، انشأ عالم النبات السويدى، كارولوس ليناوس نظاما يمكن ان ترتب فيه الكائنات الحية بمقتضاه الى انواع مختلفة وتجمع الانواع المشابهة فى مجموعات، وتضم هذه فى فئات من مجموعات متماثلة. . . وهلم جرا. واصبح من الممكن رسم شكل تخطيطى تقسم فيه جميع الاحياء الى بضعة فروع رئيسية، وكل فرع منها الى فروع اصغر، وكل من هذه الاخيرة الى فروع اصغر منها حتى ينتهى المرء اخر المطاف الى «الافراد» - الى الاوراق - المنفردة فى شجرة ما على سبيل المثال.
ولتصور، ولو بضرب من السحر، ان كل ما نستطيع رؤيته من شجرة حقيقه هو اوراقها المنفردة موزعة فى الفضاء (=)

مجموعة من «الجينات» التي تؤدي الى تغيرات كبيرة مثل الاصابع الزائدة في القطط والارجل الصغيرة في الاغنام، وقد ناقض العالم الألماني [فايزمان] هذا الرأي، مبيناً أن الصفات التي يرثها الكائن الحي عن أبويه إنما تحيىء عن طريق الخلايا الجرثومية، أى البويضات والحيوانات المنوية عند الحيوان، وأنه لا دخل لخلايا الجسم فيها، والخلايا الجرثومية بالطبع لا تخضع لمؤثرات البيئة التي تتطلب من بعض تركيبات الجسم اهمالاً أو استعمالاً.

ويدعى بعض العلماء وجود اصناف جديدة من الكائنات الحية بواسطة عملية الاستثناس والتربية الانتقالية ويدعون أنها توضح نوع وحجم التغير الذى يمكن ان يحدث فى الطبيعة فى صفات الحيوانات والنباتات بمرور الزمن.

وهناك من [الداروينيين] من يعتقدون بوجود دوافع داخلية فى الكائن الحي، تدفع به فى طريق التقدم والتطور، أى أنه هناك قوة داخلية لا ارادية تدفع بالكائن الحي دائماً إلى الأمام. وكان علماء الحفريات فى الماضى يميلون الى الاعتقاد بأن كثيراً من

(=)

فهل كنا سنفترض ان هذه الاوراق قد ظهرت الى الوجود حيث هى الان؟ كلا بالتأكيد بل كنا سنفترض انها اجزاء من شجرة نمت من برعم بسيط، وانتجت اغصانا وغصينات نبتت منها الاوراق.

وعلى نفس النحوب بدأ العلماء فى التساؤل عن احتمال وجود «شجرة للحياة» نمت وترعرعت بطريقة تشبه اية شجرة عادية، وعمما اذا لم تكن الانوع الحالية قد نشأت من انواع ايسط، وان تلك الانواع - الاخيرة نشأت من انواع اخرى اكثر بساطة، الى ان تصل فى النهاية الى اصل واحد هو ايسط اشكال الحياة. تلك هى العملية التى تعرف باسم «التطور البيولوجى».

وحتى اوائل القرن التاسع عشر، كان العلماء قد اكتشفوا ودرسوا اشياء فى الصخور تسمى «الاحافير» وكانت لها هيئات العظام والاسنان والقواقع وغير ذلك من الاشياء التى كانت حية ذات يوم ولكن الصخور طويت عليها لملايين السنين حتى تحولت ببطاء الى صخور هى الاخرى.

وكانت هذه الاحافير اشكالا من الحياة لا تشبه الانواع الحية تماما ولكنها تنتمى اليها. وامكن الربط بين تلك الاحافير وبين فروع سابقة فى شجرة الحياة، كما امكن بفضلها معرفة الطريقة التى تطورت بها انواع معينة من الاحياء. فقد وجدت مثلا حيوانات تشبه الحصان كانت تعيش منذ ملايين السنين. وكانت صغيرة اول الامر وبكل رجل من ارجلها اربعة حوافر. وبعض الزمن وجدت انواع اخرى اكبر بحوافر اقل، الى ان ظهر الحصان الحديث الى الوجود فى نهاية المطاف.

وكانت هناك ايضا حيوانات اخرى اندثرت دون ان تترك وراءها خلفا مثل عائلة «الديناصور» الرائعة، تلك الحيوانات الضخمة التى تمت بصله الى الزواحف الحديثة (ولا سيما التماسيح الامريكية) ولكنها اختفت جميعا من الوجود او «انقرضت» منذ نحو ٦٥ مليون سنة.

الصفات التطورية حدثت في اتجاه تقدمى مستقيم غير متشعب ابتداء من الجذ الأكبر للقبيلة حتى الفرد الأخير منها، وأن هذا يحدث نتيجة لوجود حافر حيوى يعمل من داخل الكائنات الحية. وان ذلك ضرب من [التطور] المحتوم الذى لا مفر من حدوثه.

أما الداروينيون المحدثون، فيرفضون ذلك، لأنهم اكتشفوا - على حد زعمهم - أن الخرتيت الذى ينتمى إلى مجموعة الخيول قد تفرع متطوراً من اتجاه مغاير لاتجاه الخيول الأصيلة... ويقولون: اذا كان هذا «التطور» يحدث امام عين الانسان وبتجابه... وفي معاملة والارض من حوله... واذا كان قد لاحظ ذلك بنفسه في تجارب استغرقت وقتاً قصيراً للغاية (من عصر الحضارات حتى الان اى حوالى ١٥ ألف سنة تقريباً)... فعلينا (على حد قولهم) ان نقتنع بان تغيرات أكثر تأثيراً يجحب ان تكون قد حدثت في جميع الكائنات الحية خلال فترة طويلة للغاية من الزمن منذ نشأة الحياة فوق سطح الأرض في اوائل حقبة «الباليوزوى» (Palaeozoic Era).

ان الكائنات جمعياً مكونة من مركبات كربونية نشأت اصلاً في المحيط ابدائى الاول. والحياة بدأت بجزئيات تكونت منها خلايا بسيطة يغلب على الظن انها تشبه البكتريا الى حد بعيد. واصبحت هذه الخلايا البسيطة اعلى مرتبة في نظم حياتها وقامت بتكوين غذائها بنفسها عن طريق استخدام - الكلوروفيل. وافترق طريق الحيوان عن النبات حين فقدت بعض السوطيات الخضراء كلوروفيلها وبدأت تحصل على غذائها بأكل وهضم غيرها من الكائنات الحية.

ويرى العلماء أن الحيوانات الوحيدة الخلية الاولى أنتجت ثلاثة خطوط رئيسية من السلالات أدى أحدها الى البروتوزوا الحديثة، والثانى الى الحيوانات الاسفنجية، والثالث الى باقى الحيوانات العديدة الخلايا. ومن المرجح ان يكون اول حيوان عديد الخلايا قد نشأ عن مستعمرة مكونة من بضع مئات من الخلايا الفردية، وقد كونت هذه الخلايا حيواناً من طبقتين من الانسجة، احدهما داخلية وتعرف بالاندودرم وتبطن الفراغ الهضمى، والاخرى خارجية وتعرف بالاكوتودرم.

ويزعم العلماء أنه نشأ بعد ذلك خطان من السلالات، أنشأ احدهما اللاققرات جميعاً عدا قسم نجوم البحر، وأنشأ الثانى جيوباً ميزودرمية جوفاء تمتد من الاندودرم

كما أنشأ قناة هضمية ذات فتحة فم وفتحة است مستقلتين، وأصبح هذا الخط السلالي هو السلف المشترك للحيوانات الجبلية وللمجموعة التي منها نجوم البحر⁽¹⁾. وتظهر أهمية «الميزودرم» بوضوح في حالة «البلاناريا» [Planaria] وهي دودة صغيرة منبسطة تعيش على بقايا المواد العضوية المتحللة في الأنهار - فبينما نرى في الهيدرا أنسجة ولا نرى أعضاء، إذا بالبلاناريا تجهز من «الاندودرم» جهازا هضميا حقيقيا ذا تجويف كثير التفرع. وتتكون من «الميزودرم» أعضاء أجهزوة اخرى كالعضلات الكثيرة والأعضاء التناسلية وجهاز الاخراج المتخصص في التخلص من المواد التالفة التي تتكون اثناء العمليات الحيوية المختلفة. وقد عمل الميزودرم على تنظيم تركيب الحيوان تنظيها متقدما، وذلك بتجميع الأنسجة معا لتكون الأعضاء⁽²⁾.

ويزعم العلماء أن الديدان المفلطحة قد أحرزت تقدما تطوريا هاما آخر، وذلك بنظام تماثل أجسامها الذي يختلف عن كل من قناديل البحر والبوليب، فلو أننا نظرنا إلى الهيدرا من طرفها العلوى لرأينا ان في الامكان رسم خطوط عديدة تقسم الحيوان الى قسمين متساويين، مثلها في ذلك مثل النجمة التي يمكن تقسيمها الى نصفين متساويين باى خط يمر في مركزها.

وتظهر دراسة الأجنة أن سرطان البحر وأقاربه كالجمبرى وذات المائة رجل والحشرات والعناكب، لها سلف مشترك مع الحيوانات الرخوة (القواقع وذرات المصراعين والحبار وغيرها)، وكذلك مع الديدان الحلقية. وكما هو منتظر فان اطوار اليرقات، ان وجدت، تظهر القرابة بشكل اوضح مما تظهره الاطوار اليافعة. فالحبار مثلا (ويعرف ايضا بالسبييا والسبيط وام الحرب) في طوره اليافع اقل ما يكون شبيها بديدان الارض، ولكن هذين النوعين يمتان بصلة قربي وثيقة لحيوانات تكاد يرقاتها ان تكون متماثلة. وهذه اليرقات الدقيقة التي تسبح حرة في الماء ذات تماثل دائرى وجسمها مغطى تماما بالأهداب، مما يجعلها تظهر مختلفة تمام الاختلاف عن يرقفات

(1) Twenhofee, W., 1950: Principles of Sedimentation, Mc Grow - Hill, PP. 113-121.

(2) Ibid., PP. 135 - 140.

الحبليات الأولية البدائية ونجوم البحر ذات التماثل الجانبي والاهداب المتجمعة في شرائط⁽¹⁾.

■ - وتتلخص النتيجة التي وصل إليها العلماء من مجموعة الشهادات والفرضيات التي أوردناها في ان خيوط [التطور] عند بلوغها احد المواضع في مرحلة التطور التي نشأت اباها الديدان المفلطحة، تفرعت الى فرعين منفصلين من السلالات قام كل منها بانشاء تركيبات ارقى.

ومن التوزيع الجغرافي للكائنات الحية توصل العلماء الى وجود نمط تتميز به كل منطقة من المناطق فوق الارض بمجموعات من الحيوانات Fauna تختلف من منطقة لأخرى وان تشابهت المنطقتان في المناخ . . مثل كل من اواسط افريقية وشمال أمريكا الجنوبية . . حيث تختص افريقيا بانواع خاصة من الحيوانات مثل الفيل والجاموس البرى والحمار الوحشى والزراف والقردة العليا، مما ليس له شبيه في امريكا الجنوبية التي تتميز بوجود الخفافيش والثدييات عديمة الاسنان . . ويعزى العلماء استقلال كل من المنطقتين المتشابهتين في المناخ بانواع خاصة من الحيوانات لى ان تطور حيوانات كل منهما كان مختلفا بسبب وجود حواجز طبيعية: Natural barriers ادت الى عزل Isolation كل من حيوانات المنطقتين عن بعضهما . . وانقرضت اسلافها في بعض المناطق الاخرى اثناء صراعها من اجل البقاء.

ومن دراسة العلماء لاطراف الحيوانات المختلفة وجدوا تشابها كبيرا بينها، اما في وظائفها او في اجزائها . . والنوع الاول يسمى «تشابه وظيفى» Analogy . . وفي ذلك يرى العالم الامريكى [سيمبسون Simpson ان بعض الاعضاء الاثرية التي تفقد وظيفتها الاصلية قد يحدث فيها تخصص لاداء وظيفة اخرى . . فمثلا نجد ان جناح طائر البطريق Penguin ضامر الى حد كبير بحيث لا يسمح بالطيران . . ولكنه اصبح مجدافا كفواً للسباحة، وكذلك جناح النعام Ostrich صغير جدا غير انه

(1) Ibid., PP. 157 - 161

يستخدم في تحقيق التوازن حينما يغير الطائر اتجاهه وهو يجرى بسرعة^(١).
وتوجد عند علماء الأحياء امثلة اخرى للاعضاء المقرضة في حيوانات كثيرة. . . من ذلك على سبيل المثال عدم وجود أية أطراف للثعابين. . . ولكن بعض الانواع البدائية منها مثل (ثعبان البايثون Python) تحتوى على بقايا ضئيلة للطرفين الخلفيين^(٢). . .
● - ونحن لا نرى في ذلك شيئاً من الدعم العلمى لنظرية التطور الواهية. . .

● . السلف المشترك للكائنات الحية قبل ظهور الانسان

ويفسر العلماء مسألة التشابه التشريحي بين الحيوانات بأن كل مجموعة منها قد توارثت خطة متشابهة من الاسلاف (Ancestors) المشتركة لهذه المجموعة، ولقد تحول كل قسم او جنس او نوع من هذه المجموعة بطريقة خاصة تبعا لنوع حياة الحيوان. . . ولكنها ظلت جميعا متشابهة، فلو قارنا بين أجزاء الطرف الامامى للطائر والخفاش نجدها متشابهة تقريبا، وكذلك فهي تؤدى نفس الوظيفة وهى الطيران. . . مع اختلاف بين الريش فى جناح الطيور والجد فى جناح الخفاش. . . ويستنتج العلماء من ذلك ان المنشأ هو (سلف مشترك) واحد Common ancestor. . . كما لاحظ العلماء ان الحيتان Whales وجميع الثدييات الاخرى تشترك فى التشابه بين الاطراف الامامية بالرغم من بقاء الحيتان فى الماء، مما جعل العلماء يستنتجون ضرورة وجود سلف واحد مشترك لكل منهما فى الماضى السحيق يفسر لنا وجود التراكيب المتشابهة بين الحيوانات المختلفة^(٣).

كوفية يهدم نظرية السلف المشترك للكائنات الحية :

وهو عالم فرنسى شهير تخصص فى علم الحفريات رفض الايمان بنظرية التطور وقال بأن العالم تعرض لسلسلة من الانقلابات والثورات الطبيعية، وكانت هناك فترة من الزمن بين كل انقلاب وآخر، هى ما نسميه الآن بالعصر الجيولوجى .

(١) د . عبد العليم عبد الرحمن خضر - المرجع السابق ص ٦٨ .

(٢) على احمد الشحات - نظرية التطور - القاهرة ص ٧٢ - ٧٤ .

(٣) د . علم الدين كمال - المرجع السابق ص ٩٦٥ .

ويقول بأنه في نهاية كل فترة كانت الحيوانات الموجودة تبنى عن آخرها نتيجة لاحدى الكوارث الطبيعية التى يخصصها الخالق الأعظم سبحانه وتعالى لتبديل أمم المخلوقات بأمم أخرى، ثم تبدأ الفترة التالية بخلق جديد.

أما أوجه الشبه بين المجموعات المتعاقبة، فقد فسرها «كوفية» بأنها جاءت نتيجة لأن الخالق يعيد خلق الكائنات على صورة أفضل من السابقة، وأقرب إلى الكمال، فتظهر نتيجة لذلك ما يسميه العلماء الآن بالصفات التطورية.

وبدراسة العلماء للتاريخ الجيولوجى للأرض وجدوا ان البرمائيات قد نشأت من بعض قصيرات الزعانف بتحول الزعانف الى ارجل وتلاشى الخياشيم مما جعل عبء التنفس يقع بأكمله على الرئتين والجلد، وفي الوقت ذاته كون جزء من القوس الخيشومى الثانى عظمة الاذن الوسطى التى تتولى نقل ذبذبات الصوت التى يحملها الهواء من طبلة الاذن الى الاذن الداخلية.

ووضعت احدى سلالات البرمائيات بيضة ذات غطاء واق لتلائم المعيشة الارضية، وجلدا جافا غير منفذ للماء، وحزاما حوضيا يستند الى فقرتين وبذلك اصبحت زواحف بدائية.

وأصبحت بعض الزواحف «شبيهة بالثدييات» بانشاء فتحة فى الخد لتتسع عضلات الفك، وبزيادة نمو احدى عظام الفك الاسفل، وتتحول الاسنان الى عدد من الاشكال المتخصصة. ونحن نقول هنا ان دل ذلك على شىء فانها يدل على عظمة الله وانفراده بالخلق.

ويقول العلماء أن الزواحف أصبحت بعد ذلك شبيهة بالثدييات من الحيوانات ذات الدم الحار، ويشمل ذلك تكون سقف الحلق والحجاب الحاجز وغطاء من الشعر وارضاع الصغار. وكانت هذه الحيوانات هى الثدييات الاولى.

ويقول العلماء أن خطأ من خطوط سلالات الثدييات قد استقل مكونا اول آكلات للحشرات بتحسين طريقة التكاثر. ويشمل ذلك انشاء الرحم، والمشيمة والحبل السرى فى الجنين. . ونحن نقول لهؤلاء العلماء، وهل يكون ذلك الا بقدره الخالق الواحد سبحانه وتعالى؟. . ثم يزعم العلماء أن آكلات الحشرات البدائية قد قامت بنشاء انتج جميع [الثدييات المشيمية] التى تعيش اليوم. وكان من بينها مجموعة

تتكون من «الليموريات والتارسويدات» تتميز بايد قابضة لها بعض الاظافر المسطحة على الاقل، وبنصفى كرتين مخيتين كبيرين نوعا ما، وكانت العين قد اصبحت اهم اعضاء الاحساس^(١).

وقد ايد بعض العلماء مبدأ [التشبع التكيفى] أو [الانتشار البيئى] زاعمين ان السلالات التى تنحدر من أصل واحد قد تنتشر انتشاراً كبيراً فى بيئات مختلفة إذا ما سنحت لها الفرصة، ويكون لكل منها صفات خاصة ملائمة للبيئة التى تعيش فيها. ويقولون أنه بدراسة [الثدييات المشيمية الراقية] وجد ان أسلافها كانت تعيش على هيئة حيوانات صغيرة من آكلات الحشرات، وذلك عند نهاية عصر الزواحف، ويزعمون أنه باندثار حيوانات [الديناصور] العملاقة، أصبحت الفرصة مهياة أمام هذه الثدييات للتطور والانتشار، فبدأت تعيش فى بيئات مختلفة، وتتخذ كل منها صفات خاصة بها حسب ظروف بيئتها. . وأنه تبعاً لذلك ظهرت اسلاف الثدييات المتنوعة التى نعرفها كالحفاشيات والحيتان والبقر والقردة والأسود. . وغيرها. .

ومن دراسة الحفريات المختلفة Paleontology وضع العلماء ايديهم على ادلة اخرى على احتمال حدوث التطور البيولوجى للكائنات الحية قبل ظهور الانسان على الارض. . فقد وجدوا ان السجل الحفرى يشتمل فى اول صفحاته على حيوانات تختلف عن تلك التى نشاهدها فى صفحات المعاصرة. . ويبدأ بحيوانات تختلف اختلافاً كبيراً، ثم اعقبت هذه تدريجياً بحيوانات اخرى اكبر شبيهاً بحيواناتنا الحديثة حتى تمتزج تلك بالحيوانات التى تعيش فى وقتنا الحاضر^(٢).

ويزعم الداروينيون أنهم من خلال دراسة الحفريات القديمة لمسوا تطور الانواع ببطء واستمرار حتى تغيرت هيئة الحيوانات والنباتات من فترة الى اخرى ولاحظوا ازدياد الاختلاف بينها ووضوح معدلات التغير مع مرور الزمن. . ويقولون ان ذلك لا يتطلب ان تكون سرعة التغير فى المجموعات المختلفة (او فى الانواع المختلفة لنفس المجموعة) ثابتة. . فمن الدراسات الجيولوجية للحفريات وجد العلماء ان تطور الخيول قد استغرق ما يقرب من ٥٠ مليون سنة، ويقولون انها هاجرت. . [او بعضها

(١) روبرت ل. ليرمان - المرجع السابق ص ٢٥٩.

(٢) د. عبد العليم عبد الرحمن خضر - المرجع السابق ص ٦٩.

على الأقل] من امريكا الشمالية الى اوربا، وانها كانت ضئيلة الحجم، اذ ان الحفريات تدل على ان جسمها في حجمه لم يكن ليزيد على حجم جسم الثعلب وارتفاعها لم يكن ليتعد القدم الواحد، وكانت قصيرة الساق بها اربعة اصابع في الامامية وثلاثة في الخلفية، وكذلك لم تكن عينها على جانبي الرأس كما هي الان، بل كانت في الجزء الامامى . . . وكانت بطيئة السير وتلوذ بالفرار بين الحشائش والنباتات .

العقم التطورى والانقراض

يزعم الملحدون من اتباع المذهب الداروينى ان بعض الأنواع الحية تظل ثابتة خلال فترات طويلة من الزمن، لا يطرأ عليها تغير ما، ويطلق على هذه الظاهرة اسم «العقم التطورى»، أى توقف عملية التطور، ومن ثم يحدث انقراض مجموعات مختلفة من الحيوان بعد ان تكون قد وصلت إلى مراحل معينة من التطور.

وبعض الملحدين من الداروينيين المحدثين يزعمون ان تفسير هذه الظاهرة هو أن الكائن الحى يكون قد وصل الى اقصى ما يمكن أن يصل إليه من التكيف مع بيئته . ولقد قامت مناقشات حامية بين العلماء حول الأسباب الحقيقية التى تؤدى إلى انقراض الحيوانات . . . إلا أنهم لم يصلوا إلى شىء يمكن الاعتماد عليه .

وقد اصبحت الكائنات الحية تثير امام القائلين بالتطور مشكلات كثيرة فبعض الكائنات ذات الخلية الواحدة مثل الاميب، تتكاثر من غير لقاح جنسى بل انها تنقسم على نفسها وتشكل كائنات مثلها . فاذا كان الانتاج من غير لقاح جنسى ناجح ، وهو ناجح حقا، على اعتبار انه يوجد حتى اليوم كائنات تتكاثر بهذه الطريقة فلماذا توجد مخلوقات تتكاثر بالتلاقح؟ وكيف تستطيع اعضاء تناسل كل من الذكر والانثى ، أن تتطور تدريجيا وبنسبة واحدة مع انها تكون غير نافعة قبل تكونها النهائى؟ واذا كانت غدد اثناء النساء، وغدد ضرورع الحيوانات قد نمت بتطور بطىء فكيف استطاعت هذه الاناث ارضاع اطفالها قبل ان يكتمل نمو غدد الاثداء والضرورع؟ واذا كانت لديها وسيلة اخرى لتغذية اطفالها فلماذا كانت بحاجة الى انهاء الاثداء والضرورع؟ واذا كانت الغدد الثديية والضرعية قد ظهرت لانها كانت تمثل طريقة رفيعة لتغذية الاطفال فلماذا يوجد حتى اليوم حيوانات تغذى اطفالها بطرق اخرى، وان هذه الحيوانات تعيش كما تعيش ذات الاثداء والضرورع؟ .

نظرية النماذج الأصلية

غير ان العلماء يشيرون الى وجود أدلة على حدوث التطور من علم التقسيم Evi- dences From Taxonomy حيث قالوا بأن الخالق سبحانه وتعالى خلق الكائنات الحية من مجموعة التصميمات Plans تعرف بالنماذج الاصلية، وانها لم تكن في نفس المرتبة . . فمثلا كل رتبة «مثل الزواحف» تمثل نموذجا اصليا رئيسيا، بينما تماثل الفصائل المختلفة داخل الرتبة الواحدة (مثل السحالي او التماسيح او السلاحف) نموذجا اصليا ادنى مرتبة . . وهكذا . . ومن اهم هؤلاء العلماء العالم السويدي ليننيوس Linnaeus والعالم البيولوجى البريطانى John Ray . . ويقولون بان التصميمات او النماذج الاصلية تتدرج من القبائل الى الرتب فالفصائل Classes فالعائلات Families فالاجناس فالنوع Species وكان هذا التقسيم يشبه الى حد كبير فروع شجرة العائلة، فترتيب هذه الاقسام يوحى بشدة بانها نشأت بواسطة التطور كل من المرتبة التى تسبقه . . وبالرغم من ان الشجرة التصنيفية من صنع العلماء فانها توحى اليهم بان الكائنات الحية قد اتبعت هذه الطريق اثناء نشوئها . . من بذرة واحدة . . هى اصل الانواع . . (1).

ولا شك ان الهيئات التى تنتمى الى الطبقة العامة من الحيوانات «الجالسة» اى الكائنات العضوية المعقدة - اى المتصلة بالقاعدة مباشرة - وهى بداية عالية فى مظهرها التكويني هى اعضاء شعبة اللاحشيرية - وهى حيوانات بحرية لا فقارية ذات تجويف بطنى يعمل عمل القناة الهضمية بها فى ذلك هيئات قاع البحر المعقدة اى المتصلة بالقاع مثل شقار البحر ومتعدد الرؤوس والشعب المرجانية مع قنديل البحر، كحيوانات حرة فى طفوها . ومعظم الحيوانات المعقدة تعتمد فى طعامها على الطفيليات الصغيرة التى تطفو حولها فى التيارات . والمقعدات هذه لها خاصية واحدة جعلتها ناجحة نجاحا متوسطا بطريقة غير عادية . فقد كونت خلايا لاسعة غريبة يمكن القاؤها مثل شص دقيق لأسر المخلوقات ذات الحجم الكبير وحتى الاسماك الصغيرة . وشعبة ثمانية رئيسية معظم اعضائها من الحيوانات المقيمة اى التى تكثر من

(1) G.S Carter - Animal Evolution, PP. 113-121.

الجلوس هي الحيوانات الرخوية. فالمحار والبطلينوس والقواقع تمثل هذه الحيوانات الرخوية ومعظمها هيئات مقيمة، تعيش على ذرات الغذاء الذى يجرفه التيار الى الجسم المغطى بالصدف. . والحيوانات الرخوية تصور بطريقة معقدة الطريقة التى ربما تحدث بها التغييرات الجذرية فى شكل الحياة اثناء تاريخ التطور. . ويوحى شكلها المتطور بأن الحيوانات الرخوية المقيمة قد تطورت فى الأيام القديمة من دديان حلقيه نشطة سابحة. .

■ - وهذه النظرية تبدو غير ممكنة ولا تخرج عن حيز الفرضيات حتى لو ادعى بعضهم اكتشاف نوع قوسى من الحيوانات الرخوية منذ سنوات قليلة مضت فى اعماق المحيط الباسيفيكي يحتمل ان يكون اثار من الجسم [الحلقى الاصلى] وفصوصه وهو الذى ضاع كله فى الحيوانات الرخوية النموذجية ونحن نرى انها مجرد فرضية ناقصة حتى لو ادعى بعضهم انه بعد ان اصبحت عقيمة هبت بعض الحيوانات الرخوية الى النشاط مرة اخرى وان هذه هى حالة الحيوانات الرخوية المقسمة الى اجزاء صغيرة والمعروفة علميا باسم الحيوانات راسيات الارجل التى كان لها قواقع متطورة تطورا جيدا، او الانواع الحديثة التى قللت من الغطاء المحارى وبذلك نقصت من وزنها، وأنه على ذلك اصبحت اعظم نشاطا وعداء كسكان للمحيطات^(١).

(١) انظر فى ذلك :

Russel, F.S. et al., 1947: The Seas, Fred. Wor. and Co. Ltd., PP. 220-231.

عالم الفقاريات في التاريخ الجيولوجي القديم

مازال بعض العلماء يزعم أنه كانت هناك شعبا مفقودة وكانت في البدء اجدادا للحيوانات الجالسة بدلا من المتحركة. كما يزعمون أن الاعضاء البدائية كانوا عبارة عن حيوانات صغيرة مقيمة غير مهاجرة واحيانا لها ساق فوقها نقطة لحمية تحتوى على تجويف صغير يعمل عمل القناة الهضمية، وفي أعلى يوجد فم وفوق الفم في جميع الاعضاء البدائية لكل فريق، اذرع تسمى «لوففورش» من اثنين الى ستة او نحو ذلك ممتدة الى اعلى والى الخارج لجمع ذرات الطعام وكل ذراع به يد من الاهداب لحمل هذه الذرات الى الفم المفتوح⁽¹⁾. ويدعى العلماء أن تلك المخلوقات أخذت تسير في اتجاه الحيوانات الفقارية الحقيقية مثل في الحيوانات البحرية الصغيرة المعروفة باسم الزقيات (حيوانات بحرية شبيهه بالزقاق) كالحبار. وهى ملتصقة عادة وفي مستعمرات ولكنها احيانا تطفو بحرية. وفي هذه الحيوانات الدقيقة جهاز تصفية الطعام او شقوق الخياشيم متطوره بدرجة عالية حتى ان اعظم جزء من الحيوان يحتوى على برميل ضخم مناسب وحنجرة تحيطها مجموعة معقدة من فتحات الخياشيم. وقد يكون هذا النوع النهائى لحيوانات الطعام الطافية على هيئة يرقية، [أفترض] وجودها في اجداد الزقيات وتشير الى اتجاه تطورى جذرى جديد. وفي هذه اليرقية توجد تكوينات تسمح للحيوانات الصغيرة بان تسبح بحرية تامة لفترة قصيرة بطريقة فرخ الضفدع. وبالتباين مع الزقيات البالغة فان هذه اليرقة لها مخ بدائى واعشاء حس ويجرى في خلف الجسم حبل عصبى مثل ذلك الذى يوجد في جميع الفقاريات الحقيقية وتحت هذا الحبل العصبى يوجد تكوين طولى قوى اى الحبل الظهرى، الموجود في جنين اى حيوان فقارى وهو السلف للعمود الفقرى. وفي الزقيات الحديثة فان هذه اليرقة تستمر لعدة ايام قليلة او ساعات قبل ان تستقر لكى تصبح في حالة بلوغ وهيئة متكاملة ويفترض العلماء انه في بعض مراحل العصر [البليوزويك] فان يرقة من هذا النوع استمرت لكى تصبح كاملة الانوثة وعلى ذلك بدأت مجموعات جديدة من الحيوانات النشطة جاءت منها الفقاريات ونسبت اجدادها الهدبية. [ويرى بعض العلماء]:-

(1) Ibid., PP. 235-238.

● - ان اقدم الفقاريات المعروفة، والتي يرجع تاريخها الى ٤٠٠ مليون سنة مضت، او نحو ذلك في العصر الاردفيشي للدهر القديم لم تتقدم فعلا فيما وراء المرحلة التي ترى في صفة الزقيات فيما عدا انها وصفت بانها ذات درع سطحي عظمي بافتراض انها حماية ضد الاعداء غير الفقارية. وهي مثل اقربائها من الحيوانات الجبلية كانت ولا تزال تتغذى بالمصافي وتصنع بديها معيشتها بتصفية المواد الغذائية من خلال بلعوم ضخمة^(١).

● - هذه الفقاريات الاولية تسمى OSTRACODERMS اصبحت منقرضة بوقت طويل قبل الدهر القديم. واقرب نسلها الحى هي الاسماك الجلدية واسماك الحريث (المفترسة للاسماك الاخرى) في المياه الحالية.

وبالرغم من ان البحر كان المصدر الذى جاء منه اجداد الاسماك، فمن المحتمل ان معظم تطور الاسماك، وعلى الاخص تلك ذات التطور العظمى الاعلى حدث في المياه العذبة. ويحتمل وجود اثنين من الاقسام الثلاثة الرئيسية للاسماك العظيمة كان لهما شأن قليل مع البحر، فالاسماك المزدوجة التنفس كالاسماك الرئوية، وهي نادرة اليوم، كانت كثيرة في البحيرات والنهيرات في ايام الدهر القديم ولكن قليلا منها دخل البحر. وبطريقة ما وبالمثل سجل تاريخ فريق ثان لاسماك CROSSOPTERYYS نفس الأسلوب والنمط الحياتى. وهذا النوع من الاسماك على درجة عظيمة من الاهمية لانه كان السبب في ظهور الفقاريات الارضية. ولكنه كسماك، كان متوفراً في المياه العذبة وسرعان ما نقص عدده وانقرض تماماً قبل نهاية الدهر القديم. وتكشف الاثار الحفرية ان فرعا جانبيا خاصا من هذه الاسماك يسمى COELACANTHS غادر المياه العذبة مبكرا الى المحيط. ولكن سجل الحفريات قادنا لنعقد انها اصبحت منقرضة في اخر ايام [الديناصور]. وعلى ذلك كان الامر على درجة كبيرة من الاهمية العلمية عندما عثر على واحدة منها حية منذ عدد قليل من عشرات السنين اسمها LATIMERNA وقد اكتشف في المياه العميقة للمحيط الهندي الغربى^(٢).

(1) Ibid., PP. 278-281.

(٢) الفرد شيرود رومر - المرجع السابق - ص ٨١.

● - ان تاريخ الفريق الثالث من الاسماك العظيمة يختلف تماما اسماءه AC-TINDPTERYGII او اسماءك «الشفيتين» ذات الزعاف لان زعانفها المزدوجة على عكس زعانف السمك الرئوى لها لحم قليل او هياكل ، وبدلا من ذلك فهى اساسا عبارة عن انسجة من اللحم تقويها خيوط قرنية . وفي الايام المبكرة او الاولى لتاريخ السمك العظمى كان وجودها نادرا نسبيا ولكنها زادت فيما بعد بسرعة فى اعدادها وانواعها . وبالرغم من انها مثل الانواع العظمية الاخرى ، فربما تكون قد نشأت فى المياه العذبة ثم بعد ذلك غزت البحر وملءت المحيط منذ ان ظهر الجزء الاعظم لتعداد الاسماك واوجد ممثلين لهذا الفريق المعروف باسم الاسماك العظمية وربما اشتمل على ٣٠٠.٠٠٠ او نحو ذلك من الانواع المختلفة من الاسماك البحرية وعدد افراد هذا الفريق لا بد انه كان بالوف الملايين (١) .

صور الحياة على اليابسة فى العصر السيلورى

دعنا الان نتحول الى صورة الحياة على اليابسة أثناء العصر السيلورى كما يفترضها العلماء فالنباتات وبعدها الحيوانات غزت المياه العذبة ثم بعد ذلك اليابسة . وتقدمت النباتات من البحر الى داخل مياه البلاد فى العصر السيلورى منذ ٤٠٠ مليون سنة مضت او نحو ذلك ، ان لم يكن من قبل ، ثم ابان العصر الديفونى الذى تبع العصر السيلورى فتقدمت الى الحد الذى نعرفه من الغابات المتحجرة لهذه الايام . وتطور الحيوان وتقدمه نحو وعلى اليابسة لم تكن له جبهة عريضة لان الانواع البالغة النشاط استطاعت ان تدخل المياه العذبة وتحمل التدفق المتجه الى مجارى القارات .

ويرى العلماء ان الانواع المختلفة تشبه بعضها البعض فى اطوارها التكوينية المبكرة اكثر من التشابه الموجود بين الاطوار اليافة . . ومن ثم - وحسبما يرى العالم الالمانى فون بير Von Baer - قال العلماء ان الحيوان اثناء تكوينه (الجينى) لا يمر بالاطوار اليافة للحيوانات الاخرى وانما يبتعد عنها . . وبمعنى اخر . . يقول العلماء ان

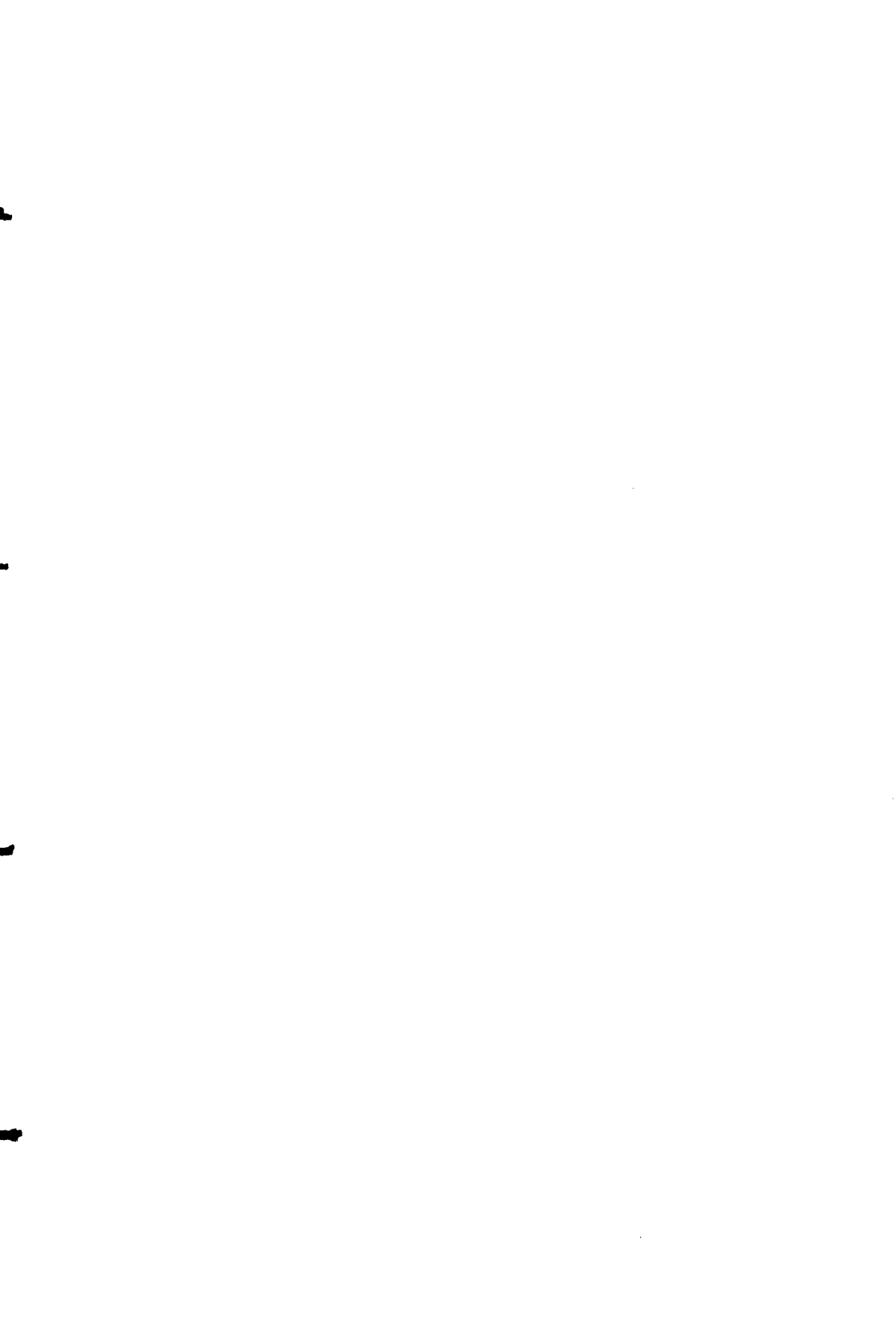
(١) المرجع نفسه ص ٢٦٠ : ٢٨٨ .

الحيوانات تختلف في اطوارها البالغة بعضها عن بعض بشكل واضح ، بينما تشابه اجنتها تشابه تشابه كبيراً لدرجة قد يصعب فيها التفرقة بينها في الاطوار الاولى من تكون تلك الاجنة ، ولكن مع تقدم عملية التكوين ، تنمو وتتطور اجنة تلك الحيوانات وأنه كلما نمت بعض الشئ اختلفت في الملامح عن بعضها بعضاً . ويرى العلماء أن علم الاجنة المقارنة Comparative Embryology بذلك يكون قد ساعد على معرفة القرابة او الصلة او وحدة الاصل بين كثير من الحيوانات^(١) . .

■ - وكيف لا تتحد المملكة الحيوانية بكل انواعها في الاصل . . والخالق العظيم سبحانه وتعالى واحد . . ؟ . . ﴿أَمْ خَلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ . . (الطور: ٣٥) .

● - واذا كانت كل هذه الحيوانات والنباتات تختلف عن بعضها اليوم وتختلف كلها عن الصورة الاصلية الاولى ، فقد امرنا الله سبحانه وتعالى ان نسير في الارض لنرى كيف كانت تلك الصورة الاولى لنعرف ان قصة الخلق الطويلة لتلك الكائنات انما تشهد على قدرة الله الواحد الخالق المبدع المصور . . فسبحان الله . . وتبارك الله احسن الخالقين .

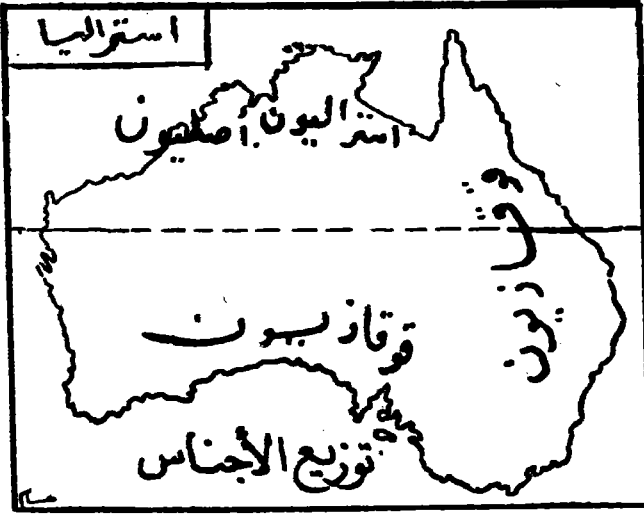
(١) د . عبد العليم عبد الرحمن خضر - المرجع السابق - ص ٨١ .



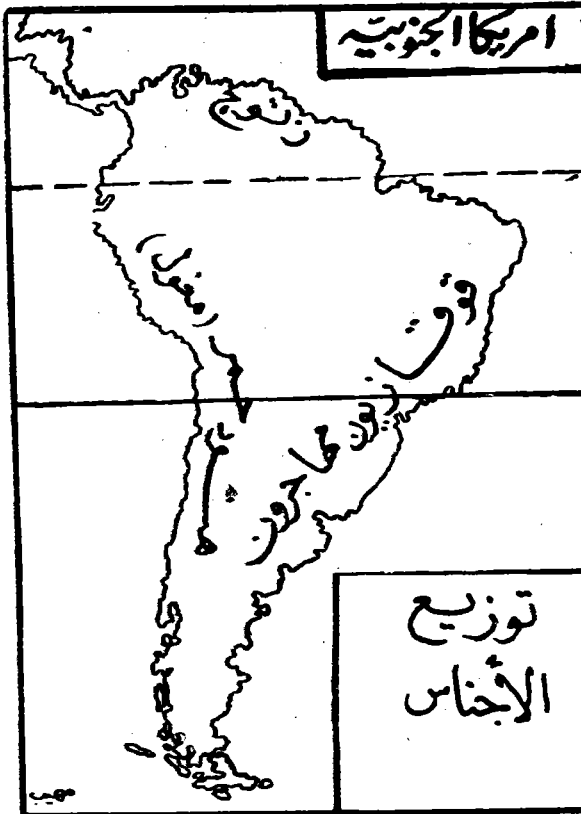
الفصل الثالث

الأجناس البشرية القديمة وانتشار الانسان في الأرض

- . السلالة وأسس تصنيف البشر.
- . تصنيف الأجناس البشرية.
- . أهم الأسس أو الصفات التي اتخذت أساساً لهذا التصنيف.
- . دوافع انتشار الأجناس البشرية في الأرض.
- . الوطن الأول للانسان.
- . الاجناس البشرية القديمة في افريقية.
- . التوزيع الجغرافي للأجناس البشرية في افريقية القديمة.
- . الذبذبات المناخية ومراحل التحضر البشرى.
- . الانسان كعامل جغرافي.
- . أثر الانسان في البيئة وتأثره بها.
- . القنص والصيد عند الانسان القديم.
- . العوامل التي أثرت في انتشار الاجناس البشرية في الأرض.
- . اكتشاف النار.
- . الطقوس الجنائزية.
- . الفنون البدائية وأنماط التحضر البشرى في العصور القديمة.
- . المعتقدات القديمة والنظم الاجتماعية.



توزيع الاجناس البشرية في استراليا



توزيع الاجناس البشرية في أمريكا الجنوبية



المصدر / National Geographical Society.

ملامح افريقية تبدو واضحة من تقاسيم

وجه هذه الفتاة الزنجية

السلالة وأسس تصنيف البشر

- - معنى السلالة: مجموعة كبيرة من الناس تشترك مع بعضها في صفات جسمية ظاهرة ثابتة تنتقل بالوراثة، ويعتبر الانسان من نوع متعدد Polytypic Species إذ أنه يتكون من عدد من الأجناس الفرعية، وهذا التعدد نشأ نتيجة الزيادة في العدد ثم العزلة عن طريق الحواجز الجغرافية.
- - تعريف آخر: جماعة من أفراد البشر تتصف بصفات بدنية معينة وراثية تميزها عن غيرها من الجماعات .

تصنيف الاجناس البشرية

- - تصنيف دنكر J. Deniker :-
أول تصنيف علمي للأجناس البشرية، استطاع به دنكر أن يميز بين مجموعات بشرية رئيسية على أساس [شكل الأنف - وشكل الرأس - شكل الشعر ولونه - لون العين]. وهي :-
 - ١ - مجموعة الشعر الصوفي والأنف العريض وتشمل البوشمن والهوتنتوت في إفريقيا والأقزام الآسيويين في آسيا.
 - ٢ - مجموعة الشعر المجعد أو المموج وتشمل الدرافيديين والاستراليين والأثيوبيين.
 - ٣ - مجموعة الشعر المموج والعيون الداكنة وتشمل الأفغانيين، والادرياتيين والدينارين، والعرب، والبربر، والأوربيين.
 - ٤ - مجموعة الشعر الأصفر المموج أو المستقيم والعيون الفاتحة وتشمل الأوربيين الشماليين.
 - ٥ - مجموعة الشعر المستقيم المموج الأسود والعيون الداكنة وتشمل البولينييين والاندونيسييين.

٦ - مجموعة الشعر السبط المغولية وتشمل الهنود الحمر في الأمريكتين والمغول الشماليين والاسكيمو.

● - تصنيف هادون A.C. Haddon سنة ١٩٢٧ :-

وقد اعتمد فيه على شكل الشعر ثم مجموعة من الصفات المساعدة كشكل الرأس ولون البشرة وطول القامة في تقسيم المجموعات الجنسية الكبرى إلى مجموعات أصغر تشترك في صفات عامة للمجموعة . وهي :-

- ١ - المجموعة الزنجية [الشعر الصوفي] وتشمل الاندمان - السيانج - الأيتيا - التابيرو - الميلاينزين - البوشمن والهوتنتوت - الزنوج النيليين - والباننوت.
- ٢ - المجموعة القومازية [الشعر المموج] وتشمل : الدرانيدين - الساكاي - الفدا - الاستراليين - الهنود - الأفغان - النزويق - سلالة البحر المتوسط - الساميين - الأوريين - الأناضوليين .
- ٣ - المجموعة المغولية [الشعر المستقيم] وتشمل : الاسكيمو - الأرمن الشماليين - الأتراك - التنجس - المغول ، البولينييين .

● - تصنيف فون ايكشتد E.Von, Eiekstedt سنة ١٩٣٣ :-

وقد قسم الأجناس البشرية إلى ثلاث مجموعات رئيسية وهي الأوريين (البشر الغربيين)، والسود (البشر الجنوبيين)، والمغول (البشر الشرقيين) مع وجود مجموعات فرعية أخرى، وافترض أن الوطن الأصلي للإنسان هو سهول التركستان التي انتشر منها إلى باقي آسيا، وذكر أن العزلة الجغرافية هي المسؤولة أولاً وقبل كل شيء عن ظهور المجموعات البشرية الكبرى .

● - تصنيف هوتون A.E. Hooton :-

قسم (هوتون) البشر إلى ثلاث مجموعات رئيسية وهي البيض أو القوقازيين، والزنوج والمغول، واستخدم في تقسيمه هذا لون الشعر والعين وشكل الرأس - وذلك حسب التصنيف الآتي :-

- ١ - القوقازيون البيض (الأوريين والافريقيون الشماليون) وتضم مجموعات فرعية منها مجموعة البحر المتوسط ، والايانو ، والكلتيون والنورديون - والألبان - والاستراليون - والتسمانيون - الدرانيديون - البولينييين - الأرمن .

٢ - الزوج: الأقزام النجريللو - البوشمن - الهوتنتوت - الميلانيزيين .

٣ - المغول: المغول الأصليون - الاندونيسيون - الهنود الحمر .

● - تصنيف سونيا كول Sonia Cole :-

وهو يعتبر من أفضل التقسيمات البشرية لسهولة، ولأنه أدخل في الاعتبار عند التصنيف فصائل الدم التي تعتبر من أدق وأحدث طرق التصنيف، وقد قسمت سونيا الأجناس البشرية إلى ٤ أقسام رئيسية هي :-

١ - المجموعة القوقازية وقد ضمت جنس البحر المتوسط - الألبين - النوردين - البربر - المصريين - الأثيوبيين - الصوماليين .

٢ - المجموعة المغولية وقد ضمت: الاسكيمو - الهنود الحمر - الأتراك - مغول التبت وشرق آسيا - الصينيون .

٣ - المجموعة الزنجية وقد ضمت: الزوج الحقيقيون . الأقزام (النجريللو) - الحاميون النيليون - البانتو - البوشمن والهوتنتون - الشعوب الخويسانية .

٤ - المجموعة الأسترالية، وقد ضمت: الاستراليين الأصليين - الاينو - الفدا - الميلانيزيين .

والصفات التي تميز أجناس البشر هي صفات جسمية ظاهرة، ولا ينظر الى صفات أخرى كالصفات الثقافية فاللغة أو الدين أو الثقافة انها هي صفات مكتسبة فلا يوجد سلالة مصرية أو سلالة انجليزية فهذا خطأ . فالمصرية والعربية قومية ولا علاقة لها بالسلالة وصفة العربية ترتبط باللغة واللغة مكتسبة قد تتكلمها مجموعات بشرية متعددة والشعودي التي تتكلم من آسيا وافريقية تنتمي الى سلالات جنسية مختلفة . ومن النادر أن يكون هناك شعب من الشعوب مكونا من مجموعة واحدة أو أن تكون جنسا من الأجناس مكونة لشعب واحد (الشعب هنا مرادف للأمة فالأمة العربية أو الشعب العربي شعب واحد وقد تكون فيه أجناس متعددة) .

● - أما الصفات أو الأسس التي بنى عليها تقسيم البشر الى أجناس فهي : صفات يمكن مشاهدتها كلون البشرة وشكل الشعر أو لونه وشكل العين ولونها أو صفات يمكن تحليلها كفتات (فصائل) الدم أو أسس يمكن قياسها كشكل الرأس وشكل الوجه وشكل الأنف .

والصفات الجسمية ثابتة لا تتغير بسهولة من جيل الى جيل بل هي صفات وراثية تعتبر أساسا لتقسيم البشر الى سلالات ولا يصح اتخاذ أساس واحد من هذه الأسس لتقسيم البشر بل الأفضل أن يؤخذ أكبر عدد ممكن من هذه الأسس لتقسيم الناس الى سلالات ويقسم البشر الى أجناس أهمها الزنوج والمغول والقوقازيون .

■ - وأهم الأسس أو الصفات التي أتخذت أسسا لهذا التصنيف :-

● - شكل الشعر: صفة ثابتة فشكل الشعر الزنوج مفلفل كثير التجعيد وشعر المغوليين مستقيم، وشعر القوقازيين مموج وشكل الشعر يرتبط بقوانين الوراثة ولا يعرف أنه يتأثر بالمناخ أو الغذاء أو السن .

● - شكل الرأس: وهي صفة ثابتة أيضا من أهم الصفات لتمييز الأجناس فهناك رأس طويل (توجد نسبة عرض الرأس الى الطول ويعبر عن هذه النسبة بكسر مئوى وتعرف بالنسبة الرأسية) وهناك رأس عريض وبينهما رأس متوسط أو معتدل ويغلب أن يكون أصحاب الرؤوس العريضة مستديرو الوجوه وأصحاب الرؤوس الطويلة مستطيلو الوجوه . ومن عيوب هذه الصفة أنها لا تساعد على تمييز الأجناس الرئيسية بعضها عن بعض فالسلالة القوقازية بعضها طويل الرأس وبعضها عريض الرأس فالزنوج غالبيتهم طوال الرؤوس الا أن الاقزام ذوو رؤوس عريضة نوعا ما . والهنود الحمر في أمريكا بالرغم من تجانسهم في معظم الصفات الا أنهم يختلفون في شكل الرأس . ولكن هذه الصفة مفيدة في التعرف الى الأجناس القديمة وحفريات البشر والأجيال السابقة التي كانت تسكن الأرض .

● - شكل الوجه: فهناك وجه طويل ووجه عريض وقد ذكرنا أن هناك علاقة بين شكل الوجه وشكل الرأس مع استثناءات وأهم ما يؤثر في شكل الوجه عظام الوجنتين فبروز عظام الوجنتين يمتاز به المغول، وبروز الفك يمتاز به الأجناس البدائية مثل الأستراليين الأصليين كما يمتاز به الزنوج وهناك تقهقر الجبهة وهي صفة الأجناس البائدة .

● - شكل الأنف: ولها نسبة بين عرض الأنف وطوله فالزنوج فطسى الأنوف بوجه علم أى أنهم ذوو أنوف عريضة على حين أن أنوف القوقازيين ضيقة وأنوف المغوليين متوسطة وهي صفة هامة في التعرف على الأجناس البشرية القديمة .

وتتجلى قدرة الله في خلق صلة بين شكل الأنف وبين الحالة المناخية بالنسبة للموطن الأصلي للسلالة أى حيث تم تكوينها فالمجموعة البشرية التى نشأت فى إقليم حار تحتاج لأنف عريض لكى تستقبل أكبر كمية من الهواء الساخن المخلخل وقد أجمع العلماء على أن للانسان نشأة واحدة وينتمى لنوع وأصل واحد وأكبر دليل على ذلك هو تناسل الأجناس المختلفة فيما بينها. ولو كانت من أنواع متعددة الأصول ومختلفة لكان هناك العقم كما هو الحال فى عالم الحيوان، انما السبب فى هذا الاختلاف انما يرجع الى عامل الوراثة والى هجرات الأجناس وانتشارها فى مناطق متباينة فى أحوالها الطبيعية.

دوافع انتشار الأجناس البشرية فى الارض

[١] عوامل الطرد :-

عادة ما ينشأ الطرد من نقص الغذاء وزيادة عدد السكان فوق طاقة الاقليم، فعند الجماعة التى تحترف الصيد قد تنقص الجماعات أما نتيجة لكثرة ما يصادفها أو بسبب فتك الوباء بها، وفى هذه الحالة لا بد لهذه الجماعة من الهجرة والبحث عن مكان آخر تمارس فيه حرفة الصيد، بحيث يكون كثير المياه غنى المرعى.

ويقل أثر المناخ فى الأنسان كعامل طرد بشرى كلما أرتقى ومارس من الحرف ما يتناسب مع هذا الرقى، فأثر المناخ اقوى فى جماعة الصيد، والجماعة الرعوية منه فى الجماعة الزراعية.

[٢] عوامل الجذب :-

يرى العلماء ان عامل الجذب أقل أثراً وشدة من عامل الطرد، لأن الانسان يعز عليه عادة ترك وطنه، واسبط حالات الهجرة نتيجة لعامل الجذب هى هجرة الشعب الذى يعيش على مراعى فقيرة أو فى الهضاب المجذبة بالقرب من سهول غنية أو وديان خصيبة، والشعوب الزراعية اكثر الشعوب تعرضا للغزو من جيرانهم عبر التاريخ.

[٣] عامل التحكم الجغرافى :-

يرى العلماء ان حركة الأجناس البشرية كحركة السوائل، تتخذ دائما الطرق الأقل

مقاومة، فالمكان المكشوف والخاص من الغابات مثلاً هو اصلح الأمكنة لسكنى الانسان القديم لأنه من المتعذر عليه قطع أخشاب الغابه بواسطة الآلة الحجرية بل إن قطعها بواسطة الفئوس الجديدة صعب للغاية، ولهذا السبب يمتاز المكان المكشوف بتعاقب الغزوات عليه وكثرتها.

ويلاحظ على الحواجز الجبلية أنها حواجز قوية تتجنبها الحركات البشرية الكبيرة ولكن يلاحظ أيضاً أن هذه الحواجز يمكن اختراقها من مناطق خاصة هي الممرات. وقد يكون الدافع الحقيقي لهجرات الشعوب في مظهره غير مباشر، مثال ذلك ما يقوله بعض المؤرخين، من أن بناء «سور الصين العظيم» قد أدى إلى سرعة سقوط الامبراطورية الرومانية، ويقصد بذلك أن هذا السور منع [هجرات] الشعوب من قلب آسيا الى الشرق فاتجهوا غرباً وأسقطوا هذه الامبراطورية.

وعلينا أن ندرك جيداً أن الظروف الجغرافية - والمناخية على وجه الخصوص - كان لها دور كبير في تشكيل مناطق الطرد ومناطق الجذب على سطح الأرض منذ الأزمنة العابرة وحتى حدوث كارثة الجفاف بمنطقة الساحل الافريقي في أيامنا هذه.

■ - والآن . . أين كان الانسان الأول [آدم عليه السلام وأبناؤه] قبل الانتشار في الأرض للعمل فيها والسعى في مناكبها حسب الأمر الالهي؟ . . وكيف انتشر هذا [الأصل المشترك] لجميع الأمم البشرية في أصقاع الأرض؟ . . بعد النشأة الأولى في مكان ما لهذا [الأصل المشترك] بدأت الجماعات البشرية في الارتحال لظروف طبيعية أو مطاردة عناصر أقوى. وكان الانسان الفطري في عهد البداوة الأولى كالطفل الرضيع في علاقته بالبيئة أكثر منه في حالة الانسان المتحضر اليوم، فان طول الاقامة والتعرض في بيئة معينة لصفات طبيعية خاصة يصنع الأجناس البشرية بصبغة تصيح على مر الزمن غير قابلة للتحويل فاذا عاش الانسان في بيئة حارة أسودت بشرته. واتساع الأنف يعطيهم القدرة على تنفس كمية أكبر من الهواء والدليل على أن للانسان نشأة واحدة أن حضارات العصر الحجري القديم^(١)، متشابهة في أوروبا وافريقية وآسيا وأن مخلفات هذا الانسان الجسمية

(١) د. فيليب رفل - الجغرافية البشرية - الأنجلو ص ١٢ .

متشابهة مما يدل على أصل واحد وموطن واحد انحدرت منه وانتشرت فروع استوطنت في بيئات متباعدة غيرت من أشكالها، مصداقا لقوله تعالى: «يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا» [الحجرات / ١٣].

الوطن الأول للإنسان :

من المعقول القول ان الانسان قد عاش أوليات أيامه في اقليم يلائمه . ولا يجوز أن - يكون الانسان قد نشأ في أى مكان كائنا ما كان .

أن الانسان يعيش اليوم في كل مكان ولكن حياته الحالية مختلفة تماما عن نشأته الأولى وبالبحث عن الوطن الملائم لنشأة الانسان يمكن استبعاد بعض قارات لم نعثر فيها على أية حفريات للإنسان .

فقارة استراليا وكذلك الأمريكتان يمكن استبعادهما عن احتمال الوطن الأصلي للإنسان .

بقيت ثلاث قارات ، أما أوروبا فيمكن استبعادها لأنها شبه جزيرة ملحقة بآسيا ومن المعقول أن تنتهي إليها الهجرات وليس من المعقول أن تنبعث منها هذا الى أن العصر الرابع (البليستوسين) الذى ظهر فيه الانسان وتنوع يمتاز في أوروبا بالظواهر الجليدية التى تكررت أربع مرات والتى كان يسود القارة الأوربية خلالها مناخ قطبي بارد وكانت سهولها الشمالية مقفرة لا تلائم الجنس البشرى فى نشأته ومعيشته كما أنه لم يعثر فيها الا على جماجم وبقايا بشرية تدل الطبقات التى وجدت فيها على أنها دخلت القارة فى فترات الدفاء التى كانت تقع بين الادوار الجليدية^(١) . وعندما دهمها الجليد اضطرت الى اللجوء الى الكهوف .

أما جنوب غرب آسيا وشمال افريقية فىرى بعض آخر من العلماء أنه إقليم متوسط يسهل منه الهجرة والانتشار الى مختلف الجهات ثم أن جنوب غرب آسيا وشمال افريقية كان أكثر مطرا وأكثر عسبا وأعدل حرارة فى عصر البليستوسين عصر نشأة الانسان مما هو عليه الآن فهو اذا صالح لأن يكون مهدا للإنسان الأول وبعض العلماء يضمون إليه شمال شرق إفريقيا والصحراء الكبرى ويرجع هذا الرأى فى نظر هؤلاء أن آسيا

(١) المرجع نفسه - ص ١٨ .

وجدت بها بقايا لجميع السلالات ولم توجد في قارة أخرى وأن آسيا تمس جميع القارات ولأن حركة الجماعات البشرية في عصور التاريخ وما قبل التاريخ هي عادة من آسيا الى الجهات المجاورة. وهذا ما رجح في نظر البعض أن يكون جنوب غرب آسيا وطنا أول للانسان^(١)، وعلى وجه الخصوص [شبه جزيرة العرب].

وقد أنقضت مدة طويلة جدا من عمر الأرض كما تقدم حتى ظهر الانسان واكتشفت أقدم الحفريات الأدمية للذين عاشوا، في المليون سنة الأخيرة فقط من عمر الأرض، وكان ذلك في رواسب العصر المعروف بعصر البليستوسين.^(٢)

■ - ويعتبر هذا العصر من أهم العصور الجيولوجية لعدة أسباب منها:-
- ظهور الانسان خلاله.

- اكتشاف الحضارات الأولى للبشرية في رواسبه الصلصالية.

- ولأنه أقرب العصور الجيولوجية الى العصر الذى نعيش فيه . .

وقد شهد ذلك العصر تقلبات وتطورات في البيئة في أجزاء كبيرة من العالم، فحدثت فترات جليدية في العروض العليا، بينما شهد شمال افريقيا فترات مطيرة ذلك بالاضافة الى أن القارات اتخذت شكلها النهائى وتطور الجنس البشرى الى مدارج استخدام الأرض والموارد المتاحة، وكان التطور الحضارى يسير جنبا الى جنب مع انتشار الأجناس البشرية في أصقاع الأرض حسب الارادة الالهية، فظهر انسان [جاوة] في العصر الحجري القديم الأسفل، ونياندرتال في العصر الحجري القديم الأوسط، وانسان [بكين] وانسان [هيدلبرج] وانسان شرق اقريقيا. . وقد مثل كل منهم نمطا حضارياً من أنماط عمارة الأرض والاستعداد لتبوأ مكانة الخلافة فيها حسب الارادة الالهية العليا.

● - وفي أواخر هذا العصر، استطاع الانسان أن يسيطر على قوة النار، فقد عثر العلماء على عظام حيوانية محترقة بجانب انسان «بكين الحفرى» . مما يدل على أنه سيطر على البيئة وتمكن من حماية نفسه من الحيوانات المفترسة التى تخشى النار^(٣).

(١) المرجع نفسه - ص ١٩ .

(٢) د. أنور عب العليم - قصة الانسان القديم وحضارته - المكتبة الثقافية / ١٤٧ . ص ١٧ .

(٣) (٥) د. يسرى الجوهري - الانسان وسلالاته - منشأة المعارف بالاسكندرية ص ٢٣ : ص ٥٢ .



جهاجم للانسان القديم صاحب الحضارات في المغرب العربي الكبير تهدم نظرية داروين وتثبت تشریحياً منذ الإثر من (٥٠٠٠٠ سنة ق.م) أن الانسان المتكامل الذي كرمه الله هو الذي صنع تلك الحضارات وليست القردة حسب تحريف [داروين]، وهل للقردة حضارة!!!

تلك القوة الرهيبة التي سخرها الله سبحانه وتعالى للانسان كي يتمكن من القيام بمهام الخلافة في الأرض حسب ارادته سبحانه وتعالى .

الاجناس البشرية القديمة في افريقية:

تشير الكشوف العلمية التي تمت حتى الآن الى إفريقية بوصفها أحد المراكز الرئيسية التي عاشت فيها الأجناس البشرية القديمة رغم أنه لا يمكن القطع نهائيا في هذا الموضوع، ورغم أن تاريخ الجنس البشري لم يكشف بعد عن جميع أسراره^(١). ويذكر كثير من العلماء أن الانسان (الكيني) قد ظهر في افريقية منذ ١٢ مليون سنة، ويعتبره بعض العلماء أصل العائلة البشرية كلها. . . وأنه أول مخلوق بشري مكتشف في وسط افريقية وشرقها المغطاة بالحشائش^(٢). . . حيث ثبت أنه كان يسير على قدمين، وأن نموذج مخه يدل على نمو الفص الأمامي للمخ، والعظم الجداري للجمجمة، مما يدل على نمو ملكات عقلية راقية لديه . . .

وقد اهتمت عدة بعثات علمية بالبحث عن أصول الانسان القديمة في ربوع إفريقيا ولكن هذه القارة واسعة مترامية الأطراف، والتوفيق في اختيار مكان الحفر والبحث عن حفريات الانسان الأول يعد نصف النجاح.

وقد تم ذلك بعد دراسات جيولوجية وبيئية دقيقة في أنحاء متفرقة من القارة البيضاء. . . ووجد العلماء أن منطقة جنوب افريقيا من مرتفعات الزمبزي حتى منطقة رأس الرجاء الصالح من المناطق القليلة الهادئة نسبيا، والتي لم تتأثر كثيرا بالكوارث الجيولوجية العنيفة في الأزمنة القديمة ومن ثم كانت تلك البقاع مرتعا خصبا للكشف عن الحياة القديمة للانسان.

وقد لوحظ أن الهياكل البشرية التي عثر عليها العلماء في «أفالو» تشبه في صفاتها الجنسية الى حد كبير سكان شمال إفريقيا الذين عاشوا في العصر الحجري القديم،

(1) Sauer. C. Fareward to Historical Geograpy, Ann Ass. Amer - Geog., 32; 2492 PP. 2 - 13.

(٢) د. عبد الفتاح محمد وهيبه - الجغرافية التاريخية - دار النهضة العربية - ص ٥٧ .

اذ تمتاز معظم الحواجب البارزة والأنف الأكثر عرضا من جماجم (كرومانيون الأوروبية) . . بل يقال أن (بربر) شمال أفريقية القدامى ينتمون الى تلك السلالة . .

وعثر العلماء أيضا في (كينيا) على جماجم مصاحبة لحضارات العصر الحجري تشير الى وجود صفات قوقازية الى جانب تأثير زنجي هناك ، ومن المعروف أن التأثير الزنجي لم يظهر الا في عصر متأخر حيث أن أول هيكل زنجي عثر عليه جاء من (أسيلاز-AS-selar) بالقرب من «تمبكتو» ويرجع تاريخه الى نهاية اليلايستوسين^(١) . . وأهم صفات هذا الهيكل الزنجي القامة الطويلة النحيفة والأذرع الطويلة ، والرأس الطويل ، والوجه العريض والأنف الطويل ، ، ومما هو جدير بالذكر أن انسان (اسيلار) لا يشبه تماما زنوج غرب افريقية ، اذ أن المتنوعات الجنسية داخل المجموعة الزنجية لم تظهر الا حديثاً نسبياً .

(١) حتى عام ١٩٢٥ لم يكن قد تم العثور على أى نوع من أجناس الانسان الاول في ترسيبات العصر (البلايستوستنى) المبكر . . أى في الفترة الجيولوجية التى تقع على وجه التقريب بين مليون ومليونى عام مضت . . ويقال أن الاكتشافات التى تمت في بلنداون (Piltown) في مقاطعة سيسكس (Sussex) في عامى ١٩١١ - ١٩١٢ تمثل أحد النماذج البلايستوسينية (المبكرة) . . نظرا لأن تحويها المخى كان يشبه (الى حد كبير جدا) ما نجده عند الانسان (الحديث) . . ولكن في الخمسينات برهن العلماء على ان اكتشافات بلنداون كانت مجرد عملية (تزييف) . . ويستند العلماء الى ذلك في رفض وجود كائنات بشرية قبل (٤٠٠٠٠ سنة مضت) . .

التوزيع الجغرافي للأجناس البشرية في افريقية القديمة

عثر العلماء كذلك على (انسان الزنج) وأقرانه الذين يحملون اسم «الانسان البارع» وكذلك عثروا على هياكل وعظام انسان (المينيتا) في كينيا، وانسان «كيديس» في (اثيوبيا) والذي تعرف فيه كثير من الباحثين على صفات زنجية ظهرت في الفترة «الأوريناسية» العليا^(١).

ويضع العلماء تعليلا لأعتبار افريقية من أهم مراكز الاستيطان البشرى القديمة نظرا لأنها هي وجنوب غرب آسيا (جزيرة العرب) قد نجتا من طغيان الجليد وقسوة المناخ الذى تعرضت له أوراسيا فأوروبا التى كانت أغطية الجليد تنتشر فوقها خلال ٢٠٠٠٠ سنة هي فترة (كاجيرا) المعروفة في أوروبا بفترة (جيتن) الجليدية لا تقدم أى أثر عن العصر الحجري القديم المبكر، في حين ظهرت في هذه الفترة في افريقية ثلاث مراحل حجرية قديمة متميزة، وقد نعمت المناطق المدارية خلال هذه الفترة بميزة المناخ المعتدل الذى كان نعمة بالنسبة للحياة الحيوانية، والحق أننا اذا أردنا أن نستعرض المؤثرات التى كانت مقدمة لظهور الأنسان، فانه يتحتم علينا أن نأخذ في الاعتبار الظروف المناخية والايكولوجية (البيئية) ثم ندرس التكنولوجيا، وأخيرا التطور الاجتماعى للانسان^(٢).

(١) عثر العلماء سنة ١٩٢٥ على نموذج جديد لسلاسل الانسان الأول من العصر البلايستوسينى المبكر وأطلق عليه عالم التشريح الشهير ريموند دارت. Raymond d. اسم : «انسان جنوب افريقيا» حيث عثر على حفريات له في تاونج Taung في جنوب أفريقيا .

(٢) حاول العلماء أن يعيدوا تركيب المجتمعات الانسانية، وتصنيفها بقصد التعرف على تاريخ المجتمع الانسانى، وتعدد المراحل التى يمر بها حتى وصل الى ما صار عليه في هذا القرن، ومن أهم العلماء الذين فعلوا ذلك العالم الاقتصادى الألماني كارل بيشر Karl Bucher والعالم الأمريكى المشهور لويس مورجان Lewis Morgan أما بيشر فكان يذهب الى ان الاقتصاد البشرى في العصور القديمة قد مر بثلاث مراحل . . مرحلة الجمع والاتقاط والقتص والصيد، ثم مرحلة الرعى، وأخيرا وصل الى مرحلة الحياة المستقرة التى تعتمد على الزراعة وأما «لويس مورجان» فانه يذكر لنا في كتابه عن «المجتمع القديم» Ancient Society أن العالم مر بحقتين كبيرتين هما حقبة «التوحش»، وحقبة «البربرية» . . ثم قسم كلا من هاتين الحقتين بعد ذلك الى ثلاث مراحل أخرى: دنيا - ووسطى - وعليا وبذلك يكون المجتمع البشرى قد مر بحسب تقسيمه في المراحل التالية :-

- (أ) مرحلة التوحش الدنيا وتبدأ من طفولة البشرية .



مجموعة من الزنوج في هضاب رواندا بورندي وكينيا (طوال القامه)

ولا شك أن المقدرة على التكيف مع البيئة كانت أقوى العوامل التي أثرت في التطور الاجتماعي للإنسان منذ نشأته، وقد تبلورت الصفات الفيزيائية للسكان الأفريقيين أثناء فترة ما قبل التاريخ الحرجة. فلون البشرة الأسود أو الاسمر، ووفرة الغدد المفرزة للعرق، والأنف المتسع، والشفة الغليظة التي يمتاز بها كثير من الأفريقيين والشعر المجعد المفلقل الخشن كل هذه صفات نشأت في الظروف المدارية، فمادة (الميلانين) والشعر الخشن. يحميان الجسم من أشعة الشمس كما أن القامة المستقيمة المنتصبه وهى الصفة (الحاسمة) المميزة للإنسان، كانت صفة ضرورية للعيش - في رأى العلماء المتخصصين في «ما قبل التاريخ» «في بيئة الحشائش المرتفعة التي تغطى هضاب شرقى افريقية، ففي وسط هذه الحشائش لم يكن للإنسان بد من الوقوف منتصباً حتى يشرف على ما حوله، ويستطيع أن يرى الحيوان المفترس المختبئ فيها. وهذه الصفة هى الفطرة التي فطر الله الانسان عليها منذ البدء.

ويعثور العلماء على آثار عظيمة لانسان جنوب افريقيا القديم أضيفت صفحة جديدة في أهمية افريقية من حيث احتوائها لرفات الأجناس البشرية القديمة، فإنسان جنوب إفريقية ولو أنه صغير الحجم، خفيف البنية، لا يتعدى طوله ٤ - ٦ أقدام، ولا يزيد حجم مخه في المتوسط عن ٥٠٠ سم^٣ - انسان كامل الأدمية له أسنان آدمية تماما، اذ كانت القواطع صغيرة ومرصوفة عموديا في الفك، كما كانت الأنياب صغيرة وتشبه القواطع، في حين كانت الأضراس كبيرة، ولكنها رغم ضخامتها كانت تشبه أضراس الإنسان التي نعرفها

-
- (ب) مرحلة التوحش الوسطى «وتبدأ باستخدام النار، وكان الاقتصاد يعتمد فيها اساسا على صيد الاسماك.
- (ج) - مرحلة التوحش العليا وتبدأ منذ أختراع الانسان القوس والسهم وبذلك كانت الحياة الاقتصادية تقوم على القنص.
- (د) - مرحلة البربرية الدنيا وتبدأ بأختراع الأواني الفخارية.
- (هـ) - مرحلة البربرية الوسطى التي تتميز بحفظ واستئناس الحيوانات وزراعة الذرة والاعتماد على الرى.
- (و) - مرحلة البربرية العليا وتبدأ باكتشاف المعادن واستخدامها.
- (ز) - مرحلة الحضارة ومعرفة الكتابة. - انظر في ذلك : احمد ابو زيد - المجتمع القديم عند لويس مورجان - مجلة تراث الانسانية - ص ٢٦ . وكذلك .

Lewis R. 1937: History of Ethnological Theory, Harrap, N.Y. PP. 12 - 15.

ومن شكل الأسنان استنتج العلماء احتمال استخدام «الانسان القديم في جنوب افريقيا» الأدوات كأسلحة للهجوم والدفاع ، وكألات للقطع والحفر للحصول على الطعام . . وقد ظهرت حاليا من الأدلة ما تثبت صحة ذلك . .

● - وتدل المعلومات «الأركيولوجية» على أن الانسان الزنجي الافريقى القديم كان قد عرف صنع واستخدام الآلات المصنوعة من الحجر والعظام .
■ - ولكن ماذا كان هدفه من ذلك . . ؟

ان عجز أسنانه الأمامية عن قتل الحيوانات أو صيدها أو تقطيعها يعطينا الجواب . . لقد كان هدفه من ذلك توفير الطعام الضرورى اليومي لنفسه . . فهل عثر العلماء على ما يؤيد ذلك؟ . .

● - نعم . . لقد قضى عالم التشريح الافريقى الجنوبي [ريموند دارت] Raymond Dart فترة طويلة فى معسكرات علمية بأتحاد جنوب افريقيا بحثا عن تلك الأدلة . . أين؟ . . فى الكهوف القديمة واستطاع أن يجمع العظام الحيوانية التى وجدت بالقرب من «هياكل الانسان الافريقى القديم» وأثبت أنها بقايا ومخلفات الحيوانات التى قام الانسان الافريقى القديم «بصيدها وقتلها وأكلها»^(١).

وبالفعل لا يملك المرء الا تصديق مسألة استخدام ذلك الانسان للآلات فى الحصول على طعامه ذلك أنه (من الصعب) أن نتصور كيف كان يمكن لهذا الانسان (البدائى جدا) ذى الأسنان الأمامية غير الفتاكة أن يصيد ويقتل بمثل هذه الدرجة من المهارة دون أن يستعين على ذلك بالآلات المصنوعة من الحجر أو العظام . .

وتعتبر قصة العثور على بقايا (الانسان الافريقى الأول) فى جنوب افريقيا ضربا من ضروب الصدفة البحتة شأنها فى ذلك شأن كثير من الكشوفات العلمية الهامة فى أى مجال . . ففى إحدى المحاجر القريبة من بلدة تونجزي فى مقاطعة «بريتوريا» ، عثر أحد العمال بطريق الصدفة على «جمجمة» صغيرة غريبة الشكل . . وكان ذلك سنة ١٩٢٥ . . وكانت تلك الجمجمة مفتاح السر فى الحفريات التى توالى على المنطقة المذكورة فيما بعد . .

(١) احمد أبوزيد - الأصول البشرية - عالم الفكر - المجلد الثالث العدد الرابع - ص ١٠٧٨ .

وحين أختبر الدكتور «دارت» Raymond Dart تلك المجموعة عرف أنها للانسان [الزنجى الاول] وأطلق عليه «دارت» اسم Australopithecus Africanus ، وجاء الدكتور روبرت بروم Robert Broom الاسكتلندى الأصل ، وأيد التقرير التشريحي «لدارت» عن (الانسان الزنجى) بجنوب افريقيا . بل إنه واصل أبحاثه عن الأصول البشرية للإنسان القديم في كهف ستركفونتين بالقرب من «جوهانزبرج» حيث عثر على جمجمة كاملة للانسان الافريقى القديم ، وفكا بشريا لنفس السلالة ، وتجمعت لديه فى النهاية ثلاث جماجم لذلك المخلوق البشرى القديم ، حدد زمن كل منها فيما بين (٢ مليون سنة) - (١٢ مليون سنة) - (٨٠٠٠٠٠ سنة) (١) .

ويضع العلماء (تصورا) عاما لما يحتمل أن يكون عليه شكل (الانسان الزنجى) فى جنوب افريقيا على ضوء جماجم (جوهانزبرج) - فرجحوا أن يكون قصير القامة ومخ ضئيل الحجم عما هو عليه الآن ، وفك قوى له (كل) الصفات البشرية ، وجمجمة (أقرب) فى تفاصيلها الى جماجم الانسان الحالى ، وأسنان بشرية (على الرغم من كبر حجم الأضراس الأمامية والأضراس الخلفية) . . وأهم من ذلك أن العلماء يؤكدون أن - أطراف الانسان الزنجى فى جنوب افريقيا كانت تمثل فى صفاتها صفات اطراف البشر المعاصرين . . ومن ثم فان الاستاذ : «لى جروكلارك» لا يشك فى أنه ينتمى الى السلالات البشرية القديمة Hominidae (٢) .

ولم يكتف بروم R. Broom بذلك بل واصل البحث فى جنوب افريقيا حتى عثر على جمجمة أخرى لكائن بشرى قديم اطلق عليها جمجمة (السيدة بليس) ، ثم عثر على عظمة تنتمى الى نفس ذلك الكائن . . وكانت عظمة الحوض . . ومن دراستها

(١) د. أنور عبد العليم - المرجع السابق - ص ٦٤ .

(٢) البروفيسور لى جروكلارك Le Gros Chark تخصص فى علم الانسان ، والتشريح المقارن بجامعة أكسفورد ، جمع صورا ورسومات دقيقة لحوالى ٩٠ من الجماجم المتحجرة ، ودرس بتفصيل كبير عظام الاطراف فى هذه المخلوقات البشرية القديمة ، وتشريح الحوض وصندوق المخ . . ثم ترجم ذلك كله فى العبارة التالية «من المعقول أن تكون تلك السلالة أما ممثلة فى حد ذاتها لمجموعة من الكائنات شبه الأدمية القديمة Hominids التى احتلت مركزا تقريبا قريبا من الاصول التى انحدر منها الانسان ، أو أنها تمثل فرعا متحورا من هذه المجموعة» . . (انظر فى ذلك : د. أنور عبد العليم - المرجع السابق - ص ٦٦ . . ونحن نرفض بشدة ذلك الاتجاه الداروينى القمى الذى يبرز أحيانا فى فكر البروفيسور لى جروكلارك .

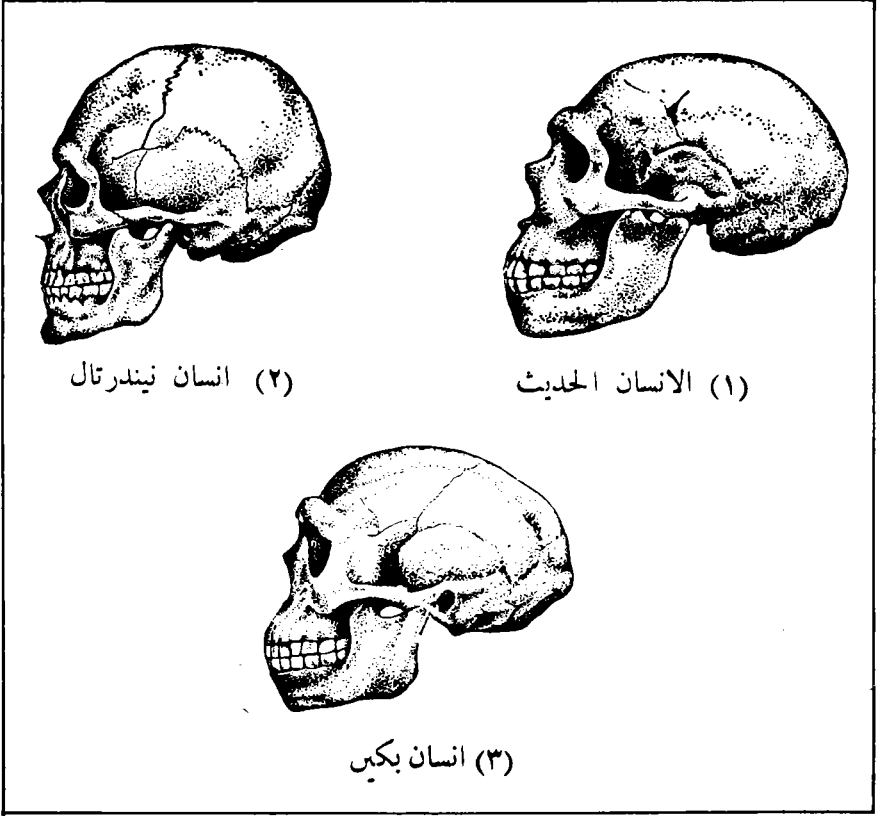
رجح «بروم» أن تكون لمخلوق بشرى كان يمشى منتصباً على قدمين . .
 ويقول البروفيسور «بوردي»^(١). «أن الاكتشافات في أفريقيا تدل على أن العصر
 الحجري القديم أو [العهد الباليوليثى] بدأ منذ أكثر من مليونى سنة مضت وأول من
 استخدم الحجر هو الانسان الاوسترالويشى فى منتصف الطريق بيننا وبين [كبار
 القردة] (الغوريلا، والشمبانزى والاورانجوتانج) وأن هذا الانسان كان لا يزال عقله
 بدائياً وتضمنت ألاته بكل بساطة قطع الصخور النارية الصغيرة المشطورة بحيث
 تعطى حواف قاطعة، وصفائح غير مشدبة» .
 ● - ونحن نرى فى قوله هذا انحطاطاً فكرياً ومغالطة للحقائق العلمية والاسلامية عن
 نشأة الانسان وتكريمه .

ولقد تطور الانسان فى صناعاته عبر فترة طويلة من الزمان وعرف الانسان
 البيثكانى استخدام النار. وكان ذلك على الاقل فى الصين. وأنتج صناعات
 الايدفيليان والاشيليان المبكرة. وتوجد آثار منها فى بقاع الارض المختلفة. ونحن لا
 نعرف الا القليل من الانواع المختلفة للانسان الذى عاش خلال العصر الاشيليانى
 الاوسط والاعلى منذ مائة الف سنة مضت . . لكننا لم نجد أثراً لما يدعيه هذا المخرف
 [بوردي] من وجود الانسان الوسيط بين القردة الكبار وبين الانسان الحالى، ونحن لا
 ندرى ما الذى كسبه [بوردي] من فرضياته القميئة التى لم يعثر العلم على أثر
 لصدقها!!! . .

● - كانت هناك تفرقة بين انسان نياندرتال والانسان نياندرتاليس المفكر الذى
 صاحب الثقافة الموسيرية، والانسان الحديث (الموموسابيان الذى ينتمى الى العصر
 الباليوليثى العلوى، على أساس النمط الحضارى الذى كان يميز النشاط البشرى
 لكل جماعة منها فى أقاليم الأرض الجغرافية المختلفة، ومدى استخدام الانسان للبيئة
 المحيطة به، واليوم يسود الاتجاه نحو الأخذ بفرعين من فروع الأجناس البشرية
 القديمة هما: انسان نياندرتاليس وانسان سايبان .

(١) فرانسوا بوردي : هو استاذ مادة ما قبل التاريخ، ومدير معهد جيولوجيا العصر الحديث، وما قبل التاريخ بجامعة
 بورديو ومدير متحف ما قبل التاريخ لاقليم اكويتين بفرنسا. وهو من بين العلماء العالميين المؤلفين فى موضوع أدوات
 العصر الحجري القديم وفى مقدوره أن يصنع كل ما عثر عليه من أدوات العصر الحجري القديم .

أنظر بحثه عن : حياة انسان العصر الحجري - اليونسكو - ١٣٦ - ص ١٤ .



جماجم الانسان في عصور مختلفة تتفق تماما مع شكل وحجم جماجم البشر الحاليين، وهذا دليل عدم تطور الانسان بالمتفهوم السابق عند [داروين].

وما زالت العلاقة أو الروابط التي تربط بين هذين النوعين المختلفين موضوع نقاش الى حد ما . ومن الجائز انه كانت هناك روابط مشتركة من وجهة نظر معينة بين الانسان الحديث والنياندرثال . ولا بد أن ظهور الانسان الحديث كان قبل ظهور حضارات العالم القديم ، وقد سايره على مر الزمن ويرجع العلماء تواجد أنماط حضارية تميز النوع البشرى الحالي ترجع الى العصر المoustيري (كما تشير الى ذلك اعمال الحفر) والتنقيب في جبل كافرئ بفلسطين) وربما يرجع تواجدهم الى ما قبل ذلك العصر .

● . الذبذبات المناخية ومراحل التحضر البشرى

لقد عاش الانسان خلال المئة الف سنة الماضية في بيئات مختلفة بسبب الاختلافات الجغرافية والمناخية . وكانت مثل تلك الاختلافات في البيئة ظاهرة تماما في العصر الجيولوجى الأخير (كوايتارى) حيث زحفت الأنهار الثلجية الضخمة عدة مرات ، لا على جرينلندة والمنطقة المتجمدة الشمالية فحسب (حيث يستطيع المرء رؤية آثارها الواسعة اليوم) ، بل عم انتشارها كذلك فوق اسكنديناوة وأمريكا الشمالية وكل الجبال العالية حتى خط الاستواء . وعندما بلغت الثلجات أوجها غطت أنهر اسكنديناوة الجليدية شمال المانيا ومعظم انجلترا وجزءا كبيرا من غرب الاتحاد السوفيتى . بينما هبطت ثلجات الالب على فرنسا حتى قاربت «البو» .

وعلى الرغم من الأبحاث العديدة التي أجريت عن الزمن الرابع ، إلا أنه لم يتم الاتفاق بعد على صورة المناخ الذى كان سائدا في فترات الجليد ، أو فترات الدفء ونستطيع أن نتصور حالة المناخ أثناء فترة جليدية بما هو حادث في الوقت الحاضر ، فحيث توجد كتل الجليد الدائم في المحيط المتجمد الشمالى ، تجثم منطقة ضغط ثقيل ضد اعصارية ، تهب منها الرياح الباردة .

أما في أثناء الفترات غير الجليدية ، فقد كانت الأحوال المناخية والنباتية لا تختلف كثيراً عما هو عليه الآن . وفي فترة الانتقال من نهاية البلايوسين إلى أوائل البلايستوسين كان المناخ أخذاً في البرودة التدريجية في جميع أنحاء النصف الشمالى من العالم وبذلك انتهت مرحلة الدفء السابقة في [البلايوسين] ، وفي هذه الأثناء كانت السيادة الشدييات التي تعيش حتى وقتنا الحاضر وظهرت بوادر تشير الى وجود الانسان . .

وكان الانسان صاحب حضارة حجرية قديمة وجدت آثارها في شرق انجلترا في منطقة [فوكسهول].

وفي هذه الفترة بدأت حيوانات [البلايوسين] في الانقراض والهلاك، وحلت محلها أنواع جديدة - حسبما يقول العلماء - من الحيوانات مثل الفيلة والثور والبيسون . . . وبذلك افتتح عصر جيولوجى جديد وهو عصر البلايوسين^(١).

ويطلق هنتجتون على الذبذبات المناخية اسم : [النبضات المناخية] . . . وهى تهتم الجغرافى والمؤرخ والأنثروبولوجى ، كما تهتم عالم النبات والحيوان ، والزراعى والاقتصادى والفلكى والمترولوجى والجيولوجى . . . وقد سجل هنتجتون استنتاجاته عن ذبذبات المناخ على سجلات التاريخ ، التى تسجل الفيضانات المرتفعة ، وأعوام الجفاف ، وأعوام الأعاصير والشتاء القارس ، وحلقات أشجار [السيكوبيا] الضخمة وتوزع أشجار الغابات ، والطرق التجارية القديمة ، وموارد المياه . . .^(٢).

غير أن فريقا آخر من العلماء يرى أن الظروف الاجتماعية والسياسية والاقتصادية هى التى تغيرت بفعل العامل [البشرى] وتدخل الانسان الذى أراد الله فى الأرض خليفة . . . وأن ذلك وحده كان كافيا لعمارة الكوكب الأرضى وتغيير ملامح البيئة .^(٣) ونحن لسنا على درجة كبيرة من اليقين فيما يختص بالذبذبات المناخية وفق مفهوم هنتجتون ، فهذا ما لم يقم عليه الدليل بعد حتى الآن .

وعلى كل حال يمكن القول أن الخالق الأعظم سبحانه وتعالى قد سخر بعض العوامل الطبيعية لتهيئة الأرض لسكنى الانسان . . . ومنها تواتر الدورات الجليدية على الكوكب الأرضى فى فترات متفاوتة . . . ويمكن القول أن تلك العصور الجليدية تميزت بالتذبذب حينما انخفضت درجة حرارة الأرض ، على الرغم من أن أقصى درجات البرد لم تكن بالضرورة تتفق مع النهايات العظمى للجليد وكان الزمهرير إما جافا أو رطبا تبعا للفترة والمكان اللذين ساد فيهما ، وفى المناطق الواقعة فى جنوب الثلجات نشأت أنواع مختلفة من النبات وتدرجت من التندرا الى الغابات وعلى أية حال ، كانت

(١) د. محمد السيد غرب - الجغرافيا التاريخية ، مكتبة الانجلو المصرية - ص ٦٦ : ص ٩٥ .

(٢) د. عبد الفتاح محمد وهيبه - الجغرافية التاريخية - دار النهضة العربية - بيروت - ص ٤٣ .

(٣) د. محمد السيد غلاب - المرجع نفسه - ص ٩٦ .

الظاهرة السائدة في أوروبا هي على وجه التقريب أرضا خضراء تكتنفها غابات كثيفة، وبطبيعة الحال أمتد انخفاض درجة الحرارة وراء ما نعهده اليوم من مناطق حرارية، ولكن يبدو أن المناطق المدارية والاستوائية أُنْتَابها تأثير بسيط، على الرغم من أننا عندما نأخذ كميات المطر في الاعتبار نجد أنه كانت هناك فترات امتدت فيها الصحارى تارة وأنكُمشت تارة أخرى الى ما يقارب العدم .

وكان تراكم المياه المحتبسة داخل الثلجات العظمى يعنى هبوط مستوى سطح البحر بدرجة كبيرة، حيث وصل في بعض الاحيان الى نحو ٣٠٠ قدم، وتبع ذلك حتما تغير جغرافي . فالجزر البريطانية كانت جزءا من القارة الأوروبية . كما كانت اليابان متصلة بآسيا . وعلى هذا النحو عاش أجدادنا في عالم متغير (حتى على الرغم من أن تلك التغيرات كانت تتم تدريجيا) وكثيرا ما كان ذلك العالم يختلف تماما عن عالمنا اليوم .

وفي اثناء ذلك العصر نشأت صناعة الألة، وكانت أولا من الحجارة التي اتخذت بمثابة الجهاز الاساسى المستخدم في تشكيل الآلات الاخرى المصنوعة من الخشب أو العظام، أو الجلود والقرون . ولقد أختفت كل هذه الآلات بأستثناء الآلات المصنوعة من العظام والقرون .

وكثيرا ما يتحدث أولئك الذين لا يعرفون شيئا عن هذا الموضوع ويذكرون الانسان الباليوليثي وآلاته البدائية المصنوعة من الصوان . وفي الحقيقة كان ذلك الانسان مجدا مثابرا استنفد كل ما لديه من طاقة واذا ما كانت وحدات عديدة من آلاته تبدو غير منتظمة، ولا مهذبة، فان سر ذلك يرجع الى حقيقة أن الصوان على الرغم من أنه يتشقق بسهولة في يد الصانع الماهر . وان حوافه تكون حادة وقاطعة ولكنها سرعان ما تتآكل وتندثر أو تتشقق فان الصوان اكثر صلابة من الصلب، وانت تستطيع أن تتبين ذلك اذا ما حككت نصل سكينك بقطعة من الصوان . ولقد كانت آلاته وأسلحته الاخرى المصممة من أجل الاستعمال الطويل المدى، أو التي تطلبت استكمال الشكل لاسباب خاصة، تصنع على أكمل وجه .

ولم تكن كل الادوات من الصوان، ففي بعض المناطق لم يكن الصوان موجودا فأستعيز عنه بالزجاج البركاني (الذى تتميز بحواف أكثر حدة الى جانب صلابته) .

وحجر الكوارتز والحجر الرملى مع انها أكثر سهولة من حيث التشكيل فقد نشأت عنها الطرق الفنية الصحيحة .

وفى بعض الاماكن الأخرى استخدمت بعض الصخور النارية ذات الحبيبات الدقيقة مثل البازلت والديوليت . وكثيرا ما كانت الادوات عبارة عن مجموعة متباينة الدقة فى الصنعة . وكان أجودها من الصوان أو الزجاج البركانى ، بينما كانت الأدوات الخشنة أو الأقل دقة فى الصناعة من البازلت والكوارتز أو الكوارتزيت . واعتمدت عملية اختيار المواد التى تصنع منها الأدوات على الغرض من استعمالها .

● . الانسان كعامل جغرافى

استخدم الانسان أول الأمر فى سبيل شق الحجارة قطعاً أخرى من الحجارة الصغيرة، ثم عرف بعد ذلك منذ أواسط العصر الاثينى وما بعده انه يستطيع الحصول على نتائج افضل بألة أقل صلابة أو بمطرقة اسطوانية الشكل من الخشب أو العظام أو القرون . وربما بدأ خلال العصر الموستيرى، وعلى الأرجح فى البليوليثى العلوى، الطرق بطرق غير مباشرة فكان الصانع يضع ازميلا من الخشب أو العظم بين المطرقة وما يريد تشكيله من مواد . وكذلك استخدم الضغط فى التشكيل، الامر الذى سمح بتوفير نتائج أدق وأكثر انتظاما، رغم أن تلك النتائج كانت على نطاق أضيق من نتائج الطرق المباشر^(١) .

وفى خلال العصر السولترىانى، منذ نحو ١٩ الف سنة قبل الميلاد اكتشف الانسان ان تسخين الصوان بشدة بحيث تتبعه عملية تبريد بطيء يغير من تركيب الحجر ويجعله أكثر سهولة فى التشكيل بالضغط^(٢) .

وفى العصر الباليوليثى العلوى هرع الانسان الى الحجر الجيرى ليصنع منه آنية وأدوات مشكلة (زهريات) وكان أحيانا يعمد الى زخرفتها الا أنها حسب معلوماتنا لم

(١) المرجع نفسه - ص ٤١ .

(٢) المرجع نفسه - ص ٤٢ .

تكن زهريات يمتد بها، على غرار تلك التي ظهرت بعد ذلك بمدة طويلة . وكثيرا ما توجد تفرقة بين العصر الباليوليثي (العصر الحجري القديم) والعصر النيوليثي (العصر الحجري الحديث الذي صقلت خلاله الاحجار) ولكن بصرف النظر عن حقيقة أن الانسان النيوليثي عمد الى شق الحجارة وتشكيلها اكثر من صقلها فأن فنون صقل الحجر لم تكن معروفة قط في العصر الباليوليثي (في أواسط أوروبا مثلا) . ورغم أنه وجدت أنواع من البلط المصقولة جزئيا في شمال استراليا، صنعت قبل ظهورها في أوروبا خلال العصر النيوليثي بنحو ١٥ الف سنة .

ولما كانت معظم المعلومات الخاصة بفنون تشكيل المواد لم تصل الينا، فأن أفكارنا عن الحياة اليومية لأجدادنا البعيدين جدا أنها تعتمد في أساسها على اختبار بقايا العظام والصحور، ودراسة المترسبات مع عمل مقارنة مع البدائين في العصور الحديثة . وفي الجهات الباردة عاش أجدادنا على الصيد والقنص، وحيث كان الجو ملائما عاشوا على جمع الغلال والبذور والحدور . وفي المناطق الأكثر دفئا ربما كان من المحتمل أن جمع الفواكه شكل مصدرا رئيسيا للغذاء، كما هو الحال اليوم بالنسبة لقبائل البشمان في صحارى كلهاري^(١) .

● . أثر الانسان في البيئة وتأثره بها

لم تكن أنماط العيش متشابهة خلال الباليوليثي الأوسط (صناعات المستيروما على شاكلتها) التي اشاعها انسان النياندرتال مع أنماط العيش خلال العصر الباليوليثي العلوى الذى ظهر فى اثنائه الانسان الحديث ومهما يكن من شىء فقد كانت هناك عوامل ثابتة عديدة^(٢) .

(١) المرجع نفسه - ص ٤٣ .

(٢) المرجع نفسه - ص ٤٤ .

وبالنسبة لمناطق العيش كثيرا ما يتحدث الناس عن انسان الكهف كما لو كان الانسان البدائي قد عاش حياة كاملة تماما. وفي الحقيقة عاش ذلك الانسان أساسا في مداخل الكهوف، أو تحت الحجارة الرملية المعلقة أو الحجارة الجيرية، أو البازلت الذى جوفته عوامل التعرية. إلا أن هذه المساكن أمدته بمأوى لا حول له ولا قوة أمام زمهرير العصور الجليدية خصوصا اذا لم تكن مجهزة بخيام الجلد أو العشب. ومن حين لآخر نجد بعض آثار القوائم والأعمدة التى كانت ترتكز عليها الاسقف، أو دوائر أو مثلثات من الصخور تشير الى الأبنية^(١).

وفي داخل تلك الخيام أو بالقرب منها توجد مواقد تدل عليها الصخور المحمرة والرمضاء وتنتشر هنا وهناك مواقد أكثر جودة ودوائر صغيرة من الحجارة، أو مواقد فى قاعها الحصى، ربما كانت تستعمل فى الطهى حيث تسخن النار الحصى الذى ينظف من الرماد ثم تشوى اللحم فوق ذلك الحصى مباشرة.

وهناك مواقد مملوءة بالحصى الذى فجرته الحرارة، ويستطيع المرء هنا تصور طريقتين لاستعمالها. فأما أن الحجارة كانت توضع مباشرة فى النار لتجمع الحرارة وتخترنها ثم تشعها بعد أن تحبب النار وتنطفئ وأما انها عندما تكون ساخنة تؤخذ بماسك خشبى لترمى داخل حقيبىة من الجلد تحتوى ماء ليغلى ويعطى وجبة من اللحم. ولا يزال [الأسكيمو] يستعملون هذه الطريقة الى يومنا هذا^(٢).

وفي المناطق الدافئة ربما كانت الكهوف أو الاماكن التى يأوى اليها الانسان اكثر بساطة فى التجهيز. حيث كانت تقام مصدات الهواء بدلا من الأكواخ. وربما شابهت معسكرات الهواء الطلق مساكن البشيان وسكان استراليا الأصليين بما فيها من وحدات وأكواخ مصنوعة من فروع الشجر وفى المناطق الممطرة كانت الأسقف المصنوعة من ورق الشجر هى وسيلة الحماية الوحيدة المتاحة.

وعلى أية حال توجد فى المناطق الباردة معسكرات الهواء الطلق أما فى المناطق التى ليس فيها كهوف، وأما انها كانت تستعمل كمعسكرات انتقال خلال الصيف. وفى أواسط أوروبا والاتحاد السوفيتى يوجد العديد من هذه المعسكرات، وهى تتدرج من

(١) المرجع نفسه - ص ٤٥ .

(٢) المرجع نفسه - ص ٤٦ .

الكوخ العائلى البسيط المستدير، الذى ينغمر جزئيا فى الارض، كما تقوى جدرانها بعظام الحيوانات الكبيرة، الى أكواخ مساكن المجتمعات الكبيرة فى منطقة [الدون] ومن المحتمل أنها تتفق مع «البيوت المستطيلة» للهنود الحمر فى شرق الولايات المتحدة.

ومثل هذه المعسكرات التى كانت تقام فى الهواء الطلق كانت توجد ايضا فى فرنسا فى عصور [الموستريان] والعصور الحجرية المتقدمة وبوجه عام فان الاشارات الوحيدة الدالة على وجود معسكرات [الموستريان] هى عبارة عن مواقع وجد بها الكثير من قطع الصوان المشطوفة والانقاض والحجارة المحروقة المشطوفة والانقاض والحجارة المتسمة كانت على جانب كبير من النظام. وكثيرا ما وجد عدد من الحفر التى كانت تثبت بها الأعمدة التى ترفع العشش أو الخيام. وكانت هذه المعسكرات تقام على مكان مرتفع يشرف على واديين، وتفضل البقعة الرملية المسطحة أن وجدت. وليست الحكمة فى مثل هذا الاختيار سرا على من مارس الإقامة فى معسكرات. (١)

وكانت المساكن الكبيرة فى شرق أوروبا فى الغالب بيوتا للمعيشة الدائمة فى مقابل الكهوف التى لا توجد فى تلك البقعة، فى حين كانت المساكن الاكثر بساطة فى الغرب مجرد معسكرات صيد أو تصييف. ويستنتج من عدم وجود أى اختلاف أساسى بين الادوات التى وجدت فى تلك المعسكرات وبين الأدوات التى وجدت فى الكهوف أن النساء كن يشاركن الرجال فى رحلات الصيد وكن يقمن بتجهيز جلود الحيوانات وحفظ اللحوم.

ومن المحتمل أن انسان العصر الحجرى القديم عاش معيشة شبه مستقرة بمعنى أن المجموعة كانت تنقسم الى قسمين قسم يستقر فى الكهوف طوال السنة وقسم آخر يقيم فى معسكرات مؤقتة متنقلة اثناء رحلات الصيد وهكذا كانت المجموعة الواحدة موزعة بين معيشة الاستقرار فى الكهوف ومعيشة البداوة والرحيل فى معسكرات الصيد.

وهذا ينطبق على البوشمان فى العصر الحاضر، ففى بعض الاحيان تعيش القبيلة مجتمعة، وفى أوقات أخرى تتفرق الى مجموعات. (٢)

(١) د. محمد السيد غلاب - المرجع السابق - ص ٢٢١.

(٢) د. عبد العليم عبد الرحمن خضر - التراث الثقافى للأجناس البشرية فى افريقية - النادى الأدبى - جلد ص ٤٧.

أما بالنسبة للملابس فكثيرا ما نرى الان رسامى الصحف والمجلات يتخيلون رجل ما قبل التاريخ وقد لف فروة حيوان حول وسطه وترك بقية جسمه عاريا، وقد يصدق هذا التصور على رجل العصر الحجري فى فترات الدفء، ووقت الصيف فى الأقاليم الحارة حيث تكفى المرء فروة لتغطية جسمه ولكن الحياة فى عصر الجليد وبخاصة فى الشتاء كانت تتطلب لباسا أشبه ما يكون بملابس الاسكيمو فقد كانت الحرارة تنخفض أحيانا الى ٤٠ درجة مئوية تحت الصفر.

ولم تخترع الابرة المصنوعة من العظم الا فى العصر السولترى - المتقدم - حوالى ١٧٠٠٠ أو ١٦٠٠٠ قبل الميلاد - وكانت أحيانا يستبدل بها أدوات غيرها . فكان هناك خرامات مصنوعة من العظام والصوان تستعمل لثقب الجلود . وكانت هذه الجلود تربط بألياف نباتية أو بأوتار عضلات الحيوانات بالطريقة التى يستعمل بها سكان المناطق القطبية اليوم أوتار وعضلات الرنة .

ومما لا شك فيه أن رجل العصر الحجري كان يلبس الاحذية التى قد تكون على شكل خف . ولو أن اثار اقدمه فى الكهوف كانت تدل على أنه حاف . وتختلف الادوات المستعملة بين كل فترة وأخرى ومن صناعة لأخرى ومن شعب الى آخر، وقد حدث ايضا تطور زمنى فى الصناعة والبيئة .

وفى العصر الموستيرى حفظت معظم الادوات المصنوعة وأكثرها من رقائق الصوان، وتشمل تشكيلة من ادوات الكشط ورقائق ذات حد واحد أو حدين مسنونين، وكانت هذه تستعمل لكشط الجلود لتشكيل الخشب وتستعمل كذلك كسكاكين^(١) . وفوق ذلك كان هناك قطع مسننة أو رقائق حوافيها مسننة مثل المنشار، ومكاشط وأزاميل أو - مثاقب وخرامات وسكاكين من الصوان لها حافة مسنونة وأخرى عريضة حتى يمكن الضغط عليها بالأصبع مثلما يحدث فى بعض المدى الحديثة .

وبين تشكيلة الادوات فى العصر الموستيرى نجد فؤوسا تمسك فى اليد وأدوات لها استعمالات شتى كما فى العصر الأشيلى السابق، أما الادوات المصنوعة من العظام

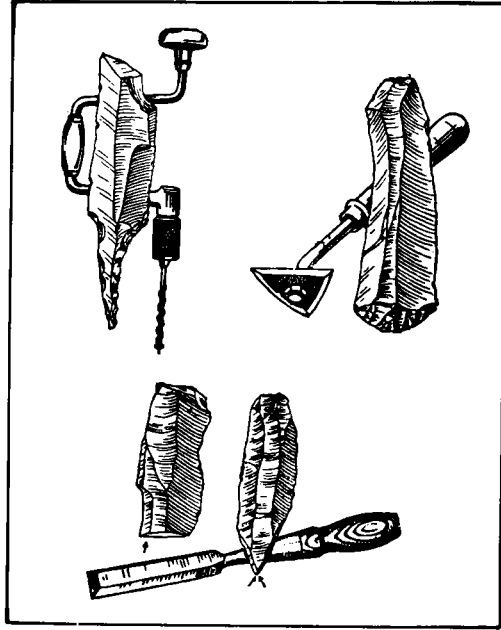
(١) د . عبد العليم عبد الرحمن خضر - الاسلام والمسلمون فى افريقية الشالية - سلسلة انتشار الاسلام فى العالم -

عالم المعرفة - جدة - ص ٣٧، ص ٤١ .

فكانت مجرد عظام بردت أطرافها وذلك لأستخدامها فى صناعة الثياب ، وعظام أخرى يبدو من شكلها أنها كانت تستعمل فى شحذ حجر الصوان .
وفى العصر الحجري القديم المتقدم صارت الادوات أكثر تشكيلا وتخصيضا وتطورت المكاشط ، وزاد عدد المثاقب وأنواعها بدرجة كبيرة ، وربما يرجع ذلك الى زيادة الأقبال على تشكيل العظام .

وتلعب المثاقب والشفرات ذات الحد الواحد والشفرات الصغيرة أيضا دورها ولكن الغرض من استعمالها ليس دائما واضحا . وتشمل الادوات العظمية البنت وأدوات الصقل لصقل الجلود وأخيرا الابر . وكانت الاسلحة تستعمل اساسا فى الصيد لأن الحرب - بالمعنى المفهوم الآن لم تكن معروفة فى العصر الحجري القديم مع وجود بعض المناوشات بسبب النزاع على مناطق الصيد ، وتنوعت الاسلحة أيضا حسب العصور وحسب المناطق المختلفة . وكان الناس فى العصر المستيرى يستعملون الآلات - المدببة المصنوعة من الصوان ورؤوس الحراب أو الرماح المصنوعة من الصوان ورؤوس الحراب أو الرماح المصنوعة من الخشب وقليلًا من الآلات المدببة المصنوعة من العظام وربما الهراوات . أما أسلحة العصر الحجري المتقدم فكانت أكثر تطورا ، مثال ذلك تلك التشكيلية من رؤوس الحراب التى وصلت الى القمة فى رأس الحربة الذى كان على شكل ورقة الغار . وكذلك عدد كبير وتشكيلية كبيرة من العظام المدببة والسهام الهلبيه وذلك خلال آخر فترة من ذلك العصر وهى الفترة المجدلية . (١)
وبينا كانت القذائف المستيرية ترمى باليد شهد العصر الحجري تطورا آخر عندما اخترعت الآلة التى تقذف الرمح . وهذه الآلة مازالت مستعملة بين قبائل الاسكيمو وبين الوطنيين الأصليين فى استراليا ومزيتها انها تزيد مدى رمية الرمح وتقوى من نفاذه ويبدو أنه فى آخر العصر الحجري اخترعت الأقواس ، ولكن ليس هناك دليل قاطع على ذلك .

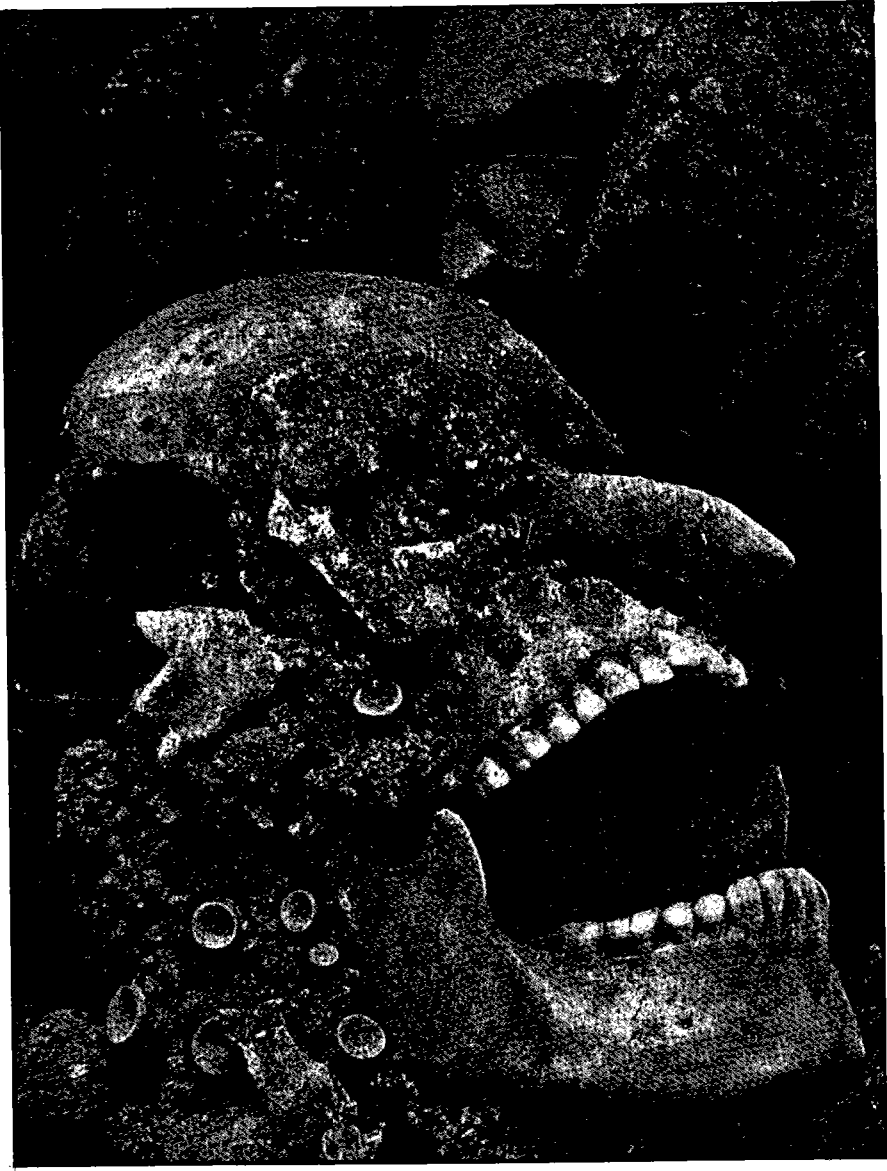
(١) المرجع نفسه - ص ٤٢ .



أسلحة حجرية كالأزاميل والمكاشط وغيرها، ويجوارها ما يراها
 في عالمنا المعاصر



أدوات حجرية ترجع إلى العصر الحجري القديم



المصدر: National Geographic Society.

جمجمة لإنسان - يقول علماء الأثروبولوجي أنه - ينتمي إلى الحضارة البشرية [الموستيرية] في «لاموستير» بجنوب فرنسا وأنه يرجع إلى [٩٠ ٠٠٠ - ٣٥ ٠٠٠ سنة ق.م].
واتخذ العلماء منها دليلاً على انهزام نظرية داروين من أساسها.

● . القنص والصيد عند الانسان القديم

لقد بدأ الصيد مع وجود الانسان على الأرض، ويبدو أنه كان عاملا من عوامل تطوره ودفعه دفعا الى مضاعفة قوته وسرعته وذكائه . فالانسان النياندرثالى والانسان الاشيلى وانسان العصر الحجري وانسان العصر الحديث كل هؤلاء صيادون، ولم يغير من طبيعة الانسان ودأبه على صيد الحيوانات الضخمة مرور مئة ألف سنة أو حتى خمسمئة الف سنة .

وكانت هناك وسائل منوعة للصيد، وهى الصيد برماح باليد، وبعد ذلك بأداة رمى الرماح ثم الاقواس . أو بالانواع المختلفة من الفخاخ، أو بأستعمال النار والغاء الحيوانات الى الشرود والوقوع من صخرة عالية، أو بتتبع الفريسة وذلك بأن يتولى أحد الصيادين الجرى وراءها، يتبعه آخر ثم ثالث وهكذا حتى تفقد كل قدرة على الحركة، ويبدو أن هذه كانت الطريقة التى كانوا يصيدون بها الرنة والبيزون والحيل .

ويبدو أن الفخاخ كانت تختلف حسب حجم الحيوان، فالحيوانات الضخمة آكلة العشب كان يحفر لها حفر فى الارض وتغطى بفروع الشجر وورقه . أما آكلة اللحوم، فكانت الحيوانات عندما تحاول أن تأكل الطعم الموضوع على الارض كان يهبط عليها سقف مثقل بالحجارة أو يطعنها رمح يشتها بالارض . أما بالنسبة للحيوانات الصغيرة مثل الأرانب فكانت الفخاخ من النوع الذى يستعمل فروع الاشجار المرنة .

أما صيد السمك فأختلفت أهميته على مر الأزمان، فلم توجد عظام السمك الا نادرا فى مخلفات العصر [الموستيرى] ولو ان البعض يرى أن هذا راجع الى ان الجهود التى بذلت للبحث عنها كانت قليلة، ويبدو أن انسان العصر [الموستيرى] كان يصيد السمك بالرماح أو بالايدي لأننا لم نصادف أى أدوات لصيد السمك فى ذلك العصر^(١) .

(١) المرجع نفسه - ص ٤٣ .

وفي أماكن العصر الحجري المتقدم وجدت عظام الأسماك والفقريات بكثرة، وهناك أدوات مصنوعة من العظام مدببة من الطرفين ربما كانت من نوع الخطاطيف المستقيمة التي مازالت بعض القبائل البدائية تصيد بها السمك للأن، وسهام هليبية لصيد السمك أو الحيوان، وحراب متشعبة كانت تستعمل أيضا لصيد السمك، لأن صيد السمك كان له دور مهم في ذلك العصر^(١).

ومن المحتمل أيضا أن الشباك كانت تستعمل. وقد عثر على أرضية مفروشة بالحصى ربما كانت تستعمل لتجفيف السمك. وأكثر الأسماك التي كانت تصاد كانت من نوع السالمون والتروت ولكن هناك أيضا بقايا من أنواع أخرى مثل الثعابين والكراكي.

ولدينا القليل من المعلومات عن النباتات ولكن التحليل اثبت أن شجرة البندق كانت مزدهرة في أوروبا في بعض العصور وأن بعض ثمار شجرة البلوط كان صالحا للأكل ووجد أيضا التوت والعليق والخوخ البري والحسك المائي^(٢). وكانت أبصال ودرنات عدد من النباتات في ذلك العصر صالحة للأكل وكذلك الجزر البري والحميض، وكان جمع هذه النباتات من عمل النساء والأطفال، أما في أفريقيا وجنوب شرق آسيا فيبدو أن النباتات كانت أكثر تنوعا.

(1) Mankind in the Making. Doubleday. N.Y. 1959

The Distribution of Man. Freeman, San Francisco, 1960

Back of History, the Story of our Origins. American

Museum of Natural History and Doubleday, N.Y., 1963

(2) L.S.B. Leakey

Olduvai Gorge. Cambridge Univ. Press, 1951

Adem,s Ancestors. Harper and Row, N.Y, 1960

Olduvai Gorge 1951- 1961. Cambridge Univ. Press, 1965

Stone Age Africa. Ne gro Univ. Press, N.Y., 1970

Unveiling Man,s Origins (With V.M. Goodall) Schenkman

Publishing Company, Cambridge, Mass., 1969; Methuen,

London, 1970

■ . عوامل انتشار الأجناس البشرية في الارض

ليس هناك شك في أن الاجناس البشرية الحالية تنتمي كلها لأدم عليه السلام، وهو الأصل البشرى الأول لكل الناس . . قال تعالى :

«يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم» . . صدق الله العظيم . [الحجرات / ١٣] .

ولا جدال من وحدة النشأة ووحدة المكان الذى شهد النشأة، وهو الوطن الأول للانسان ومنه انتشر الى كل اجزاء الأرض .

ويمكن تقسيم العوامل التى أثرت في انتشار الأجناس البشرية في الارض إلى مجموعتين الأولى منها تشمل العوامل الطبيعية التى لا مفر من تأثيرها على الانماط المختلفة لتوزيع الاجناس البشرية جغرافياً على قارات الدنيا . أما المجموعة الثانية فتشمل العوامل الاقتصادية التى أسهمت - مع العوامل الأولى - في رسم مسارات انتشار الانسان في الارض .

[أولاً] :- العوامل الطبيعية :

١ - كان للتضاريس دور كبير في انتشار الاجناس البشرية في الأرض وتحديد محاور الأنتشار وكانت السهول والأودية - على النقيض من المناطق الوعرة - من العوامل المساعدة على الأنتشار، فعلى سبيل المثال كان وادى النيل طريقاً لانتشار الهجرات القادمة من جنوب غرب آسيا الى السودان وأواسط افريقية، كما كان حوض نهر الدانوب الطريق الطبيعى للهجرات التى وفدت من وسط آسيا الى القارة الاوروبية .

٢ - كان نقص الماء ومدى توفره من اهم العوامل الطبيعية التى شكلت أنماط الأنتشار والاستيطان البشرى في الارض، ومن ثم فقد وقفت الصحراء دائماً عقبة في سبيل انتشار الانسان، وعلى سبيل المثال، كانت الصحراء الكبرى حاجزاً طبيعياً هاماً فصل المجموعة القوقازية التى تعيش في وسط وجنوب افريقية كما كانت صحراء سيناء مصفاة للشعوب الوافدة الى أرض مصر .

٣ - أغلب الظن أن الجماعات الأولى خرجت من الجزيرة العربية من فجر

التاريخ البشرى وسارت في طرق ومسالك مختلفة، وتأثرت في أثناء سيرها بالجهات الجديدة التى هبطت إليها، ولعبت التربة والتكوين الجيولوجى للأقاليم المختلفة دوراً فعالاً فى اجتذاب الأجناس البشرية إليها فكانت الترات الفيضية كمغناطيس يجذب الانسان إليها.

[ثانياً]: العوامل الاقتصادية :

- ١ - كانت المناطق الصالحة للزراعة بمثابة اقاليم جذب للانسان .
- ٢ - كانت وسائل المواصلات الرخيصة (كالنقل البحرى) من العوامل المساعدة على انتشار الانسان .
- ٣ - فيما بعد كانت مناطق توفر المواد الخام اللازمة للصناعة هى التى تحدد مسارات هجرة الأجناس البشرية من مكان الى آخر.

اكتشاف النار

وكان استعمال النار معروفاً للانسان من ايام الانسان الأول الذى عاش فى أسيا وأوروبا، لان استعمال النار فى افريقيا لم يأت الا فى وقت متأخر. وليس معنى هذا أن الانسان قبل ذلك لم يكن يعرف كيف يشعل النار ويبدو أنه كان يعرف كيف يبقيها مشتعلة بعد أن يأخذ قبسا من نار نشبت فى الأشجار بطريقة طبيعية مثل البرق أو نار المستنقعات ولكن فى العصر اتموستيرى وفى العصر الحجري المتقدم على اليقين وجد الانسان وسيلة لاشعال النار .

ويرى بعض العلماء أن أهتداء الانسان الى معرفة النار جاء عن طريق مراقبة سقوط الشهب أو بسبب ارتفاع درجة الحرارة التى تسبب الكثير من الحرائق فى الغابات ومناطق الحشائش، أو عن طريق المقذوفات البركانية [اللافا]، أو الغازات الملتهبة الخارجة من الأرض. ويبدو أنه قد مر وقت طويل قبل أن يعرف الانسان كيفية استخدامها واستمرار اشتعالها بمدىها بالوقود وحمايتها من الرياح والأمطار، ويظهر أن

هذه المهمة أوكلت إلى المرأة التي كان استقرارها في مناطق السكن سبباً في اشرافها على هذه المهمة الصعبة .

ولا تزال بعض الجماعات البدائية في جزر المحيط الهادى المنعزلة لا تعرف شيئاً عن النار، كما أن هناك جماعات بدائية أخرى لم تتطور عن مرحلة المحافظة على النار، ولا تعلم شيئاً عن ايقادها. (١)

وما يهمننا هو أثر النار في هذه المجتمعات البدائية، فقد أعطت النار للإنسان البدائي نوعاً من الأمن بالليل عندما بددت له ظلمات الليل، وأبعدت عنه الحيوانات المتوحشة . وبالتالي أبعدت عنه الخوف، كما ارشدت الصيادين والرعاة إلى مناطق إقامتهم . .

كما كانت النار - ولا تزال مركزاً لتجمع أفراد الجماعة، ومن ثم سببت شيئاً من الترابط بين أفرادها، وتطورت إلى أن أصبحت المواقد مركز تجمع القبائل والقرى والوحدات السكنية الكبيرة (٢).

كما ساعدت النار على صلاحية الأرض للزراعة، بعد أن ساعدت على حرق الحشائش والغابات التي كانت تعوق بذر الحبوب، كما ساعدت على زيادة خصوبتها بما تضيفه إلى التربة بعد حرقها للنباتات من مواد عضوية نافعة للزراعة، كما ساعدت على طهو الطعام، وساعدت على حرق الطين، وصناعة الفخار الذى استخدم فى الطهو، وفى تخزين المياه والحبوب، وساعدت على حرق الطوب لبناء المساكن، وعلى تجويف الأخشاب لصناعة القوارب والأواني الخشبية. (٣)

وقد ساعدت النار أيضاً على استخراج المعادن من خاماتها، وبذلك بدأت حرفة الحدادة وصناعة المعادن، التي تطورت إلى صناعة الآلات والصناعات الحديثة . ومن هنا يمكن اعتبار اكتشاف النار ثورة اقتصادية عظيمة فى حياة الإنسان .

وهناك طريقتان أساسيتان لاشعال النار هما الدلك والطرق فربما اتخذت عصا مدببة لذلكها جيئة وذهابا فى مجرى مشكل فى الخشب أو تدار بسرعة باليد أو بقوس

(1) Ibid. (2) W. Page, 1939: From Hunter to Husband man, PP.35 - 39

(٣) د. فؤاد محمد الصفار - دراسات فى الجغرافية البشرية - وكالة المطبوعات الكويت - ص ١١٠ .

أما الطرق فلم يكن بضرب قطعة من حجر - الصوان بأخرى كما يظن بعض الناس، لان الشرر المتكون من هذا الطرق شرر بارد لا يشعل نارا، ولكن الحجر الصوان يضرب به على كتلة من بيريت الحديد، وفي بعض المخلفات وجدت قطع من بيريت الحديد وعليها أثار الطرق، وفي بعض الأحيان يبدو عليها أنها استعملت كثيرا كولاعة .

ومن العسير تقدير كثافة السكان، ويبدو أن الناس كانوا مبعثرين هنا وهناك في قلة من العدد مع وجود مئات من الناس مركزين في بعض الاماكن هنا وهناك . ولم يكن متوسط أعمار الناس كبيرا في ذلك الوقت فلم يكن يبلغ الخمسين من العمر الا القلة القليلة، ولا شك أن نسبة الوفاة بين الاطفال كانت كبيرة، وكذلك نسبة حالات ولادة الأجنة ميتة .

● . الطقوس الجنائزية

يرجح أن أول أثر للدفن لا شك فيه كان في العصر [الموستيري] ففي «كوريز في شابيل أوسانت» وجدت جثة رجل في حفرة جلس مقرفصا ووجدت عظام حيوان كبيرة وضعت لحماية رأسه، وكذلك وجدت عظام «البيزون» بجوار جثته وكأنها قرابين تصحبه في رحلته الاخيرة، واثبت التحليل أن جثة رجل وجدت في بقايا العصر [الموستيري] في «شانيدار» بالعراق كانت مدفونة وتحتها بساط من الأزهار.

وفي العصر الحجري القديم صارت طقوس الجنائز أكثر تعقدا فكان الموتى يدفنون ومعهم اشياء لها قيمتها . مكونة من أدوات من الصوان - والعظام ، وعقود جميلة مكونة من المحار المثقوب وملونة بالمغرة الحمراء و أحيانا كانت توضع حجارة ضخمة على أيديهم وأقدامهم، ويبدو أن ذلك كان احتياطا حتى لا يقوم الموتى ويضايقوا الاحياء!!!

وكانت هناك أماكن كثيرة لدفن الاطفال ويقول العالم السوفيتي - «أوكلاذ نيكوف» ان هذا يعود الى ان انسان العصر الحجري كان يهمله أمر الموتى من الاطفال أكثر مما يهمله أمر الموتى من البالغين . ومما يلاحظ أيضا ذلك العدد الكبير من مقابر النساء التي لا تقل في زيتها عن مقابر الرجال من الصيادين .

● . الفنون البدائية وأنماط التحضر البشرى فى العصور القديمة

يبدو أن الفن قد بدأ فى مرحلة متقدمة أكثر مما نتصور، ففى كثير من مواقع العصر [الموستيرى] نرى رسوما تستخدم فيها بعض المعادن مثل ثانى اكسيد المنجنيز الأسود والمغرة الصفراء والحمراء . ولكننا لا نعرف أى حفر أو نحت أو رسوم تصور الحيوانات الا بعد العصر الحجرى المتقدم ويبدو انسان العصر [الموستيرى] كان يستخدم الصبغة المعدنية فى الرسم على مواد قابلة للتلف أو على جلودهم كما يفعل الآن الوطنيون الأصليون فى استراليا .

وفى العصر الحجرى المتقدم تقدم الفن تقدما كبيرا خصوصا فى الحضارة المجدلية . فكانت الاعمال الفخمة فى الحفر والنحت والرسم التى يمكن مقارنتها بالاعمال الفنية فى العصر القديم الكلاسيكى ، ومعظم أعمال الفن منسوبة على تصوير الحيوانات ، ولكن فى بعض الكهوف مثل «لامارش» فى فرنسا نرى عددا كبيرا من صور الانسان معظمها فى شكل كاريكاتير، وكان تصوير الانسان فى ذلك الوقت محرما .

● . المعتقدات القديمة والنظم الاجتماعية

أما بالنسبة للسحر والدين فقد اتخذت تفسيرات متنوعة لفن ما قبل التاريخ . فعندما اكتشفت اعمال هذا الفن أول الامر قيل أن هذه الاعمال مظهر من مظاهر حاسة جمالية متطورة تطورا كبيرا . ومن هذا استنتج أن فن ما قبل التاريخ كان هدفه اطلاق تعويذة أما لأنجاح الصيد أو لزيادة عدد الحيوانات .

ومن مدة قريبة فسرت مدرسة الاستاذ [لرواجورتان] هذا الفن بأنه تعبير عن الثنائية التى تشمل الذكر والانثى . فبعض الحيوانات تمثل الاساس الذكري والأخرى تمثل الاساس الأنثوى . وقطعا ليس هناك أى اجابة قاطعة محددة، فان أى تفسير ينطبق على العنصر الاورينجاكى (٣٠٠٠٠ سنة قبل الميلاد) يلزم تطبيقه على العصر المجدلى «١٥٠٠٠ الى ٩٠٠٠ قبل الميلاد» .

وكان الناس يعتقدون لمدة طويلة ان الرسوم كانت توجد فقط على جدران الكهوف

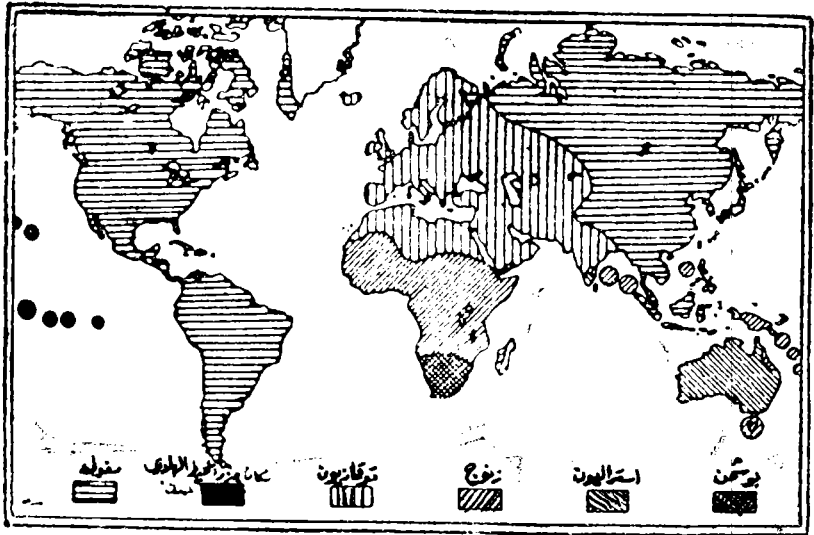
العميقة، ولكن الاكتشافات الحديثة أثبتت أن جدران أكثر المساكن الحجرية كانت أيضا مزينة بالرسوم، وأكثر هذه الكهوف في أوروبا الغربية ولكن وجد بعض منها في «الأورال»^(١).

وجرى الكثير من الرجم بالغيب حول ديانة العصر الحجري. ولكن الحقيقة لم تعرف تماما. وطقوس الجنائز تنبىء بأن هناك اعتقادا في حياة أخرى، وقد أنكر الكثير نظرية عبادة الرب التي كانت موجودة عند الانسان المoustيري. ولكن بعض الابحاث الحديثة أعادت الاعتبار الى هذه النظرية.

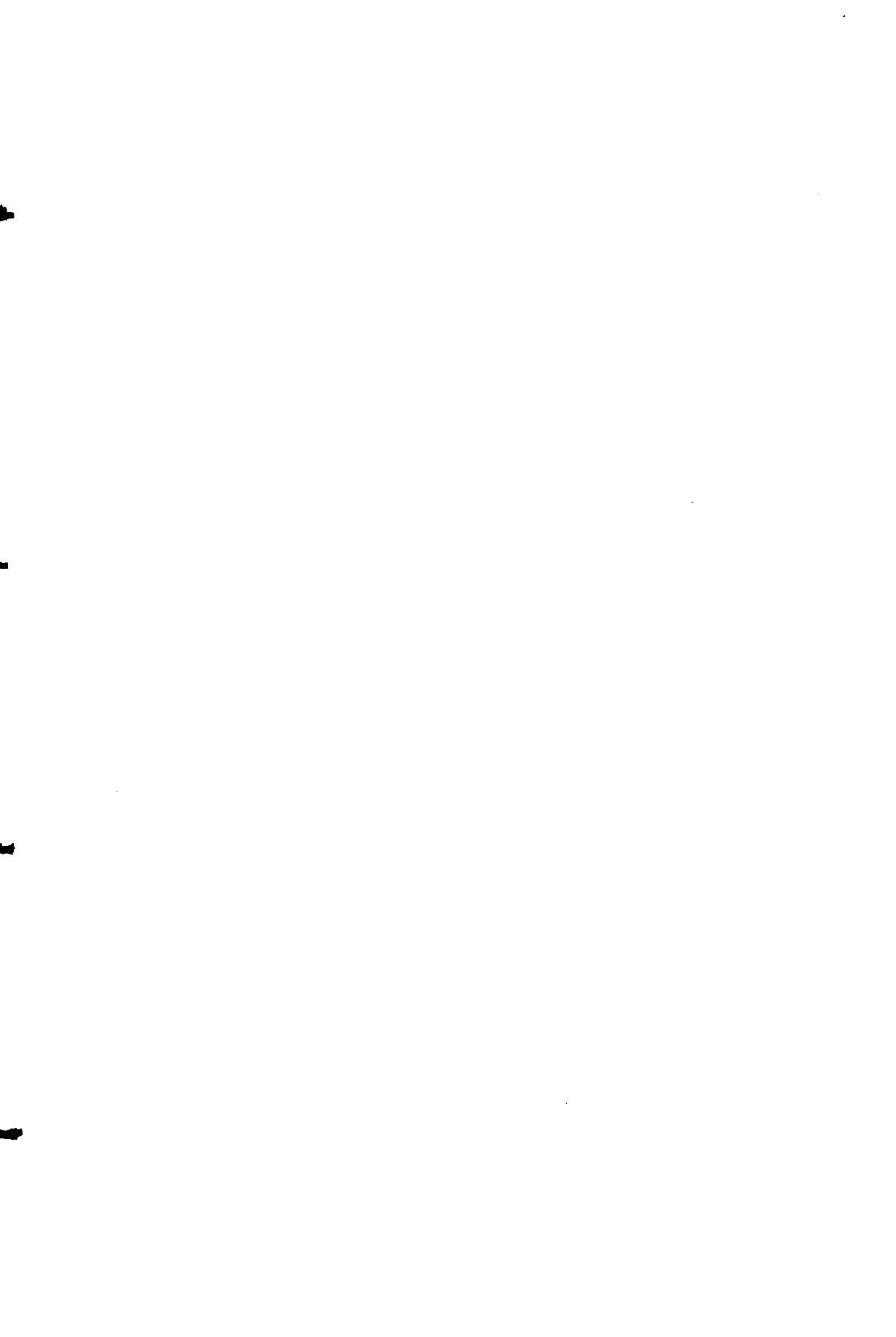
أما بالنسبة للتنظيم الاجتماعي فلا نعرف الا القليل لأننا لا نعرف في أكثر الحالات حجم المجموعات الانسانية في ذلك العصر، فمثلا لا نعرف هل الآلات التي نعثر عليها في طبقة معينة تمثل ١٠ رجال لمدة مئة عام أو مئة رجل في عشرة أعوام، ولكن الدراسات الحديثة بدأت تلقي ضوءا على هذا الموضوع. وتشابه الأدوات والاعمال الفنية يرينا أنه كان هناك اتصال حتى بين المجموعات المنفصلة بمسافات كبيرة.

ومازال الكثير مجهولا عن الحياة اليومية في العصر الحجري ولكن ما نعرفه ينبىء بأنه بالرغم من أن الحياة كانت قاسية فان الانسان لم يكن بصفة عامة في بؤس أو شقاء، فعند وفرة حيوانات الصيد كان لدى الانسان فراغ لاعمال النحت أو لسرد القصص - ومع أن بعض الاعمال الفنية قد صارت الينا وهي تمثل العصور المختلفة فان السرد القصصى الشفوى كله ويشمل القصص والاساطير والأغانى أختفى الى الأبد.

(1) Ibid.



[خريطة للعالم]
 تبين مدى انتشار الانسان في الأرض
 في القرن العشرين



الفصل الرابع الانسان وهجراته في عصور ما قبل التاريخ

- الدورات الجليدية وأثرها في رسم مسار انتشار الأنسان في الأرض.
- هجرة القوقازيين.
- تقسيم «دركن Dirken للهجرات القديمة.
- المحاور الجغرافية لانتشار الانسان.
- الهجرات البشرية الحديثة وتعمير العالم الجديد.
- دوافع الهجرات البشرية.
- التوزيع الجغرافي للمجموعات البشرية الكبرى.
- الانسان والحضارة في المفهوم الاسلامي.

الفصل الرابع الانسان وهجراته في عصور ما قبل التاريخ

لابد لمعرفة كيفية انتشار الانسان والطرق التي سلكها الانسان الأول في عهد نشأته الأولى من معرفة الظروف الطبيعية من حيث توزيع اليباس والماء وحالة المناخ التي عاصرت ذلك الانسان في العصر (البليستوسين) وهو العصر الذى نشأ فى أوائله الانسان ثم انتشر فى أواسطه ويقدر زمنه بحوالى مليون سنة فقد حدثت فيه تطورات هامة .

● - الدورات الجليدية وأثرها فى رسم مسار الانسان فى الأرض

يؤكد العلماء أنه قد انخفضت درجة الحرارة الى ما تحت الصفر فى شمال القارات المتاخمة للقطب الشمالى آسيا وأوربا وأمريكا الشمالية - فى البليستوسين - وغطيت مساحات كثيرة بالجليد حتى أواسط هذه القارات وكان زحف الجليد فى أدوار أربعة تتخللها فترات دفيئة كان ينجاب الجليد فيها عن هذه البقاع .

وفى الوقت الذى كان يسود الجليد هذه البقاع الشمالية وتصبح منطقة ضغط مرتفع ويتزحزح القطب الشمالى جنوبا حتى عرض 45° - 50° شمالا أصبحت مناطق متسعة من أفريقية الشمالية عرضة لهبوب الرياح العكسية - فسقطت الأمطار فيما يعرف الآن بالصحراء الكبرى وبلاد العرب وحلت فيها الأشجار والحشائش وكانت مسرحا للحيوانات العشبية والضخمة آكلة اللحوم وانتشرت فيها الوديان ومن آثارها الوديان الجافة والتي يسميها البدو فى الوقت الحاضر وديان بلا ماء .

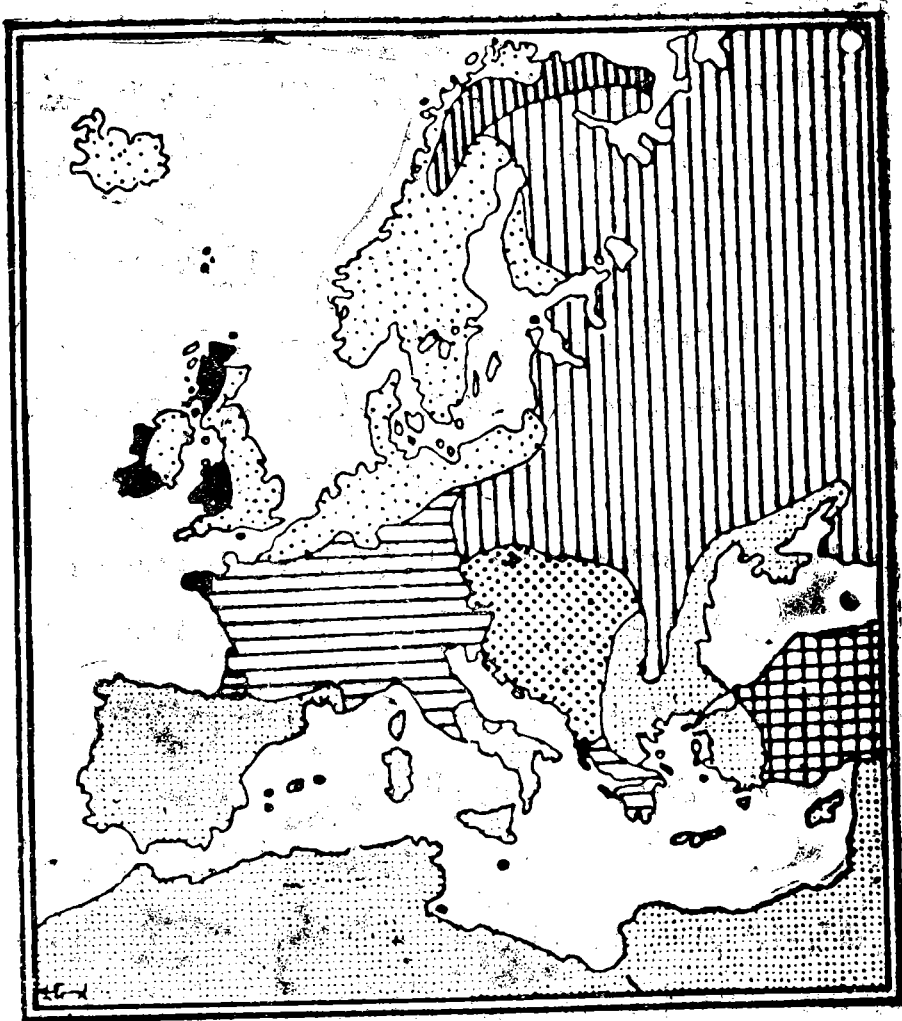
هذه الأدوار الجليدية سميت بالعصور الجليدية وكانت أدوار الجليد فى الشمال يقابلها دائما أدوار مطر فى العروض الصحراوية حاليا وكانت فترات الدفء فى أوربا










يقابلها فترات جفاف في الجنوب كالجفاف الحالي في الصحراوات اليوم وقد أثر هذا على هجرات البشر في عصر [البليستوسين] وكان زمن العصر الجليدي بأكمله في النصف الثاني من [البليستوسين].

في ذلك الوقت - في [البليستوسين] بدأ الانسان ينتشر على سطح الأرض من الوطن الذى افترضه العلماء وهو جنوب غرب آسيا في نظر البعض أو سهول «التركستان» في نظر البعض الآخر وقد كانت سهول «التركستان» غنية في العصور القديمة بدليل وجود محلات مقبورة وبقايا آثار وحفريات .

فمن أى من هذه الأوطان انتشر الانسان شرقا ربما من جنوب بحيرة بلكاش وخلال الممرات الجبلية في فترات الدفء وعبر هضبة التبت وهى غير وعرة شرقا نحو الصين ومن شرق آسيا عبرت الجماعات البشرية عبر مضيق بهرنج وجزائر الوشيان الى أمريكا الشمالية في دفعات متتالية وهذه الجماعات هى التى كونت الهنود الحمر ثم قبائل [الاسكيمو] وقد هاجر الأمريكيون من آسيا قبل أن تتضح الصفات المغولية تماما في المغول وذلك على عكس [الاسكيمو] الذين كانوا أحدث عهدا بالهجرات من آسيا فحملوا صفات المغول بعد أن بدأت في التكوين . وهناك انتشار للسلالات من القارة الآسيوية نحو الجنوب الشرقى اما عن طريق بحرى واما عن طريق برى فالطريق البحرى يلازم الساحل حتى جنوب شرق آسيا ويمكن الى امريكا عن طريق الجزر بجوار ساحل المحيط الهادى ولا تعرف هجرة من الشرق الى الغرب من اندونيسيا الى افريقية الا حديثا حيث ارتحلت عناصر من اندونيسيا الى جزيرة مدغشقر (منذ بضع مئات من السنين).

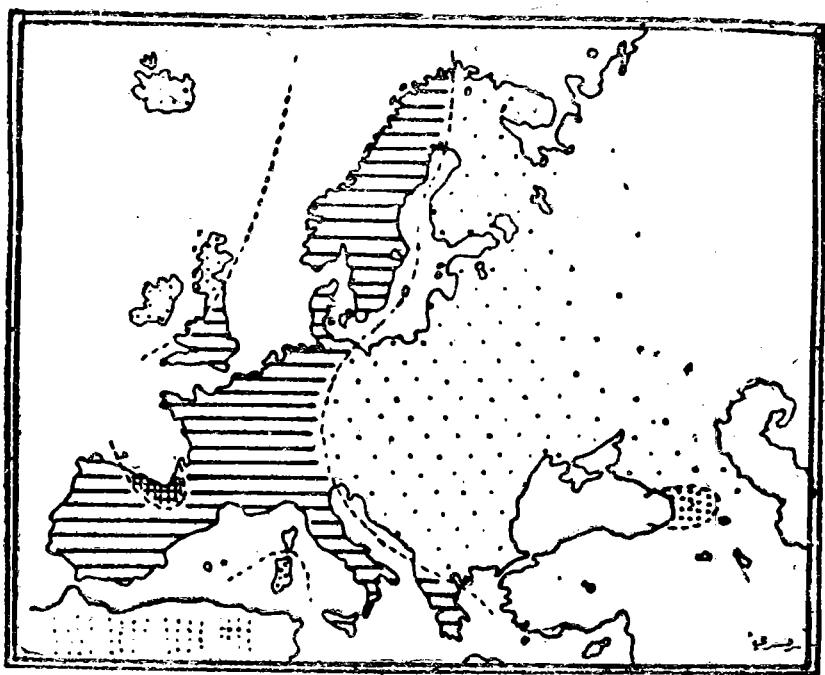
أما الهجرة الى الأوقيانوسية (استراليا والجزر المحيطة بها) فكانت سهلة على البحار (لتراكم الجليد في الاقطار الشمالية) فكان ساحل البحر متفقا مع خط عمق ٦٠٠ قدم الحالي ومعنى هذا أن عددا من المضائق التى تفصل جزائر اندونيسيا وتفصل استراليا عن غنيا الجديدة وعن تسمانيا في الجنوب كانت كلها أرضا يابسة يسهل على الانسان الانتقال عليها أو بالقرب من سواحلها ثم هبطت الأرض أو أرتفع سطح المياه ونتج عن هذا انعزال الساكنين في تلك الجزائر فلم يصل الاستراليون القدماء الى تسمانيا بعد وصول التسمانيين . فمن المتفق عليه بين علماء الأجناس أن سكان هذه الجزر



- | | | | |
|----------|-------------------------------------------------------------------------------------|----------------|-------------------------------------------------------------------------------------|
| بأاسك |  | كلت |  |
| نوردبون |  | الاسلاب |  |
| ديفاريون |  | البيون |  |
| بحر تورط |  | بلطيقون وشرقون |  |
| ارمينيون |  | | |

القوقازيون في اوربا

المصدر/ د. يسرى الجوهرة- المرجع السابق.



للمناخ المتوسطي بالارتفاع
 للمناخ القاري بالارتفاع
 للمناخ المتوسطي 40°
 للمناخ المتوسطي 30°
 للمناخ المتوسطي 20°

المصدر/ د. يسرى الجوهرى - المرجع السابق

[دخلت الأجناس القوقازية إلى أوروبا من غربى آسيا عبر عدة محاور جغرافية منها شمال بحر قزوين].

جميعا ارتحلوا اليها من جنوب شرق آسيا ومن اندونيسيا وأن سكان تسمانيا انقرضوا حاليا جاؤا من جنوب شرق آسيا والأستراليون القدماء جاءوا أيضا في فترة ارتفعت فيها الأرض ، واتصلت بغينيا الجديدة من اندونيسيا وجنوب آسيا ويستدل على هذا بوجود جماعات بشرية في جنوب آسيا شبيهة بسكان استراليا القدماء ما هم الا بقايا جنس كان يؤلف عنصرا هاما في سكان آسيا ثم تضاعف عدده أمام ظهور أجناس أحدث وأقوى.

ومنذ وصول الأسترايين القدماء الى أستراليا لم يصل لهذه القارة أية هجرات الا الهجرات الحديثة (الانجليز).

وفيما عدا سكان جزر ميلانيزيا بصفاتهم المميزة من شعر صوفي ولون بني غامق وأحيانا أسود. والعناصر البدائية في غنيا الجديدة، فيما عدا هؤلاء نجد سكان جزر بولينيزيا في وسط المحيط الهادى بين جزر هاواى وجزر نيوزيلند وقد جاؤا من اندونيسيا وشعرهم مستقيم أو مموج وقد حدثت هذه الهجرات بعد أن عبرت جزر المحيط الهادى وبعد أن - مرت في طريقها على ميلانيزيا.

أما سكان ميكرونيزيا (جزر تقع شمال شرق نيوغنيا) فقد ارتلحت من أندونيسيا وكانت هناك عناصر زنجية في جنوب آسيا بقاياها منتشرة في الجزائر الواقعة في جنوب الملايو وفي بعض جزر الأوقيانوسية. وقد انتشرت هذه العناصر الزنجية غربا نحو افريقية على طول امتداد سواحل ايران وشبه الجزيرة العربية وعن طريق باب المندب ودخلت افريقية حاليا عناصر أقدم من الزنوج وهم البوشمن والهوتنتون في جنوب غرب إفريقيا (صحراء كلهارى) - ومنهم الزنوج الذين أتوا بعدهم الى هذه المناطق النائية الجافة (مناطق عزلة والتجاء).

■ - هجرة القوقازيين: دخلت السلالات القوقازية من جنوب غرب آسيا (أوربا) من إيران أو سهول التركستان) إلى إفريقيا فيما يعرف بالعناصر الحامية أو السلالة الاثيوبية (لا علاقة للتسمية بأثيوبيا الحالية).

وقد دخلت هجرات القوقازيين الى أوربا من عدة طرق من آسيا شمال بحر قزوين، عن طريق سهول أكرانيا ومن هضاب الأناضول الى البلقان بعد انتهاء

الأدوار الجليدية واثناء الفترات الدفيئة وكذلك من شمال افريقية عن طريق معابر معينة هي تونس وصقلية وجزر بحر ايجه ومعبر جبل طارق الذى كان أقل اتساعا وضحلا وهؤلاء هم سلالة البحر المتوسط وقد خرج من حوض البحر المتوسط الشرقى عناصر سارت بحذاء شاطئ افريقية الشمالى الى المحيط الأطلنطى حتى ايبيريا واستقرت شمالا فى فرنسا (بريتانى) والى اجزاء من سواحل الجزر البريطانية فأقدم عناصر السكان فى غرب أوروبا ترجع الى سلالة البحر المتوسط السوداء الشعر الطويلة الرأس وقد اعتزلت فى اطراف القارة تحت ضغط عناصر أقوى منها ولا تزال صفة السواد فى العين موجودة فى اقليم بريتانى وويلز وغرب ايرلنده ويضرب هويت Hoyt (1) أمثلة على ذلك، فالجنس القوقازى وعلى الخصوص السلالة النوردية ببشرتها الفاتحة تتناسب مع المناخ السائد فى شمال غرب أوروبا، بينما سلالة البحر المتوسط ببشرتها الأعمق تلاءمت أكثر مع المناخ الصافى الممثل فى حوض البحر المتوسط وجنوب غرب آسيا وشمال افريقية وكذلك الحال فى المجموعة الزنجية التى اكتسبت صفات جسمية معينة للحماية ضد الاشعاع الشمسى فى افريقية المدارية ببشرتها السوداء. وأما الجنس المغولى فهو يضم سلالات فرعية مختلفة واءمت صفاتها الجسمية الظروف المناخية المختلفة فمثلا عناصر التانجوس Tangus التى تسكن سيبيريا لاءمت بين نفسها وبين المعيشة فى المناخ القارس البارد - بالبنية الجسمية القصيرة المثلثة والوجوه السمينة. بينما العناصر الملاوية فى جنوب القارة الآسيوية مالت الى اللون الأغمق.

■ - ويقسم دركن Dirken [الهجرات القديمة] الى الفترات الآتية :-

[أولاً]: من مليون سنة ق. م الى ٥٠٠٠٠٠ ق. م. - وقد انتشر الانسان فى هذه المرحلة من موطنه الاصلى الى كل الاتجاهات تقريبا فى العالم القديم. والوطن الأول للانسان بالضبط قامت حوله اختلافات فى الرأى كما ذكرنا ولكن على اية حال فأن الانسان استطاع أن ينتشر فى أواخر تلك الفترة فى شرق وشمال افريقية وفى جنوب آسيا والهند والصين وجاوة(2). ويرى البعض أن الانسان قد تقدم من الاقاليم

(1) J.S. Hoyt, 1963: Man and the Earth- U.S.A., PP5-18.

(2) S.N. Dirken & F.R. Pits, introduction to Human, Sreagraph, U.S.A. 1962.

الآسيوية الرطبة الى موطنه في الصحارى واستبس جنوب القارة الآسيوية وفي المناطق المعتدلة للصين وكان انتشاره برياً^(١).

[ثانياً]: من ٥٠٠,٠٠٠ ق. م الى ٢٠,٠٠٠ ق. م.

قد شاهدت هذه الفترة تغييرات كبيرة في خصائص الانسان الجسمية مثل عرض الرأس وفي هجرات ومناطق استيطانه خلال جنوب شرقى آسيا وافريقية. كما شهدت تلك الفترة أيضا هجرة الانسان الى استراليا وأمريكا الشمالية عن طريق مضيق برنج^(٢).

وحتى ٥٠٠,٠٠٠ سنة مضت كان الانسان يقتصر على توزيعه فقط على العروض الدنيا وربما قام بمحاولات للوصول الى الجهات الأبرد في أوروبا وأواسط آسيا خلال الفترات الدفيئة التي تخللت العصر الجليدى ولكن لم يستطع الانسان أن ينتشر في هذه المناطق الشمالية الباردة الا بعد ان تقهقر الجليد بعد انتهاء العصر الجليدى وكان حينئذ قد تمكن من عمل الرداء وأسلحة من العظام أو العاج أو الخشب أو الصوان^(٣).

[ثالثاً]: من ٢٠,٠٠٠ ق. م الى ٥,٠٠٠ ق. م.

بعد انتهاء العصر الجليدى أصبحت مناطق العروض الوسطى تجتذب الانسان البدائي وأخذ ينتشر الى السهول الأوربية (التي تحتلها الآن فرنسا والأراضي المنخفضة وألمانيا) وقد وجد الانسان غذاء كافيا عن طريق صيد الحيوانات الضخمة التي كانت تنتشر في هذه السهول مثل حيوان الماموت [أسلاف الفيلة الحالية] الذى كان الواحد يمد الانسان بغذائه لفترة طويلة وقد ساعد المناخ البارد بطبيعة الحال على حفظ لحمه كما ساعد صيد هذا الحيوان على التعاون وتضافر الجهود الى جانب حيوان الماموت كانت توجد أيضا الخيول الوحشية والدب وهذه كانت تمد الانسان بالغذاء.

وهناك احتمال قوى بأن الانسان قد وصل خلال هذه الفترة الى الجزء الشمالى من أوروبا وتحرك منها نحو سيبيريا الى أواسط آسيا ومن ثم عمرت المناطق الشمالية البارزة والاجزاء القارية الداخلية من آسيا كما استمرت الهجرات ايضا خلال تلك الفترة عبر

(1) Ibid PP. 19- 33.

(2) J.H.G. Lebon op Cit P. 54.

(3) J.S. Hoyt, op. cit., 55- 60.



بقايا الهنود الحمر في أمريكا اللاتينية

مضيق برنج^(١).

● ومن المحتمل أن الانسان استطاع في أواخر تلك الفترة أن يستخدم القوارب في بعض الهجرات القصيرة عبر البحر^(٢)، أو على طول شواطئ المحيطات ويذهب [الكولونيل جيمس شرشوارد Church iuard] في كتابه «قارة مو المفقودة»، و«أبناء مو».. إلى أن شعوباً تنتمي للجنس المغولى هاجرت بحراً إلى تلك القارة المنكوبة في أعماق المحيط الهادى من آسيا وأمريكا عندما دهمها زلزال عنيف قبل نحو اثنى عشر ألف سنة، وفوقها قرابة ٦٠ مليون انسان.

ومن الأدلة العلمية على حدوث ذلك، ما عثر عليه المنقبون من نقوش ورتوم شوهدت في جزر المحيط الهادى، وتؤديها كتابات المصريين القدماء والاغريق الاقدمين.

ويبدو أن الانسان كان قد خطا خطواته الأولى في سبيل التقدم والمعرفة قبل مائتى الف سنة، وانتهى قبل نكبة القارة بالزلزال إلى شأو من الحضارة لم نصل إليه حتى الآن في حضارتنا الراهنة.. لماذا؟..

لأن حضارتنا لا تدعى لها عمراً أطول من خمسة آلاف سنة وهى مرحلة قصيرة بالقياس إلى الشأو الذى يدركه الانسان القديم بعد ممارسة الحضارة والصناعة مائتى ألف سنة.. ويرى العلماء أن حضارة مصر العظيمة وحضارات الشرق فى الصين والهند وبابل ما هى إلا ومضات الرماد المتخلف من حضارة تلك القارة الغارقة^(٣).

وقد تبين للكولونيل [جيمس شرشوارد] من دراسته العلمية لمخلفات تلك الحضارة ان بعض تلك الآثار توغل فى القدم إلى سبعين الف سنة، وبعضها آثار مصنوعة من البرونز لا يقل عمرها الزمنى عن عشرين الف سنة.

■ - ويهمننا فى هذه الاكتشافات المذهلة ما يلى :-

● - أنها تشير إلى حضارة [انسان] متدين يعرف الله فى تلك العصور الموعلة فى

(1) Ibid., PP. 71 - 73.

(2) S.N.Drcken, op. cit., PP. 41 - 45.

(٣) عباس محمود العقاد - القرآن والانسان - ص ٢٨٥.

القدم، وهذا يهدم نظرية داروين التي تقول بان الانسان في تلك الحقبة [منذ ٢٠٠ سنة] لم يكن سوى قرد لم يتطور. بعد الى انسان!!!

● - تصف لنا تلك الحضارة الموغلة في القدم الانسان آنذاك مخلوقا مميزا بين جميع المخلوقات، وتربط بين خاصية التدين وبين المزية الأدمية التي تفرده بين انواع الأحياء، على خلاف المفهوم من مذهب النشوء والارتقاء عند المخرف [داروين] الذى جعل الانسان نوعاً من الأنواع بغير مزية تفضله عنها سوى مزية الارتقاء.

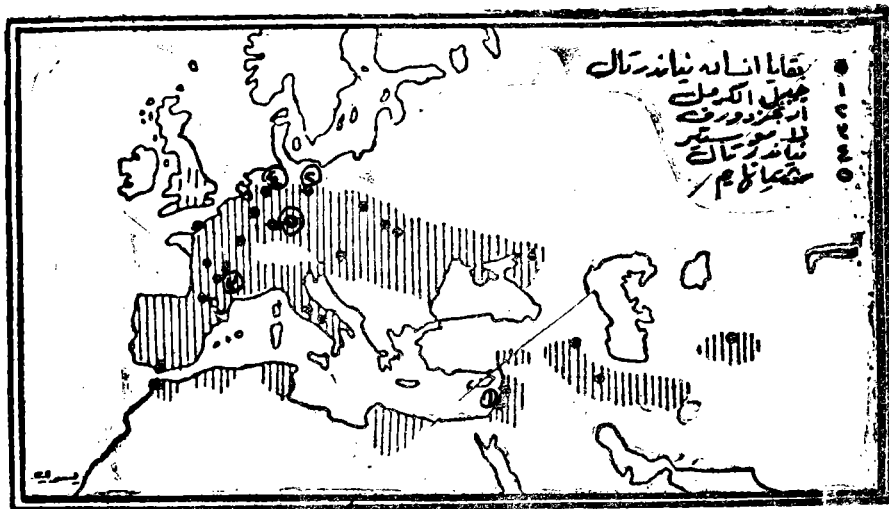
● - تثبت لنا صدق القرآن الكريم - [وان كان القرآن بالطبع ليس في حاجة إلى براهين بشرية على صدقه] - فيما أورده عن سيرة الأمم الغابرة وأنهاط التحضر البشرى القديمة وما حل بها من دمار وهلاك.

[رابعاً]: من ٥,٠٠٠ ق. م الى ١٥٠٠ م (أى حتى بداية الكشوف الجغرافية الحديثة).

وقد تعددت هجرات الانسان خلال تلك الفترة في جميع القارات واتسع استخدام الانسان للبحر واستطاع أن يصل الى مناطق نائية كنيوزيلند وجزر المحيط الهادى الا أنه يجدر بالذكر أن معرفة الانسان لحرفة الزراعة واستغلاله للأرض جعله يرتبط بها وهذا قد قلل بطبيعة الحال من تنقلات الناس من مكان الى آخر كما حدث في وادى النيل في مصر.

● . المحاور الجغرافية لانتشار الانسان

■ - يؤكد العلماء أن جماعات الأسكيمو جاءت عن طريق مضائق بيرينج وأن الاستراليون والبولينيزيون المالايون جاءوا عن طريق المحيط الهادى. ولم يبين [ريفت] نتائجه على الاكتشافات الانثروبولوجية الفيزيكية بدراسة ما توفر من مادة عن خصائص المجموعات الهندية وسماهم الفيزيكية من جنوب أمريكا الجنوبية والهنود المقيمين ببعض مناطق البرازيل وباجا وكاليفورنيا وأكوادور فحسب، وانها بناها أيضا على التشابهات القوية مع الجماعات التي تستوطن الجزر المحيطة.



المصدر/ د. يسرى الجوهر - المرجع السابق
 التوزيع الجغرافى لحضارات العصور الحجرية
 الأولى

وقدم العالم البرتغالي [أ. منديس كورى] النظرية التى تقول بأن عنصر الانسان الاسترالى التسامى قد استوطن أمريكا عن طريق برى عبر الانتركتيكا لا عن طريق الابحار عبر المحيط الهادى، اذ كان المهاجرون من ذلك العنصر ينتقلون من جزيرة الى أخرى فى سلسلة الأرخييل الواقع بين تاسمانيا وتيرا ديل فويجو عند الطرف الجنوبى لأمريكا الجنوبية.

والحق أن [منديس كورى] قد أثبت أن القارة القطبية الجنوبية كانت خالية من الاغطية الجليدية فيما بين ١٥,٠٠٠ ، ٦,٠٠٠ سنة ق. م وانها كانت بالفعل ذات مناخ معتدل فى ذلك العهد. وواضح أنه لا - يوجد دليل أثرى يؤكد الفرض القائل بهجرة سكان القارة القطبية الجنوبية وسيكون من العسير جدا، ان لم يكن من المستحيل، أن تكتشف أى دليل مع وجود ذلك الغطاء الجليدى الدائم الذى يغطى القارة القطبية الجنوبية كلها الآن.

وطبقا لما يقول به العالم الأرجنتيى [جوزى امبلونى] فان الانسان لا يستطيع حقيقة أن يفهم التاريخ الحضارى والجنسى لأمريكا القديمة دون أن يضع فى اعتباره اسهام شعوب جنوب شرقى آسيا. «فامبلونى» يستنتج أن سبع جماعات من أنواع متميزة قد هاجرت الى أمريكا وهم: التسمانيون والاشتراليون والميلانيزيون وسكان اندونيسيا الاصيليون والاندونيسيون والمغول والاسكيمو وهو فى مؤلفاته يصف ويحدد أحد عشر نمطا من هنود أمريكا.

ومنذ عهد قريب جدا (١٩٥١) قام العالم الأمريكى [جوزيف بيردسيل] بتوجيه نقد حاد للراء المعارضة المعنية بسكان الأمريكتين التى وضعها عدد كبير من أنصار اتجاه «تعدد الاجناس» مثل [ج، تيلور ور «ب» ديكسون وهـ «س» جلادوين وأ «أ» هوتون وأ «وكاونت وف» قيدينرخت و «ج» أ «أ ميلونى»] وقدم فرضه القائل أن امريكا قد استوطنت بجماعتين مختلطتين من الأجناس البشرية هم المغول والاموريون أو القوقازيون الاقدمون الذين أقبلوا كذلك الى العالم الجديد عن طريق شمال شرقى آسيا. ويدعى [بيردسيل] للتدليل على هذا الاصل الثنائى وجود سمات أمورية فى هنود أمريكا المعاصرين وفى سكان المنطقة الداخلية من المنطقة الدنيا من كاليفورنيا وهم [الجاهاويلاس]، وكذلك فى [اليوكى] [واليومو] فى شمال ساحل كاليفورنيا.

ولكن اذا كان هنود شمال أمريكا وجنوبها هم حقيقة خليط من اسلاف مغوليين وأموريين فقط. فلا بد أن يوجد شبه هائل في فصائل الدم. مثل فصيلتي (أ - ب - ٥)، «م - ن».

وقد تعددت الجهود في سبيل البرهنة على وجود الخصائص المتشابهة والعلاقات الممكنة الحقيقية بين الهنود الحمر من سكان ساحل الاطلنطي للولايات المتحدة وبين قوقازي ما قبل التاريخ الكرمانى النمط الذى انتشر فى أوروبا الغربية فى بداية العصر الباليوليثى الاعلى أو العصر الحجري القديم.

■ - ويلخص جوزيف بيردسيل أفكاره قائلا :-

● - نستطيع مما سبق أن نوجز نتائجنا الخاصة بالسكان الاوائل لأمريكا فيما يلى :

- ١ - لم يوجد سكان أصليون فى أمريكا على الاطلاق.
- ٢ - لم يوجد قط، ولا يوجد الان، أى نمط انسانى لهندي أمريكى من الناحية البيولوجية.
- ٣ - تتألف الهجرة الغالبة من السكان من المغول.

٤ - ما تزال هناك شكوك ومجادلات حول طرق أخرى للهجرة الى أمريكا وحول انماط بشرية أخرى. والفروض التى تم التسليم بها على أوسع نطاق هى الفرض الثانى [لييردسيل] والرابع [لرايفت] والسابع [لامبلوتى] وبالطبع فان المدافعين عن كل فرض من هذه الفروض يفسرون الاختلافات الفيزيائية وغيرها من الاختلافات الاخرى بين الانماط المختلفة من هنود أمريكا بطرق شتى، وبالطبع فانه لا يمكن الوصول الى نتيجة محددة حتى يتم الحصول على قدر واسع من الحقائق والمعطيات. ومن ثم فان العدد الهائل من اعمال التنقيب الاثرية التى تمت فى السنوات الحديثة فى مناطق متعددة من الامريكيتين قد كشفت عن مخازن غنية بالادوات الحجرية وغيرها، كما اكتشفت فى اضيق الحدود حفريات انسانية. وقد امكنا أن نعرف تاريخها بأدواتنا التكنيكية الحديثة. ومنها الكربون ١٤، الذى استطعنا ان نعرف عن طريقه، بيقين نسبي، متى ظهر الانسان فى أمريكا لأول مرة، كما أمكنا ان نضع قائمة زمنية عن

وجوده هناك .

وبذلك نعرف الان، على سبيل المثال، أن الانسان كان موجودا في الولايات المتحدة منذ وقت مبكر يرجع الى ٣٨,٠٠٠ سنة ق. م في منطقة «بلويس فيل» بتكساس كذلك وجدت بقايا الانسان في مناطق أخرى فيما قبل التاريخ، منذ ٢٧٦٥ سنة ق. م. (في سانتا كروز بكاليفورنيا)، والى ١٩٥٠٠ ق. م (في لاجولا بكاليفورنيا) والى ٨٥٠٥ سنة ق. م (بجيسيون كيف بنيفادا). و٧٨٨٣ سنة ق. م - بمنطقة بلينفو بتكساس، والى ٦٢٧٤ سنة ق. م بمنطقة آين بنبراسكا وعلينا أن نتجاوز في كل حالة عن فئات قليلة من السنين زيادة أو نقصا كما هي العادة المتبعة في قراءة بيانات الكربون ١٤. وقد كان الذين يعيشون في تلك المنطقة فيما بين ٤٠,٠٠٠ و ٨,٠٠٠ سنة مضت يجمعون جميعا على الصيد والجمع .

● - وقد وجد أن أقدم استيطان للانسان في المكسيك كان في تلاباكويا في دولة المكسيك حيث اكتشف مبرد قرصى الشكل يرجع تاريخه الى ٢٠,٢٠٠ سنة ق. م. أو ٢٦٠٠٠٠ سنة، وسكين من الزجاج البركاني ترجع الى ٢١,١٥٠ سنة ق. م. وبعد ذلك عرفت ايضا مناطق قبل تاريخية بالطبع يتضح أنها تنتمي كذلك الى جماعات الصيد والجمع .

● - وهنا نجد أمثلة قليلة من التواريخ عن أمريكا الجنوبية «حذفت منها سنوات التجاوز بالزيادة أو النقص» «أدوات حجرية غير مصقولة للصناعة في فنزويلا» ١٤٣٧٥ ق. م و ١٢٢٧٥ ق. م، وبقايا ثقافة بلاغوس سانتا بالبرازيل «٨٠٢٤ ق. م»، وثقافة صناعات مجرية قبل خزفية في لوريكوشايبرو «٧٥٦٦ ق. م» وايشوازي جردتوفي سان لويس بالارجنتين مع صناعة حجرية قبل خزفية «٦٠٦٨ ق. م» ومجمع حضارى مركب فوق المصاطب العليا لنهر جاليجوس، باتا جونيا الجنوبية فيما بين ٦٠,٠٠٠ و ٧٠٠٠ ق. م، وكشوف أثرية في شيل «٩٣٨ ق. م» وفي مناطق أخرى من باتاجونيا الجنوبية «٨٧٦٠ - ٦٧٠٠ ق. م» .

ومن الامثلة السابقة يمكن الخروج بملاحظة بالغة الأهمية. وهى أننا كلما سرنا جنوبا وجدنا أن تواريخ حضارة الصيد والجمع أحدث عهدا فهل يؤكد ذلك الفرض الذى يقول أن المستوطنين في أمريكا قد جاءوا على التحديد عن طريق مضائق

بيرنج^(١) وان أمريكا الجنوبية قد عمرت بالناس بعد أمريكا الشمالية بآلاف عديدة من السنين؟ أعتقد أن الوقت ما يزال مبكرا جدا على مثل هذا القول وعلينا أن ننتظر مزيدا من البحث والتنقيب. (٢).

من المسلم به حتى الان أن أقدم تاريخ لبدایات عصر الدفء. وأنتهاء العصر الجليدى فى أمريكا الشمالية «وهى الحقبة المعروفة بأسم ثلاجة وسكونسين»، انها يرجع الى فترة تتراوح بين ٣٠,٠٠٠ و ٤٠,٠٠٠ سنة خلت^(٣)، وفى تلك الفترة كان من الممكن العبور شرق سيبيريا الى ألاسكا ثم الوصول الى أكثر المناطق اعتدالا جنوب أمريكا الشمالية. (٤).

الهجرات البشرية الحديثة وتعمير العالم الجديد

منذ سنة ١٤٩٢م اندفع جموع المهاجرين الأوربيين مصطحبين معهم زنوج افريقيا إلى الأمريكتين فى موجات متتابة بعد نجاح الكشوف الجغرافية والعزم على تعمير العالم الجديد. واذا كان كشف الأمريكتين قد اقترن فى اذهان الكثيرين بكولمبس ورحلاته، ورحلات الذين جاءوا من بعده، فان الواقع يقول أن ثمة هجرات قديمة قد توجهت فى الأزمنة القديمة صوب الأمريكتين، منها هجرات قدماء المصريين فى سفن من نبات البردى إلى أمريكا حول الألف الثانى قبل الميلاد. حيث أسسوا حضارة شبيهة بحضارة مصر القديمة ما تزال آثارها باقية فى المكسيك والبرازيل حتى الآن.

(1) History of Mankind
Culrural and Scieritific Development
Vol I. Prehistory and the Begininge of Civilization,
By lacquette.
Hawkes and Sir Leonard Wooley
Sponsored by Unesco.
George Allen and Unwin, London, 1963.
(2) Ibid., PP. 114 - 118.
(3) Ibid., PP. 31 - 33.
(4) Ibid., PP. 51 - 55.

وقد احتلت أمريكا السكسونية مكانة هامة بين مناطق الهجرة في العالم حيث تعد قارة المهاجرين بالدرجة الأولى، فقد جذبت الكثير من المهاجرين والمبعدين من شتى بقاع العالم منذ بداية القرن السادس عشر، وخاصة من أوروبا التي كان لها نصيب الأسد، ويعبر عن هذه الظاهرة بأمريكا الكونية بأنها تعبر: The half brother of the World وكانت على حد تعبير زانجول [Zangwill]، في روايه The Melting Pot بأنها كانت بمثابة البوتقة التي انصهرت فيها الكثير من الهجرات العالمية لتشكل لنا في النهاية مجتمعاً جديداً يتمتع بخصائص مميزة^(١).

وكان الرواد الأوائل من المهاجرين الأوربيين الى أمريكا الشمالية يتكونون من جماعة بسيطة لا يزيد عددها على ١٠٠ شخص، استقرت بالقرب من خليج تشسابيك في فرجينيا سنة ١٦٠٧م، ونيوانجلند سنة ١٦٢٠، والى هؤلاء يرجع الفضل في بعض مظاهر الحياة الأمريكية وتقاليدها ومع مزيد من تدافع الهجرات الأوربية الى أمريكا تضاعف عدد السكان في الولايات المتحدة اكثر من خمسين مرة في مدى قرنين (١٨٠ سنة). . فقد كان عدد السكان سنة ١٧٩٠ من المهاجرين حوالى ٣٩ مليون نسمة وفى سنة ١٩٥٠ بلغ عددهم ١٥٠٧ مليون نسمة وفى سنة ١٩٨٤ حوالى ٢٣٠ مليون نسمة وفى كندا تضاعف عدد السكان عدة مرات بسبب تدفق الهجرات من أوروبا وآسيا حتى بلغ عدد السكان سنة ١٩٨٤ حوالى ٢٥ مليون نسمة.^(٢)

وقد بدأت تلك الهجرات تتجه نحو أستراليا وجزر نيوزيلنده منذ قرنين فقط وقد اقتصرت الهجرات الى العالم الجديد على الأوربيين، ثم على من جلبهم الأوربيون من أيد عاملة رخيصة أورقيق، وامتازت بأناية الأوربيين فى الاستئثار بهذا المجال، بحيث حاربوا هجرة غير الأوربيين وحددوها فى أضيق نطاق. وانتهت بأن مزجت الأجناس الأوربية مزجاً كبيراً من ناحية، وأوجدت مشكلة الاختلاط بين العناصر الأوربية والعناصر غير الأوربية ولا سيما من جلبوهم من رقيق أسود، وسكان البلاد الأصليين من ناحية اخرى.

هذه الهجرات الأوربية، وغير الأوربية الحديثة هى المسئولة عن تكوين شعوب

(١) د. محمد السيد غلاب - تطور البشرى - الانجلو المصرية - ص ٣٧٢.

(٢) د. زين الدين عبد المقصود - نصف الكرة الغربى - منشأة المعارف بالاسكندرية - ص ٧٤، ص ٢٣٨.

أمريكا الشمالية . وشعوب أمريكا الجنوبية [اللاتينية] الحالية، وهى المسئولة عن تكوين سكان استراليا ونيوزيلندا، كما أنها المسئولة عن مشاكل جنوب افريقية العنصرية الحديثة .

ومن ناحية المراحل الحضارية للأجناس البشرية القديمة فى امريكا فقد تطورت جماعات الصيد والجمع حتى استقرت بعد أن تعلمت زراعة النبات واستئناس الحيوان . وكانت هذه العملية تتم ببطء وتدرجاً . ولكن لدينا أدلة على وجود مناطق ترجع الى ما قبل التاريخ وجدت بها قبائل تحيا على الصيد والجمع وكانت تشتغل بزراعة القرع والبقول ثم الذرة فيما بعد .

وقد بدأ الأسبان والبرتغال يتدفقون على أمريكا الوسطى والجنوبية بعد الكشف الجغرافية تدفق الجراد على واحة خضراء . . وذلك منذ سنة ١٥٤٠م وكانت موجات الهجرة المتدفقة تتخذ ثلاثة مظاهر . . غزو عسكري، وتبشير دينى، واستعمار اقتصادى .

وقد اسهم فى الغزو العسكرى عدد من المغامرين الأسبان والبرتغال، وحطموا الحضارات الأمريكية الأصلية، وضموا البلاد المفتوحة للتاج الاسبانى والتاج البرتغالى، وأستأثرت جموع المهاجرين بأحسن المقاطعات لحسابهم الخاص . . وقد حاولوا استعباد السكان الأصليين من الهنود الحمر فى مزارعهم، ولكنهم أبوا . . ولذلك اتجه المستعمرون إلى جلب الرقيق الأسود من ساحل غانا وغرب إفريقيا . (١)

.. وتداقت جموع الأوربيين الى أمريكا الجنوبية..

الجنود يحطمون الممالك القديمة وينشئون بدلاً منها مراكز استيطان أوربية الطابع هناك، والقسس يبشرون بالمسيحية [على المذهب الكاثوليكى] . . والأرض يتقاسمها الغزاة الفاتحون . . والتجار والقراصنة يجلبون العبيد من غرب إفريقيا، والمناجم تستغل، والمواشى تستورد من أوربا لتربيتها وتصدير جلودها .

(١) د . محمد السيد غلاب - المرجع السابق - ص ٣٧٣ .

وهكذا وضعت [الهجرات] الأوروبية لأمريكا الجنوبية الأساس الاجتماعي والانثولوجي . . . طبقة عليا من الملاك الكبار - وهم سلالة الغزاة الفاتحين، وطبقة سفلى من الهنود الأمريكيين والزنج والمولدين وليس بينهما طبقة وسطى .

وأغلب الأوربيين المهاجرين من أوروبا إلى أمريكا الجنوبية من سكان جنوب أوروبا وأقدمهم هم الأسبان والبرتغال . ويتركزون في الأرجنتين وباراجواي وشيلي وتكاد هذه الجمهوريات أن تكون خالية من الزنج والهنود الأمريكيين . أما في اورجواي وكوستاريكا فيختلط الجميع وان ظل العنصر الأوربي هو المتفوق في العدد. (١)

أما الزنج . فقد رأينا أنهم عنصر مستورد لخدمة الأرض، ولا سيما من الجمهوريات الاستوائية الحارة . . . وهناك المولدون من الأوربيين والزنج المختلطين ببعض وبالهنود الأمريكيين، ويرى علماء الاجناس البشرية أن النهاية ستؤدى إلى وجود جنس بشرى جديد من أمريكا الجنوبية يتألف من خليط من الأوربيين والزنج والسكان الأصليين لتصبح بذلك أمريكا اللاتينية المثل الرائع للتسامح العنصرى .

■ - دوافع الهجرات البشرية :-

بعد نشأة الانسان وتكاثره بدأ ينتشر كما رأينا . وقد وجدت عوامل أدت إلى انتشاره وهجراته الكبرى عبر هذه المسافات البعيدة حتى أنه اجتاز قارات بأكملها . لقد أصبح الانسان في أواخر البليستوسين (في الحجري القديم الاعلى) وقد اتسع نطاق الجهات التي يسكنها مبعثرا في جميع القارات فاذا أخذنا بوحدة النشأة أى أن الانسان نشأ في مكان واحد ثم انتشر منه إلى سائر الأرجاء فلا بد أن تكون الدوافع التي أدت إلى انتشاره قوية آيا كان هذا الموطن الأول .

■ - وأهم هذه العوامل ما يأتى :

١ - عامل الطرد .

٢ - عامل الجذب .

٣ - عامل التحكم .

(١) د . زين الدين عبد المقصود - المرجع السابق - ص ٧٥ : ص ٧٨ ، ص ٢٣٥ : ص ٢٣٧ .

١ - فأما عامل الطرد أو الدفع فينشأ من ظروف طبيعية تضطر الانسان الى الهجرة وهذه الظروف اما أن تكون تغير الحالة المناخية كأشتداد البرودة أو نقص الغذاء ، واما ان تكون ظروفًا بشرية كتكاثر السكان أو طرد عناصر أقوى .

ففى الجماعات التى تحترف الجمع والالتقاط وقد كان الانسان فى أول نشأته جامعا لقوته وملتقطا له من الأعشاب أو الأشجار وظل على ذلك أمدا طويلا ثم أخذ يطارد الحيوان ويصطاده ومن الجائز أن تكون البيئة الطبيعية قد عجزت عن أن تمد الانسان بغذائه الذى يجمعه أو يكون الحيوان الذى يصطاده قد نقص اما لكثرة ما يصطاده أو بسبب فتك وباء به وفى هذه الحالة لا بد لهذه الجماعة أن تهجر وتبحث عن مكان آخر تجمع منه غذائها أو تصطاده .

٢ - عامل الجذب وهذا العامل قليل الحدوث بالنسبة لعامل الطرد لأن الانسان لا يعلم عن الاماكن النائية أكانت ذات خيرات بحيث تجذبه أم لا ، فضلا عن أن الانسان يعز عليه أن يفارق وطنه الا مضطرا وتحت ضغط ظروف شديدة الاحاح وليس أشد الاحاح من نقص الغذاء أى أن عامل الطرد أقوى من عامل الجذب .

والهجرة فى الواقع تتطلب أكثر من عامل وان كان العامل الأول أقوى (عامل الطرد) ومن أمثلة عامل الجذب هجرة العناصر التى تعيش فى مراعى فقيرة أو هضاب مجدبة بالقرب من سهول غنية أو وديان خصيبة . والشعوب الزراعية تكره الحرب فى العادة ثم هى ضعيفة الاستعداد له وكلما ازداد غناها كلما ازدادت اغراقا فى المدنية والترف فتكون عامل الجذب ومثل هذه الجماعة معرضة فى كل وقت لاغارات جيرانها الذين يعودون فى بعض الحالات بعد الاغارة حاملين الغنائم وقد يظلمون مع السكان الزراعيين فيختلطون بهم ويندمجون والسهول أعظم مواطن الاندماج بين السلالات فسكان السهول كانوا معرضين دائما لغزو سكان الصحراوات (المغول) أو سكان الجبال (البلقان والهند الصينية حيث تعرض سكان السهول فيهما لغزو سكان المرتفعات) .

٣ - عامل التحكم الجغرافى فان حركة الناس يمكن أن نشبهها بحركة السوائل تتخذ دائما عن طريق الاقل مقاومة فالمكان المكشوف الخالى من الغابات هو أصلح الامكنة لسكن الانسان القديم الذى يتعذر عليه قطع الاخشاب فى الغابة بواسطة

الالات الحجرية التي صنعها لنفسه فضلا عن أن الغابة مكان مجهول بالنسبة للانسان لا يدري المخرج منه ولا أى الحيوان أو البشر يسكنه ولهذا السبب يمتاز المكان المكشوف بتعاقب الغزوات وكثرتها وقد امتازت وديان الانهار منذ القدم بكثرة سكانها .

التوزيع الجغرافي للمجموعات البشرية الكبرى

يقسم علماء الأجناس البشرية المجموعات البشرية الكبرى إلى ثلاث مجموعات جنسية هي :-

■ - مجموعة الأجناس القوقازية: وتتكون من أربعة اجناس فرعية هي: الجنس النوردى - الجنس الألبى - جنس البحر المتوسط - الجنس الهندوسى . . وتحتل الأجناس الثلاثة الأولى نطاقات أفقية تتوزع جغرافيا من الغرب إلى الشرق بالقارة الأوربية. اما الجنس الرابع فيكون أقصى الشعب الشرقية من مجموعة الأجناس القوقازية، ويقال انه دخل [الهند] من شهاها الغربى، وفي الهند صادف سكانها الأصليين الذين ربما كانوا شعبة من الزنوج او الاستراليين القدماء، أو خليطا هنديا استراليا، فاختلط الجنس الهندوسى مع السكان الأصليين .

■ - مجموعة الأجناس المغولية:- تعتبر قارة آسيا هي موطن نشأة المجموعة المغولية، إذ يرجح أنهم نشأوا في شمال شرق آسيا من المجموعة البيضاء القديمة أو مجموعة ما قبل المغول Pre- Momngolid والتي يمثلها الآن جماعات [الايون] وتتفرع مجموعة الأجناس المغولية حاليا إلى :-

- المغول الأصليون بشرق آسيا - مغول الملايو بجزر الهند الشرقية .
وتمتاز هذه المجموعة بلون بشرية المائل الى الصفرة، والشعر المستقيم، وعظام الخد البارزة، والعيون المائلة، والقامة مختلفة بين القصيرة والمتوسطة، والرأس والوجه العريض والجبهة المرتفعة والأنف الصغير غير المرتفع .

■ - مجموعة الأجناس الزنجية:- وهي تضم شعبتين رئيسيتين :-

- الزنوج فى افريقيا وبنوا (غانة الجديدة) وميلانيزيا .

- الاقزام .



زعماء الأشانتى فى غانا
وتبدو الملامح الزنجية واضحة

وتتوزع تلك المجموعة جغرافياً في إفريقيا المدارية الاستوائية وخاصة في غرب إفريقيا ووسطها وجنوبها، كما تتوزع في بعض مناطق جنوب وشرق آسيا، وقد نقل جزء منهم إلى العالم الجديد عن طريق تجارة الرقيق. ويعتبر الأقزام أهم الجماعات التي تعيش في مناطق الغابات الاستوائية في كل من إفريقيا وجنوب شرق آسيا. ويقسم الأقزام إلى مجموعتين: أقزام إفريقية - وخاصة أقزام الكنغو ويطلق عليهم اسم بحر ييللو، وأقزام جنوب شرق آسيا ويطلق عليهم اسم نجريتوس، وينقسم هؤلاء الأخيرون إلى مجموعات: أهمها السيمانج في شبه جزيرة الملايو، والاندمايون في جزر اندمان، والأيتيا في الفلبين، والتابيرو في غينيا الجديدة، وفي أمريكا الجنوبية تعيش جماعات الماكو والبوجسا في غابات الأمزون، كما تعيش جماعات البوشمن والهوتنتوت في صحراء كلهاري بجنوب غرب إفريقيا.

● - كل هذه المجموعات البشرية الكبرى تنتمي لآدم عليه السلام وزوجه حواء. . . وفي ذلك يقول سبحانه وتعالى :-

«يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا، إن أكرمكم عند الله أتقاكم» . . . [صدق الله العظيم] - الحجرات / ١٣ .

■ . الانسان والحضارة في المفهوم الاسلامي

بدأ موقف القرآن - دستور الاسلام - من المسألة الحضارية في جانبها الانساني بخلق آدم عليه السلام، وبالظروف والدلالات والرموز والارهاصات التي رافقته واعقبته كما حددها القرآن الكريم من قوله تعالى: «واذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة» . . . حتى قوله تعالى: «قلنا اهبطوا منها جميعاً، فإما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون، والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون» [البقرة / ٣٠ - ٣٩] .

في هذه الآيات الكريمة حدد القرآن الخطوط العريضة الواضحة . لمسألة الوجود البشري في العالم - وهي خطوط تملك من الوضوح والصلابة والاستمرارية والتماسك ما تبدو ازاءه كل محاولات التفسير الوضعي لنشأة التاريخ البشري وبدء الخليقة

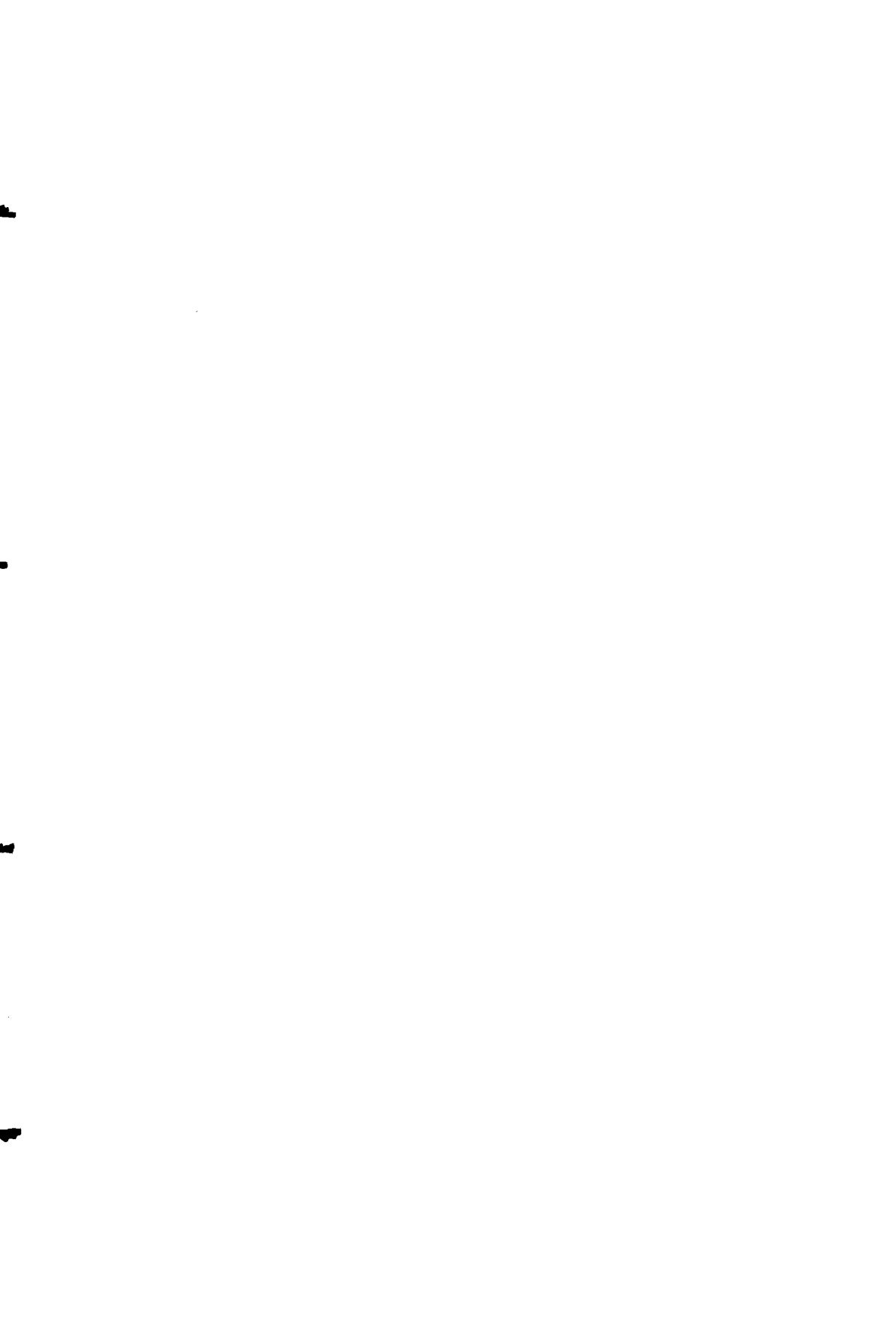
وأصول الحضارات، غامضة مفككة مضطربة.

لقد اراد الله أن يكون الانسان خليفة في الأرض، فمنحه القدرة العقلية على التعلم، والمقدرة الجسدية على التنفيذ والعمل والابداع، والارادة (الحره) لاختيار نمط التحضر البشرى الذى يتلاءم مع فكره، ودوافعه النفسيه والجسديه. . فاذا أضفنا الى ذلك أن العالم قد مهد تمهيداً للدور البشرى على أرضيته، أدركنا كم هى عميقة شاملة متكاملة تلك الأسس التى خططها الله سبحانه وتعالى ومنحها للبشرية لكي تعتمد عليها فى ممارسة خلافتها العمرانية أو الحضارية فى العالم.

وقد بلغ من تأكيد القرآن على العمل والجهد البشرى لتشييد الحضارة واعمار العالم أن ترد لفظه العمل فى اكثر من ثلاثائة وخمسين موضعاً من القرآن. . وهى كلها تشير - سلبا وإيجابا - إلى أن المحور الأساسى لوجود الانسان - فرداً وجماعة - على الأرض. هو العمل الذى يتخذ مقياساً عادلا لتحديد المصير والدرجة فى الدنيا والآخرة. . وهو [موقف] ينسجم تماماً مع مبدأ: [الخلافة] فى الأرض.

وهكذا يأتى المفهوم الاسلامى، لا لكى يمنح الحضارة البشرية بُعدها الحركى فحسب وانما نوعية هذه الحركة. . أيضاً، ، فيقرر أن مقياس التفوق الحضارى لا يكمن فى حجم الانتاج الكمى بقدر ما يكمن فى مدى [أخلاقية] الجماعة المتحضرة، وسعيها لخدمة الأهداف الانسانية الشاملة. . واننا بمجرد أن نلقى نظرة سريعة على حضارتنا الاسلامية فى عصور تألقها، ونقارن ذلك بمعطيات الحضارة المعاصرة سنلمس أنها (أى الأخيرة) قد هبطت كثيراً عن أخلاقيات الانسان ربها هو انسان - كما هو الحال فى العرقية عند هيجل، والطبقية عند ماركس ورفاقه. .

وسيجد الانسان. . أن تحضره الحقيقى فى التمسك بالاسلام فهو الحضارة فى الدنيا والنجاة فى الآخرة. .



الفصل الخامس أصل الانسان في القرآن الكريم

- - خلق الانسان حسب المفهوم القرآنى .
- - المنهج القرآنى فى وصف الانسان وخصائص النشأة .
- - من اين جاءت الحياة؟ وكيف جاءت؟ .

الفصل الخامس

اصل الانسان في القرآن الكريم

قبل اى تحليل علمى لاصل الانسان وبدء خلقه يجب ان يكون مفهوما ان نظرية [داروين] قد سقطت من الاساس ومنذ فترة طويلة لماذا؟ . . لان ايسط ما يقوض النظرية «الداروينية» من الاساس، قيامها بلا براهين لكثير من جوانبها. . منها على الخصوص ما يفسر التطور العضوى للانسان Organic Evolution of Man والتي تضمنت فكرة (الارتقاء) وفي ذلك يقول السير ارثركيت في كتابه Islamic Thought . . ان نظرية النسوء والارتقاء غير ثابتة علميا، ولا سبيل الى اثباتها بالبرهان. . ويعون الله تعالى سنشبت خطأ [الداروينية] Darwinism (علميا) في الفصول القادمة من كتابنا. . وسوف نلمس انه على الرغم من عدم كمال الانسان، فان تركيب جسمه شهادة حية على وجود الخالق الذى خلق هذه الكائنات الناطقة بوجوده.

واذا نظرنا الى مكانة الانسان في القرآن الكريم رأينا أنه . . ذلك المخلوق المسئول، صفة جميع الصفات التي ذكرها القرآن الكريم عن الانسان، إما خاصة بالتكليف أو عامة في معارض الحمد والذم من طباعه وفعاله. .

ولقد ذكر الانسان في القرآن بغاية الحمد وغاية الذم في الآيات المتعددة وفي الآية الواحدة. . فلا يعنى ذلك أنه يحمد ويذم في آن واحد، وانما معناه أنه أهل للكمال والنقص بما فطر عليه من استعداد لكل منهما، فهو أهل للخير والشر، لأنه أهل للتكليف. . (١)

والانسان مسئول عن عمله - فرداً وجماعة - لا يؤخذ واحد بوزر واحد ولا أمة بوزر أمة : قال تعالى :-

(١) عباس محمود العقاد - القرآن والانسان - المجلد الرابع - دار الكتاب العربى - بيروت - ص ٢٢٦ .

«كل امرئ بما كسب رهين» [الطور/ ٢١].

ومكان الانسان في القرآن الكريم، هو أشرف مكان له في ميزان العقيدة وفي ميزان الفكر، وفي ميزان الخليقة الذي به توزن طبائع الكائن بين عامة الكائنات . . هو الكائن المكلف . .

وكلما تقدم العلم وازداد العلماء احاطة بألية جسم الانسان ازدادوا تعجبا بهذه الآلية واعجابا بصنعها. وقال الدكتور «اكرس» وهو خبير فنى في جامعة «رايس»، وقد تعاون مع جراحين في صنع قلب مصطنع، ما يلى : ان جسمنا هو الكمال ذاته وهو غاية ما تصل اليه التقنية، ومهما يكن نوع الآلة التى يمكن ان تصنع، ومهما بلغت من التعقيد والكمال فاننا نجد في تركيب جسمنا ما هو افضل منها، ونظرة واحدة نلقياها على تكون الطفل في رحم امه تقنعنا باعجوبة المراحل التى يمر بها. كما تقنعنا بانه لا بد لهذه الصنعة المركبة العجيبة من صانع ماهر وكلما تعمق الانسان في تشريح جسم الانسان، وادرك دقائقه يزداد إيمانا بوجود الخالق. ان عملية الأكل والبلع، والهضم وتحويل الطعام الى دم وسكر واحماض، والاحتفاظ بالنافع منه وطرح الفضلات . . كل اولئك مما يدعو بلسان الواقع الى الاقرار بوجود الخالق سبحانه وتعالى وانفراده بالخلق .

واذا تركنا الانسان جانبا وأخذنا بعض الحيوانات، ورأيناها كيف تبنى اجحارها، وكيف تبنى جراءها، وكيف تعنى بتغذيتها وحفظها واخذنا بعض الطيور، ورأينا كيف تبنى اعشاشها، وكيف تسعى في رزقها وكيف تطعم فراخها. ثم لو اخذنا الحشرات كالنحل والنمل ورأينا كيف تبنى بيوتها وكيف تنظم حياتها الاجتماعية، وكيف يصنع النحل العسل . . لا يسعنا معها كابرننا الا ان نقول «سبحان الخلاق العظيم» .

ثم لو نظرنا الى رحلات بعض الطيور التى تقطع صيفا وشتاء الاف الكيلومترات في رحلات معينة وطرق مرسومة لا تحيد عنها، واوقات لا تتقدم فيها ولا تتأخر . . واذا ما نزلنا الى البحار نرى فيها اسماكا تهاجر سنويا هجرات بعيدة، وتسلك طرقا معينة لا تضل عنها، ولذلك فأن بعض العلماء الذين قالوا بالتطور كانوا يؤمنون بوجود

[الخالق] هو الذى خلق الخلية الاولى فى الحياة وكان الذى يخلق الخلية، التى هى نواة الحياة يصعب عليه ان يخلق الانسان او الحيوان مباشرة على كثرة ما فيها من خلايا. ولكن عذر هؤلاء هو انهم يقيسون قدرة [الخالق] بقدرة الفرد او قدرة المخلوق. ولو فكروا قليلا لادركوا ان خلق الخلية الاولى ثم تطويرها حتى تكون انسانا كاملا لا يقل عن خلق الانسان كاملا.

ولعل من اعجب ما فى تفكير القائلين بالتطور انهم كلهم من الذين يؤمنون بالمسيحية ديناً، وبالتالي بان عيسى الها او ابن اله . . فمن العجب ان يجمعوا بين هذين التفكيرين، ولكن قد ثبت الآن ان لا علاقة للتفكير السليم بالدين، فقد يكون المرء متديناً ولكنه يؤمن بالخرافات، او يكون متديناً بالاسم منكراً بالفعل والله فى خلقه شؤون!

- خلق الانسان حسب المفهوم القرآنى :

■ يضع القرآن الكريم (الانسان) فى احسن تقويم واشرف صورة واسمى مكانة له بين الكائنات الحية جميعاً . فهو - اى الانسان - فى القرآن الكريم ذلك الكائن العاقل، المفكر، المدبر، المكلف، البصير، والمتبصر بالامور، المسئول، ذو الروح السامية والجسد المتكامل القوى المسخر لخدمته فى دنياه لطريق الخير ان اراد، ولطريق الشر والهلاك ان شاء^(١).

يقول سبحانه وتعالى . . ﴿لقد خلقنا الانسان فى احسن تقويم﴾ . . (الزيتون : ٤).

ويقول سبحانه وتعالى . . ﴿الذى احسن كل شىء خلقه، وبدأ خلق الانسان من طين، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين، ثم سواه، ونفخ فيه من روحه، وجعل لكم السمع والابصار والافئدة قليلاً ما تشكرون﴾ . . (السجدة ٧ : ٩).

وهكذا يسمو الانسان - فى القرآن - على مجرد الوجود البيولوجى بما نفخ فيه الله من روحه، ووهبه من طاقات وقوى، ويشير القرآن الى كيان الانسان «البيولوجى» وتطور

(١) على احمد الشحات - المرجع السابق - ص ٨.

خلقه ونموه، ويقرن ذلك أحيانا بذكر النبات والحيوان، اذ يجمع الجميع الحياة البيولوجية، وان كان الانسان اعقد تركيبا وأكمل اعضاء، وارقى صورة ووظائف وطاقات^(١).

ويذكر القرآن الكريم (حقيقة تطور الانسان) . . فيشير الى انه مخلوق من مادة هذه الارض . . من ترابها اولا . . ثم ان هذا التراب مر في (اطوار) . . فكان التراب طينا، ثم كان الطين حما مسنونا، ثم كان الحما المسنون صلصالا . . ثم كانت نفخة الخالق سبحانه وتعالى في هذا الكائن المصور (على صورة الانسان) بعد أن صار صلصالا . . ويقول القرآن الكريم في (مراحل التطور) التي مر بها «الانسان» حتى أصبح بشرا سويا:

﴿ولقد خلقنا الانسان من سلاله من طين، ثم جعلناه نطفة في قرار مكين، ثم خلقنا النطفة علقه، فخلقنا العلقه مضغه، فخلقنا المضغه عظاما، فكسونا العظام لحما، ثم أنشأناه، خلقا آخر . . فتبارك الله أحسن الخالقين﴾ . . (المؤمنون ١٢ : ١٤).

■ وفي تفسيره للآيات الكريمة يضع «الامام الرازى» (استدلالات) يتلخص في الآتى :-

١ - (ولقد خلقنا الانسان من سلاله من طين) . . والسلالة : «الخلاصة» . . لانها تسل من بين الكدر . . قال ابن عباس وعكرمة وقتادة، ومقاتل المراد منه (آدم عليه السلام) . . فآدم (سل) من الطين . . وخلقته ذريته من ماء مهين، ثم جعلنا الكناية راجعة الى الانسان الذى هو ولد (ادم) . . والانسان شامل لآدم عليه السلام ولولده . . وقال آخرون : الانسان ههنا ولد آدم والطين ههنا اسم آدم عليه السلام، والسلالة : هى الاجزاء الطينية المثبوتة في اعضائه التى لما اجتمعت وحصلت في (اوعية المنى) صارت (منيا) . . ويقول [الرازى] وهذا التفسير مطابق لقوله تعالى «وبدأ خلق الانسان من طين، ثم جعل نسله من سلاله من ماء مهين» . . وهناك رأى آخر، وهو ان الانسان انها يتولد من النطفة، وهى انها تتولد من فضل الهضم

(١) د. محمد فتحى عثمان - الارض في القرآن الكريم - بحث للمؤتمر الجغرافى الاسلامى الاول - الرياض -

الرابع وذلك انها يتولد من الاغذية، وهى اما حيوانية، واما نباتية، والحيوانية تنتهى الى النباتية، والنبات انها يتولد من (صفو الارض والماء) . .

● - فالانسان بالحقيقة - والكلام مازال [للرازى] - يكون متولدا من سلالة من طين، ثم ان تلك (السلالة) بعد ان تواردت على (اطوار الخلق)، وادوار الفطرة صارت (منيا) وهذا التاويل مطابق للفظ، ولا يحتاج فيه الى التكلفات .

٢ - (ثم جعلناه نطفة في قرار مكين): . . يقول الرازى - ومعنى جعل الانسان نطفة، أنه خلق جوهر الانسان أولا «طينا» . . ثم جعل جوهره بعد ذلك نطفة في اصلاب الالباء، فقفذه الصلب بالجماع الى رحم المرأة، فصار الرحم (قرارا مكينا) لهذه النطفة، والمراد بالقرار، موضع القرار، وهو المستقر، فسماه «بالمصدر» ثم وصف «الرحم» بالمكانة التى هى صفة المستقر فيها .

٣ - (ثم خلقنا النطفة علقة) . . اى حولنا النطفة عن صفاتها الى صفات العلقة وهى (الدم الجامد) .

٤ - قوله تعالى: (فخلقنا العلقة مضغة): اى جعلنا ذلك الدم الجامد مضغة أى قطعة لحم كأنها مقدار ما يمضغ، كالغرفة . . وهى مقدار ما يغرف « . . وسمى التحويل (خلقا) . . لانه سبحانه يفنى بعض اعراضها، ويخلق اعراضا غيرها .

٥ - (فخلقنا المضغة عظاما) . . اى صيرناها كذلك، وأقر ابن عامر عظما .

٦ - قوله تعالى: (فكسونا العظام لحما) . . وذلك لان اللحم يستر العظم، فيجعله كالكسوة لها .

٧ - قوله تعالى: (ثم أنشأناه خلقا اخر) اى خلقا مابينا للخلق الاول ومختلفا عنه، حيث جعله حيوانا، وكان جمادا، وناطقا وكان أبكم، وسميعا وكان اصم، وبصيرا وكان اكمه . . وأودع باطنه وظاهره بل كل عضو من اعضائه، وكل جزء من اجزائه عجائب فطره، وغرائب حكمه، ولا يحيط بها وصف الواصفين، ولا شرح الشارحين .

■ ويمكننا - بفضل الله سبحانه وتعالى - أن نتوصل الى المفاهيم الآتية من (استدلال الرازى وشرحه):

* أن آدم - أول انسان على الأرض - مخلوق من ترابها، وهذا الخلق هو الذى يجعل

الخلاقة له عليها، حيث ان طبيعته تكون من طبيعة هذه الارض، وما عليها من مخلوقات، فيحسن بهذا التعامل معها والاعتدال على سياستها، وضبطها، لان الجنس الف، ولو كان آدم (وافدا غريبا) على هذه الارض، لم يطب له مقام فيها، ولم يحسن التجاوب مع مخلوقاتها.

* ان آدم - أول انسان على الارض - قد (تطور) في خلقه من مرحلة . . من التراب الى الطين، الى الصلصال، الى الحما المسنون، الى الفخار، كما ينتقل الجنين في بطن أمه من نرجة الى درجة . . كما يشير الى ذلك قوله تعالى . . «ولقد خلقنا الانسان من سلاله من طين» . . (الآيات ١٢ - ١٤ من سورة المؤمنون).

* في قوله تعالى: «ثم أنشأناه خلقا آخر» . . اشارة الى نفخة الحياة من الخالق سبحانه وتعالى، في هذا الجنين، بعد ان بلغ غايته من التكوين الجسدى، وهذا يقابل نفخة الحق سبحانه وتعالى في آدم، بعد ان تم هيكله الجسدى، عندما اصبح صلصالا كالفخار . .

* ثم ان هناك اشارة اخرى الى (اصل خلق الانسان) . . وأنه نبتة من نبات الارضا . . وفي ذلك يقول سبحانه وتعالى . . «والله أنبتكم من الارض نباتا»^(١) .

* وهناك اشارة أخرى في القرآن الكريم الى (تطور) الانسان وتنقل خلقه من التراب الى البشر . . اذ يقول سبحانه وتعالى: «ما لكم لا ترجون لله وقارا، وقد خلقكم اطوارا»^(٢) . . ولكن اين التراب واين الانسان؟ أين تلك الذرات الأولية الساذجة من ذلك المخلوق المركب الفاعل المستجيب، المؤثر المتأثر، الذى يضع قدميه على الارض، ويرف بقلبه الى السماء، ويخلق بفكره فيها وراء المادة كلها، ومنها ذلك التراب^(٣) .

أنها (ظفرة) ضخمة بعيدة الاغوار والاماد . . تشهد بالقدرة التى لا يعجزها (البحث) وهى التى انشأت ذلك (المخلوق) من تراب^(٤) . .

(١) سورة نوح: ١٧ .

(٢) سورة نوح: ١٣ - ١٤ .

(٣) سيد قطب - في ظلال القرآن - دار الشروق - ص ٢٤٠٩ .

(٤) من ذلك نلمس كيف تحدث القرآن الكريم عن (الانسان) حديثا مستفيضا يتناول خلقه، ومنشأه، وطبيعته، وخصائصه، ومكانته بين الكائنات الاخرى، ومركزه في هذا الكون، وعبوديته كما يتحدث عن صفات الانسان =

* ان المسافة (التطورية) بين عناصر التراب الاولية الساذجة، والنطفة المؤلفة من الخلايا المنوية (الحية) . . مسافة هائلة . . تضر في طياتها السر الاعظم . . سر الحياة . . السر الذى لم يعرف البشر عنه شيئا يذكر بعد ملايين الملايين من السنين . . والذى لا سبيل الى اكثر من (ملاحظته وتسجيله فقط) . . دون التطلع الى خلقه وإنشائه، مهما طمح الانسان وتعلق بأهداب المحال . .

* أن ما رفع (الانسان) عن مجرد الوجود البيولوجى انها هى (روح الله) التى نفخ سبحانه وتعالى فى الانسان منها . . ﴿فاذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين﴾^(١) . .

ومن ادلة (رقى) الانسان عن المملكة الحيوانية والنباتية ان الله سبحانه وتعالى وهب الانسان (طاقة) تتجاوز الادراك الحسى المباشر للعمليات الفكرية العليا بما فيه من ربط واستنتاج وتخيل وطاقة على التعبير بالكلام واللغة التى تعكس فكره (الراقى) . . قال تعالى: ﴿وعلم آدم الاسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين. قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم. قال يا آدم أنبئهم باسمائهم فلما أنبأهم باسمائهم قال ألم أقل لكم انى اعلم غيب السماوات والارض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون﴾^(٢) .

* ان (تطور الانسان) من تراب الى بشر سوى آية من آيات الله الدالة على عظمته ووحدانيته وانفراذه بالخلق . . يقول سبحانه وتعالى . . «ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم اذا أنتم بشر تنتشرون»^(٤) . .

* انها (بعض) آيات الله سبحانه وتعالى الناطقة بوحدانيته، الشاهدة بريوبيته، وأنه لا اله الا هو، وأنه لا يستحق العبادة والتقديس سواه، وقد ذكر سبحانه وتعالى فى هذه الآية الكريمة (بدء خلق الانسان - وعمارته للارض، وبقائه فيها . . بدءا بآدم

وأخلافه عن باقى الحيوانات والكائنات الحية الاخرى . . قال تعالى . . «ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا» . . (الاسراء: ٧٠).

(١) سورة الحجر: ٢٩ .

(٢) الاسراء: ٨٥ .

(٣) البقرة: ٣٠ - ٣٣ .

(٤) الروم: ٢٠ .

من تراب ثم خلق أبنائه من ماء مهين .

● - ولنا ان نتوسع ونقول . . نحن جميعا مخلوقون من (تراب) . . اما أبونا ادم فظاهر فيه ذلك بنص القرآن الكريم، وأما ذريته فهم من ماء مهين، وهذا الماء من الدم، والدم من الغذاء، والغذاء يرجع في جملته الى النبات . . والنبات من الارض . . فتكون النتيجة انا خلقنا من تراب . . فاذا عبر القرآن بخلق البشر من التراب فهذا هو الاصل والاساس، وان عبر بأنه خلقنا من ماء مهين فهذا هو الظاهر في ذرية آدم^(١) . . ثم يبقى بعد ذلك (س) تحول النطفة الى علقة وتحول العلقة الى مضغة وتحول المضغة الى انسان . . انها (مراحل) . . ومسافات هائلة لا يعبرها الفكر الواعي الا وقد وقف خاشعا امام آثار قدرة الله مرات ومرات^(٢) .

فهذه الرحلة الطويلة مع الانسان في مسيرة تطوره من البداية الى النهاية ان هي الا آية من آيات الله في خلقه، تتجلى فيها حكمة الله تعالى، وكمال قدرته، في خلق هذا (المخلوق) من تراب الأرض، ثم جعل منه بشرا سويا، يقوم على خلافة الله تعالى في هذه الارض ليعمرها بما أمره الله تعالى به من (قوى عاقلة مدركة مدبرة) . . وعيون الخلق كلها ناظرة اليه، وهو يقوم بأمر هذه الخلافة، وبها حمل من أمانة لتشهد له أو عليه، ولتراه أیظل (دابة) من دواب الارض . يدب عليها كما تدب سائر الحيوانات أم أنه سيرفع هامته عن تراب هذه الارض، ليرتفع الى الملاء الاعلى وينزل منازل الملائكة المقربين؟ . .

● - والانسان جاهز للأمرين معا . . يقول سبحانه وتعالى . . ﴿لقد خلقنا الانسان في أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات، فلهم أجر غير ممنون﴾^(٣) . .

■ المنهج القرآني في وصف الانسان وخصائص النشأة:

ذكر القرآن الكريم حقيقة علمية عظيمة، هي ان (الانسان وحيد النشأة) . . فقال سبحانه وتعالى . . «هو الذي خلقكم من نفس واحدة، وجعل منها زوجها»^(٤) . .

(١) د . محمد محمود حجازي - التفسير الواضح - مطبعة الاستقلال الكبرى ص ٢١، ص ٢٢ .

(٢) سيد قطب - المرجع السابق ص ٢٤١٠ .

(٣) سورة التين: ٤ - ٨ .

(٤) الاعراف: ١٨٩ .

وفي ذلك يروى عن «ابن عباس» أنه قال . . هي نفس آدم . . وخلق من آدم عليه السلام حواء . .

وقال سبحانه وتعالى . . «خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها، وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج يخلقكم في بطون امهاتكم خلقا من بعد خلق في ظلمات ثلاث، ذلكم ربكم له الملك لا اله الا هو فاني تصرفون»^(١) . .

وقد تعرضت الآية لذكر الانسان وخلقه من نفس واحدة هي آدم . . ثم جعل منها زوجها - ثم هنا للترتيب في الزمن مع التراخي - وذكرت الآية حالة عامة تشمل الانسان والحيوان فقال: (يخلقكم في بطون امهاتكم خلقا من بعد خلق) . .

الناس كلهم ناس من ناحية قاعدة التكوين: رأس وجسم واطراف . . لحم ودم وعظام وأعصاب، عينان واذنان وفم ولسان . . خلايا حية من نوع الخلايا الحية . . تركيب متشابه في الشكل والمادة . . ولكن . . الا يوجد فارق ما بين انسان وانسان - رغم هذا التشابه - يبلغ احيانا ابعدهما بين الأرض والسماء؟ . . وهكذا يبدو التنوع في صنعة البارئ هائلا يدير الرؤوس :-

● - التنوع في الانواع والاجناس، والتنوع في الاشكال والسمات، والتنوع في المزايا والصفات . . وكله . . كله مرده الى (الخلية الواحدة المتشابهة التكوين والتركيب) . . فمن ذا الذي لا يعبد الله وحده . . وهذه آيات قدرته؟ . . وهذه مشيئته . . المشيئة العليا تريد ان تسلم لهذا الكائن الجديد في الوجود زمام هذه الارض، وتطلق فيها يده، وتكل اليه ابراز مشيئة الخالق في الابداع والتكوين، والتحليل والتركيب، والتحرير والتبديل، وكشف الخفية ما يحقق المشيئة الالهية^(٢) . .

● - اذن فهي منزلة عظيمة . . منزلة هذا الانسان في نظام الوجود على هذه الارض الفسيحة، وهو التكريم الذي شاء له خالقه الكريم .

■ - ابعد ذلك يكون هذا الانسان المكرم من نسل القروذ والضفادع، والاسماك؟ . .

لقد كان القرآن صريحا في اشارته الى وحدة الاصل والنشأة للانسان . . فقال

(١) الزمر: ٦ .

(٢) سيد قطب - المرجع السابق - ج ١ ص ٥٦ .

سبحانه وتعالى . .

«يا ايها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا، ان اكرمكم عند الله اتقاكم، ان الله عليم خبير»^(١) . . . فالاصل واحد . . والخالق واحد . . خلقكم جميعا من ادم وحواء . . وجعلكم شعوبا وقبائل، وميزكم اشكالا وأجناسا ليكون ذلك ادعى الى التعارف . . ان اختلاف الالسنه والالوان واختلاف الطباع والاخلاق، واختلاف المواهب والاستعدادات، تنوع يقتضى التعاون للنهوض بجميع التكاليف والوفاء بجميع الحاجات . . وليس للون والجنس واللغة والوطن وسائر هذه المعانى من حساب فى ميزان الله . . انها هناك ميزان واحد تتحدد له القيم ويعرف به فضل الناس . . «ان اكرمكم عند الله اتقاكم» . .

وهكذا تسقط جميع الفوارق . . فالكل لادم . . وادم من تراب . . قال صلى الله عليه وسلم : «كلكم بنو آدم، وآدم خلق من تراب، ولينتهين قوم يفخرون بأبائهم، أو ليكونن أهون على الله تعالى من الجعلان»^(٢) . .

لقد شاءت ارادة الله ان يبدأ الحياة البشرية بخلق آدم من تراب، وسواء كان قد جعله مباشرة من التراب، أو جعل السلالة الاولى التى انتهت اليه من تراب، فان هذا لا يقدم ولا يؤخر فى طبيعة (السر) الذى لا يعلمه الا الله . . (سر) الحياة التى لا بست اول (مخلوق) حى، أو لا بست آدم ان كان خلقه مباشرة من التراب الميت، وهذه كتلك فى صنع الله، وليست واحدة منها بأولى من الأخرى فى الوجود والكينونة . .

■ - من اين جاءت هذه الحياة؟

وكيف جاءت؟

انها قطعاً شىء اخر غير التراب . . وغير سائر المواد الميتة فى هذه الارض . . شىء زائد . . شىء مغاير . . شىء ينشئ اثارا وظواهر لا توجد ابدا فى التراب ولا فى (مادة) ميتة على الاطلاق . .

(١) سورة الحجرات : ١٣ .

(٢) سيد قطب - المرجع السابق - ص ٣٣٤٨ . «رواه ابو بكر الرازى فى مسنده من حديث حذيفه» . .

هذا السر من اين جاء؟ . .

انه لا يكفى اننا لا نعلم لكى ننكر او نهذر كما يفعل الماديون فى لاجاة صغيرة لا يحترمها عاقل فضلا عن عالم . .

● - نحن لا نعلم . . وقد رأينا انه قد ذهبت سدى جميع المحاولات التى بذلناها - نحن البشر - بوسائلنا المادية لمعرفة مصدرها . . نحن لا نعلم ، ولكن الله الذى وهب الحياة يعلم ، وهو يقول لنا انها نفخة من روحه ، وأن الأمر قد تم بكلمة منه «كن فيكون»^(١) . .

والله سبحانه وتعالى يقول ان النفخة من (روحه) فى (آدم) . . هى التى جعلت له هذا (الامتياز) عن باقى الحيوانات واستقلاله منذ اللحظة الاولى عنها . . حتى على الملائكة .

■ - نستنتج من ذلك أن (النفخة) لا بد أن تكون شيئا آخر غير مجرد الحياة الموهوبة (للديدان) . . (والميكروب) . .

* وهذا هو الذى يقودنا الى اعتبار الانسان (مخلوقاً) (نشأ نشأة ذاتية) وأن له اعتبارا خاصا فى نظام الكون ، ليس لسائر الاحياء . .

وقد شاء الله بعد نشأة (آدم) نشأة ذاتية مباشرة ان يجعل لاعادة النشأة الانسانية (طريقا معيناً) . . طريق التقاء ذكر وانثى ، واجتماع بويضة وخلية تذكير ، فيتم الاخصاب . . ويتم الانسال ، والبويضة حية غير ميته ، والخلية حية كذلك متحركة . .

* ومضى الوف الناس على هذه القاعدة . . حتى شاء الله ان (يخرق) هذه القاعدة المختارة ، فى (فرد) من بنى الانسان فينشئه نشأة قريبة وشبيهه بالنشأة الاولى (وان تكن مثلها تماما) . . انثى فقط ، تتلقى النفخة التى تنشئ الحياة (ابتداء) . . فتنشأ فيها الحياة . .

أهذه النفخة هى الكلمة؟ . .

الكلمة التى توجه الارادة . . الكلمة «كن» . . التى قد تكون حقيقة وقد تكون

(١) المرجع نفسه ص ٣٩٧ .

كناية عن توجه الارادة . . والكلمة هي (عيسى) او هي التي منها كينونته . .
■ - كل هذه بحوث لا طائل لها . . ولا طائل وراءها الا الشبهات . . وخلصتها
هي تلك :-

* ان الله شاء ان ينشئ حياة على غير مثال . . فانشأها وفق ارادته الطليقة التي
تنشئ الحياة بنفخة من روح الله، ندرك آثارها، ونجهل ماهيتها، ويجب أن
نجهلها . . لماذا؟ . .

لانها لا تزيد مقدرتنا على الاضطلاع بوظيفة الخلافة في الارض، مادام انشاء
الحياة ليس داخلا في تكليف الاستخلاف^(١).

* للبحث العلمي ان يمضى في طريقه بوسائله الميسرة له، فيصل الى ما يصل
اليه من فروض ونظريات، (غير متعارض) في اية نتيجة يحققها مع الحقيقة الاولية
التي تضمنها القرآن وهي ابتداء خلق الانسان من (سلالة) من عناصر الطين ودخول
الماء في تركيبها على وجه اليقين^(٢) . .

ان القرآن الكريم يضع الانسان في موضعه اللائق به . . ولن تسعد الانسان عقيدة
أخرى أصح وأصلح من عقيدة القرآن . . فالقرآن يهدف إلى بناء الأسرة الانسانية،
ويستنكر الأباطيل . . ومنها أباطيل النشوء والارتقاء وتشويه أصل الانسان . . وأباطيل
العصبية ومفاخر العنصرية . .

(١) المرجع نفسه ص ٣٩٨ .

* يقول الشيخ عبد الكريم الخطيب - ج ١٣ : ج ١٨ ص ٢٢٣ التفسير القرآني للقرآن - دار الفكر العربي . .
ان ادم لم يخلق خلقا مباشرا من التراب - وانما كان خلقه (حلقة) في سلسلة (التطور) وأنه اذا كان الطين مبدأ الخلق،
فانه قد تنقل في هذا الطين من عالم الى عالم، ومن خلق الى خلق الى (خلق)، حتى كان الانسان اخر حلقة في سلسلة
هذا التطور . . فظهر فيها الكائن العاقل وهو ادم . . او الانسان . . ويقول . . وفي قوله تعالى . . (فاذا سوينه ونفخت
فيه من روحي) اشارة الى ان ادم لم يظهر من الطين ظهورا مباشرا، وانما ظل دهورا طويلة في (بوتقة) الزمن، حتى
استوى ونضج، (فالفاء) في قوله تعالى (فاذا سوينه) تفيد التعقيب، ولكنه تعقيب يأخذ من عمر الزمن ملايين
السنين . . «وان يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون» . .

(٢) ويقول الشيخ سيد قطب - رحمه الله - المرجع السابق - ص ٢١٣٧ . . ان اصل الانسان واصل الحياة كلها من
«طين» هذه الارض ومن عناصره الرئيسية التي تتمثل بذاتها في تركيب الانسان الجسدى وتركيب الاحياء اجمعين، وأن
هناك أطوارا بين الطين والانسان تشير اليها كلمة «سلالة» في قوله تعالى . . «ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين»
وقوله: «ولقد خلقنا الانسان من سلالة من ماء مهين» . . والى هنا وتنتهي دلالة النص .

والقرآن الكريم يعترف بفضل واحد متفق عليه في كل أرض وبين كل عشيرة آدمية . . وهو فضل التقوى والاحسان في العمل واجتناب الاساءة . . والقرآن الكريم هو الذى يرسم للانسان الطريق للنهوض بالمسئولية وبأمانة التكليف والاحتكام إلى العقل فى كل ما يسعه العقل ، ثم اطمئنان الضمير إلى الخير فيما خفى عليه من شئون الغيب المجهول ، ولا بد فى كل الأمور - والحالة هذه - أن يؤمن الانسان بالله الذى خلقه فى أحسن تقويم واكرمه ، وخصه بالعقل والعلم والادراك . . فتبارك الله أحسن الخالقين .

الفصل السادس

داروين.. ونظريته [الساقطة] عن اصل الانسان

- - داروين ورحلة الضياع .
- - المؤثرات ابيئية والبشرية في فكر داروين .
- - الرحلة ومقدمات النظرية المشؤومة .
- - المؤثرات الفكرية لنظرية داروين ومؤثراتها في أوروبا .
- - أين تخمرت فكرة [التطور] عند داروين؟
- - الملامح الجغرافية لجزر «الجلاباجو» .
- - مناخ طيب لنظرية فاسدة .
- - داروين وفرضية الانتخاب الطبيعي .
- - الرد الاسلامى على فرضية الانتخاب الطبيعي .
- - أهم ملامح نظرية التطور البشرى عند داروين .
- - أين يكمن الخطر في نظرية داروين؟

من النظريات التي حاولت أن تضيء على نفسها صفة [العلم] وهي أبعد ما تكون عن العلم، وذاع صيتها في القرن الهجري الماضي . . وأثارت ضجة كبرى في الأوساط العلمية والفكرية والثقافية . . واستعملت كسلاح للتشكيك في قيم الدين وتعاليم السماء . . نظرية [داروين] المشهورة بنظرية النشوء والارتقاء للباحث [تشارلز داروين] الانجليزي اليهودي الأصل . .

وكان لنظرية النشوء والارتقاء الفاسدة، بالغ الأثر في تفكير [راتزل] الجغرافي، فقد لمسنا تطبيقاتها وسمومها واضحة في كل أعماله، فالإنسان في رأيه كالنبات والحيوان من نتاج [البيئة]!!! . . بل لقد بلغ الشطط براتزل وتأثره بسموم [داروين] أن قال أن الإنسان في نشاطاته وتطوره وآماله محكوم بحتمية البيئة لا يستطيع منها فكاكا!!! . . ومن المؤلم حقا أن تنتشر سموم الداروينية - عبر أفكار [راتزل] - في أفكار تلميذته [مس سمبل] فإذا بها تحرف وتقول:-

«الإنسان من نتاج سطح الأرض، ولا يعني هذا أنه مجرد ابن الأرض، وتراب من ترابها، ولكن يعني أن الأرض رعته، وغذته، وهيات له أعمالاً، ووجهت أفكاره وجابته بصعاب قوت من جسمه، وشحذت تفكيره، و[خلقت] له مشاكل الملاحظة والرئ، ولكن في نفس الوقت همست له بحلول لها».

وكيف نستغرب ذلك التخريف من [مس سمبل]؟! . . ألم تشرب من ينابيع [الداروينية] الملوثة عن طريق أستاذها [راتزل]؟! . .

لقد كانت الداروينية الخبيثة وراء قول [راتزل] بأن الإنسان مغلوب على أمره، تقيده قوانين وضوابط بيئية تتحكم في نشاطه وتوزيعاته على سطح الأرض، ونظمه في المكان والزمان معاً، وأن حياة الدولة أيضاً رهينة لصنع عناصر الطبيعة ومن أبشع صور الاحاد قوله راتزل الشهيرة . .

«ان عناصر الطبيعة وخاصة التربة هي التي تتحكم في أقدار الشعوب بقسوة عمياء» . .

. . . ومن أبشع صور الاحاد والتخريف قوله تلميذته الأمريكية [مس سمبل]:-

«البيئة هي صنعت عظام الانسان ولحمه . . وتحملت روحه وعقله» . . (١)

(1) E. Semple, The influence of geographic Environment, PP. 1-2.

● - فمن هو [داروين] الذى أفسد الكثير من المفاهيم الانسانية وأثار تلك الضجة فى أوروبا خاصة . . . والعالم بصفة عامة؟

■ - إنه تشارلز «أو تشارلى» بن روبرت بن أراسموسى داروين الذى فشل فى دراسة الطب وفضل دراسة اللاهوت فى جامعة كمبرج سنة ١٨٢٧ م .

لم يبلغ تشارلز السابعة والعشرين من العمر حتى بات فى حوزته، اى فى مذكراته وفى ذاكرته، كل المعلومات عن النبات والحيوان التى اتخذها فيما بعد اساسا لوضع نظرية [التطور] وصياغة ارائه عن اصل الانواع، تلك النظرية وهذه الاراء التى أفسدت وجه العالم فعرف كل من عاش من بعده ان الكون مكان يختلف كثيرا عما تصوره من هنا اضطربت القيم، واهتزت المفاهيم الايمانية فى أوروبا وأمريكا .

وتعد حياة داروين مثلاً سيئاً لحالة اناس تترتب على اعمالهم آثار اجتماعية واخلاقية لم يكن من الممكن توقعها نظرا لان انشطتهم تبدو لا تبشر بخير بل ولا تثير اى اهتمام . فداروين الفتى لم يكن يبنىء بقدم رجل ذى خطر، وما كانت اهتماماته بالتى تتم عن احتمال انجاز علمى ما على الاطلاق .

وفى سنة ١٨٧٦ ، عندما بلغ السابعة والستين، كتب مقالا انهزامياً لأبنائه دون ان يخطر بباله انه سينشر ذات يوم . وكان عنوانه «ذكريات عن تطور فكرى وشخصيتى»، وقد ذكر فيه انه كتلميذ صغير فى اول مدرسة التحق بها، كان أبطأ تحصيلا من أخته «كارتين» التى كانت تصغره سنا، بل وكان، فى اعتقاده، ولدا مشاكسا من نواح كثيرة، أبرزها احتقار المفاهيم الايمانية فى الكنيسة .

وفى الوقت نفسه، كان لديه دائما شغف بجميع الاشياء . فقد كان يجمع، حتى فى تلك السن المبكرة، كل اصناف الاشياء فلم يقتصر على النباتات وبيض الطيور والقواقع والمعادن بل تجاوزها الى قطع العملات والسدادات كما كان يبذل جهداً كبيراً فى تعلم اسماء النباتات . وسواء اعتبر حبه لصيد الاسماك جزءا من هوايته للجمع أم لم يعتبر فلا شك انه حدا به الى قضاء الساعات الطوال على ضفاف نهر أو بحيرة يرقب «فلينة» صنارته ومن ثم شغل الوقت بالتأمل الهادىء .

ولم يكن يخطر ببال أحد اثناء تلك الفترة من حياة [داروين] أنه سوف يصبح عالما . وفى عام ١٨١٨ ، عندما كان فى التاسعة، ارسل الى «مدرسة دكتور بتلر العظيمة فى

شروزيري» حيث قضى سبع سنوات حتى صيف سنة ١٨٢٥ . ولم يتعلم من هذه المدرسة شيئاً افاده فيما استقبل من حياته . فقد اقتصر التعليم فيها على اللغتين اللاتينية واليونانية وبعض الجغرافيا والتاريخ القديم .

وعندما ترك المدرسة لم يكن اعلى او ادنى كثيراً من زملائه وكان يعتبر عموماً فتى عادياً جداً . وعلى الرغم من ان أباه كان يكن له حبا شديداً ، فقد قال له ذات مرة «أنت لا تعبأ بشيء سوى الصيد والكلاب واصطياد الجرذان وستجلب العار على نفسك وعلى اسرتك» ، وهذا ما حدث بالفعل فيما بعد .

وربما كان هذا حكماً بالغ التكريم . ذلك لأنه عندما تعلم الهندسة الاقليدية على يد معلم خاص ، كان يحس بسعادة بالغة ازاء البراهين العقلانية الواضحة . واحس بنفس الغبطة عندما شرح له عمه - وكان على خلاف ابيه ، يقدر امكاناته حق قدرها - فكرة وزنية البارومتر^(١) . على ان حماسه الاساسى فى السادسة عشرة ، وهو حماس لازمه اعواماً عديدة ، كان منصبا على الرماية .

واستمر طوال سنوات دراسته فى جمع المعادن . غير انه كان يجمعها دون منهج علمى وكل ما كان يشغله هو أن يجد عينة من معدن لم يصفه الى مجموعته بعد . كما استرعى انتباهه ما رآه من خنافس رائعة الالوان اثناء عطلة قضاها فى ويلز وهو فى العاشرة مما كاد يجعله يوطد العزم على البدء فى جمع الحشرات . ومن المدهش حقاً أن يكون داروين لم يلمس جوانب العظمة الالهية وقدرته على الخلق والابداع ، من خلال مراقبة اعضاء هذا العالم المثير . . عالم الحشرات . .

وربما كان ما خامر نفسه من مشاعر حب الاستطلاع العلمى هو الذى حدا به الى التطوع للعمل كمساعد لاختيه الذى كان يدرس الكيمياء فاقام فى مخزن الالات بحديقة منزل الاسرة شيئاً قريب الشبه بالمختبر . وكثيراً ما قضى الصبيان الوقت فى العمل الى منتصف الليل غارقين فى تجاربها . وعندما سمع الدكتور بتلر «الرهيب» استاذ [تشارلز] بما يفعل عَنفه علانية واتهمه بأنه «يضيع وقته سدى فيما لا ينفع من الامور» . وكان الأستاذ على صواب بالفعل .

وفى أكتوبر/ تشرين الاول ١٨٢٥ ، عمده ابوه ، وقد رأى ان لا فائدة ترجى منه فى

(1) The origin of species, Published by the new American Library, Amenetor Book, PP. 25-31

هذه المدرسة، الى ارساله الى جامعة ادنبره، على أمل ان يصبح طبيبا. ولم تُقترح فكرة اتخاذه الطب مهنة له على اساس انها وسيلة لتنمية ميل علمي قد يكون لديه او لحفز ابداعه الفكري بل بالاحرى لان الطب كان يعتبر مهنة مفيدة ونبيلة وجديرة بالاحترام.

غير انه على الرغم من ان [تشارلز داروين] لم يكذب يحقق فائدة تذكر من البرامج الرسمية لتعليم الطب فقد شحذت اهتمامه بالعلم صحبتته لنفر من الشبان اللامعين المولعين بالعلوم الطبيعية. وقد برز احدهم فيما بعد كجيوولوجى وكان اسمه اينسويرث. وغدا الثانى، دكتور كولد ستريم، عالما فى الحيوان. أما الثالث فكان فى سبيله الى ان يصبح عالما فى النبات لولا ان ادركته المنية وهو فى الهند.

وكانت صداقة [داروين] لشخص يكبره بعدة سنوات يدعى الدكتور [جرانت] اصبح فيما بعد استاذ علم الحيوان بالكلية الجامعية فى ادنبره، دليلا على ولعه النامى بالعلوم البيولوجية. وكانت صحبتته لهؤلاء الرجال حافظا له الى الاشتراك فى نزعات لجمع الحيوانات على شاطئ البحر من البحيرات التى تخلفها حركة المد. ولم تكن هذه الانشطة تتصل من قريب او بعيد بدراسته الطبية ولكنها تشكل معلما هاما اساسيا من معالم تطور فكر شاب قيض له ان يؤثر فى المفاهيم التى كانت سائدة فى عصره بالتدمير والتحريف، فى القرن التاسع عشر، حتى بات الاستعمار العالمى والتفرقة العنصرية، والانحلال، والمذاهب الهدامة. كل ذلك بات مديناً للفكر الداروينى بالفضل والانتفاء.

والجدير بالذكر ان «تشارلز داروين» نشر فى سنة ١٨٢٦، ولم يمض الا عام واحد على التحاقه بجامعة ادنبره، بحثين قصيرين عما استخلصه من مشاهداته حينما كان يجمع الكائنات البحرية من بحيرات المد بالقرب من [نيوهافن] ومن هنا يمكن أن نرى ان أفكار داروين قد بدأت وهو لم يزل بعد طالبا. وعلى الرغم من تشييط معلمه فى المدرسة والملل الذى كان يسببه له تدريس اساتذته الرسميين بالجامعة فان خلايا عقله كان تنهياً لاستيعاب أسس مذهبه الهدام فى الشؤء والارتقاء.

وبعد ان قضى تشارلز داروين عامين دراسيين بجامعة ادنبره، اقتنع والده من ملاحظاته الخاصة تارة ومن أقوال اخوات تشارلز تارة اخرى، بأن تشارلز لا يجب ان

يصبح طبيبا، واذ كان أخوف ما يخافه هو ان يتحول ابنه الى رجل عاطل مغامر، فقد اقترح عليه أن ينخرط في سلك رجال الدين، ولم يكن الأب يدرى ان ابنه لا يصلح لأى شىء مفيد، وأن الأيام تعده ليكون [معول] هدم للمبادئ والأديان .
ودرس الشاب اقتراح والده بعناية فائقة فاستهوته فكرة أن يغدو قسا في الريف . وكان عندئذ يؤمن يصدق كل كلمة جاءت في الكتاب المقدس . . وأنى له الا يؤمن ولم يخطر بباله قط ان يفعل غير ذلك . وبعد ان قرأ كتابا أو كتابين في اللاهوت لم يجد صعوبة في أن يتقبل مذهب كنيسة انجلترا وبالتالي في الموافقة على عرض ابيه . وبالنظر الى بعض الاستنتاجات التى اسفرت عنها فيما بعد نظريته في [أصل الانواع]، فان استعداده في سن التاسعة عشرة للانخراط في سلك رجال الكهنوت يبدو من المفارقات الغريبة .

■ . داروين ورحلة الضياع

في عام ١٧٢٨ كان يشترط لكى يصبح المرء قسا انجليكانيا الحصول على درجة من احدى جامعتى اكسفورد او كيمبردج . وعلى ذلك نرى [تشارلز داروين] وقد التحق مرة أخرى بجامعة يدرس فيها موضوعا لا يثير اهتمامه بأية حال . ومن ناحية أخرى يحضر داروين بالصدفة محاضرة عامة [لجون هنسلو] في مادة «علم النبات»، فاذا به يفتن بجلائها ورسومها .

والاكثر من ذلك انه كان يستمتع بالرحلات الميدانية التى كان ينظمها [هنسلو] على الاقدام او بالمركبات او في قارب نهري . ولم يكن بكيمبردج شىء يمكن أن يتابعه بنفسه المتعة التى يجسها في جمع الخنافس .

■ . المؤثرات البيئية والبشرية في فكر داروين

واضح أن شيئا من ذلك لم يكن يمت بصلة الى مستقبله كأحد رجال الكهنوت . ومن ناحية اخرى، كان في ابتكاره لطريقتين جديدتين لجمع الخنافس (باستخدام

عامل لكشط الطحالب من على جذوع الاشجار المسنة أثناء الشتاء، وعن طريق جمع النقابة من قيعان القوارب المستخدمة في نقل اعشاب السمار) ما ينبىء بما كان لا بد ان يحدث . وعلى غرار ما جرى وهو طالب في أدنبرة، ظهر اسمه وهو طالب بجامعة كمبردج في المنشورات العلمية التى يذكر منها مجلة استفين المصورة للحشرات البريطانية Illustrations of British insects Stephen,s ، وكان مصحوبا هذه المرة بالعبارات الآتية :- «عثر عليها وأمسك بها تشارلز داروين» . !!!

ولا مرأى في أن ذلك الطالب الكسول الذى يدرس اللاهوت كان لديه شىء يجذب اليه انتباه اتانس مثل الاستاذ [هنسلو] ويميزه عن سائر الطلبة العاديين . وكان من عادة الاستاذ [هنسلو] ان يفتح بيته مرة كل أسبوع لاستقبال اعضاء الجامعة القدماى المهتمين بفرع أو بآخر من فروع العلم . وكان ان دعا الى احد هذه الاجتماعات الشاب [داروين] وسرعان ما شغف بحديثه . ولم يمض وقت طويل حتى اعتادا ان يتنزها معا لفترات تمتد وتدور بينهما اثناءها مناقشات حول علوم النبات والحشرات والكيمياء والمعادن والجيولوجيا وكذلك لم لا؟ الدين أيضا من منظور نقدى هدام . . وكان داروين يقدر في [هنسلو] معارفه الواسعة ودأبه على المشاهدة لفترات طويلة متواصلة تقضى به الى استخلاص نتائجه . ومن الطريف ان نذكر ان داروين تحدث عن [هنسلو] في وقت لاحق فوصفه بأنه رجل «حصيف الاحكام وذو فكر متزن ، ولكننى لا أخال أحداً يقول انه ذو عبقرية فذة» . ومن جهة أخرى تقرر [دائرة المعارف البريطانية]، بعد ان سجلت انه كان مسؤولا بلاشترك مع «سدجويك» ، عن تأسيس «جمعية كمبردج الفلسفية» ، أن ماله من شهرة يعود الى «ان داروين مدين له كثيراً بولعه بالتاريخ الطبيعى وبأنه قدمه الى الكابتن «فتزورى» قبطان [البيجل] سفينة «جلالة الملك» .

وكتب [داروين] فيما بعد عن السنوات الثلاث التى قضاها في «كمبردج» فوصفها بانها من أسعد فترات حياته . فقد استمتع بالرماية والقتنص ، وانضم الى ثلثة من المغامرين الذين كانوا يأكلون ويشربون ويلعبون الورق معا ، وصاحب ايضا جوقة من الموسيقيين المنحليين الشبان . وكان يخصص عطلته الصيفية لاشباع هوايته في جمع الخنافس ، وفي الخريف كان يكرس وقته لممارسة الرماية .

وكم كان من السهل على [داروين] أن يمارس حياة رجل تقليدى محترم من أبناء الطبقة الوسطى . . . وكم كان من السهل عليه ان يتحول الى رجل من رجال الدين فى احدى القرى يشبع شغفه بدراسة الحشرات كهواية جانبية! غير انه ابان اقامته فى كمبردج وقع حادثان قلبا صورة مستقبله رأسا على عقب، وقد حدث كلاهما عام ١٨٣١ عندما كان فى الثانية والعشرين من عمره .

ف نظرا لعدم درايته باللغات والأدب القديمة، لم يستطع ان يبدأ دراساته فى كمبردج فى التاريخ المحدد. ومن ثم قررت السلطات الجامعية ان يبقى فى كليته فصلين دراسيين اضافيين. ولكى يستطيع شغل وقت فراغه على نحو مفيد اتخذ الاستاذ [هنسلو] ما يلزم من ترتيبات لكى يرافق [داروين] الاستاذ [سدجويك] فى بعثته جيولوجية كان على وشك القيام بها فى شمال «ويلز». واغتنم [داروين] الفرصة وكانت هذه الرحلة ومشاركته فى جمع العينات الجيولوجية هى التى اتاحت له أن يدرك أن مجموعة عينات كهذه ليست لها أهمية علمية فى حد ذاتها فحسب بل ان قيمتها تكمن بالأحرى فى اسهامها فى صياغة نظريته الساقطة.

الرحلة ومقدمات النظرية المشئومة

وجاء الحادث الثانى فى اعقاب الاول مباشرة، فما ان عاد [داروين] الى داره بعد جولته الجيولوجية مع «سدجويك»، حتى وجد فى انتظاره رسالة من [هنسلو] يذكر فيها أن قبطانا يدعى [فتزورى] كلفته الحكومة الانجليزية باجراء مسح حول العالم فخطرت له فكرة اصطحاب باحث فى التاريخ الطبيعى لدراسة النباتات والحيوانات التى ستصادفه اثناء الرحلة، وأن العمل الذى سيؤديه الباحث لن يكون مدفوع الاجر بيد أنه سيكون شيقا ولا ريب بالنسبة لشخص يهيمه ذلك الامر. واستحوذت الفكرة على لب [داروين] وسرعان ما قبل الدعوة. وبعد ان حصل على اذن والده توجه الى [كمبردج] لرؤية [هنسلو] وتلقى ارشاداته، ثم سافر الى لندن ليجرى مقابلة مع الكابتن [فتزورى] قائد البعثة وقبطان السفينة. وتمت الرحلة المشئومة بالفعل. وعاد [تشارلز داروين] الى الوطن من رحلته فى اكتوبر/ تشرين الاول ١٨٣٦.

ومن هذا التاريخ وحتى سبتمبر/ ايلول ١٨٤٢، اى فترة ست سنوات، عاش في كمبردج اولا ثم في لندن. وكرس هذه السنوات لتصنيف وتنظيم الكم الهائل من المعلومات التى جمعها. وفى عام ١٨٣٩ نشر سردا لرحلات المسح التى قامت بها البيجل حول العالم. وفى عام ١٨٤٠ نشر قسمين من بحث عن «ظواهر علم الحيوان التى اكتشفتها رحلة البيجل».

ثم نشرت اقسام اخرى من هذا البحث فى السنوات ١٨٤١، ١٨٤٢، ١٨٤٣ ويقال أنه عكف على الكتابة والنشر معظم ما تبقى من عمره.

ولم يتضح الا فى منتصف القرن التاسع عشر أن طول الفترة الزمنية اللازمة لتكوين مختلف الصخور التى تتألف منها الارض، والحيوانات المستحجرة فيها اكبر كثيرا مما ادخلته فى حسابها الكتب المقدسة. وخلاصة القول انه على الرغم من ان الامر كان يقتضى رجالا موهوبين ليدركوا مغزى الادلة، فقد كانت الظروف مهياة لحدوث هذا الادراك، وهكذا اشرق الادراك على «اثنين» من البيولوجيين: على [داروين] ذلك الجالس المتأمل فى عيناته فى منزله الريفى بانجلترا، وعلى [والاس] الذى يستكشف فى جزر الملاى.

وقد قرىء بحث «والاس» مع ملخص لنتائج [داروين] فى اجتماع للجمعية اللينية The Linnean Society بلندن سنة ١٨٥٨ وطبعا معا فى السنة التالية.

وأصيب «داروين» بصدمة. غير انه شرع فى العمل بناء على نصح اصدقائه من العلميين ومدفوعا بطموحه الشخصى الى ان انتهى بعد ثلاثة عشر شهرا على الرغم من نوبات المرض التى ظلت تعاوده، من العمل الذى كرس له جل حياته وهو تأليف كتابه «أصل الانواع». وقد طبع فى نوفمبر/ تشرين الثانى ١٨٥٩. وبيعت جميع نسخ الطبعة الاولى يوم صدورها.

وعزا «داروين» نفسه نجاحها الفورى المستمر، لحد ما، الى انه على الرغم من مضى ثلاث وعشرين سنة منذ عودته الى الوطن مزودا بالبيانات التى بنى عليها نظريته وإلى ان نشرت نتائجه أخيرا فى نص متماسك، فان هذه الفترة لا يمكن ان تكون قد ذهبت سدى، اذ الواقع انها اعطت افراد المجتمع فى مجموعهم ومجتمع العلميين بوجه خاص، فرصة لياألفوا مفهوم [التطور] ويعتادوا عليه.

■. المؤشرات الفكرية لنظرية التطور ومؤثراتها في أوروبا

وهنا نأتى الى الوقت الذى بدأت فيه الاصداء الاجتماعية لهذا الاكتشاف الجديد - أى هذا النهج الحديث فى تناول البيولوجيا وأصل الانواع - فى ذلك الحين وقد اعلن على الملأ، تتردد فى جنبات المجتمع . لقد كان وقعه شديدا . ونحن اذا رجعنا بأذهاننا الى الوراء، بعد مرور ما يزيد على قرن من الزمان، سهل علينا ان نفهم الطبيعة الاساسية للاضطراب الذى أحدثته نظرية [داروين - والاس] فى الافكار التى كانت قد استقرت فى عقول الناس عن العالم والكائنات التى تعيش فيه . ذلك أن النظرية تبدو اليوم فى أعيننا خرافة لا تستند إلى أى برهان . فالمبدأ الأول فى نظرية [التطور]، كما حدده والاس فى بحثه هو «أن حياة الحيوانات البرية هى صراع من أجل البقاء» . والمبدأ الثانى هو ان الانحرافات التى تحدث فى الشكل النمطى لنوع ما (ولم يحدد داروين ولا والاس أسباب حدوث هذه الانحرافات) سيكون لها أثر، إيجابى أو سلبى ، على قدرة ذلك النوع على البقاء . ويصاغ هذا المبدأ بإيجاز فى العبارة «البقاء للأصلح» . وبهذه الوسيلة تنشأ الانواع، وتتغير عن طريق عملية [تطور] مزعومة أشار اليها المخرف والاس إذ يقول فى هذا الصدد: «إن الزرافة لم «تكتسب» عنقها الطويل نتيجة لرغبتها فى الوصول الى اوراق الاشجار التى لا تستطيع بلوغها ولمدها عنقها باستمرار لهذا الغرض، ولكن لان ايا من الانحرافات التى حدثت بين أجناسها المناقضة زودتها باعناق اطول من المعتاد قد ضمنت لها فى الحال نطاقا اوسع من المراعى على نفس الارض التى ترعى فيها رفيقاتها ذوات الاعناق القصار ومكنتها بالتالى من أن تبقى بعد فناء رفيقاتها عند حدوث اول نقص فى الغذاء» .

● - وقد مارست هذه النظرية أثرها الاجتماعى القوى فى أوروبا لاسباب رئيسية ثلاثة :-

[اولها] أنها ناقضت نصوص الكتب المقدسة التى امن بها الناس دون مناقشة والتى تصف الحيوانات والنباتات المختلفة على انها خلقت هكذا . [والثانى] انها بعثت فى النفوس قلقا عميقا بما تضمنته من ايماء بأن الانسان من جنس ادنى ، شأنه شأن أى

نوع من الحيوان أو النبات ينحدر من سلف له أقل نجاحا. فالانسان، الذى هو جوهره عالم الحيوان، على حد تعبير «شكسبير» ينتمى الى هذا العالم فى نهاية المطاف!!! . [والثالث] أنها خطت خطوة أبعد على طريق اعتبار عقلانية العلم المتحررة من القيم، [وليس تمجيد الوحي والالهام]، هى وحدها الوسيلة التى ينبغى ان يرى بها الانسان بيئته وهذا مالم يكن سائداً آنذاك .

وطبع كتاب أصل الانواع فى عام ١٨٥٩ . وفى العام التالى، عقدت الرابطة البريطانية لتقدم العلوم اجتماعها السنوى فى «اكسفورد». وتكلم فى ذلك الاجتماع عن المتضمنات التى ينطوى عليها كتاب [داروين] الاستاذ «توماس هنرى هكسلى»، احد مشاهير المحاضرين فى عصره، والاستاذ بكلية الجراحين الملكية، الذى شغل فيها بعد كرسيا فى المؤسسة الملكية Royal Institution Royal وغدا رئيسا للجمعية الملكية Royal Society وأثناء المناقشة التى اعقبت المحاضرة، شن «صمويل ويلبرفورس» أسقف أكسفورد هجوما عنيفا على نظرية [داروين] بأكملها، واستدار بعنف بالغ الى «هكسلى» يسأله إن كان قد انحدر من قرد «جليل» من ناحية جده أو من ناحية جدته! وأحدثت هذه المواجهة أثرا عميقا فى القاعة فقد أجاب «هكسلى» فى ثبات موجها كلامه الى الاسقف انه اذ خير فى نسبه بين إنسان عظيم الشأن فى أمور الكنيسة والدولة، هم ان يسخر من باحث دؤوب وراء الحقيقة وبين «قرد» يدب ويثرثر فى قفصه ولكنه مع ذلك يمثل سر الطبيعة وسحرها، فسوف يلقى صعوبة فى اتخاذ قرار الاختيار بينها!!!

● - وفى كتاب أصل الاجناس Origin of Species تناول «داروين»^(١) . . نظرية

(١) ولد تشارلس داروين فى شروبشير Shropshire بريطانيا فى ١٢ فبراير سنة ١٨٠٩ عن اب تخصص فى الطب هو «روبرب داروين» وجد تخصص فى مجال الطبيعة والنبات هو الدكتور «اراسموس داروين» . . نشأ «تشارلس» بذلك فى بيئة علمية، درس الطب فى جامعة (ادنبرة) وتركه دون أن يكمل السيرة، وقرر دراسة اللاهوت فى جامعة كمبرج سنة ١٨٢٧ عن غير رغبة وهواية، وانما للحصول على درجة علمية، ولكنه شغف بالرحلات العلمية وراء البحار وكانت رحلة «البيجل» احدى هذه الرحلات التى استمرت خمس سنوات مبتدئة من ميناء (ديفون بورت) سنة ١٨٣١م منتهية سنة ١٨٣٦، لتبدأ رحلة هذا (الرجل الغريب) مع عالم الاحياء والجيولوجيا التى استمرت ربع قرن من البحث والتحليل واسفرت عن توصله الى ما يسمى بنظرية (التطور) التى قدمها الى احدى الجمعيات العلمية، وصدرت الطبعة الاولى من كتاب (أصل الانواع) فى ٢٤ نوفمبر سنة ١٨١٩م، والتى هزت الدنيا (بتطرف) افكارها وغرابة ما ورد بها من معقول قليل وغير معقول كثير. وتوفى «داروين فى ١٨٩ ابريل سنة ١٨٥٩م، بعد أن حلف وراءه نظرية مضللة مازالت المناقشات حولها للآن.

النشوء والارتقاء وقال فيها ان جميع أنواع الحيوانات تنحدر من نوع بدائي واحد، وانها ارتقت الى ما هي عليه خلال مراحل تطورية (متطاولة) . . وبناء على هذا التفسير الذى قام بوضعه «داروين» فان الزراف (مثلا) الموجود حاليا، كان في بدء الامر - على حد قوله طبعاً - من عشيرة الحيوانات الصغيرة ذوات الظلف، ولكن هذا الحيوان من خلال العمليات الطويلة التى اعقبت التوالد والتناسل والتغيرات والفوارق الصغيرة التى طرأت على الجنس الحيوانى، استطاع ان يحصل على هذا الهيكل العظيم غير العادى الذى نشهده اليوم . . ويقول [داروين] موضحاً نظريته في الباب التاسع من كتابه^(١) . . «ومن الأمور الحتمية عندى أنه إذا ما أجريت العملية المطلوبة خلال زمن طويل فمن الممكن أن نجعل من حيوان ذى ظلف عادى حيواناً مثل الزراف» .

■ . أين تخمرت فكرة التطور عند داروين؟

كانت جزر «الجلابا جو» مهداً لنظرية (التطور الداروينية) الساقطة . فعندما أبحر داروين عام ١٨٣١ على ظهر السفينة «بيجل» ليكون إحصائى التاريخ الطبيعى طوال رحلتها لم يكن قد جاوز الثانية والعشرين من العمر ولم يكن لديه إيمان راسخ بالدين، رغم أنه في سن التاسعة عشرة كان قد التحق بكلية اللاهوت بجامعة كيمبردج على أمل الانخراط في سلك الكهنوت . وقد كتب فيما بعد في سيرة حياته عن هذه الفترة يقول : «لم يكن يخامرنى حينئذ ادنى شك في الصدق المطلق لكل كلمة من كلمات الكتاب المقدس»!!! ومن ثم فهو لم يكن متأكداً على الاطلاق في أن العالم قد خلق، على ما هو عليه الان، في ستة ايام (في سنة ٤٠٠٤ قبل ميلاد المسيح، بناء على حساب الاسقف جيمس اشرف) واكتمل خلق العالم، على وجه الدقة، في الساعة التاسعة من صباح يوم السبت ١٢ اكتوبر/ تشرين الاول من تلك السنة، وفي ذلك منتهى التخريف والضلال .

- The Origin of Species, P. 169.

(١) أصل الاجناس ص ١٦٩ .

واجتاحته الشكوك لأول مرة اثناء رحلته في امريكا الجنوبية عندما اكتشف بعض الأحافير «الجديدة»، واختلاف انواع الغطاء النباتى على جانبى سلسلة جبال الانديز بالرغم من تشابه المناخ والتربة والركام الهائل من المرجان أو مقذوفات البراكين اللاحق على تكوين سلاسل الجبال. ولاحظ ان جزر «الجلاباجو» التى تكونت على اثر انفجارات متعاقبة لبراكين تحت البحر، احدث من الوجهة الجيولوجية من امريكا ومن ثم فهى لاحقة لعملية الخلق. وفضلا عن ذلك فقد وجدها مستقلة بذاتها بمعنى انه يجد سلسلة من الجبال تحت البحر يمكن ان ينظر اليها على انها كانت ذات يوم حلقة الوصل بينها وبين الرصيف القارى. لذلك اطلق عليها [داروين] اسم «توابع القارة».

الملاح الجغرافية لجزر الجلاباجو

وكتب في يومياته : «كان أول انطباع عنها منفرا الى أقصى الحدود . . ارضا قاحلة من الحمم البازلتى ، تتلاطم حولها الامواج العارمة من كل جانب وتظهر على طولها وعرضها الصدوع العميقة . وقد نحتت الرياح والمياه من الصخور المنبتقة من اعمال البحر كتلا ملساء كأنها اسوار قلاع طبيعية ، واجرافا مسامية أشبه بالاسفنج ، وسطوحها متعرجة كأنها شعر متحجر لعملاق رهيب . ويتناثر فى الجزر او فيما بينها عدد لا حصر له من الصخور كأنها اسنان متكسرة او انياب تحفى فى ثناياها بحيرة من الحمم . وقد نصفه اليوم بأنه منظر على سطح القمر . وقد علق [داروين] قائلا « اننى لا اتردد فى التأكيد بانه يوجد على الاقل الفان من فوهات البراكين فى شتى ارجاء الارخبيل . وبعض هذه البراكين نشطة هذه الايام وقد سجلت انفجارات فى تاريخ قريب . واذا شوهدت من الجو أكبر هذه الجزر، وتسمى جزيرة ايزابيلا ، ظهر بجلاء انها مكونة من مقذوفات خمسة او ستة براكين كانت نائرة من قبل وكان يفصلها بعض المضائق . وعلى الحواف البازلتية الخشنة توجد الاغوانات البحرية العتيقة البشعة ، والاعوانات البرية «الغبية المظهر» ذات الحركات الخرقاء ، والسلاحف البرية العملاقة (ال galapagos الاسبانية) التى تتحرك فى بطء كما لو كانت تنوء تحت وطأة اوزانها .

وقد كتب القبطان [روبرت فتزورى] فى سجل السفينة «بيجل» يوم وصولها فى ١٥ سبتمبر/ أيلول ١٨٣٥: «انه شاطىء اهل لان يكون عاصمة الجحيم»!!! .

ويرجع تاريخ الجزر الى ما يزيد قليلا على مليون سنة . ولا بد ان تكون الرياح التى تهب من القارة الامريكية والامواج التى ترتطم بالشواطىء وترتد الى صخور البحر هى التى جلبت اولى جسيمات التربة وأولى بذور الاشنة والسرخس التى نبتت على صخور البازلت فكانت اول مستعمريها . ثم كانت الطيور التى حملت البذور فى ريشها او على بطونها او بارجلها . اما تيار همبولت ، فلا بد أنه نقل بدوره الى تلك الجزر الممتدة من خط عرض ١ شمالا الى خط عرض ٢ جنوبا ، انواعا اخرى من الحيوانات مثل طيور البطريق متعلقة بكتل الخشب التى يجرفها كما لو كانت ارماتا طبيعية . وهكذا بدأ العمران فى الارخبيل الذى يقع على بعد ينقص قليلا عن ١٠٠٠ كيلومتر من سواحل الاكوادور وتبلغ مساحته فى مجملها نحو ٧٨٠٠ كيلومتر مربع . وتحتل أكبر جزره اكثر من نصف هذه المساحة اذ تبلغ ٤٥٨٨ كيلومترا مربعا تقريبا بينما لا تزيد مساحة أصغر الجزر عن خمسة كيلومترات مربعة .

على ان بقايا من الخزف واثار الحملة الاستكشافية التى قام بها [ثور هيردال] Thor Heyerdhal قد ادت بالبعض الى الاعتقاد بان سكان امريكا الجنوبية فيما قبل «كولومبس» ، ولا سيما قبائل «الانكا» ، قد وصلوا الى جزر [الجلاباجو] . غير ان اكتشاف الارخبيل ، من وجهة النظر التاريخية ، قد تم على ايدى اسقف اسباني من بنما يدعى «توماس دى برلانجا» وكان الامبراطور «شارل» الخامس قد اوفده الى [بيرو] ليسعى الى فض الخلاف بين القائدين الفاتحين «فرانثيسكو بيسارو» ، و«ديجو دى الماجرا» اللذين كانا قد اكتشفا الارخبيل فى عام ١٥٣٥ . ومن المحتمل ان يكون قد حاد عن الطريق او ان تيار همبولت القوى قد قذف بسفينة عن الجزر . ومن الثابت ان «برلانجا» ورجاله هم اول من اطلق اسم الجلاباجوس على الجزر (والكلمة بالاسبانية تعنى «السلاحف») كما اسموها الجزر المسحورة بسبب الضباب الذى يغلفها فتصبح وكأنها القلاع التى تحكى عنها القصص الخرافية .

ولم تكن الجزر تمثل أية اهمية بالنسبة للقارة أو للقادة الفاتحين غير انها كانت وكرا ممتازا يحتوى فيه القراصنة : فقد اتخذها قراصنة البحار الجنوبية قاعدة لعملياتهم ضد

السفن الاسبانية في طريق عودتها الى بلادها محملة بالنفائس والكنوز. كما كان يتردد عليها مغامرون مثل نايت ومورجان وديفيس واميروز كولى الذين رسموا اول الخرائط الملاحية التى تظهر فيها الجزر.

وقرب عام ١٨٠٠ اقترح القبطان «كولنت» من البحرية الملكية البريطانية صيد الحيتان التى كانت تزخر بها المياه المحيطة بالارخبيل نظرا لان حيتان المحيط الاطلسى كانت فى طريقها الى الانقراض. حينئذ انبرى صيادو الحيتان من الانجليز والامريكيين الشماليين يبيدون لا الحيتان فحسب بل والسلاحف ايضا سعيا وراء لحمها وما يستخرج منها من زيت. وقد جاء فى سجلات البحرية الامريكية ابان القرن التاسع عشر ان سفينة واحدة قد حملت نحو ١٤ طنا من السلاحف فى اربعة ايام وان اسطول الحيتان فى البحرية الامريكية قد اصطاد فى ٢٧ عاما اكثر من ١٣ الفا من هذه الحيوانات التى لوتركت وشأنها لعمرت الى ما يربو على قرنين من الزمان. كما استقبلت الجزر ايضا، فى عام ١٨٤١، صائد حيتان اصبح فيما بعد كاتباً ذائع الصيت هو «هيرمان ملفيل» الذى الف كتاباً رائعا بعنوان The Encantadas (الجزر المسحورة). على أن من الاله ان نذكر ان صائد الحيتان الامريكى «اسكس» قد هاجمه حوت فى بداية القرن التاسع عشر وأغرقه غرب الجلاباجوس بثلاثين درجة. وكانت هذه الحادثة مصدر الهام القصة الشهيرة لموبى ديك Moby Dick [الحوت الابيض]؛ رمز الشر فى البر والبحر، والمطاردة الانتقامية الدامية التى قام بها الكابتن «أشاب» ذو الساق الخشبية، وميت بالفشل الذريع.

وقد وجد [داروين] فى جزيرة تشارلز (وتسمى اليوم جزيرة سانتا ماريا) مستوطنة يقطنها ما يتراوح بين ٢٠٠ و ٣٠٠ نسمة معظمهم من «الملونين الذين طردوا من جمهورية الاكوادور لجرائم سياسية».

وكانت الاكوادور قد استولت على الجزر فى ١٢ فبراير / شباط ١٨٣٢ واسمها ارخبيل كولون (كولومبس) واطلقت عليها اسماء مسيحية مستوحاة من تاريخ حياة كولومبس. والأرخبيل يمثل متحفاً طبيعياً للتاريخ الطبيعى، حيث يضم مستعمرات هائلة من كائنات بحرية غريبة ولا سيما الاغوانة البحرية (Amblyrynchus crist-atus) وهى تظل فى مجموعات متراصة طلبا للدفء على الصخور غير بعيدة عن الماء.

ويبدو ان هذا الحيوان البشع في منظره ان لم يكن في حجمه ايضا، ذا الظهر المسنن والمخالب القوية كما لو كان ذلك لتمكينه من التثبيت بالارض لابد ان يكون قد عاش اصلا فيما يبدو معيشة الاغوانة الارضية .

(*Conolophus pallidus*, *Conolophus subscristatus*)

غير انه ابتغاء الهروب من هذا الجنس الاخير، وهو أقوى منه، قد اضطره الى اكتساب مهارات مائية، وان كان [داروين] نفسه يقول انه يتجنب المياه بمجرد زوال الخطر. وكان عليه لذلك ان يغير غذاءه. وتكونت له غدد هائلة تمكنه من ان يتخلص عن طريق الانف من الملح الزائد الذى يمتصه مع الاعشاب البحرية التى يتغذى بها وبذلك يكمل وظيفة الكلى. وكانت التغيرات الفجائية في درجة الحرارة التى تطرأ على هذه الحيوانات عندما تقفز من الصخور الملتهبة الى المياه الباردة ثم تعود الى الصخور مرة أخرى، سببا في تعديل نبضات القلب لديها. وقد بينت التجارب العملية ان اجسامها تفقد الحرارة في نصف الوقت الذى تحتاجه لاستعادتها وذلك عندما تنخفض او ترفع درجة الحرارة المحيطة. وعندما زار [داروين] جزيرة سان سلفادور كانت حيوانات الاغوانة الارضية من الكثرة بحيث ظل بعض الوقت دون أن يجد في الجزيرة كلها، مساحة بلا جحور لينصب فيها خيمته.

ويعد [بطريق] «الجلاباجو» الوحيد من نوعه الذى غامر بالبقاء على هذا القرب من خط الاعتدال. وهو ايضا اصغر بطاريق العالم، شأنه شأن طفل ضئيل الجسم أو قزم إذا قورن بأسلافه أو معاصريه الفارعين في المنطقة القطبية الجنوبية. ولكنه في ارنخيل [الجلاباجو] - وهو يبدو اذ يفعل ذلك كما لو كانت توجهه ذاكرة جماعية تنحدر من أسلافه - يفتش عن المياه الباردة العميقة بين جزيرتي «فرناندينا» و «ايزابيلا»، ويبحث على الارض عن الرطوبة المنعشة في الفجوات التى حفرتها الأمواج في مقذوفات البراكين.

وثمة ثلاثة عشر من الأنواع المعروفة للقطرس (*albatros*) والنوع الذى يعيش على جزيرة اسبانيولا (*Diomedea irrorata*) هو النوع الوحيد فى العالم الذى يعيش فى المنطقة الاستوائية. وبالمثل فان طائر المجنون المقنع (*Sula Dactylatra*) [الجلاباجو] هو الوحيد من نوعه الذى له دورة تكاثر سنوية وان كانت تتغير من جزيرة

لأخرى. ففي جزيرة جينوفيسا تحدث من شهر اغسطس / اب الى شهر نوفمبر/ تشرين الثاني ، وفي جزيرة اسبانيولا من نوفمبر/ تشرين الثاني الى فبراير/ شباط. كما يضع بيضه على الارض العارية ، شأنه شأن الطائر المجنون ذى القدمين الزرقاوين ، كما لو كانت ندره الاشجار وغيبة الحيوانات او الطيور المفترسة على الشواطىء التي يعيش عليها قد افقدته عادة بناء الاعشاش . وهو لا يرى سوى فرخ واحد من فرخى البيضتين اللتين يضعهما أما الأخر فيأتى الى الوجود ضعيف الحيلة محكوما عليه بالموت جوعا في غضون بضعة ايام .

ويعطى بلشون اللحم او الواق الاخضر (*Buteridis Sundevalli*) وغراب البحر (*Nannopterum harrisi*) مثالين غريبين على التكيف مع البيئة . فالطائر الاول ، الذى لا يوجد الا في هذه الجزر ، هو الذى ينفرد دون كل اعضاء جنسه بالخط على الشجيرات قبل ان ينقض غائضا في الماء لاقتناص الاسماك . أما غراب البحر ، الذى وصل اسلافه الى الجزر بعد طيران ما يقرب من الف كيلومتر ، فقد فقد ريش جناحيه تقريبا . ذلك ان صيد السمك كان من السهولة بالنسبة اليه لدرجة انه نسى كيف يطير وتعلم العوم بدلا من ذلك . والواقع ان كونه هو الطائر الوحيد من طيور الارخبيل غير القادر على الطيران يعتبر دليلا اضافيا على صغر عمر جزر [الجلاباجو] . فحتى وقتنا الراهن ، لم يتسع الوقت الا لنوع واحد لفقدان القدرة على استخدام اجنحته بخلاف نيوزيلندا مثلا حيث تكثر الانواع التى ضمير فيها عضو او عدة اعضاء وفقدت وظائفها .

واصبحت حالة البرقش حالة نموذجية منذ ان استند اليها [داروين] في سوق احدى الحجج [الواهيّة] لتأييد نظريته الساقطة عن الانتخاب الطبيعى . فبعد ان لاحظ الفروق في حجم المنقار في مختلف الانواع بالجزر ، استنبط ان هذه الطيور كان عليها ، على امتداد عدد كبير من الاجيال ان تكيف مناقيرها حسب حجم الحبوب البذور والحشرات بل والاوراق التى تتغذى بها . وقد صنفت ثلاثة عشر نوعا منها وكلها من عائلة الـ *Greospizinae* واروعها هو نوع الحسون (*Gamarhynchus pallidus*) الذى يلتقط الحشرات ويرقاتها من الشقوق في قشرة شجرة [عود الأنبياء] التى سميت بالحشرة المقدسة نظراً لـ *Bursera gaovoelens* للرائحة العطرة التى تفوح

عند قطعها أو من الاغصان العارية في الأشجار الميتة . ولكن نظرا لان منقاره ليس طويلا بدرجة كافية فانه يستخدم شوكة من شوك الصبار في البحث داخل شقوق الاشجار . ولعله هو المثال الوحيد في عالم الطير الذى يستعمل أداة في التفتيش عن غذائه . فهل هى الغريزة ام الذكاء؟ إنها فطرة الله سبحانه وتعالى التى فطر المخلوقات عليها . .

والغالبية العظمى من الزواحف ونصف الطيور غير المهاجرة، وثالث النباتات، وعدد كبير من الحشرات الموجودة في جزر [الجلاباجو] - لا توجد في أى جزء آخر من العالم . ومن هنا يمكن أن نفهم لماذا اعتبر [داروين] رحلته الى امريكا الجنوبية وبصفة خاصة الى جزر [الجلاباجو] اهم حدث في حياته على الاطلاق، ورأى فيها منبع «كل آرائه» . وقد كتب في يومياته بأن على جزر [الجلاباجو] «يبدو أننا دنونا، في الزمان والمكان، من تلك الحقيقة العظيمة . . سر الاسرار . . ظهور كائنات جديدة لأول مرة على هذه الارض . !!!

والواقع ان الخطر الذى تمثله الحيوانات المستأنسة التى أحضرها الانسان معه الى الارخبيل بالنسبة لبقاء المجتمعات الحيوانية المحلية لاشد من الخطر الذى يمثله الانسان نفسه . ويصدق القول ايضا على الانواع النباتية، فالكلاب البرية تلتهم السلاحف والاغوزانات، والماعز تلتف النباتات، ويض الطيور وفراخها هى الطعام المفضل لدى الخنازير البرية . ويذكر تقرير اعدته محطة بحوث «تشارلز داروين» عام ١٩٦٣ عن جزيرة [اسبانيولا] ما يلى : «لم نلق سوى سلحفاة واحدة . . بعد بحث قام به ثلاثة رجال لمدة يومين وقد الحقت الماعز بالغطاء النباتى للجزيرة تلتها بالغا» .

■ . مناخ طيب لنظرية فاسدة

دامت عملية التأمل والتفكير والنظر واعادة النظر فى الادلة المستمدة من مشاهداته الخاصة ومن مشاهدات الاخرين فترة عشرين عاما حتى اوائل ١٨٥٦ حين اثار عليه [اى داروين] بنشر أفكاره السير [تشارلز ليبيبل]، اعظم علماء الجيولوجيا فى ذلك العهد .

وشرع [داروين] على التوفى اعداد عرض مستفيض . ومع ذلك ، فلم يكن قد انتهى نصف العمل عندما حل صيف ١٨٥٨ . وذات يوم وصلته رسالة بالبريد من شخص يدعى [الفريد والاس] ، وكان هذا الرجل مساحا ومهندسا معماريا يستهويه التاريخ الطبيعى . وكان يستكشف فى جزر الملاى . وقد ارفق برسالته بحثا عنوانه «نزوع السلالات إلى أن تحيد نهائيا عن النمط الاصلى» . وقد ذهبل [داروين] عندما وجد ان بحث والاس يعرض نفس النظرية التى توصل إليها هو فى أصل الانواع ، وكيف لا؟ ألم يتجرعا سموم نظريتهما من مستنقع واحد؟ . .

■ . داروين وفرضية الانتخاب الطبيعى

● - تناولت النظرية الداروينية (Darwinism) عجز الكوكب الارضى عن تحمل (التوالد) المستمر لجميع الانواع المتزايدة طبقا لمتوالية هندسية [اذا لم يتدخل (عامل) فى إحداث (التوازن) . .

(Struggle for existence) بين افراد النوع الواحد] تخلف فى النهاية العناصر القوية القادرة على حمل الصفات الجيدة للاجيال القادمة ومنها القدرة على التكيف مع ظروف بيئة جديدة قد يضطر اليها النوع باسره امام جبروت الأنواع الاخرى . . أو بفعل عوامل الطرد الطبيعية إلى بيئات أقل إغراء بامكانياتها ، عندئذ لن يبقى إلا (الأصلح) حسب قانون (داروين) الذى اسماه :

[الاختيار الطبيعى او الانتخاب الطبيعى] :-

(The survival for the Fittest Natural selection)

. . «ويقصد بذلك أن (الطبيعة) « Nature ستفضل الحيوان ذا الفراء السميك فى مناطق «التندرا» على غيره غير المؤهل لظروف هذه البيئة» . . وهى التى ستفضل الحيوان السريع الجرى بين أشجار الغابات الاستوائية المتشابكة على غيره (غير المؤهل لظروف هذه البيئة) من الحيوانات الضخمة البطيئة الحركة السهلة الوقوع فريسة للعدو . . ويرى ان الحصان الاكثر سرعة هو (المرشح) الوحيد للبقاء بعد بأس الذئاب

من اللحاق به . . وهو القادر على توريث احسن الصفات الى الاجيال التالية، كما ان الزراف الطويل العنق فقط هو الذى يستطيع البقاء حسب انتخاب الطبيعة له لقدرته على تناول اوراق الاشجار العالية، أما غيره فمصيره الفناء والانقراض . .

● . الرد الاسلامى على فرضية الانتخاب الطبيعى

سأسوق هنا رأى عالم جليل هو [الشيخ حسين الجسر] . . إذ يرد على [تخریف] الداروينية الفاسدة بقوله :-

. . . أريد أن أبين لكم - [أى الداروينيين] - أن معتمد أدلتكم على النشوء، وتوجهكم له لم يتجاوز الظن والتخمين وبذلك كفاية لما هو غرضنا . فأقول أن معظم ما استندتم عليه فى الاستدلال على نشوء [الأنواع] من أصل واحد أنكم شاهدتم الأعضاء الأثرية فى [بعض] الحيوانات لا فى [كلها]، ولا فى [غالبها] . . وهى آثار أعضاء توجد فى الحيوان كأثار أرجل مثلاً غير كاملة .

واعلموا أن الدليل متى طرأ عليه [الاحتمال]، ولو كان احتمالاً بعيداً سقط به الاستدلال، اعنى الاستدلال على اليقين، وهذا حكم لا ينكر عند كل العقلاء، ولا أخال أنكم تنكرونه إذا تقرر ذلك . . فاعلموا أن استدلالكم بالأعضاء الأثرية على النشوء بأنها تدل على تغير [الأنواع] فتوافق مذهب [النشوء] ولا توافق مذهب [الخلق] هو استدلال لا نتيجة له إلا الظن، وليس من اليقين فى شىء . .

. . . فأنتم لم تحيطوا علماً بفائدة كل كائن حتى تجزموا بأن تلك الأعضاء لا فائدة لها البتة . . سلمنا أنها لا فائدة لها، وأنها تدل على تغير [النوع] الذى هى فيه . . لكن نقول انها لم توجد الا فى بعض الأنواع وهى التى وجدت فيها تلك الأعضاء، فقد خلقت [مستقلة] ولم يطرأ عليها ذلك التغير، فلم يثبت مذهب النشوء الذى قلتكم بعمومه فى كل الأنواع .

■ وقد أسس داروين نظرية [الاختيار الطبيعى أو الانتخاب الطبيعى]:

The survival for the fittest Natural selection.

على بعض الافتراضات والظواهر والاستنتاجات^(١) نلخصها في النقاط التالية:

● سخاء الطبيعة في عملية التكاثر لضمان بقاء العدد المطلوب لاستمرار النوع وميل Tendency جميع الكائنات الحية (على حد قوله) للزيادة في العدد بنسبة هائلة للغاية ويرى ان سبب ذلك هو أن الاطوار المبكرة من الذرية تكون دائما اكثر بكثير من ابائها سواء اكان التكاثر جنسيا Sexual ام غير جنسى Asexual^(١).

(١) من ذلك مثلا اننا عندما نسلم بان الانتخاب الطبيعي يتوقف على الانحرافات الفطرية، يظل علينا ان نتساءل كيف يضمن انتقال هذه الانحرافات؟ ولنفترض ان توليفة لونية معينة مفيدة للتموه وتعطى الحيوان الذى يولد بها فرصة اكبر للبقاء. ولكن هب ان هذا الحيوان تزواج مع حيوان اخر ذى توليفة لونية اخرى وجاء صغارها بالوان وسيطة فان ذلك سوف يترتب عليه فقدان تلك الميزة.

وفي الستينات من القرن التاسع عشر، اجرى جريجور مندل، وهو عالم نبات نمسوى، تجاربه على نباتات البازلاء التى كانت لها بعض الصفات الثابتة، فهجن بعضها ورصد الصفات فى النباتات أثناء تقدمها فى النمو. فأتضح ان الصفات لم تمتزج لتعطى اشكالا بين بين. ومن ثم اذا هجنت نباتات طويلة بنباتات قصيرة، اعطى بعض النباتات نباتات طويلة واعطى بعضها الاخر نباتات قصيرة، ولم يأت اى منها بنباتات متوسطة.

ونشر [مندل] نتائجه ولكن بحثه اهمل وظل فى زوايا النسيان الى عام ١٩٠٠ حين عثر عليه علماء نبات اخرون كانوا قد توصلوا الى نتائج مماثلة وطفقوا يفتقون فى المجلات العلمية عما سبق نشره من بحوث. وكان [مندل] قد وافته المنية عام ١٨٤٤ دون ان يدري انه قد اسس علما جديدا هو «علم الوراثة المندلى».

وكان مندل قد افترض وجود اشياء معينة فى الكائنات هى التى تتحكم فى الصفات البدنية التى تنفرد بها تلك الكائنات، وان هذه الاشياء تنتقل من الاباء الى الابناء وفى عام ١٨٧٩، اكتشف فالتر فلمنج وهو عالم المانى، الصبغيات الدقيقة داخل نوى الخلايا. وما ان اعيد اكتشاف النتائج التى توصل اليها مندل فى علم الوراثة حتى تبين العلماء ان الصبغيات تنتقل من الاباء الى الابناء وان ذلك الانتقال يتم على نحو يفسر الكيفية التى تورث بها الصفات. واعتبر ان الصبغى يتكون من خيط من الوراثة او الجينات التى يحكم كل منها صفة معينة.

وتتكون هذه الوراثة من جزئيات ايبيرة من «حامض نووى» تنتج نسخا من نفسها عند كل انقسام خلوى. ومن ثم تتصف كل خلية جديدة بصفات الخلايا التى نشأت منها.

بيد ان النسخة لا تكون مطابقة للاصل تماما ومن الممكن حدوث تغيرات طارئة طفيفة فى جزئي وتعرف هذه التغيرات «بالطفرات» او التغيرات الاحيائية، وهى السبب فى وجود الفروق بين فرد، واخر، وهى المسئولة عن الانحرافات الفطرية التى تحدث لدى الصغار فتجعل الانتخاب الطبيعى امرا ممكنا. ويتيح الانتخاب الطبيعى لبعض الطفرات ان تزدهر بينما يفضى ببعضها الاخر الى الانقراض.

ويترتب على بقاء طفرات مختلفة هنا وهناك نشوء انواع جديدة.

(١) مثال ذلك ان السمكة الواحدة من السالمون Salamon تضع قرابة ٢٨ مليون بيضة كل موسم. وبالطبع كون كل هذه الاعداد الضخمة من البيض تفقس وتكون افرادا تبقى على قيد الحياة حتى تتكاثر بنفس الاعداد شىء لا يمكن تصوره اطلاقا. فمثلا حسب العالم الامريكى دودسون Dodson نتائج نجوم البحر Stars Fish الموجودة فى جزء صغير من الشاطئ الباسفيكى شمال سان فرانسيسكو على افتراض ان نسبة بقاء (الذرية) منها على قيد الحياة هى ١٠٠٪ فوجد ان عددها بعد حوالى ١٥ جيلا فقط (اى بعد حوالى ٣٠ سنة) سيزيد على عدد الاليكترونات Electrons^١

● - بقاء (عدد) كل نوع من الحيوانات ثابتا تقريبا رغم سخاء الطبيعة في عملية التكاثر، ويرى [داروين] ان السبب في ذلك يرجع الى أن (عددا) كبيرا من الافراد تهلك بواسطة الاعداء او الامراض او التنافس او المناخ^(١).

ومن الجلى ان [داروين] قد اعتبر ان تكون الانواع، الذى قصد به بروز انواع جديدة عن طريق عملية الارتقاء من اشكال سابقة، يشكل مفتاح التطور، وانه لا يمكن فهم كافة الظواهر الاخرى المتصلة بالتطور الا بعد كشف النقاب عن اسرار هذه العملية. بيد أنه اخفق في التمييز بين نشوء انواع جديدة وارتقاء سلسلة متزايدة التعقيد من الاجناس والعائلات والرتب والفئات والفصائل او الشعب. ومع ذلك يجمل بنا ان نذكر ان الوراثة كعلم لم تكن قد وجدت بعد في زمن [داروين] وأنه لم يكن يدري شيئا عن أعمال معاصرة لمندل^(٢).

وليس من شك في ان تفكير داروين قد قاده الى نوع من الشطط والتخبط في فرضيات لا أساس لها حول الحدود الفاصلة بين نشوء الانواع وبين ارتقاء مجموعات اكثر تعقيدا، والتي تميز عندها مثلا بين نشوء الكلب الاليف وبين نشوء عائلة الكلبيات كلها. وليس من قبيل الصدفة انه كرس فصلا كاملا من اصل الانواع لموضوع التهجين داخل النوع الواحد وفيما بين الانواع المختلفة، لأن أخطر ما استحوذ على انتباهه هو ما يعبر عنه في اللغة العلمية العصرية بانه توقف تبادل الوراثة (Gen-es) في الوقت الذى يتكون فيه أحد الانواع^(٣).

وتدعى جماعة من الداروينية أنها تستطيع أن تميز بين عمليات التطور المحدود المدى micro- evolution وعمليات التطور الواسع المدى macro- evolution على

الموجودة بالكون (٧٩١٠) مرة.

انظر في ذلك: علم الدين كمال - المرجع السابق ص ٩٨٢.

(١) يجب ان نفهم ان ذلك سليم... لماذا؟.. لان عدد كثير من انواع الحيوانات البرية يختلف من سنة الى اخرى حسب عوامل بيئية كثيرة.

(2) S.A. Semenov.

Prehistoric Technology. Coty, Adams and Mackay, London, 1964.

(3) J.S. Weiner

The Piltdown Forgery Oxford Univ. Press, 1955.

افتراض أن التطور المحدود المدى هو جماع الظواهر التي تحدث داخل النوع، على مساحة جغرافية محدودة نسبياً، وفي أثناء فترة زمنية قصيرة نسبياً أيضاً (تقاس ببضع مئات أو ببضعة آلاف من الأجيال)، وتبلغ ذروتها آخر المطاف حين يتكون نوع جديد أو ينقسم النوع الأصلي إلى نوعين فرعيين.

وتتخطب جماعة داروينية أخرى في القول بأن [ميكانيزم] تكون الأنواع مفهوم إلى حد كبير، زاعمة أن مجتمعات النبات والحيوان على السواء تعرض أجيال متعاقبة على مدى فترات طويلة من الزمن لضغوط بيئية تسفر في نهاية الأمر عن انتخاب أقدر التغيرات الموروثة على التصدي لتلك الضغوط. ولكن ما هي العوامل التي تسمح بحدوث عملية الانتخاب هذه؟ وتجب الداروينية أنها تكمن أولاً فيما تسفر عنه الطفرة، أي التغيرات الوراثية المتراكمة التي نتجت أساساً من تعديلات في الحامض النووي الصبغي DNA: Deoxyribonucleic acid داخل البنية الوراثية للخلايا⁽¹⁾.

ويكمن المصدر الثاني - حسب زعم الداروينية - للتغيرات التي تتيح حدوث الانتخاب في العملية التي تتكاثر بها الكائنات المزدوجة الجنس، على افتراض أن التكاثر الجنسي يسمح بتوافق الوراثة (الجينات) المنحدرة من كل من الذكر والأنثى وأن عدد التوافقات الممكنة يزداد مع كل جيل جديد.

● - المنافسة في سبيل البقاء بين الأنواع المختلفة بهدف الحصول على الطعام والمأوى وأماكن التكاثر. . من جانب وبين أفراد النوع الواحد من أجناس أخرى، وذلك مع افتراض داروين (ثبات) موارد الطعام وأماكن الاستيطان، على معدلات واحدة ومساحات ثابتة.

● - اختلاف Variation أفراد كل نوع من الحيوانات والنباتات عن بعضها بصورة واضحة، ويعتبر (داروين) هذا الاختلاف بأنه صفة متأصلة للبروتوبلازم (المادة الحية) لأنه وجدها في جميع مجموعات الكائنات الحية. ولم يستطع داروين - في هذا الصدد - أن يفرق بين الاختلافات المتوارثة Heritable وهي المهمة في عملية التطور،

(1) Gerhard Wicher

Charles Darwin, the Founder of the Theory of Evolution and Natural selection, Pergamon Press, N.Y. 1961.

وغير المتوارثه والتي تتكون نتيجة لاختلاف الطعام او درجة الحرارة او العوامل البيئية الاخرى . . ويرى ان الاختلاف Variation بين افراد النوع الواحد وراء حدوث (التطور) . . وبدونه لن يحدث ابدا . . ويقول داروين أنه في ظل الظروف العادية فان التغيرات الورثية التي تحدث على هذا النحو وتعزل بالتدرج مجتمعا ما عن غيره من المجتمعات المنحدرة من نفس النوع الى ان يصبح نوعا قائما بذاته، تجعل التزاوج امرا مستحيلا .

ويستشهد [داروين بمثال مجتمع للارانب نقل من اوروبا الى جزيرة «ماديرا»: فبعد ثلاثمائة سنة تغيرت ارانب «ماديرا» في مظهرها الخارجى وتقلص حجمها حتى غدت في حجم الجرذان ولم تعد قادرة على التزاوج مع الارانب الاوروبية . * ان نظرية الطفرة البعيدة المدى تثير اسئلة تفوق الحصر وتتعد الاجابة عنها . فمما يصعب تخيله مثلا ان «الفلة المبشرة بالخير» التي تظهر كفرد وحيد في مجتمع معين ستكون قادرة على العثور على قرين لضمان انجاب النسل .

وفضلا عن ذلك ، تناقض المشاهدات الباليونتولوجية هذه النظرية المتطرفة خصوصا في ادعائها ان الافراد المؤسسين لمجموعات جديدة لا يختلفون الا قليلا عن سائر افراد المجتمعات التي انبثقوا منها، وأن الطائر البدائي Archaeopterix لم يكن سوى حيوان زاحف يغطيه الريش، وكذلك في ادعائها الرخيص أن لسلفنا المسمى [قرد الجنوب Australopithecus] شباها الى حد بعيد بالقرود باستثناء وقفته المنتصبة (١) .

ويزعم الداروينيون ان جميع أمثلة الطفرة البعيدة المدى من الطراز الذى ادى الى نشوء ثان من الاجنحة في ذبابة الفاكهة Drosophila تتضمن عودة ظهور صفات قديمة اكثر مما تتمثل في انبثاق صفات اخرى جديدة، وأنها تعكس ظاهرة التناسل

(١) ويرى «داروين» انه لما كان اكثر الافراد ملاءمة هي تلك التى سوف تبقى على قيد الحياة، فقد استعمل تعبير البقاء للاصلح (Survival of the fittest) وبذلك يكون للنزاع على البقاء تأثير انتقائى في ازالة الافراد غير الملائمين والاحتفاظ بالافراد المناسبين . . ولما كان جزء كبير من الاختلاف ينتقل الى الاجيال القادمة بواسطة الوراثة فان تأثير البقاء التفاضلى (Differential) سيراكم من جيل الى جيل، اى أن الانتقاء الطبيعى يعمل باستمرار على المحافظة على (ضبط) الكائنات الحية لبيئتها الخارجية وطريقة حياتها .

كما تشاهد في وجود بقايا ذنب لدى بعض افراد البشر . وما من جنس أو رتبة أو فئة بقادرة على الشئ والارتقاء إلا كمجموع لكافة الانواع التي تضمها . فليست الرتب أو الطوائف أو غيرها من الفئات الاخرى الاكثر تعقيدا هي التي تتطور بل هي الانواع التي تتألف منها تلك الرتب أو الفئات (1) .

وقد طرحت تفسيرات اخرى للتطور الواسع المدى . وكلها تفضى في نهاية الامر الى الافتراض بأنه عملية تحدث بشكل منقطع غير منتظم او الى افتراض قوانين جديدة تحكم ظهور فئات اكثر تعقيدا . وترى أيضا أن محاولات الفصل بين التطور المحدود المدى والتطور الواسع المدى قد تجددت على نحو من الانتظام يدفع المرء الى التساؤل عما اذا لم يكن هناك سبب موضوعي لذلك وأنه يبدو كما لو كان هناك شئ ما في صميم طبيعة معارفنا عن التطور التاريخي للكائنات الحية هو الذي يقود العلماء الى دروب لا تضيئها الحقائق او المنطق !!! ثم تأتي تفسيرات [داروينية قميئة] أخرى ترى أنه ربما يكمن السبب الاساسى في عدم قدرتنا في الوقت الراهن على ملاحظة عملية [التطور] الا فيما يتعلق بكوكب الارض . وتدعونا أن نتصور ماذا يحدث لو أن زائراً من الفضاء الخارجى جاء وأصدر حكماً بصدد حياة البشر بأسرها استنادا الى تاريخ حياة شخص واحد من سكان الارض ، وتفترض تلك التفسيرات أن بعض استنتاجاته سوف تكون صحيحة ولكنه ايضا قد ينزع الى تحويل احداث الصدفة في حياة ذلك الشخص الى قوانين يعتبرها قابلة التطبيق على النوع الانسانى فى مجموعه . ثم نجد تفسيرات [داروينية ساقطة] أخرى تزعم بمنتهى التبجح أن نفس القول على [التطور الواسع المدى] ، على أساس أن انقراض بعض مجموعات الكائنات الحية وتقدم وازدهار بعضها الاخر ، يتوقف الى حد بعيد وفى التحليل الاخير على ملابسات عرضية محضة ، وأنه ربما لن يغدو قادرين على التمييز بين ما يجرى وفق نسق معين وبين ما يحدث اتفاقا داخل عملية التطور الا عندما يكتشفون أشكالاً للحياة على اكثر من عشر من الكواكب الاخرى فى الكون ، فعندئذ فقط تصبح العينة ممثلة على حد

(1) A. Leroi-Gourhan

The Art of prehistoric Man in Western Europe. Thames and Hudson, London, 1967. Prehistoric Man. Philosophical Library, N.Y. 1967 Treasures of Prehistoric Art. H.N. Abrams, N.Y.

قول الاحصائيين⁽¹⁾ يقول ملفانى :-

«وقد ذكرت انفا ان التجريب مستحيل فيما يتعلق بالتطور المزعوم المسمى الواسع المدى. واذا كان هذا مستحيلا وغير مقبول على الاطلاق، فمن المستحيل أن تجرى التجارب اذا ترجمنا عملية التطور الى لغة الحاسب الالىكترونى. وقد اتيح لى منذ ثمانى سنوات خلت ان أشاهد سلسلة من التجارب قام بها [ف. ف. مينشوتكين] - وهو اخصائى فى بناء النماذج الرياضية للعمليات البيولوجية - وكانت تتصل بالحيوانات من شعبة المفصليات Arthropoda وشعبة الحبليات Chordata ووجدنا استحالة حدوث التطور وفق النمط الذى ذكره [داروين]».

● - حيث انه يوجد (صراع) من اجل البقاء بين الافراد ولما كانت هذه الافراد غير متشابهة تماما فستكون بعض الاختلافات مفيدة فى الصراع بعضها غير ملائمة الامر الذى يترتب عليه ان تبقى نسبة اعلى من الافراد - على قيد الحياة - التى توجد بها اختلافات ملائمة، بينما تموت او تنقرض نسبة اعلى من الافراد التى بها اختلافات غير ملائمة⁽²⁾ . .

■ - وعلى ضوء الاسس السابقة يمكن التوصل الى أن «داروين» أراد أن يقول:

● - ان جميع افراد نوع (ما) من أنواع الحيوانات لا تتشابه تشابها تاما - فيما عدا التوائم المتشابهة - وانها لا بد من وجود بعض الاختلافات الفردية . . والانسان (مثلا) لا تتشابه افراده تشابها تاما، اذ يوجد فيه الذكى والغبى والقبيح والوسيم والطويل والقصير وأبيض البشرة وأسمرها وأصغرها، ويرى «داروين» ان هذه الاختلافات البسيطة بين افراد (النوع) الواحد هى سبب عملية التطور فى الطبيعة، وتفترض نظرية التطور ان جميع الكائنات الحية التى كانت تعيش على الارض قد نشأت من اصل واحد او بضعة اصول، وان الثغرات المختلفة التى حدثت لها قد جعلتها تتحول

(1) D.J. Mulvaney

The Prehistory of Australia. Thames and Hudson, London, 1969.

(2) J. Napier

A Handbook of living primates. London Academic Press, 1967. The Origins of Man. MacGraw Hill, N.Y. 1969.

The Roots of Mankind. Smithsonian Institution Press, 1970.

من كائنات بسيطة التركيب الى كائنات اخرى اكثر تعقيدا وقد قال بذلك [ماييه ولامارك واتيبن جوفرسان].

■ - وقد بدت منذ اللحظة الاولى اعتراضات [ثلاثة] على هذه الفرضية :-

[اولا] :- عدم مشاهدة اى ارتقاء من اى نوع كان فى الاحياء الارضية منذ عهد الوف عديدة من السنين .

[ثانيا] :- عدم وجود الصور المتوسطة بين الانواع اللازمة لمذهب التسلسل كأن يوجد مثلا حيوان أرقى من القرد رتبة واحدة وادنى من الانسان رتبة واحدة^(١) .

[ثالثا] :- طول الزمان اللازم لحصول الترقى بين الاحياء .

■ - ولم تلبث النظرية ان اهتزت حتى ان البعض اعلن موتها ويرجع ذلك الى سببين هامين :-

١ - ان الدارونية كانت نظرية بحتة تتخذ الانتخاب الطبيعي لتفسير اى ظاهرة تطورية من غير حاجة الى دليل .

٢ - ان علم الوراثة كان قد اكتشف حينذاك ان التغير الفجائى او الطفرة حقيقة وان التغير الوراثةى يسير بقفزات واحيانا بقفزات واسعة وانه - اى التغير - ليس تدريجيا كما يقول دارون^(٢) .

● - ان جميع الحيوانات والنباتات قادرة على التكاثر السريع فحيوان (البرامسيوم) مثلا - وهو حيوان اولى دقيق الحجم، مكون من خلية واحدة - يمكنه ان يتكاثر بالانقسام نحو ٦٠٠ مرة فى العام، ولو ظلت جميع الافراد الناتجة عن هذا الانقسام على قيد الحياة واستمرت فى عملية التكاثر بالانقسام، فانها بعد بضعة أشهر قد يصبح حجم تلك الكتلة الهائلة من الافراد اكبر من حجم الكرة الارضية^(٣) . . ومثال اخر . . تضع انثى ذبابة الفاكهة حوالى ٢٠٠ بيضة مع أن دورة حياتها لا تزيد على (١٠ - ١٤ يوما) . . وبناء على ذلك فانه - لو توفرت كل مقومات الحياة للبيض - فانه

(١) انور الجندي - سقوط نظرية داروين - دار الاعتصام - ص ١٤ .

(٢) المرجع نفسه ص ١٥ .

(٣) د . عبد العليم عبد الرحمن خضر - المرجع السابق - ص ٤١ .

خلال (٤٠ - ٥٠ يوما)، من الممكن أن يبلغ عدد الذباب ٢٠٠ مليون فرد. وفي عام واحد يمكن أن تغطي اسرابه قرص الشمس (١).

● - ان هذا العدد الهائل لا يتحقق بالطبع، ولا يظل مستمرا الى الملائمة . . لماذا؟ لان في (الطبيعة) خاصية الابقاء على (التوازن) بين جموع المخلوقات على الارض ويتحقق ذلك التوازن باندلاع الصراع من اجل البقاء (٢).

● - وهكذا نجد أن «داروين» قد بنى نظريته على أساس أن الافراد في (النوع) الواحد تختلف فيما بينها بعض الاختلافات (٣)، وأن (الافراد) التي تتمتع باختلافات في صالح النوع هي التي تكتسب لها البقاء في اثناء عملية الصراع من اجل الحياة وهذه تنجب ذرية تتمتع بنفس صفاتها، ولقد سمي سبنسر [Spencer] هذه العملية بعملية بقاء الاصلح [Survival of the Fittest] وأن الانواع الضعيفة التي تفتقر الى الصفات الملائمة للحياة، تتعرض للانقراض. وبقاء (عناصر) ممتازة من المخلوقات على الارض قادرة على التكيف مع البيئة، تستمر عجلة (التطور) نحو الاحسن، وأن ذلك يساعد على (بقاء) حيوانات تتمتع بالقدرة على اكتساب تغيرات (تلاءم) باستمرار مع اي ظروف طارئة تحدث للبيئة (٤). . وهكذا نجد ان كتاب «داروين» (اصل الانواع) قد اشتمل على مظم عناصر «النظرية التطورية» لكن ما تضمنه من امور تتعلق (بالانسان) كانت السبب وراء (الضجة) التي أحدثتها اراءه بخصوص «نشأة الانسان» . .

■ - والواقع أن كتابات «داروين» لم تؤثر في العلوم الطبيعية بنفس القوة ونفس العمق اللذين أثرت بهما في التفكير الديني والاجتماعي، ففي مجال الدين اعتبرت (النظرية) نوعا من التحدي السافر الصارخ للافكار والمعتقدات الدينية الراسخة المتوارثة بما آثرت من معارضة لفكرة الخلق التي تقوم عليها الاديان السماوية . . ففي سنة ١٨٧٤

(1) K.P. Oakley

Man the Tool-Maker. British Museum, London 1956.

(2) D.Pilbeam

The Evolution of Man. Thames and Hudson, London 1970. (3) J.E. Pfeiffer.

The Emergence of Man. Harper and Row, N.Y. 1969. (4) Greene, J.C. 1963: Darwin and the modern world view, Mentor, New York, PP. 17 - 43.



جمجمة انسان جاوة الذى عمرٌ جنوب شرقى آسيا منذ مليون سنة

[المصدر/ الفيصل - العدد (١١٤) - ص ٨٢ .

أصدر «داروين» كتابا آخر بعنوان (أصل الانسان) خصصه بالذات لموضوع (التطور البشري)^(١).

■ . أهم ملامح نظرية التطور البشري عند داروين

● - وضح في هذا الكتاب [أصل الانسان] (ادعاء) «داروين» وجود صلة «قوية» بين الاسلاف المبكرين للانسان (والقردة العليا)^(٢) . . وقد رجح ان يكون هؤلاء (الاسلاف) من البشر الاوائل قد نشأوا في افريقيا . . وقال بأن أوجه الشبه بين (الادميات) و(القرديات) اقوى وأشد منها بينها وبين اى عائلة اخرى من (العائلات الرئيسية)^(٣) .

ويقول [جين روستند] عضو الاكاديمية الفرنسية للعلوم وعميد علماء البيولوجيا الفرنسية بعد ان اطلع على مجموعة ابحاث ومراجع العلماء البيولوجيا البارزين، ان «نظرية التطور» التقليدية بمعناها الحرفي قد غدت الان شيئا ماضيا، وانه لا يجوز تفسير التطور بمثل هذه التعبيرات السطحية التافهة، كاصطفاء الطبيعة للجنس الاصلح لمجرد ان علماء البيولوجيا قد اخفقوا حتى الوقت الحاضر في اثبات ما اذا كان بالمستطاع التأثير على تغير الاجناس او التحكم به او خلقه عن طريق العملية نفسها .

● - أوضح [داروين] عندما نشر افكاره عن تسلسل الانسان والتطور البشري سنة ١٨٧٤ ان الغرض من تلك الافكار ينحصر في النظر:

- فيما اذا كان (الانسان) كبقية الانواع الحية قد تسلسل من صورة كانت موجودة من قبل ثم انقرضت .

(1) Tax, Sol (ed), 1960: Evolution after Darwin Vol8 2. Chicago, P. 38.

(2) D.R. Belbeen, 1968: Human Origins, Advancement of Science, PP. 368 - 378.

(٣) يقسم علماء الحيوان الثدييات الى عدد من (العائلات الرئيسية) . . تعرف باسم الرتب Orders وتعرف الرتبة التي قال «داروين» بان الانسان ينتمي اليها باسم: الرئيسيات Primates وقال بان اقرب الانواع الاخرى اليه وهي القردة العليا والنسانيس والقردة شبه البشرية واسلافهم تنتمي الى هذه الرئيسيات، ويقسم العلماء الغربيون هذه العائلات (الرتب) الى ثمانية اقسام فرعية وقد اطلق بعضهم عليها اسم Hominids و Pogids وهما مصطلحان مرافقان الى حد كبير لكلمتي «قرد» و «انسان» .

- فى الطرىق التى سار فىها الانسان عبر مراحل (النشوء والارتقاء والتحول) . .
- فى قيمة الفروق الحقيقىة بين السلالات البشرىة^(١) .

● - ترك «داروين» مسألة [أصل الانسان] معلقة حين نشر كتابه (الأول) : «أصل الأنواع» . . ولكنه فى كتابه «أصل الانسان» عاد وقرر أنه لا داعى لاستثناء (الانسان) من تطبيق المذهب التطورى عليه، واعلن انه لا فرق بين الانسان والحيوان الا بالكم أو الدرجه فقط، وأن المسافة بين القوى الفكرىة لحيوان من ادنى الفقاريات والقوى الفكرىة لقرد من (القردة العليا، أكبر من المسافة بين القوى الفكرىة فى القرد وبينها فى الانسان)^(٢) . .

■ - أين يكمن الخطر فى نظرىة داروين؟

- - انتقلت فكرة حيوانىة الانسان من [داروين] إلى ماركس، وفرويد . . وهكذا انفصلت النهضة الصناعىة - بسبب افكاره الهدامة - وكذلك الكشف العلمى والحضارة والاستعمار عن الدين واتجهت الحضارة الى الاستهلاك . . وقامت على صناعة أدوات الزينة والترف والانحلال الخلقى والاباحىة والفساد والربا . . ومزىد من الأرباح المحرمة تدخل أمبراطورىة اليهود الخفىة التى أضحت تحرك السىاسة العالمىة لمصلحتها الخاصة . .
- - رغم أن العلم قد شجب كثيراً من الفروض الداروينىة وعارضها، وكشف عن فساد رأى الداروينىة بحيوانىة الانسان، وأعلن عن تفرد الانسان فى نوعه، وفى كىانه البيولوجى البحت، فضلاً عن كىانه النفسى والعقلى والروحى .
- إلا أن الداروينيون المحدثون بتشجىع من يهود العالم استمروا يحملون معول الهدم لتدمير الأديان عامة والاسلام بصفة خاصة .
- - استفحال الخطر «الداروينى» حين قال داروين الفاسد الملحد :-

(١) اسماعيل مظهر - ملتقى السبيل فى مذهب النشوء والارتقاء - المطبعة العصرىة - بالفجالة سنة ١٩٢٤ ص ٢٨٦ .

(٢) يوسف كرم - تاريخ الفلسفة الحديثة - دار المعارف بمصر - سنة ١٩٦٢ - ٣٥٣ .

«الطبيعة تخلق كل شىء . . . ولا حد لقدرتها» . . .

ونحن ننبه المسلمين في كل مكان إلى أن «الفكر الداروينى» يمثل حلقة رهيبه تربط بين النشوء والارتقاء، وبين الفلسفة المادية التى يقوم بها رجال من الصهيونية التلمودية .

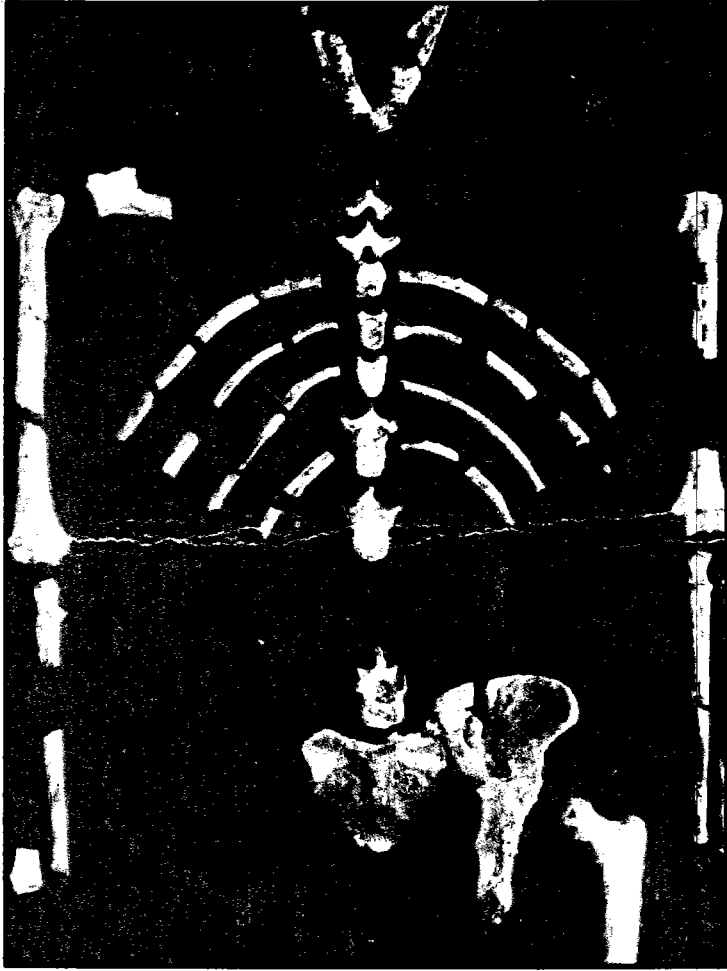
● - سقوط القناع عن مخطط بروتوكولات صهيون الرهيب . . . بعد أن عرفنا ما ورد بها، ونصه كالآتى :-

«لقد عرفنا كيف نشر آراء [داروين] على نطاق واسع ونستغلها فى تحطيم الدين،

لقد رتبنا نجاح [داروين] وماركس ونيثشة بالترويج لأرائهم» . . . !!!

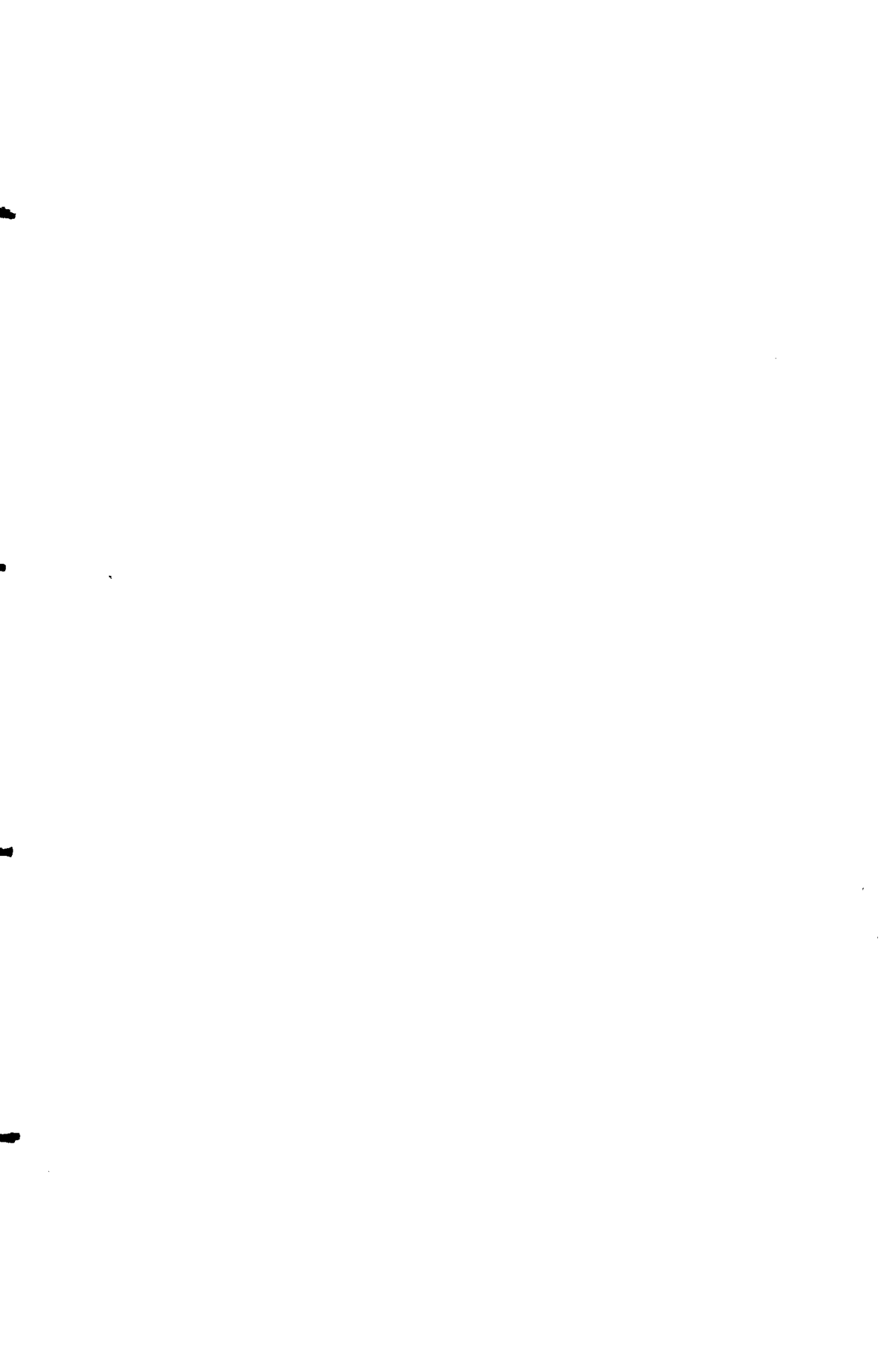
● - عدم اكتفاء الطاقم التلمودى بالترويج للأفكار الداروينية، . بل تخطى ذلك إلى اتخاذ العلم سبلاً وأهواء رهيبه لهدم مقررات الدين، وانكار الأسرة وتحطيمها، ووصف الأخلاق . . . بأنها نسبية وأنها انعكاس للوضع الاقتصادى، وأن الزواج والدين ليسا من الفطرة . . . وأن للمرأة أن تحقق كيانها تحقيقاً جنسياً خالصاً من أى قيد . . .

■ - وهكذا دخلت المفاهيم الداروينية الصهيونية المشتركة حياة الشعوب وأصبح شعارها: الشهوات أولاً وأخيراً . . . وكان تطور حركة السينما والقصة والعرى والأزياء فى الاتجاه الانحلالي الاباحى الهدام نتيجة طبيعية لتغلغل تلك المفاهيم الداروينية الهدامة فى نخاع الشعوب .



جزء من هيكل عظمى لفتاة من زنج اتحاد جنوب افريقيا

عمره الزمنى - كما يقول العلماء في متحف الانسان بباريس - ٣ مليون سنة - يشهد بالاختلاف التام بين عظام البشر وعظام القرده، ويؤكد على استقلال النشأة لكل منها. وتلك أدلة أخرى على سقوط فرضية «داروين» المشهورة.



الفصل السابع الداروينيون المحدثون والرد الاسلامى على افتراءاتهم

- - روبرت ليرمان ونظريته الفاسدة عن الانسان القرد .
- - ليرمان وحفريات النسانيس .
- - هويلز ونظرية التطور .
- - إنسان نياندرتال .
- - نظرية [أصل السلالات] عند كارلتون كون .
- - أصل الانسان فى نظرية ليكى .
- - الملامح البشرية لانسان جاويزة والصين عند ليكى .
- - أصل الاجناس البشرية حسب المفهوم الحضارى للانسان فى علم الجغرافية التاريخية .
- - دور الجغرافية التاريخية فى الكشف عن أنماط التحضر البشرى فى العصور البائدة .
- - إنسان ما قبل الطوفان وأنماط التحضر القديمة .
- - علم ما قبل التاريخ يهدم نظرية داروين .
- - نظرية التوازى وأصل الأجناس البشرية عند جون نابير .
- - جون نابير والانسان الحاذق .
- - ياكيموف وتطور الانسان .
- - نظرية التطور وتفسيرها لظاهرة [إنسان بكين] .
- - إنسان سيفا نثروبيس .
- - نشأة اللغات عند الإنسان حسب المفهوم الداروينى .
- - المهارات الفنية عند الأجناس البشرية القديمة .
- - وقفة لا بد منها .
- - الذين مهدوا الطريق لداروين .
- - الخلفية التاريخية للنسيج التطورى ومخاطره على سلامة البشرية .

- - وانهدمت نظرية [لامارك] التطورية .
- - أصل الأجناس البشرية حسب مفهوم النظرية التركيبية عند «بولك» .
- - الرد العلمى على تحريف [آرثر كيت] .
- - هكسلى وكتابه «معرفة الظواهر الحية» .
- - ملامح الفكر الداروينى عند جورج كوفييه .
- - المؤشرات النهائية لآراء الداروينيين الملحددين .

الفصل السابع

الداروينيون المحدثون والرد الاسلامى على افتراءاتهم

■ - روبرت ليرمان ونظريته الفاسدة عن الانسان القرد

[من تحريفات الداروينية ما قاله «روبرت ليرمان» :-

مذ ان عرفت اسلافنا من الرئيسيات كان الشغل الشاغل لعلماء الجنس البشرى محاولة التوصل الى معرفة «متى و أين» اصبح الانسان القرد انسانا حديثا^(١). وقوله أيضا :-

● - «والافتراض الذى كان شائعا هو أن جماعة صغيرة من [الاناس - القردة] قامت بالتغير الاساسى فى مكان ما وفى زمن ما، بان انشأت دماغا اكبر فاصبح لها الامكانيات اللازمة لان تسير فى طريق الحضارة قدما، غير انه مع تقدمنا فى فهم الطرق المتبعة فى نشأة الانواع الجديدة فى الطبيعة، اتضح لنا، الى حد كبير، ان التطور لا يحدث بمثل هذه الطريقة، وان البحث عن سلف واحد هو بحث لا معنى له ولا جدوى منه». وقوله :-

[وتقدم لنا نظرية «الاختيار الطبيعى»^(٢) كثيرا من الايضاحات، فهى تفسر لنا كيف يمكن ان يؤدي الاختلاف الفردى داخل «النوع» الواحد مع مرور الزمن والى التغير فى النوع بأكمله. فقد رأينا أن قسوة البيئة وصعوبة الحياة فيها مدعاة الى نقص تكاثر الافراد التى تقل عن غيرها ملاءمة لظروف الحياة الخارجية، فى حين ان تكاثر

(١) Human Origins - المرجع السابق - ترجمة فاروق مصطفى اسماعيل - عالم الفكر - المجلد الثالث - العدد الرابع ص ١٠٧٠. وكذلك: اصل الانواع - شارليس داروين - ترجمة اسماعيل مظهر جزءا - دار العصور للطباعة - سنة ١٩٢٨ ص ٣ : ١٧. وكذلك.

(٢) روبرت ل. ليرمان - المرجع السابق ص ١٩٥.

الأفراد الذين يتميزون بملاءمتهم للبيئة يؤدي إلى تقدم مستمر في ملاءمة «النوع» بأكمله لهذه البيئة. وعلى هذا الأساس يمكننا أن نفسر الكثير من الحقائق في موضوعي الملاءمة والفناء. ولكن الأمر لا يقف عند هذا الحد. فلو أن الاختيار الطبيعي كان العامل الأوحده في الميدان لكانت الحياة على ظهر الأرض قد اندثرت منذ زمن بعيد^(١).

ولعلنا نذكر كيف حاول «داروين» في كتابه الثاني (أصل الإنسان) أو (سلالة الإنسان) أن يطبق مبدأ الانتخاب الطبيعي «ومبدأ الانتخاب الجنسي Sexual Selection» على التطور البيولوجي. ومع أن «داروين» كان يدرك أهمية قوى الإنسان وملكاته العقلية والاجتماعية بالنسبة لتطوره وارتقائه، فإنه كان يرى في الوقت نفسه أنه من الخطأ أن نغفل أو نتجاهل أو حتى نقلل من أهمية بنائه الجسمي في تحقيق ذلك التطور والارتقاء، بل إنه يعزو كثيرا مما أصابه الإنسان من نجاح خلال تاريخ تطوره الطويل إلى بعض الخصائص الجسمية التي ينفرد بها الإنسان عن غيره من الكائنات، بما في ذلك القدرة العليا مثل حرية استخدام الأذرع والأيدي، التي ساعد عليها ما تميز به الإنسان من القدرة على الوقوف منتصب القامة على ساقين اثنتين، وكان يعتقد بان أي اختلاف في مجال القدرات الذهنية والانفعالية بل والاجتماعية بين الإنسان والكائنات الحية الأخرى، هو اختلاف في الدرجة وليس اختلافاً في (النوع).

■ ومن صور الشطط والتخريف «الدارويني» ما قاله روبرت ليرمان:

«وعندما هبطت القردة العليا من الأشجار في العصر الأوليغوسيني كان الطريق أمامها متشعباً إلى شعبتين، فسارت في الشعبة المؤدية إلى الإنسان واجهها من أعداء أقوى وأقرباء وطعام شحيح، وذلك بالاستعاضة بالتعاون الفكري عن القوة الوحشية وكانت حياة أسلافها التي تعتمد التنقل فوق الأشجار في مجموعات صغيرة قد قوت عيونها وأيديها وعقولها إلى درجة كافية مهدت للتقدم نحو هذا النوع الجديد من الحياة ومن الصعب تصور احتفاظ مثل هذا المخلوق الضعيف بحياته ما لم يكن قد توصل فعلاً إلى مصدر جديد للقوة، وهذا المصدر لا يمكن أن يكون سوى قوة الجماعة، فيساعد الأفراد بعضهم في الصيد ثم يشتركون في اقتسام الفريسة».

(١) المرجع نفسه - ص ١٩٦.

● - ثم يكشف ليرمان عن وجهه الداروينى القبيح صراحة فيقول :-

. . «والقردة العليا جميعا، وكذلك كثير من المخلوقات الاخرى تعيش فى جماعات، ولكن نوعا واحدا من المخلوقات دون غيره هو الذى توصل الى بلوغ الدرجة الانسانية. وقد سار التطور فى العادات التى رفعت الانسان الى الدرجة الانسانية جنبا الى جنب مع تطور جسم الانسان فالقرد - الانسان الافريقى، والاستراليويشيكاس لم يُثْبِتًا القوام المعتدل والفك الصغير فحسب، بل لقد قاما ايضا بالخطوة الاولى فى طريق الوصول الى الرقى البشرى، الا وهى استعمال الأدوات. وكانت هذه المخلوقات تصنع من فرع شجرة مكسور أو صخرة كبيرة أو اجزاء صغيرة مما تلتقطه من حولها أدوات تيسر لها القيام بأنواع كثيرة من النشاط تعجز عنها اليد وحدها». (١)

■ - ويكفى أن نلمس شطط «ليرمان» وبعده عن الخط العلمى حين نجده يقول عن الانسان، [انه مخلوق ما يزال هو نفسه شديد الشبه بالنسانس. ومع ذلك فقد كانت ذريته تتطور باستمرار فى اتجاه مغاير «ونحن متأكدون تماما من ان لدينا الفكوك الحفرية لهذا المخلوق واسمه «رامايبتيكس» (وهو اسم رومانتيكى لاله الهند «راما»). الذى - عاش منذ نحو اربعة عشر مليون سنة. وقصة معرفتنا اياه قصة ممتعة.

لقد تحققنا يوما أن الانسان، قد نشأ بهذه الطريقة، من الحيوانات الى النسانيس فى ناحية، والينا نحن فى الناحية الاخرى. وبعد ظهور كتاب داروين «أصل الانواع» كان من المتعين قبول التطور (بما فى ذلك تطور الانسان). وقد بين «توماس هكسلى» فى الحال كيف أننا نشبه النسانيس العظام فى كل شىء. وقد قال فى الحقيقة أنها أى النسانيس - أقرب الينا من القردة].

وقال أيضا :-

[وقد أدى ذلك إلى كثير من النكات الشعبية، وعدم الارتياح أو الفرع عند الخاصة، وقد ووجهت هذه الفكرة بمعارضة، سواء من العلماء أو من غيرهم ولكن الان وبعد مئة سنة فان كل الدراسات التشريحية مثل دراسة التركيب الجزئى للبروتينات - التى نمت فى وقت حديث جدا - قد دلت فى ايجابية اكثر على ان «هكسلى» كان على صواب. وفى الحق اننا نستطيع ان نذهب خطوة أبعد من

(١) المرجع نفسه - ص ١٩٦.

«هكسلي»، ونقول أن نسانيس أفريقيا والغوريلا والشمبانزى اكثر قرابة للانسان من قرابة أى من الثلاثة الى «اورانج تان اندونيسيا» .

وقد اشار بعض علماء التشريح بعد «هكساي» الى ان النسانيس مهياة جميعا للتعلق بالاذرعة أو التارجح بها . وهذه طريقة حسية ومأمونة ، يتحرك بوساطتها حيوان كبير بين الاشجار . وقد أشاروا كذلك الى اكتافنا العريضة ، وصدورنا المستوية العريضة ، والى تفاصيل مفاصل المعصم ، والكوع ، وترتيب العضلات ويقولون أن اسلافنا كانوا كذلك مهياين لدرجة كبيرة من التفرع وحياة التنقل بين الاشجار ، وتلك كانت حجة أخرى للتدليل على قرابتنا للنسانيس^(١) .

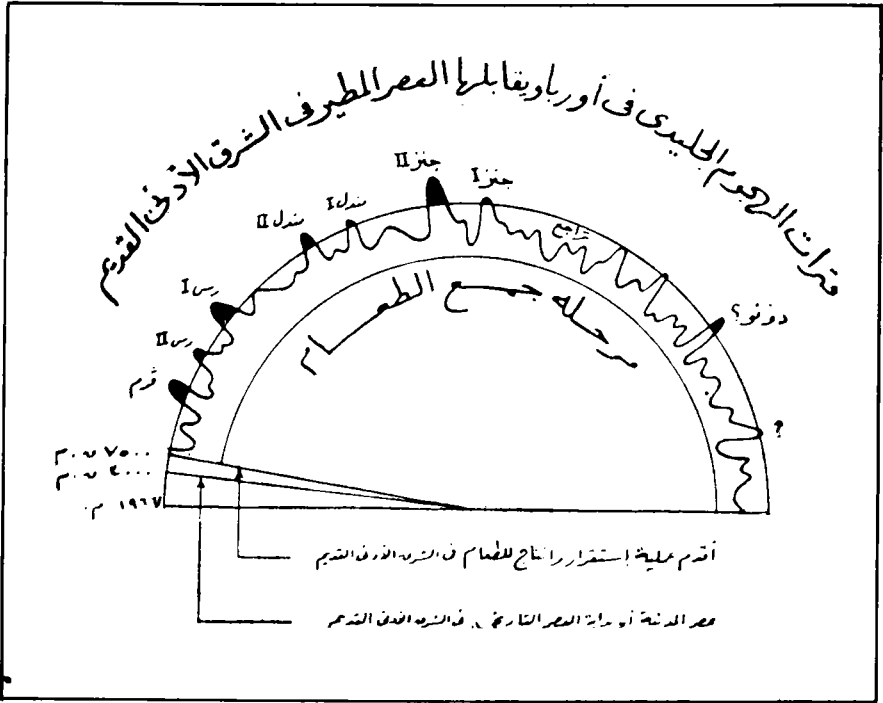
وهنا أيضا عارض «علماء تشريح» آخرون هذه الفكرة قائلين « أن أوجه الشبه ليست واضحة تماما ، ولعلها نشأت موائمة للنسانيس ، وقد فضل هؤلاء العلماء أن يفكروا في خط سلفى تطورى ، ومنفصل عن النسانيس أو حتى عن القروء ، وأن يكون ذلك منذ زمن بعيد ويبدو أنه كان هناك دائما في خلفية التفكير رفض لا شعورى لقرابتنا من الشمبانزى من أناس - ينظرون اليها على أنها حيوانات دون أن يلاحظوا كبر أدمغتها وذكاءها] . .

● - وما يدل على تطرف [ليرمان] وفساد عقله ، قوله :-

[ومن حججهم اننا حقيقة نقف منتصبين ، وأن اقدمنا مختلفة جدا عن اقدام النسانيس . وان فكوكنا مختلفة وخاصة بالنسبة لما يسمى بأنياب العين في الفك الأعلى ، وكيف انها لا تبرز فوق الاسنان الاخرى بوضوح كما في النسانيس وهل من الجائز أن تكون هذه الاسنان الكبيرة قد تطورت الى اسنان صغيرة وهل يمكن أن تكون القدم شبيهة اليد في النسانس ، قد تطورت الى قدم بشرية في الانسان؟ . . على أن هذه الصعوبات ليست كبيرة كما يبدو أحيانا . فان مثل هذه التغيرات إنما هى اشياء عادية في تطور الحيوانات ، حيث تتضاءل الاسنان أو تنعدم ، حيث تتحور

(١) المرجع السابق - ص ١٩٧ نقلا عن :-

The Origin of Homo Sapiens Proceedings of the Unesco Paris Symposium, Sept. 1969 Edited by F. Bordes, Unesco, Paris, 1972



رسم يوضح زحف وتراجع الجليد والمطر، وعصور جمع وإنتاج الطعام وبداية العصر التاريخي

الاطراف بطرق عنيفة . فضلا عن ذلك لا ينبغي لنا أن نحاول تصوير سلفنا المشترك كما لو كان من «الشمبانزى» أو «الغوريلا» ، فان هذه الحيوانات كانت تتطور، وبتقدم الدراسات وتوافر الحقائق صار معظم علماء الانثروبولوجيا مقتنعين بأن أسلافنا قد تنقلوا بين الاشجار كالنسانيس الافريقية التي تعيش فعلا على ارض الغابة أكثر من تنقلها بين الاشجار.

وأخيرا لفتت حفريات الفكوك لسلف النسانس «دريويثيكس» الانظار الى التشابه العجيب بين الاضراس عندنا وعند النسانيس ، ومع أن العينة الاولى قد وجدت في فرنسا سنة ١٨٥٦ ، فقد تبين في اوائل هذا القرن أن مثل هذه الشظايا قد كشفت في اعداد كبيرة في حفريات من عصر الميوسين وعصر البليوسين ، وفي حدود زمن مضى يقدر بما بين عشرين مليوناً وثمانية ملايين من الأعوام]!!!

ليرمان وحفريات النسانيس

يقول ليرمان : «ثم وجدت حفريات في جهات أخرى من أوروبا ومن الهند . وأخيرا من شرق افريقيا وجورجيا بالاتحاد السوفيتي والصين . وبهذا كله أصبحت الأدلة حول تبيان صلتنا بالنسانيس أوثق وأحكم . لقد كان واضحا أن «دريويثيكس» سلف النسانيس الكبيرة ، وأن بقاياها منتشرة انتشارا كبيرا حتى اننا لا نكاد نتوقع أن تؤدي مجموعة حفريات جديدة في المستقبل الى تأكيد سرعة تطورنا عنها^(١) .»

● - ويقول أيضا :-

* [وهناك حفرية هامة لنسانس ايطاليا وشرق أفريقيا هو «أوريويثيكس» الذى عاش في العصر الذى عرف منذ سنوات قلائل ، ولكن بينما يبدو شكل جسمه شبيها بالشمبانزى ، ويبدى تكيفا مائثلا للمعيشة بين الاشجار فأن أسنانه مختلفة عن أسنان الشمبانزى ، ويبدى تكيفا مائثلا للمعيشة بين الاشجار فأن أسنانه مختلفة عن أسنان الشمبانزى وعن اسناننا كذلك ، وهى حقيقة تزيد في ارتباطنا بتسلسلنا من نسانيس افريقيا]^(٢) .

(1) Valcamonica International Symposium on Prehistoric Art, 1968.

Published by the Centro Camuno di Studi Preistorici in cooperation With Unesco, 1970

(Papers in English, French, Italian, Spanish or German)

(2) Ibid., PP. 123 - 137

■ - ويواصل [روبرت - ل - ليرمان] تحريفه قائلاً :-

«فالتطور ينتج، كما رأينا، عن توازن بين انتاج طفرات جديدة مما يزيد الاختلافات بين الأفراد، وبين ضغط الاختيار الطبيعي الذي ينقصها الى درجة ينشأ عنها ازدياد الملاءمة. ويتوقف اثر هذين العاملين في احداث التغيرات الى حد كبير على حجم تعداد السكان وعلى تقسيمهم إلى أقسام أقل تعداداً.

● ثم يقول :-

ولنناقش أثر كل من هذين العاملين على نوعنا.

● - «ان الحقائق المتميزة في حياة البشر هي تحكم الانسان في البيئة وقدرته على استغلال التراث الثقافي المتراكم على مر الاجيال في الابقاء على حياته ونجاحه في المعيشة في ظروف وأحوال مختلفة أوسع درجات الاختلاف. وهذا يعني أن الاختيار الطبيعي ضعيف الأثر في تغيير الانسان. وترجع جدارة البشر أساسا إلى التعاون الفكري، لا الى هذا العضو أو ذاك. وعليه فان تغير المناخ أو الطعام لا يسبب إبادة - الأفراد بلا هوادة ولا رحمة كما يحدث لسائر الحيوانات. وقد تكون بعض الاختلافات بين السلالات ذات قيمة بالنسبة للملاءمة البيئية، كما هي الحال في أسوداد لون البشرة في سكان المناطق الاستوائية، ولكن هذه الاختلافات لا تحول بين الفرد وبين المعيشة الناجحة حيثما أراد وزيادة على ذلك فان تراثنا الثقافي والحضارى الذى يسير قدما بخطى حثيثة يشمل العناية الطبية التى تتقدم تقدما سريعا، والتي أدت بدورها إلى إنقاص أثر الاختيار الطبيعي. بل إنها، على النقيض من ذلك الاختيار وأثره، تشجيع بقاء الكثيرين ممن لا يصلحون للبقاء في بيئة أو مجتمع ينقصه الاطباء والمستشفيات. وهكذا أصبحت قاعدة «بقاء الاصلح» قليلة الأثر في تحديد مستقبل الجنس البشرى. ويستنتج مما ذكرناه أنه مهما كان من أمر التطور الذى ستمر به سلالاتنا، فان الزيادة في الملاءمة للبيئة لن تكون جزءا منه.

أما أثر الطفرات في مستقبل البشر فأمر صعب التقدير وذلك لقلّة ما لدينا من معلومات عنها. فالطفرات تظهر وكأنها حوادث عشوائية وليدة مصادفات محضة، أو قل كأنها حركات قرود لا معنى لها. !!!

هويلز ونظرية التطور

■ ومن أنصار الداروينية البرفيسور «وليم هويلز» الذى كتب كثيرا عن أصل الانسان ومن أبرز أبحاثه بحث عن الانسان المنتصب القامة ومراحل (تطوره) وما قاله في هذا البحث :-

[أما الاسباب التى من اجلها أصبحنا من ذوى القدمين فهى بعيدة عن الوضوح، وأن كان كثير منها كان متوقعا. ونحن حتى الان لا نستطيع أن نجرى بسرعة، على حين أن «الغورلا» يستطيع أن يجرى بسرعة مستعينا برسغ يديه. ومع ذلك فنحن نستطيع أن نقطع مسافات - طويلة فى الصيد، ولكن هل كانت ثنائيات الأقدام تستطيع ذلك ولعل حمل الطعام بين الأذرع الى مكان أمين لتناوله قد شجع على انتصاب القامة. ولعلنا فى حياتنا الشجرية - تحولنا نحو القامة المستقيمة المنتصبة كما فعلت «النسانيس»، ولكن ليس كما فى «النسانيس»، فان الجذع الثقيل والأذرع الطويلة شجعت على دفع بعض ثقلنا على أذرعنا، وربما بفعل عدد من مثل هذه العوامل مجتمعة - لا نستطيع أن نجزم - فكنا على قدمين منذ نحو خمسة ملايين عام، مع تغيرات هامة ماتزال تجرى فى العظم الحرقفى والقدمين، لجعل مثل هذا النوع من المشى أكثر فاعلية فالاسترالويشس أو الانسان استراليا، هو بلا شك سلفنا فى ذلك الوقت وليس هناك احتمال لاي جد أعلى آخر، ومرة اخرى يثور الجدل حول طريق التطور. ويعتقد البعض أنه كان هناك نوع واحد متغير من استرالويشس، لا خطان متمايزان وكان يفترض فيما مضى أن هناك حد خفيفا، أنه مخ سحرى كبير يصل حجمه الى نحو ٧٥٠ سم^٣، دونه لا يمكن للسلف أن يتطور الى انسان.

ولكن الأدوات الحجرية البسيطة، التى يزيد عمرها على أكثر من مليونين من السنين. قد وجدت قرب بحيرة «رودلف» فى شرق افريقيا ويرجح أن صانعها هو إنسان استراليا القديم، حيث لم يعرف أن انسانا أكثر تقدما كان قد وجد بعد. وكان مخ هذا الانسان ليس أكبر من مخ الشمبانزى. فهذه الادوات الحجرية لم تنتظر الانسان ليصنعها، ومن المعتقد أن هذه الادوات قد ساعدت انسان استراليا ليكون إنسانا بالعمل على ضبط الميزات التطورية للأيدى الماهرة والادمغة الكبيرة.

وعلى أى حال كانت الخطوة الثانية الكبرى هى نشأة الانسان المنتصب «هومواركش» ولعل مظهره - منذ نحو مليون سنة قبل الميلاد تجعل الفرق بينه وبين إنسان استراليا (استرالوثيكس) اكثر وضوحا وان جنس «هومو» ليوضح الفروق ومميزات المجموعة الجديدة. وكثيرا ما نتكلم عن الانسان المنتصب، على أنه أول إنسان حقيقي، ولكنه ليس واضحا، ان كان هذا التعبير قد تحقق مفهومه، اذ أن كثيرا من آثاره كانت موجودة فعلا لدى انسان استراليا، الذى كان يضع أدوات فى عصر سابق.

هؤلاء الاناس، يجب أن يكون لهم مظهر أكثر شبها بنا فى حجم الجسم وفى السمات العامة للهيكل، لقد كانوا مثلنا تماما، كذلك بدت الرأس بشرية اكثر، بوجه اصغر، وفكوك يعلوها صندوق الدماغ وكان هذا الصندوق غليظا، وغدا حجم الدماغ فى منتصف الطريق بين استرالوثيكس وبين الانسان الحديث⁽¹⁾.

■ - وكان مما قاله أيضا :

[أول انسان منتصب القامة هو انسان «يافا» الشهير (وقد سمي أصلا ببثيكا ثرويس) فى سنة ١٨٩١ . لقد احدث كشفه انفجارا علميا، لقد كان أول إنسان بدائى حقيقى، يقع فى دائرة الضوء. وحتى مكتشفه ظن انه نسناس أشجار كبير (وقد كشف أخيرا خمسة نماذج من جمجمته) حتى كشف انسان بكين فى شمال الصين. ولكن الانسان المنتصب القامة يعد الان من شرق وشمال افريقيا وهنغاريا (فيرتولوس) والمانيا (فك هيدلبرج).

وأن معلوماتنا لقليلة عن الانتقال الى الانسان المنتصب القامة وأين كان؟ هل كانت إفريقيا وآسيا هى الوطن الأول للإنسان ولكن هذا قد لا يهم، وربما وصل رامابثيكس إلى الهند من افريقيا منذ عشرة ملايين سنة على الأقل، وبعد ذلك لا بد أنه كان من أشباه الانسان فى كلتا القارتين فى طور استرالوثيكس وقد حدث أن بقاياها قد وجد أغلبها فى افريقيا فى مواضع ملائمة مثل «أولوفاي جورج».

(1) Catalogue of Reproductions of Paintings prior to 1860, 9th ed. (pages 354 to 361 on prehistoric art) Unesco 1972.

ولدينا بعض اقتراحات قليلة لتفسير ما يمكن أن يكون قد حدث ، يبدو أن البارانثرويس الكبير الفك لم يتغير مطلقا خلال ثلاثة ملايين سنة أو أكثر وقد استخرج منه قطعتين أو ثلاث من الفك ، تنتمي الى العصر الذى أعتقد فيه «بروم» و «روبس» منذ عشرين عاما أنه يختلف عن بارانثرويس وانه اكثر تقدما فى الشكل . وقد عمدوه بأسم «تيلانثرويس» ولو أن روبس قرر أخيرا أن الاجزاء تنتمي الى الانسان المنتصب القامة وعلى أى حال كان يوجد اثنان من اشباه الانسان معا ، احدهما «برانثرويس» والاخر نوع أكثر تقدما . وهكذا توجد حجة قوية للوجود الحقيقى لشكلين فى الوقت نفسه⁽¹⁾ .

■ - وما قاله أيضا :

[ومنذ سنوات قليلة وبضربة حظ سحرية ، كان ثلاثة رجال يفحصون هذا الشدف وغيرها من المجموعات فى بريتوريا ، عندما لاحظوا الحواف المكسورة التى يمكن أن تتكامل بعضها مع بعض لتكون قطعا أكبر مما لو لم يكن قد لوحظ قبلا .

وكان فى استطاعتهم أن يصلوا الفك العلوى للتيلانثرويس لاكثر ما يمكن من الوجه كمنطقة الاذن وجزء من الجبهة (وأقول أن علم الحفريات ليس مجرد النظر الى شواطئ الانهار) وقد كون ذلك أغلب الوجه ، ومقدمة الجمجمة ، فيكون الفك السفلى لتيلانثرويس ملائما ومكملا تماما ، وكان كل ذلك مما ايده بقوة أنه «هومو» ربما كان أقوى من ذى قبل ، وأن بدا صغيرا فى الحجم جدا .

وفى ذلك الوقت تقريبا وجدت مسز «ليكى» جمجمة صغيرة متهشمة فى المستويات الدنيا من «أولد فاى جورج» تحت زنجانثرويس المشهور (نوع من بارانثرويس) ، وأرخ بأقل من مليونين من السنين وكان ذلك آخر وأحدث مثل هذه المكتشفات من «أولدفأى» وكلها سميت «هومو هابليس» «سها» «ليكى» وزملاؤه) ولو أنها مهشمة ولكن كان واضحا أنها ليست بارانثرويس ، فجماهما أعلى ، وفكوكها أصغر ، واقترح الكثيرون أن يكون الشكل أو الصورة من إفريقيا الجنوبية «لاستراالويشيكس» وبعد جهود مضية ركبت أجزاء الجمجمة الجديدة بعضها مع بعض] .

(1) F. Bordes.

The Old Stone Age. Weidenfeld and Nivholdon, London 1968. Mac Graw Hill, N.Y., 1968.

● - أما رأى البروفيسور [وليم هويلز] فيما يسمى انسان نياندرتال فيتلخص فيما يقوله فى بحثه عن : «بيولوجيا الانسان». وما قاله :-

«أن جمجمة انسان نياندرتال استثنائية فعلا ، انها طويلة جدا ومنخفضة ، بعظمة حاجب متصلة وبارزة عبر مقدم الرأس ، تحتوى على أكياس هوائية كبيرة ولكن مناسبة للجمجمة ليست مثل تلك التى «لهومو أركتس» والدماغ فى حجم دماغنا على الاقل .

وكذلك كان وجه انسان نياندرتال متميزا ، فهو طويل ، بارز بروزا حادا الى الامام فى خط الوسط من قمة الانف فنازلا . ولو لم يكن أنفه عريضا لقلنا أنه ذو وجه نحيل طويل ، ولكن الانسان الحديث ذا الوجه النحيل الطويل موطنه شمال أوروبا ، أما إنسان نياندرتال أوروبا فانه قصير وسمين» .

- وأعتقد أن الشطط الداروينى الحقيقى واضح فى كل حرف قاله «وليم هويلز» ولن نعلق على تحريفه فى هذا الموضوع من الكتاب ، وسيأتى تعليق كامل على كل آراء الداروينين المحدثين فى الفصل الثامن .

■ - وما قاله أيضا :

[أن الجدل بين البدائية والاثرية لم يستمر طويلا فنحن نعرف اليوم أن انسان نياندرتال قد سكن أوروبا فى العصر الجليدى الثالث الوسيط ومعظم العصر الجليدى الرابع (ربما فيما بين ١٥٠,٠٠٠ ، ٣٥,٠٠٠ سنة قبل الميلاد) ، وأنه صانع الأدوات الحجرية التى كانت متقدمة جدا من الناحية التقنية . وقد حجبت هذه الادوات ما صنعه انسان عصر الباليوليثى العلوى حيث صنعت من رقائق شبيهة بالصفائح وأستعملها انسان «كروماجنون» مع غيرها من أدوات .

والان ، ومنذ مئة عام ، تتوالى اكتشافات هياكل انسان نياندرتال الاوربى التى أعطت فكرة عن شخصه الكلاسيكى ، ويقال أنه انقرض فجأة فيما يبدو منذ نحو ٣٥,٠٠٠ سنة قبل الميلاد ، وظهر الانسان الحديث وان كان غليظا ، وهو فى الحقيقة يشبه الأوربين المحدثين .]

● . انسان نياندرتال

يقول «هويلز» :-

[قد بينت صفات الانسان النياندرتالى بوضوح وبساطة لكى أبدأ المقارنة . لقد كان فى شمال افريقيا انسان آخر شبه نياندرتالى ، اكثر حداثة وان فقد بروز وجه الأوربيين ثم تبعه انسان حديث ، قوى البنية ، يظهر انه جاء من الشرق فى الوقت نفسه (٣٥ , ٠٠٠ سنة ق . م) وربما قبل ذلك أما الشرق الادنى فإنه ادعى لجدل اكثر فثمة اناس لهم وجوه كوجوه انسان نياندرتال وخصائصه وُجدوا فى بواكير العصر الجليدى الرابع مزودين بأدوات موستيرية . ولكن جماجمهم ليست كلاسيكية كالأوربيين ، وبعضهم كانوا فائقى الطول مثل انسان «عمود» لبنى اسرائيل الذى وجده المكتشفون اليابانيون] .

- ثم يقول :-

[. . أما الاسكتلنديون والاسكيمو فهم الذين يمكن أن يقرنوا الى هذا النياندرتالى فى الحجم . .

وقد انتهى الجدل ، سواء كان النياندرتال قد وجد فى أوربا أو فى أى جهة أخرى . فقد حل محل غزاة لهم طرق باليولوثية جديدة فى صنع الادوات فى وقت قصير (آلاف قليلة من السنين) وقد تطور النياندرتالى الى انسان حديث فى المواقع المذكورة ، سواء فى اشغاله الحجرية ، أو فى وسائله التقنية الجديدة] .

ومما قاله أيضا :

«أنها حجة معقدة بنيت فى بعض اجزائها على فروض واعتقد أنها متأثرة فى بعضها البعض الآخر بتحركات الافكار العلمية ، شأنها شأن الحجج القديمة . . وبالرغم من كل ما هو معروف فان طرق اقناع الخصوم لم تكن ميسرة . فبعض الأركيولوجيين يؤكد تطور صناعة الادوات وبعضهم الاخر يؤمنون بأنه كان يوجد موستيريون أحياء ، لديهم الحضارة البيروجوردية للعصر الباليوليثى الاعلى فى فرنسا ، ولكنهم يرون فجوة

بينها وبين الحضارة الاوريجانيسية، ولها تقنية مغايرة في صناعة الادوات، واثراء في أدوات التزين، لم تكن معروفة قبلا، ويقولون أن هذا شيء جديد تماما ودخيل، ولا يتخيلون انه تطور حضارى بسيط». ثم قال :-

.. «وكذلك لا يستطيع بعض علماء الانثروبولوجيا أن يتخيلوا تطورا بيولوجيا سريعا، يوجد وجهها وجمجمة حديثة من انسان نياندرتال في بضعة الآف سنة. وآخرون يداخلهم الشك في قصر المدة ويؤكدون التدرج بين نياندرتال والانسان الحديث، وخاصة في الشرق».

ثم يقول :-

.. «هؤلاء العلماء يصنعون صورة بسيطة للتاريخ البشرى، ويزعمون أنه كان هناك طور نياندرتال في كل مكان، وأن تطور الانسان بدأ في العصر الجليدى، هذه النظرة الرحيبة تفترض انه كان هناك انسان نياندرتال في كل مكان في الدنيا القديمة، كما كان مؤكدا وجوده في أوروبا وعلى حدودها» . .

● . نظرية أصل السلالات عند كارلتون كون

■ - للاستاذ «كارلتون كون» كتاب مشهور عن اصل السلالات، عرض فيه نظرية أخرى أبعد من أن تكون كهذه التي ذكرناها لهويلز، وهي أن السلالات الحديثة ظهرت في اجزاء مختلفة من الدنيا القديمة، وليس من طور نياندرتال مُفرد أو من سكان نياندرتاليين، ولكن من سلالات مختلفة من انسان منتصب القامة، كان موجودا فعلا في هذه البقاع .

وهنا تنشأ صعوبات، لان النظرية لم تضيف شيئا هاما أهمله العلماء الاخرون بوجود انواع اخرى من انسان العصر الجليدى، مثل انسان «سولو» من يافا. ثم ان اصطلاح [سلالات] مرفوض رفضاً قاطعاً لأن البشر جميعاً ينتمون لسلالة واحدة لأدم خلقها الله سبحانه وتعالى من طين .

وأنسان «بروكن هل» (انسان روديسيا) من جنوب افريقيا به بعض سمات قامة انسان نياندرتالى، ولكنه في الحقيقة مختلف تماما وهو أقل شهرة. انها مكتشفات أو

حقائق ما يزال من الصعب تقبلها أو تعليلها، فأنسان «سولو» وان يكن زامن انسان نياندرتال، فأن جمجمته أغلظ وهو بالطبع انسان منتصب القامة، في أحسن صورة.

وهناك فصل ختامي لكل ما تقدم، ما الذى نعرفه عن الانسان الحديث نفسه، ان الأجناس المعاصرة مختلفة جدا، بعضها له جلد أسود جدا، وبعضها له شعر أشقر. والبعض الآخر ضيق العينين، أما عن هيئة الجمجمة (وهذه نستطيع مقارنتها بالانسان القديم) فأوجه الشبه بينهما كبيرة، مع وجه أصغر، وصندوق الدماغ أعلى وأضيق، وهذا استنتاجى الخاص بعد أن فحصت جماجم من جميع انحاء الأرض، وأعتقد كما يعتقد كثير من الزملاء انها جميعا يجب ان يكون لها أصل مشترك ولكن اين ومتى؟ لا نعرف. . . ولكن ما نعرفه جيداً أنها تنتمى لأدم أبى البشر أجمعين.

ويرى كارلتون. . . وهو أقل الداروينيين المحدثين تطرفاً - أنه خارج أوروبا يلاحظ اختفاء انسان نياندرتال، لأن الاثار الباقية قليلة نادرة، ومع ذلك فهناك مكتشفات عجيبة تدل على ان الانسان المفكر من نوعنا قد عاش في كل مكان في آسيا وأفريقيا في العصر الذى عاش فيه انسان نياندرتال الأوروبى . ويقول:-

«وأهم ليختلفون عن هؤلاء النياندرتاليين [المتطورين] الذين تحدثت عنهم، فثمة عدد من الهياكل من جبل قفرة في فلسطين ليس لها تاريخ بالكربون المشع، ولكنها استخرجت من كهوف حيث الادوات والترية تدل على انها عاشت في العصر الجليدى الأخير، ربما منذ ٤٠,٠٠٠ عام».

** وجدير بالذكر هنا أن نؤكد فساد آراء البروفيسور وليم هويلز وعدم صحتها في مسألة ارتباط الانسان بأسلاف من القردة القدامى، وستضع الأدلة العلمية على ذلك في فصل قادم. وكذلك فساد آراء كارلتون في تعدد السلالات التى ينتمى اليها البشر.

أصل الانسان في نظرية «ليكى»

■ ومن أنصار «الداروينية» البروفيسور لويس س. ب. ليكى^(١).
الذى قضى وزوجته قرابة ثلاثين عاما يتقبان عن بقايا الانسان القديم في قيعان بحيرات ما قبل التاريخ في شرق أفريقيا.
وقد كان اعتقاد هذا العالم أن انسان بكين لا يمثل أقدم سلالة من سلالات البشر بل يمثل انسانا متحضرا عاش في الكهوف واستخدم النار وصنع لنفسه أسلحة بدائية، ومما قاله عن رحلاته في [أفريقيا]: -
«تبرز أفريقيا اليوم في قصة تطور أجداد الانسان المباشرين، وكذا أقرب ابناء عمومته اليه - أى القرود العليا - وعلى الرغم من أن هذا المقال لا يهتم اساسا الا بالشطر الأخير من القصة، الذى يبدأ منذ حوالى ثلاثة ملايين سنة، الا أنه لا بد أن يناقش في البداية وبأيجاز مكتشفات العصر الميوسينى الذى استهل منذ حوالى عشرين أو خمس وعشرين مليون سنة مضت .

وقد أجتراً [دارون] منذ اكثر من مئة سنة على ان يتنبأ بأنه سوف يتضح ذات يوم أن الانسان قد نشأ أصلا في أفريقيا، فلم يصدقه الا القليل ولم تظهر الدلالات الاولى على أن أفريقيا تضم أقدم الحفريات الخاصة بالكائنات الرئيسية الا في عام ١٩٢٤ .

● وتبدأ القصة باكتشاف وقع عليه الدكتور هـ. ل. جوردون الذى كان يقطن كورو بكينيا ويزاول الزراعة الى جانب بعض فروع مهنة الطب. ولما كان منذ نشأته مهتما بعلم الحيوان فقد بدأ يلاحظ أنه بعد الفراغ من حرث الارض في مزرعته وهطول الأمطار التى تغسل التربة، تتبدى للأنظار أجزاء من عظام وأسنان متحجرة، ومن

(١) لويس س. ب. ليكى: من بريطانيا، طبقت شهرته الأفاق بسبب اكتشافاته الحفرية في شرق أفريقيا، حيث استهل أول أبحاثه في عام ١٩٢٦ عندما كان في الثالثة والعشرين، - وكرس لهذا العمل حياته كلها. وقد وقع على أعظم اكتشافاته في أحدود أولدوفاي بتنزانيا. ويشغل الان منصب المدير الفخرى للمتحف القومى المركزى للأحافير لما قبل التاريخ بنيروبي (كينيا) ويعمل استادا «غير متفرغ» للتشريح بجامعة نيروبي. وقد أصدر عدة كتب ودراسات ضمنها أبحاثه وتقنياته في ماضى الانسان بأفريقيا وأسهم الدكتور ليكى في حلقة الدراسات الدولية التى تنظمها اليونسكو عام ١٩٦٩ في باريس في موضوع أصل الانسان العاقل (هومو سابينز).

أنظر بحثه: أجدادنا الافريقيون - اليونسكو - العدد ١٣٦ - ص ٢٤.

ثم شرع يجمع هذه الحفريات وعهد بها الى السيد أ. ج. ويلاند مدير التخطيط الجيولوجى فى أوغندا. والى شخص فى نيروبي عام ١٩٢٦ وأدرك الجميع أن الدكتور جوردون قد وقع على اكتشاف شديد الأهمية. وهكذا بدأت سلسلة طويلة من الاكتشافات بفضل تلك الصدفة التى أتت بطبيب يمارس الزراعة فى تلك الرقعة الحساسة .

● ومنذ ذلك الحين، كشف شرق افريقيا عن مجموعة هائلة من الحفريات التى تنتمى الى عصرى الميوسين الاعلى والأدنى، من بينها أكثر من خمسمائة حفرية تمثل القردة العليا، وكذا نماذج من الانسان الأول.

وجرى اكتشاف هام آخر فى عام ١٩٢٤ نفسه فى «تونج» بجنوب افريقيا، اذ أحضر طالب عينة من حفرية سلمها لاستاذة فى التشريح بمدرسة الطب بجوهانسبرج، وادعى ان هذه الحفرية هى أول اكتشاف لشبيه الانسان الاسترالوبيثيسين (الرجل القرد الجنوبى) وعلى ذلك كان عام ١٩٢٤ فترة هامة بالنسبة الى القارة الافريقية وتعاقت الاكتشافات سريعة ووفيرة. ولكن البروفيسور [ليكى] استغلها أبشع استغلال لتأكيد الآراء الداروينية الساقطة، وما يؤكد ذلك المنهج الهدام فى اكتشافات [ليكى] قوله :-

«وفى أوائل العصر الميوسينى كان شرق افريقيا يسكنه عدد من أنماط الرئيسيات العليا، ومن بينها مخلوقات شبيهة بالقردة الحقيقية، كالنوع المسمى «بروكنسل أفريكانس» - وكان يعتبر فى وقت من الأوقات من أجداد الانسان المباشرين - وكذا أنماط من اسلاف الغوريلا والشمبانزى والجييون، قد تكون من اسلاف الأورانج أوتان .

وعاش مع هذه القردة التى انقرضت فى شرق افريقيا، فى تلك الحقبة السحيقة، نوع من القردة اطلق عليه اسم كينيا بيثيكوس أفريكانس (قرد كينيا الأفريقى)، اعتبرته كما اعتبره الكثير من زملائى من الاسلاف المباشرين للانسان وشبيه الانسان . هذا الرأى لا يلقى تأييدا من الكافة، ولكن حجته قوية. وعلى أية حال فإن قرد كينيا الأفريقى أشد شبها بأسلاف الانسان من سائر الرئيسيات التى كانت معاصرة له والتى ذكرناها آنفا^(١) . . !!

(١) المرجع نفسه - ص ٢٥ .

● - ثم يقول ليكى :-

«وفي عصر الميوسين الأعلى، منذ حوالي اثني عشر مليوناً من السنين، ظهرت حجة قاطعة في شرق أفريقيا. ففي فورت تيرنان، في كينيا وجدنا حفريات لنمط من الانسان الأول المسمى «كينيا بيثيكوس ويكرى» تشبه بقاياها القرد الهندي «راما بيثيكوس»!!!» .

■ - وليس من المحقق أن يوغل التاريخ في القدم إلى كل تلك الألوف من السنين، ولكن المحقق أن إيغالها إلى تلك الدهور كلها أو ما هو أقدم منها ليس بالأمر المستغرب في أقيسة الزمن، أو أقيسة أعمار الحياة الانسانية، بعد وضوح الحقائق الثابتة عن قدم تاريخ الخليقة من ظواهرها الأرضية وظواهرها السماوية على السواء .

والمحقق كذلك أن الانسان القديم الذي دلت عليه بقاياه، كان يستخدم الآلات الحجرية، ويستعين في كفاح أعدائه من الحيوانات الضارية بنصيب من الذكاء لم يكن معهوداً في حيوان منها، فهو في أقدم عهوده ميمز بالعقل والنطق وهما صفتان انسانيتان لا تنفصلان عن استخدام الآله ولا عن الخاصة المميزة للحيوان الناطق من اعتدال القامة ومطاوعة اليد للإرادة في حالات المشى والوقوف، ولولا ذلك لما استطاع الانسان أن يستخدم السلاح وأن يصنعه لإصابة الحيوانات الضارية من بعيد .

لأنه الانسان الذي كرمه الله وخلقه في أحسن صورة، وأكمل تكوين . .
ونحن نستنكر ما تبجح به [ليكى] من مغالطات علمية عن أصل الانسان . .
وشد ما أدهشني أنه يحجم عن تأكيد انتهاء الانسان للقردة العليا أحياناً ثم يعود مرة أخرى ليهدم آراءه المعتدلة من أساسها . .

■ فقد وصف البروفيسور «ليكى» الانسان القرد قائلاً:

[أن الثابت في الوقت الحاضر أن عينات الكينيا بيثيكوس ويكيري تمثل مخلوقاً من المخلوقات العليا الرئيسية يملك عدداً كبيراً من الصفات البشرية ويقر الجميع أنه مخلوق بشري أو شبه بشري . وليس من فصيلة القردة الكبيرة (أو الاورانج أوتان)^(١) .

(١) المرجع نفسه - ص ٢٤ .

ولا يملك الكينيا بيثيكوس ويكبرى فقط صفات بدنية كالأنياب الصغيرة والقواطع الشبيهة بالجاروف والفك المستدير؛ ، والوجه القصير، وكلها من صفات البشر، ولكنه كان فوق ذلك يستخدم الحجارة ليهشم بها جماجم الطباء وعظام الاطراف ويستخرج منها المخ والنخاع . ونجد البرهان على ذلك في عظام وجماجم بها كسور غائرة وحجر واحد يثبت أنه استخدم لتهشيم العظام . وبعبارة أخرى فان سلفا واحدا في كينيا ينتمى الى عصر الميوسين الأعلى ، منذ حوالي ١٢ مليون سنة، كان وقتئذ يمد نطاق غذائه الى أبعد من دائرة الثمار النباتية، ليشمل البروتينات الحيوانية^(١) .

ومن الراجح أن هذا التوسع في دائرة الموارد الغذائية هو الذى ساعد نسل الكينيا بيثيكوس على الاتصال الدائم بأسباب الحياة الدنيا، في حين انقرض في هذه الحقبة البروكنسل والكثير من الرئيسيات . ومع أنه ليس في الامكان الجزم بأن كينيا بيثيكوس ويكبرى هو سلف الانسان العاقل (هومو ساينز)، الا أنه يبدو من الراجح أنه يمثل الأرومة التي تفرغ منها كل اجناس الانسان أو شبيه الانسان^(٢) .

وفي غضون بعثى الأثرية الثالثة في شرق أفريقيا، عام ١٩٣١، حصلنا على بقايا عظم فك متحجر بدرجة شديدة في كانام وست على شواطئ خليج كافيرونندو ببحيرة فيكتوريا بكينيا، وكانت العينة متعددة بدرجة كبيرة ومستخرجة من رواسب عصر البليستوسين الأدنى، كما برهن على ذلك مجموعة حيوانات البيئة، وقد أصابها تلف شديد قبل أن تطمر في الرواسب التي وجدت فيها . وكانت حافتها السفلى منفصلة . وقد أطلقت عليه اسم «هوموكانامنسيز» (أى انسان كانام)، وأوضحت فيما بعد أن بها أوجه شبه كثيرة بالانسان العاقل «هومو ساينز» ورفض زملائي ، فيما عدا القليل ، أن يسلموا بأن هذه العينة تنتمى الى عصر البليستوسين الأدنى ، ولكنى لم أراجع في رأيي لأنى كنت مؤمنا بأنه صحيح ومعقول^(٣) .

وخلال هذه البعثة الأثرية الثالثة في شرق أفريقيا، عام ١٩٣١، أكتشفت أنا وزملائي آثاراً مهمة لثقافة العصر الحجري المبكر^(٤) .

(١) المرجع نفسه - ص ٢٥ .

(٢) المرجع نفسه - ص ٢٦ .

(٣) المرجع نفسه - ص ٢٧ .

(٤) المرجع نفسه - ص ٢٨ .

■ وقد بالغ «ليكى» في [شططه وتخريفه] حين أدعى بوجود أدلة على انتهاء انسان تجانيقا الى القرده ، فقد قال في ذلك :

وعلى ذلك فهناك برهان ساطع من كينيا على وجود شكل من جنس الانسان (هومو) ينتمى الى عصر البليستوسين الادنى ، ومعاصر لأنواع قرده الجنوب التى كانت تعيش فى تلك الحقبة .

وتؤدى بنا هذه الحقائق بصورة حتمية الى مناقشة موضوع قرده الجنوب بصورة عامة موجزة ، فما زالت معظم الكتب الدراسية الموجودة تضع جنس الاسترالويشيكوس و (بما فيه انسان الزنج ، وشبيه الانسان) وغيرهما من الانماط المقارنة لهما) على خط الوراثة المباشر لجنس الانسان العاقل ولكن هذا الرأى لم يعد يلقى سندا .

وليس من شك بطبيعة الحال فى أن قرد الجنوب والانسان ينحدران من جد مشترك فى موضع ما من الدرج (الزمنى) الممتد من عصر البليستوسين الادنى ، ولكن هذا الجذ المشترك لم يظهر بعد . ومع ذلك فان فكرة وجود نوع قوى من قرده الجنوب يتمتع بسلمات شديدة فى عصر البليستوسين الأدنى منذ حوالى مليونين ونصف الى ثلاثة ملايين من السنوات معاصرا للانسان ، تهدم تماما النظرية التى تقول بأن قرد الجنوب هو جدنا المباشر . فلو اكتشف أصل مشترك قد تفرغ منه هذان النمطان من الجنس البشرى لوجدنا به على الأرجح بعض صفات النمطين ولكنه لا بد أن يكون متميزا عن كل منهما .

ومن الجدير بالذكر فى هذا المقام أنه يوجد رواسب بشرقى بحيرة رودلف تنتمى الى عصر البليستوسين الأدنى كشفت عن العديد من أنماط الجنس البشرى أدوات حجرية شديدة الشبه بالأدوات الثلاثة التى وجدت فى الوضع نفسه عند «كانام وست» مع فك كانام . وقد نوهت بهذه الأمور فى كتابى الذى صدر بعنوان «أجناس العصر الحجرى فى كينيا» وتدل المعلومات الأولى التى نشرت عن الادوات التى وجدت فى شرق بحيرة رودلف دلالة واضحة على أن الجنس البشرى كان يضع نماذج مختلفة من الأدوات الحجرية خلال عصر البليستوسين الأدنى فى تلك المنطقة .

وعثرنا فى أهدود أولد وفای على دليل أقوى - يرجع الى عهد يقل بقليل عن مليونى سنة مضت - من أصل الجنس البشرى ، وبالتالي أصل الانسان العاقل فى سنة

١٩٥٩ اكتشفنا في الحوض رقم ١ جمجمة في حالة جيدة من الحفظ، لقرد جنوبي سمينا «انسان الزنج بويزي، (ونج انثريوس بويزي). وفي الوقت الذي تم فيه هذا الاكتشاف لم يكن بالحوض رقم ١ هذا أية مخلفات لكائنات شبه آدمية معروفة، في حين اننا كنا نملك في هذه الرواسب دلالات كثيرة على ثقافة العصر الحجري المعروفة بأسم «اولدوان»]. ثم قال:-

[وهكذا فإنه على الرغم من التسليم بأن «انسان الزنج» هو من انواع القردة الجنوبية من حيث هيئته البدنية، الا أنه يمكن وصفه بأنه «انسان» حسب التعريف الشائع في ذلك الحين عن الانسان بأنه «صانع الأدوات» وبعد أشهر قليلة أكتشفت أولى الحفريات الجزئية لما يعرف الان بأسم «هومو هابيليس» (الانسان الحاذق) في رواسب تنتمي الى الحقبة التي ينتمي اليها انسان الزنج، ويشترك النوعان في ثقافة واحدة، ثقافة أولدوان. ومن ذلك الحين وجدت نماذج أخرى من هذا النمط من الكائن الشبيه بالانسان في أولدوفاي كتب عنها في مجلة «الطبيعة» وغيرها من المجلات، اذ كان واضحا أنها تخص الجنس البشري الذي كان يعيش في عصر البليستوسين الأدنى]. . . !!!

الملاح البشرية لانسان جاوة والصين عند «ليكي»

يرى ليكي أنه ليس ثمة شك في أن الهيئة العامة للإنسان «الحاذق» أقرب شبهها للإنسان «العاقل» من حيث التجويف المخي على الاقل من سائر البقايا المتحجرة للإنسان المنتصب القامة «هومو أريكتس» وهو النوع المنقرض من المخلوقات الشبيهة بالانسان التي وجدت أولا في جاوة والصين ثم في أفريقيا في رواسب عصر البليستوسين الأوسط^(١).

● - يقول ليكي في ذلك :-

.. «ويبدو أنه لا ريب في وجود الانسان «الحاذق» على الخط الذي يؤدي مباشرة الى الانسان «العاقل» والارجح أن الفرع الذي انتهى بالانسان المنتصب القامة قد

(١) المرجع نفسه - ص ٢٦.

تشعب من الانسان «الحاذق» منذ عصر البليستوسين الأدنى على الأقل، بالنظر الى وجوده بالشرق الأقصى كنوع متميز تماما في عصر البليستوسين الأوسط.

وثمة اكتشاف عرضي آخر عظيم الأهمية جرى في عام ١٩٦١. فقد تم العثور على بقايا النوع الانساني الذي كان في جاوة والصين، ولكنه أقدم بضعفين من الزمان في أفريقيا منه في الشرق الأقصى. وتمثلت الصدفة هذه المرة في خطأ وقع فيه أحد أتباعي. فذات يوم عاد الجيولوجي الذي كان يعمل معي الى المخيم ومعهم مسودة خريطة لرقعة معينة في الاخدود، ونظرت الى الخريطة وقلت له: «ولكنك أسقطت أخدودا جانبيا ضيقا» فأجاب: كلا لم أفعل «فقلت»، أسف، بل أنت فعلت، تعالي معي في صباح الغد وسوف أريك. وعندما وصلنا الى الأخدود الطويل المليء ببعض الشيء بالحشائش والأيكات، وأضطر الى التسليم بخطئه، نظرت خلفي الى الموضع المقام عليه مخيمنا، فأبصرت فجأة على الجانب البعيد من الاخدود ساحة صغيرة للغاية تضم حفريات مكشوفة، كانت هذه الساحة على الجانب الشمالي من اللسان الأرضي الذي يفصل الأخدود الرئيسي عن الأخاديد الجانبية^(١). ثم يقول:-

[وعلى الرغم من أنني قد جيت أولدوفاي سيرا على الأقدام منذ عام ١٩٣١، فأني أدركت للتو واللحظة اني لم أطأ هذه البقعة الصغيرة المكشوفة من قبل. ولو لم يقع من جانب تلميذي هذا الخطأ الذي ألزمني العودة الى هذه البقعة لما كنت قد أبصرت هذه الحفريات التي لا تراها العين الا من هذه الناحية فقط، وما أن عدنا الى المخيم حتى انطلقت ثانية راجعا إلى الأخدود حيث الموضع الذي يضم الحفريات المنعزلة وبينها كنت شاخصا اليها كدت أطأ بقدمي جمجمة بشرية متحجرة، نصفها عار في الهواء. وكانت هذه أول جمجمة للانسان المنتصب القادمة من أولادفاي].

■ - ويبدو الاتجاه الدارويني المضلل مرة أخرى في آراء [ليكي] حول أصل الأجناس البشرية إذ نجده هنا يستنكر الرأي القائل بانتفاء الانسان إلى أصول بشرية منتصبة القادمة متكاملة الحلقة ويظهر ذلك في قوله: [ويقودنا هذا الامر حتما الى جدل حول الرأي المكتوب في الكتب الدراسية يقول ان الانسان «المنتصب القادمة» هو الجد

(١) المرجع نفسه - ص ٢٨.

المباشر للانسان العاقل . هذا الرأى أيضا لم يعد فى الامكان الأخذ به بصورة جدية
للاسباب الآتية :-

● - شكل تجويف المخ فى كل انواع الانسان «المنتصب القامة» يختلف تماما عن نظيره لدى الانسان العاقل ، حين أن تجويف المخ لدى الانسان «الحاذق» - وهو أقدم بكثير من الانسان المنتصب القامة - كثير الشبه بنظيره لدى الانسان العاقل ، كما ذكرنا من قبل .

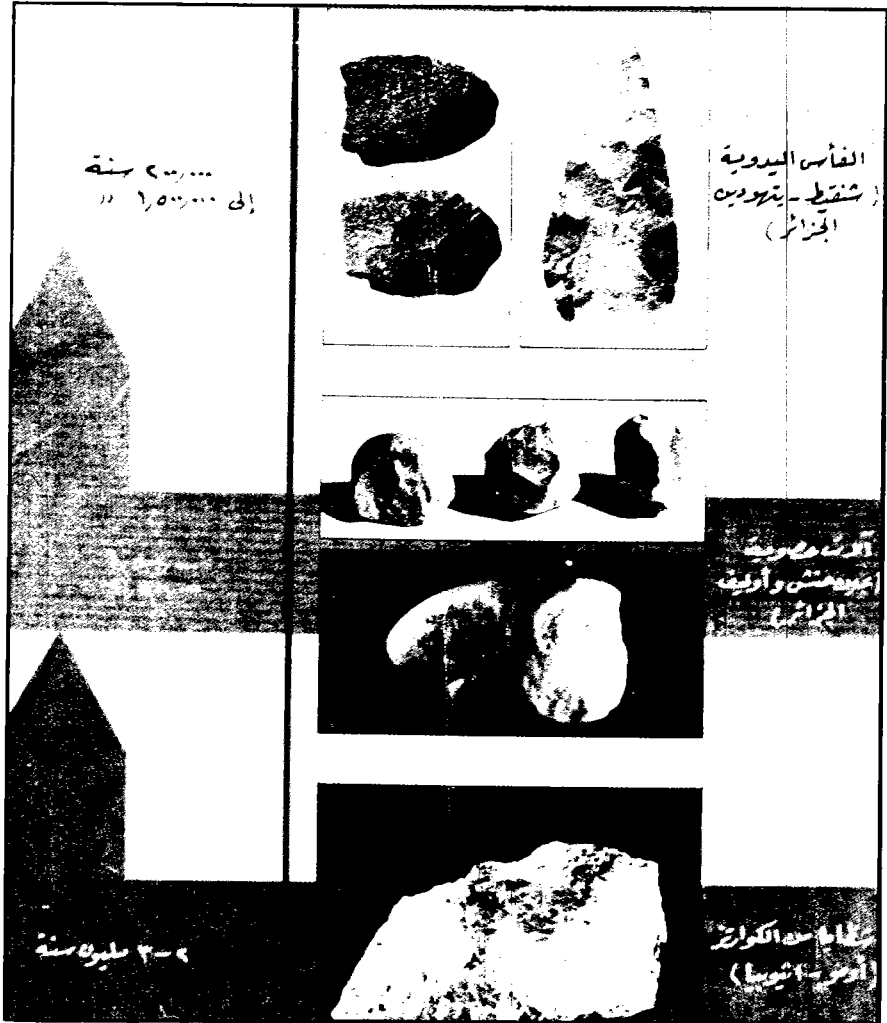
● - ويتصف الانسان المنتصب القامة بعدد كبير من الصفات الشديدة التميز الموجودة فى الانواع التى كانت تعيش فى أفريقيا والشرق الاقصى فى حين يملك الانسان «الحاذق» قدرا أكبر من السمات العامة التى يتصف بها الانسان «العاقل» .

● - أما عظم الحوض لدى الانسان المنتصب القامة ، التى وجدت فى أخدود أولدوفاى واذيع نبأها أخيرا ، وكذا عظم الفخذ المتصل به فإنها على وجه اليقين من نمط مخالف لنظيريهما لدى الانسان «العاقل» وهناك شك يحوم حول عظمة ساق «ترينيل» وحقيقة أنتائها الى الانسان المنتصب القامة[.

■ - ثم يعود «ليكى» إلى تعقله واعتداله فى فرضياته حول الأصول البشرية للانسان القديم ، فيقول :-

● - وليس هناك اليوم مجال للشك فى وجود الانسان «العاقل» فى عصر البليستوسين الأوسط فى كل من أوروبا وأفريقيا . وهذه حقيقة سلم بها المؤتمر الذى انعقد عام ١٩٦٩ فى باريس تحت رعاية اليونسكو . ويبحث فى أصل الانسان العاقل ، إذ أقر الجميع بأن بعض العينات كالجهاجم المستخرجة من كانجيرا ، وسوانز كومب ، وعينات كبيش الجديدة من جنوب أثيوبيا تمثل الانسان «العاقل» فى صورة بدائية ، ولكنها تختص به بصورة واضحة والواقع أن هذا النوع البشرى كان موجودا فى عصر البليستوسين الأوسط فى بقاع تمتد حتى سوانز كومب فى انجلترا وكنجيرا فى كينيا - ومن الواضح أذن أن هناك نمطا قديما للانسان «العاقل» كان موجودا بالتأكيد فى رواسب أقدم عهدا .

وفى عام ١٩٣٢ عندما تم العثور على أجزاء من جماجم كانجيرا فى رواسب تنتمى الى عصر البليستوسين الأوسط ، ومعها بلطات يدوية نبذت هذه الاشياء ، مثلها نبذ



أدوات من العصر الحجري القديم الأعلى
وما قبل البليستوسين تدل على وجود
الانسان مستقلاً وعدم انحداره من القرده العليا كما زعم المخرفون
من الداروينيين المحدثين.

فك كانام الأقدم منها، ووضعت كلها فيما سمي «بالكشف المعلق». وعندما وصفت
جمجمة سوانز كومب هي أيضا في عام ١٩٣٦ بأنها تخص الانسان «العاقل» رفضت
لأنها كانت تبدو موغلة في القدم بالنسبة الى هذا النوع من الجنس البشرى. غير أنه
عندما تم في عام ١٩٦٧ اكتشاف جماجم كيش بجنوب أثيوبيا، بدأ مفهوم جديد في
التاريخ القديم للانسان العاقل يتبلور ويصبح مقبولا لدى الجميع.

أصل الأجناس البشرية

حسب المفهوم الحضارى للانسان في علم الجغرافية التاريخية

■ - عصر ما قبل التاريخ ومخلفات الانسان القديم.

عصر ما قبل التاريخ فرع جديد نسبيا من فروع العلم وأن تاريخ اهتمام الانسان
بحل الالغاز المحيطة بنشأته ليرجع الى فجر التاريخ^(١). وقد اعتمد الانسان في بحثه
القديم عن الحقيقة على ثروة خيالية، ولذلك تزخر الخرافات والأساطير عند كثير من
الشعوب بقصص غريبة اخترعها الناس لتفسير بدء الخليقة.^(٢)

ومما لا شك فيه أن ظهور الانسان، وبه كل المكونات والخصائص البيولوجية التي
أهله أن يكون سيد المخلوقات على الأرض، كان انقلابا حضاريا ومؤشراً جديداً
لعصر جديد على سطح الأرض. واليوم يحاول الانسان بالعلم فرض أرائته على
عوامل البيئة الطبيعية، بعد أن كان يتعامل معها بحذر وداخل حدود ضيقة قبل
العصور الحجرية الاولى.

ولا يخفى ان الله سبحانه وتعالى هو الذى منح الانسان تلك القدرات العقلية
المذهلة [ومنها قدراته على التذكر والتفكير في غير المحسوسات] وكذلك قدرته على

(1) I. Comas

Racial Myths, Unesco, 1968.

Manual of Physical Anthropology. Charles C. Thomas, Springfield. Mass.

(2) Ibid., PP. 181-193.

النطق بكلمات تنقل شفاهة [ومن بعد كتابة] . . . وهى ضمن مظاهر التكريم الالهى للانسان .

ولما كان من دأب الانسان ان يسعى الى الأفضل محاولاً فى سبيل ذلك التغلب على كل صعب، فإن تراث الانسانية أخذ ينمو ويثرى على مر الزمن . ان الانسان هو المخلوق الوحيد الذى استطاع ان يرث ويورث الحضارة بكل ما تعنيه هذه الكلمة من معان .

ونظراً لقلّة ما نعثر عليه تحت سطح الأرض من آثار وأنماط التحضر البشرى فى العصور القديمة، مقارنة بما نجده فوق السطح، فإن الآثار الفوقية تنفع فى الاستدلال إذا ما طبقنا عليها طرق الاثبات العلمى، وهى طرق تحتاج منا إلى صبر وأناة ودقة متناهية، فهى الدليل الذى فى أيدينا على تكريم الله سبحانه وتعالى للانسان وتفضيله على خلق كثير من خلق الله .

وقد ترك الانسان القديم من آلاف آلاف السنين ما يدل على ذلك التكريم، وهى أدلة مادية تبرهن على الانسانية الصانعة الفنانة التى كانت تستوطن جهات مختلفة من العالم القديم .

وقد رتب العلماء حضارات الانسان القديم حسب أعمارها التى أمكن الاستدلال عليها بالطرق الجيولوجية الطباقية المعروفة، كما رتبت حسب طريقة تشكيلها والنمط الذى يصور طريقة استخدام الانسان لموارد البيئة آنذاك .

وقد اتفق علماء [ما قبل التاريخ] على تقسيم هذه الحضارات الى حضارة العصر الحجرى القديم الأسفل، وتشمل حضارة الشل والأشل (بمراتبها المختلفة)، وحضارة العصر الحجرى القديم الأوسط وتسمى الحضارة الليفالوازية والحضارة المستيرية، وحضارة العصر الحجرى القديم الأعلى وتشمل الحضارة الاوريناسية والحضارة السولترية والحضارة المجدلينية .

ولولا تكريم الله للانسان لما استطاع أن يترك لنا بصماته الحضارية من آلاف الآلاف من السنين، ففى الحديث القدسي :-

«ابن آدم خلقتك لنفسى وخلقت كل شىء لك» . . . وكرمه سبحانه وتعالى بان أنزل إليه وعليه كتبه وارسل اليه رسله وخاطبه وكلمه . . .

● - حقا ان للانسان شأن آخر ليس لسائر المخلوقات . . .
فلماذا لا يكون الانسان لربه ساجداً شكوراً؟ . .

وقد ظل الانسان - على مر الزمن - يبحث عن تفسير عقلى لأصوله الحضارية ونشأته، ومظاهر تكريمه، وأنماط معيشتة. وهذا أفضى فى النهاية الى نشوب صراع مريير بين الكنيسة ورواد علم [ما قبل التاريخ] الذى بدأ فى القرن الثامن عشر، وبلغ الذروة فى ١٨٥٩ عندما نشر داروين كتابه المشئوم المعروف باسم «أصل الانواع»^(١). وكانت الأدوات وقطع الحجارة التى صنعها أسلافنا القدامى الدليل القوى على تميزهم عما حولهم من خلق وهى بالفعل المصادر التى تستقى منها معلوماتنا عن حضارتهم. على أن الادوات التى صنعت من الصوان والرخام وغير ذلك من انواع الحجارة ظلت مبعثرة على وجه الارض، وكان الناس يعتبرونها «تحفا طبيعية» وكان بعض فلاسفة الاغريق يعتقدون أن «زيوس» القاها على الارض ويسمونها «صواعق» الغضب السماوى. كما كانت الخرافات المحلية فى كثير من الاقطار تنسب اليها قوى سحرية.

وظل الحال كذلك الى أخريات القرن السادس عشر اذ أدرك ميكائيل ميركانى، طبيب البابا كليمنت الثامن، المعنى الحقيقى لهذه الصواعق المزعومة فكتب يقول: «ان معظم الناس يعتقدون أن الصواعق (سيروينا) تنشأ عن البرق. والذين يدرسون التاريخ يرون أنها قطعت صوان شديد الصلابة بضرمة قوية قبل أن يستخدم الحديد فى حماقات الحرب».

وفى نهاية القرن السابع عشر اكتشف [جون كونيارز]، وهو صيدلى من أهل لندن «جسم فيل» وعلى مقربة منه حجر على شكل كمثرى. وكان هذا الصيدلى كما يصفه صديقه [جون باجفورد] - يدأب على جمع الاثار القديمة التى يعثر عليها فى لندن أو حولها ويبدو أن هذين الصديقين قد تناولا هذا الحجر بالفحص والدراسة^(٢).

وفى رأى [باجفورد] - ولعل هذا رأى قد قوبل بكثير من الشك ان هذا الحجر

(1) C.S Coon

The Origin of Races. Alfred A. Knopf, N.Y., 1963

(2) F. Clark Howell

Early Man (Life Nature Library). Time- Life Books, N.Y., 1970.

يمثل «سلاحا بريطانيا اتخذ من حربة من حراب الصوان على شكل رأس رمح» كان البريتون يستخدمونه قبل أن يعرفوا النحاس أو الحديد. ولذلك قال [باجفورد] ان الفيل كان واحدا من فيلة كثيرة استجلبها الرومان اثناء احتلالهم بريطانيا العظمى، وربما ذبح هذا الفيل بهذا السلاح الحجري الذى اكتشفه صديقه [كونيارز]⁽¹⁾. وبعد قرابة قرن من الزمان اكتشف [جون فريز] بعض «الادوات الحجرية» من صنع الانسان وفسرها تفسيراً صحيحاً فوصفها بأنها رؤوس رماح. وقد اكتشفها بين اطلال واد قديم ببلدة [هوكسن] بمقاطعة «سوفوك مختلطة» بعظام حيوانات بائدة. وقد نبذ [فريز] الافكار السائدة في عصره وأعلن في شجاعة رأيه في المعنى الحقيقى لاكتشافه، فقرر أن الادوات التى اكتشفها هى من صنع الانسان وانما ترجع الى حقبة جيولوجية عريقة في القدم، وهذا رأى لا يتعارض مع الاعتقاد الراسخ الشائع بحدوث طوفان عام في زمن نوح عليه السلام.

على أن بعض الداروينيين الحاقدين تجاهل هذا الدليل المادى على تحضر الانسان من عصر النشأة، الى أن قام الجيولوجى [سيرجون ايفانز وسير جوزيف برستوتش] بزيارة اطلال هوكسن وتحققا من صحة تفسير [فريز]، وبذلك تبوأ فريز مكانة الخالدين بين رواد عصر ما قبل التاريخ.

■ - دور الجغرافية التاريخية في الكشف عن أنماط التحضر البشرى في العصور

البائدة :-

لم يمض زمن طويل حتى اتخذت خطوة هامة نحو كشف النقاب عن أصل الانسان اذ عرفت حقيقة الحفريات (التى حيرت ألباب الرجال على مر الاجيال) بصفة نهائية، فقد أصبح الآن من المعروف أن هذه الحفريات هى بقايا النباتات والاصداف والعظام التى بقيت بالوسائل الطبيعية فى القشرة الأرضية ثم تغير تكوينها بفعل المؤثرات التى تعرضت لها⁽²⁾.

وقد اتسم الشطر الاول من القرن التاسع عشر بالاهتمام الشديد الذى أبداه علماء أوروبا وانجلترا وأمريكا فى اعمال التنقيب بالكهوف. وذاعت فى ١٨٢٢ اشاعات بأنه

(1) W.W. Howells

Man in the Beginning. Bell, London, 1956

(2) Ibid., PP. 151 - 153.

تم العثور في كهوف جنوب المانيا على بقايا كثير من الحيوانات البائدة من بينها بقايا الفيل ، والكركدن ، والضبع والدب . ودفعت انباء هذه الكشوف قسيسا انجليزيا اسمه [دين وليم بكلاند] وكان يقوم اذ ذاك بتدريس الجيولوجيا في جامعة اكسفورد - الى التنقيب في كهف بافيلاند على ساحل ويلز. ولم يمض زمن طويل حتى توصل بكلاند الى كشف من أهم الكشوف في البلاد^(١).

ويوجد كهف [بافيلاند] في حائط صخرى من الحجر الجيري ، وقد عثر فيه على ذخائر من عصر ما قبل التاريخ ، كأدوات من الصوان وزخارف وأدوات من العظام والعاج . بالاضافة الى انواع من الحيوانات التي وجدت في كهوف المانيا ذات الطبقات المختلفة . واكتشف بكلاند مع هذه الاشياء جمجمة بشرية ملطخة بصبغة حمراء اشتهرت بأسم «سيدة بافيلاند الحمراء» . . . وقد تبين فيما بعد انها جمجمة شاب صغير.

وقد وضعت مشكلة تفسير هذا الكهف [بكلاند] في مأزق حرج فقد كان يرى بوصفه جيولوجيا أنه قد اكتشف بقايا «رجل ما قبل الطوفان» ولكن عقيدته الدينية بوصفه [قسيسا مسيحيا] كانت تمنعه من التسليم بذلك ويظهر أنه اضطر في النهاية الى الادعان لحكم عقيدته ، ففسر كشفه بأن قال انه على الرغم من أن مياه الطوفان ربما تكون قد جرفت بقايا الحيوان في الكهف . فانه يبدو ان الجسم البشرى قد دفن في تاريخ متأخر جدا عندما استوطن الانسان انجلترا بعد «الطوفان» بزمن طويل . وبعد سنوات قلائل شرع [جون ماكنرى] من «الروم الكاثوليك» - في التنقيب في كهف من الحجر الجيري على ساحل [ديفون] بانجلترا يعرف باسم كهف [كنت] ، فعثر فيه على أدوات حجرية من صنع الانسان مع الانواع نفسها من الحيوانات البائدة التي عثر عليها [دين بكلاند] في كهف بافيلاند ولكنه - خلافا لبكلاند - لم يدع عقيدته الدينية تؤثر في رأيه العلمى .^(٢)

(1) C.w. ceram (Kurt W. Marek)

The First American. Harcourt Brace Jovanovich, N.Y., 1971.

(2) J.M. Coles and E.S. Higgs

The Archaeology of Early Man. Praeger, N.Y., 1969

● - ونستدل من ذلك على مقدار ما أسهم به علم الجغرافية التاريخية في التأكيد على تحضر الأجناس البشرية القديمة واستقلال نشأتها. ولقد تم كشف آخر في جبل طارق في اثناء تلك الفترة، ولكن الناس تجاهلوه تماما، وهو عبارة عن جمجمة محفوظة جيدا. ثم نقلت في سنة ١٨٦٢ الى انجلترا، ولكن العلماء لم يعترفوا بمكانة هذا الكشف الفريد في تاريخ التحضر البشرى الا في بداية القرن العشرين وكانت هذه الجمجمة تمثل كما سيتضح فيما بعد أول بقايا انسان [نياندرتال] الذى يقوم تاريخه بدور هام في تاريخ نشأة الانسان وتحضره.

● . إنسان ما قبل الطوفان وأنماط التحضر البشرى القديمة

يرجع إلى العالم الفرنسى [م . بوشيه دى برنس] يرجع الفضل الأكبر في تحول الرأى العلمى الى جانب الذين يعتقدون بوجود «إنسان ما قبل الطوفان» . وكان [بوشيه دى برنس] شغوفاً بالاثار القديمة كما كان عالما عظيما ففي ١٩٢٥ تعين مأمورا للجمرک في [أبيفيل] الواقعة على نهر السوم وكان عمره أربعين عاما . وكان الناس يستغلون طبقات الحصى في وادى - السوم لأغراض تجارية، وكانت أعمال التنقيب قد تمت في هذه الطبقات التى تبين أنها تحتوى على حفريات بعض الحيوانات البائدة .

وكان من الطبيعى أن تجذب طبقات الحصى هذه اهتمام [بوشيه دى برنس] فلم يلبث أن لاحظ أن العمال يستخرجون أحجارا ذات أشكال عجيبة من بين الحصى . وعلى الرغم من أن طبقات الحصى قد نسبت الى العصر الجيولوجى المسمى بعصر [ما قبل الطوفان] فان [بوشيه دى برنس] اعتقد ان الحجارة التى أخذ يجمعها من العمال كانت في حقيقة أمرها «أدوات حجرية» من صنع الانسان، وأيقن أنه عثر على دليل قطعى يثبت وجود الانسان في أوربا قبل «الطوفان»، وأنه بلغ شأواً عظيما من الحضارة في ذلك الحين .

وأكد [بوشيه] أن التربة خارج مدينة ابيفيل تحتوى على حجارة من صنع «انسان ما قبل الطوفان» بالاضافة الى حفريات حيوانات كبيرة كان يستخدمها في حياته

وكانت تنتمي الى الانواع البائدة . وأخذ العلماء «الداروينيون» ينظرون الى [بوشيه دى برنس] على أنه رجل يهيم فى بيداء الاحلام والأوهام ، ودمغته [الكنيسة] بالمروق من الدين (المهرطقة) ولم يلقى [بوشيه] تأييداً من أى عالم من الداروينيين الا فى سنة ١٨٥٤ عندما زاره [د . ريجول] ، وهو طبيب من بلدة أمبين أشتهر بارتياحه فى عصر وصحة «الادوات الحجرية» التى اكتشفت فى «أبيفيل»^(١) .

وبعد أن فحص [ريجول] أدوات أبيفيل الحجرية عاد الى «أمبين» وأكتشف وجود حجارة مماثلة فى طبقات مماثلة فى بلدة [سنت أشيل] بالقرب من «أمبين» ، فعدل [ريجول] عن رأيه تماما وانضم بحماسة إلى صفوف المؤيدين للنظرية الطوفانية . ومجدر بنا أن نشير الى أن عمل هذين الرائدتين من رواد عصر ما قبل التاريخ يقترن بحضارتين قديمتين من [حضارات العصر الحجرى] تعرفان باسم الحضارة الشيلية (أو الأبيلفية كما تسمى الان) والحضارة الأشيلية^(٢) ، ويعتقد العلماء أنها حضارات قديمة ازدهرت قبل طوفان نوح عليه السلام .

وقد سبق أن ذكرنا أن العلماء لم يعترفوا بأهمية الجمجمة البشرية المتحفرة التى عثر عليها فى أحد المحاجر بجبل طارق عام ١٨٤٨ ولكن بعد تسع سنوات توصل بعض العمال الذين كانوا يقتلعون الاحجار من حائط صخرى لأخدود عميق بالقرب من [دوسلدورف] بالمانيا الى كشف عجيب مماثل . وحينئذ انفتح كهف نياندرتال المشهور (وقد تهدم منذ ذلك الوقت) فى منتصف الجانب الشديد الانحدار من الحائط الصخرى . وفى سنة ١٨٥٧ تم العثور على بقايا انسان قديم مدفونة تحت أرضية الكهف^(٣) .

ولحسن الحظ استولى طبيب كان يهتم بالحفريات على بقايا هذه الجمجمة من العمال وأرسلها الى أحد علماء التشريح لفحصها وقد أثار الطابع الأدمى لهذه الجمجمة ضجة علمية هائلة زاد من صخبها أنه لم يتم العثور على بقايا حيوان آخر

(١) لويس س . ب ليكى ، فان موريس جودال - الحفريات القديمة ونظريات ما قبل الطوفان - اليونسكو - المرجع السابق ص ٦١ .

(٢) الشيلية نسبة الى مكان أثرى أسمه شيلى ، والأبيلية نسبة الى ابيفيل ، والاشيلية نسبة الى سنت أشيل .

(٣) لويس س . ب ليكى - المرجع السابق - ص ٢٥ .

بالقرب منها . والواقع أنه لم يوجد دليل يهدى العلماء الى تقدير عمر هذه العظام البشرية . وقد أثار هذا الكشف اهتماما كبيرا في الدوائر العلمية^(١)، نظراً لأنه يدل على وجود الانسان قبل طوفان نوح عليه السلام في شكل آدمى متكامل ، بل ولديه أنماط حضارية رائعة تدل على استحقاقه الخلافة في الأرض .

وكان البروفيسور [وليم كنج] الاستاذ بكلية الملكة بأيرلندا أول عالم قرر أن غطاء الجمجمة المكتشفة في كهف [نياندرتال] ينتمي إلى إنسان من جنس بشري موغل في القدم وفي تحضره البشري . ومع أن قبة الجمجمة كانت هي الجزء الوحيد من الحفريات الذى بقى على حاله فان كنج اعتبرها دليلاً قاطعاً على وجود جنس متحضر من الانسان اطلق عليه اسم «انسان نياندرتال» .

ولم يكن العلماء في ذلك العهد على استعداد للاعتقاد بأن أنواعاً مختلفة من البشر كانت تسكن في عالم [ما قبل التاريخ] . ولذلك ظل الكثير منهم يعتبرون جمجمة [نياندرتال] عينة باثولوجية (مرضية) وقد انقضى أكثر من نصف قرن قبل أن يؤيد [العلم] رأى «كينج» ويسلم بأن الجمجمة الشهيرة المكتشفة في كهف [نياندرتال] تمثل جنساً قديماً من البشر اصطلح على تسميته «انسان نياندرتال»^(٢) .

وبعد أن مضى النصف الأول من هذا القرن تهباً المسرح لاستقبال أكثر اللحظات إثارة في تاريخ العلم . ذلك أن «ليل» وغيره من الجيولوجيين لذلك العهد مدوا في حبال قصة الأرض الى الوراء من حيث الزمن وقدموا للبشرية نظرية جديدة ومثيرة عن الكون الذى قالوا ان عمره قديم الى درجة تفوق الخيال^(٣) .

وهدهم البحث الى ان مساحات كبيرة من الأرض - هي الآن - مغمورة بالماء - كانت فيما مضى تربط آسيا وأمريكا، وأوروبا بأفريقيا وبريطانيا العظمى ببقية أوروبا، ولذلك كان الناس والحيوان في عصر ما قبل التاريخ يتجولون عبر هذه الجسور الأرضية من قارة الى أخرى . وأهتدوا أيضاً الى شواهد تدل على أن أجزاء كبيرة من العالم كانت فيما مضى متجمدة في ظل العصر الجليدى العظيم^(٤) .

(١) المرجع نفسه - ص ٢٦ .

(٢) المرجع نفسه - ص ٢٧ .

(٣) المرجع نفسه - ص ٢٨ .

(٤) المرجع نفسه - ص ٢٩ .

وفي سويسرا عشر الجيولوجيون بين الرواسب الثلجية على طبقة من النباتات المتحجرة التي لا يمكن أن تنمو الا في جو معتدل . وهذا بالاضافة الى مجموعة من المعلومات الاضافية - حملهم على الاعتقاد بأنه لا بد من وجود مراحل جليدية ومراحل بين الجليد في العصر الجليدى العظيم .

وفي ضوء الحقائق الجيولوجية الجديدة التي توصل اليها علماء إليها نجد كثيراً من العلماء قد أخذوا يتسألون: هل كان «الطوفان» المشار إليه في القرآن الكريم وفي الكتاب المقدس «طوفان عالميا» أم كان مجرد طوفان محلي محصور في المنطقة الواقعة في وادي الفرات وما حوله حيث عاش آدم وذريته بما فيهم نوح في أشهر الأقوال . وقد كان عدد ومجموعة الانواع التي حشدها نوح في سفينته موضع حدس العلماء على مر العصور . ففي القرن السادس عشر ذهب [سيروالتر دالى] الملاح المشهور الى أن نوحا جمع «٨٩ نوعا متميزا من الدواب» وتضاعف هذا الرقم في نهاية القرن الثامن عشر، وازداد تقدير أبعاد سفينة نوح تبعا لذلك .

وبتقدم البحث العلمى زادت الشواهد التي تكشف في مناطق شاسعة كأفريقيا وأسيا وأمريكا وأوروبا، والتي دلت على أن كل قارة لها حيواناتها الخاصة . فقد وجدت أسلاف لهذه الحيوانات وكذلك للأجناس البشرية في الرواسب الجيولوجية التي تكونت قبل حدوث «طوفان نوح»، ولذلك كان من الاعجاز جمع أفراد في سفينة نوح من جميع الأنواع الحية في العالم قبل «الطوفان» ثم إعادة توزيعها بعد ذلك .

ولذلك هدأت حدة النزاع الدائر حول وجود الانسان في أوروبا قبل الطوفان وعنى العلماء بالبحث عن زمن الانسان الجليدى وآثاره - الحضارية . وبعد أن أدرك العلماء المعنى الحقيقي للأدوات الحجرية أخذت ثروة طائلة من المعلومات تتجمع حول الحياة الاجتماعية لأسلافنا القدامى والصناعات التي مارسوها، وثبت وجود سلسلة من الحضارات عرفت بأسماء: العصر الحجري، والعصر البرونزى . والعصر الحديدي .

■ - علم ما قبل التاريخ يهدم نظرية داروين :

وانطلقت نحو النور نظريات وأفكار ظلت مكبوتة بفعل التعصب الدينى في أوروبا

وتجلت في المنهج العقلي الجديد الذي سلكه العلماء في البحث عن [أصل الانسان]، وانهارت العقائد التطورية التي بالغ الداروينيون في تصويرها والتنظيم من شأنها. وظفر العلماء بذخيرة كبيرة من المعلومات حيثما حملتهم غريزة حب الاستطلاع على فحص عجائب العالم الطبيعي. ولم يبق الا أن يتقدم أحد الاشخاص بوضع نظرية تهدم نظرية داروين وشططه وتحريفه عن أصل الانسان.

ولم تكن نظرية تطور الحياة الا نظرية فاسدة: ذلك أن هذه النظرية كانت تتسم بالتعصب الأعمى للمفكرة القائلة بأن جميع الأنواع تطورت تماما عما كانت عليه عندما خلقت أول مرة. وقد تقدمت قلة من المفكرين في أواخر القرن الثامن عشر بأفكار فاسدة تتعارض مع نظرية [عدم تطور] الانواع منهم كارل لينبوس العالم الطبيعي السويدي الشهير. وايرازمس داروين الانجليزي، ولا مارك الفرنسي. ولكن شارل روبرت داروين هو الذي قدم للعالم نظرية ساقطة عن المملكة الحيوانية، سرعان ما أثبت علم ما قبل التاريخ خطأها كما رأينا وقد أصبحت اليوم نظرية [داروين] في التطور معروفة بفسادها بحيث يتعذر علينا أن نتصور ما أحدثته من رد فعل سيء واسع النطاق عندما نشرت في ١٨٥٩م.

وقد رأت الكنيسة في هذه النظرية تهديداً للأسس التي تقوم عليها عقيدة عدم تطور الخليقة والايان الحرفي بالاحداث التاريخية التي وردت في الكتاب المقدس. ولذلك وجهت الكنيسة سهام النقد الى [داروين] بكل شدة حتى أن كثيرا من العلماء عارضوا فكرة تطور الانواع لاسباب دينية على الرغم من أعتراهم بأن نظرية التطور تتفق مع المنطق.

وقد تأثر داروين نفسه بالنزاع الذي أثارته نظريته فأكد دائما انه لم يكن مدفوعا بميول معارضة للدين عندما ألف كتابه «أصل الأنواع» أما الذين سلموا بنظرية [داروين] فقد أخذوا ينظرون الى الانسان على أنه هو خاتمة عملية من التطور المستمر. وقد رأينا كيف هدمت الدلائل كلها هذا الزعم الساقط المرفوض.

نظرية التوازي وأصل الاجناس البشرية عند «جون نابيير»

■ - من أنصار الداروينية المتعصبين جدا البروفيسور «جون نابيير»^(١). وقد خرج بنظرية جديدة عن «التطور» تسمى (نظرية التوازي) وتتلخص أهم ملاحظها في الآتى :-

● - أحسن الأمثلة في التوازي في نظرية تطور الحيوانات العليا هو قدرة العصر الحديث وقردة العصور القديمة حيث تنبع جميعها من أصل واحد وجد منذ أربعين مليون سنة أو أكثر. حيث تشترك جميعا في صفات طبيعية.^(٢)

● - للانسان بيئته المزدوجة حيث عاش أجداده الأوائل على الاشجار وتكيف للحركة والأكل والنوم على قمم الروابي العالية في الغابات الاستوائية وأصبح بعد ذلك يقضى وقته في الغابات والأراضى المغطاة بالحشائش ويسابق الجمع الغفير من الحيوانات الثديية الكبيرة آكلة اللحوم التى وجدت على الارض في ذلك الوقت!!!.

● - وصفات الانسان فى طوريه يكمل بعضها البعض ، ولولا صفاته التى ورثها عن الغابة لما نجح فى بقائه على وجه الارض . إنه لا يمتلك سرعة الطباء ولا يتصف بالقوة القاتلة للشمور والفهود والأسود ، ولكنه - باستعداده وقدرته وذكائه حارب الطبيعة واستقر فى الوجود^(٣).

● - استطاع الانسان ان يتسلق الاشجار ويجرى على الأرض ويهرب من الاخطار بطريقة فنية وذكية . كما استطاع كذلك أن يستخدم السهام والالات الحادة ليحمى نفسه ولكى يحصل على طعامه . ولا شك أن يدى الانسان أكثر كفاءة من المخالب الموجودة فى منافسيه . ولا شك فى أن نجاح الانسان فى بقائه كواحد من الحيوانات العليا التى استقرت فى الارض إنما يرجع إلى صفاته الموروثة من أسلافه فى الغابة .

(١) جون نابيير: مدير بكلية الملكة اليزابيث بقسم بيولوجية الحيوانات العليا بجامعة لندن . وهو من الاخصائين فى علم التشريح الخاص بالحيوانات العليا غير البشرية ، وكان الموجه لبرامج بيولوجية الحيوانات العليا فى معهد هيئة التلفزيون البريطانية وذلك لما يعرض من برامج علمية وقد انتهى اخيرا من نشر كتاب عن «رجل الثلوج البشع» الذى سيظهر قريبا بواسطة دار نشر جواناثان كاب - لندن .

(٢) جون نابيير - الرحلة الطويلة للحيوانات العليا - اليونسكو العدد ١٣٦ - ص ٤٠ .

(٣) المرجع نفسه - ص ٤١ .

● كان بين الأجداد الأوائل للحيوانات العليا الثدييات التي ظهرت في ذلك الوقت، حيث تواجدت منذ ٧٠ مليون سنة تقريبا حيوانات ذات أنوف طويلة تتجول بين الحشائش في الغابات وتأكل الحشرات وكانت تتميز بصفات خاصة بالأسنان والجمجمة تختلف عن الحيوانات الأخرى ذات الأنوف الطويلة آكلة الحشرات.

● من الممكن التعرف على هذه الحيوانات العليا التي لم تتميز بالصفات الخاصة بتلك الفئة. ولكن بالنسبة لهؤلاء المهتمين بالحيوانات العليا التي تعيش الآن ومن بينها الانسان فإن هذه العائلة الحيوانية إنما وجدت حينما بدأت الرئيسيات حياتها وانتشارها. وتعتبر البلسيادابس من الحيوانات العليا التي لا تتصف بذلك ويفتقد صفة التأقلم للاشرار، أما السميلودكتس والنوثاركنس فقد ظهرا بعد ذلك بملايين السنين وكانا من متسلقي الأشجار.

ويمكن تلخيص الصفات الشجرية للإنسان حسب إهداء [نابيير] كما يلي:

حركة الأيدي والاقدام وخصوصا الأبهام والإصبع الكبير الذي ينفصل تماما عن بقية الأصابع، ويمكن مقابله في بعض الحيوانات العليا.

إحلال المخالب الحادة بالأظافر المفرطحة المصحوبة بالوسادة الحسية الموجودة في نهاية كل اصبع.

قصر الفم «البوز» المصحوب باختصار في جهاز وظيفة الشم.

تحول العينين إلى مقدمة الوجه مما يساعد على رؤية الأجسام بأبعادها الثلاثة.

استدارة المخ وكبره بالنسبة لحجم الجسم.

قامة منتصبه قد تمثل الجزء العلوي للجسم وقد تكون في الجسم كله في البعض الآخر.

● ويرى [نابيير] أن الحيوانات الشبيهة بالليمور - كانت في العصر الأيوسيني لها معظم هذه الخواص المتحورة في الحيوانات العليا وهي الأظافر بدلا من المخالب والوسادة الحسية وتحول العينين، وقصر البوز وكبر حجم المخ النسبي وجهاز الحركة والقامة المنتصبه لنصف الجسم الأعلى حيث تكون حركة الأفخاذ والركب مرنة في النصف السفلي من الجسم^(١).

(١) المرجع نفسه ص ٤٢.

توجد الحلقة المفقودة لتلك الحيوانات الأولية بين عصر الأوليجوسين والأيوسين . ومعظم ما نعرفه عن الحيوانات العليا في عصر الأوليجوسين يأتي من دراسة منطقة الفيوم الموجودة في مصر، وهي عبارة عن صحراء وكانت فيها مضي مغطاة بغابات استوائية كثيفة .

كانت الفيوم منذ ٢٥ أو ٣٥ مليون سنة مرتعا خصبا بطريقة غير عادية لمخلوقات شبيهة بالقرود والنسانيس، فالبعض مثل بارابيثيكاس . انما استقرت لتكون النسانيس الحقيقية فيما بعد . أما البعض الآخر الشبيهة بالإنسان فهي من ذوات الأربع - ولا يوجد أي دليل على أنها من ذوات الرجلين، والأيدي تشبه يدي الانسان نسبيا . ولكننا نفتقر إلى دليل على كونها ذات قبضة قوية .

والمخ ذو تركيب بدائي لكنه كبير نسبيا بالنسبة إلى الجمجمة والأسنان أقرب شها بأسنان القردة منها بأسنان الانسان . وهذا يتنافى مع فكرة محور مثل هذه الحيوانات مستقبلا إلى انسان .

كانت ثورة البراكين . في العصر الميوسيني وتكوين الجبال والأودية نتيجة لذلك، على أشدها، وكانت إحدى العوامل المتسببة في ذلك التبريد المفاجيء للككرة الأرضية التي ما لبثت أن استقرت خلال الحقبة الرابعة حيث انتشرت الحشائش وذلك على حساب نقص الغابات في تطور كثير من الثدييات بما في ذلك انتشار الحيوانات العليا في تلك المناطق التي قلت فيها الغابات واندثرت .

وقد استطاع عدد قليل من الحيوانات العليا التي شملت اسلاف الانسان والبابون الحديث أن تتفاعل وتكيف نفسها للظروف البيئية التي تغيرت . وبذلك تواجدت آفاق جديدة أمام الأسلاف السحيقة للانسان حيث نشأت وتطورت المميزات الخاصة بالانسانية .

كانت الأسلاف القدامى للإنسان، كما تراها الآن - نوعا من الأحياء يسمى رامابينكس كان يقطن في الشمال الغربي للهند وشرق أفريقيا . والقرائن التي يستدل بها على الصفات الانسانية المؤقتة لذلك الحيوان قليلة وتشمل فقط الأسنان والفكين، وهي قريبة الشبه بالانسان .

■ - والحقيقة أن [داروين] نفسه لم يكن في مثل هذا الانحطاط الفكري، ولم يتجن

على الأصل الكريم للإنسان بمثل تلك الفظاعة والتشويه اللذين لطخ بهما [نابيير] صورة الانسان، لقد ناقض الحسم الإلهي لهذا الأمر، وغالط واقع الأمور ونفى كل الدلائل العلمية على تحضر الإنسان منذ النشأة الأولى. وعاند وكابر في استحقاق الإنسان للخلاقة في الأرض . .

وإذا لم يكن [داروين] قد تحامل على الأصل الكريم للإنسان بنفس الحدة التي تبجح بها [نابيير] . . . فاننا لا نعفي [داروين] من الذنب ولا ننفي عنه دوره في هدم الأديان، ومحاربة الفضيلة، ونشر سموم الغزو الفكري في أنحاء المعمورة.

وعن [التوازي] في الصفات التشريحية بين القردة والانسان يقول «جون نابيير» :

[طريقة سير الإنسان عملية في غاية التعقد. وهذا ليس مكانا للتوسع في سرد التفاصيل الفنية الخاصة بذلك ولكن الذي ينبغي معرفته هو تلك الحقيقة الثابتة رغم بساطتها وهي أن الانسان الحديث انما يمشي أو يسير بطريقة موحدة قد تسمى طريقة «الخطوة» وهي مدهشة بل طريقة مثلى بالنسبة له. والخطوة هي حصيلة عمل عضلات ومفاصل العمود الفقري والحوض والرجل والقدم وتتم بطريقة معقدة ومحكمة للغاية، ومعنى آخر للخطى هو السير على طريق الكعب والاصبع.

نحن الآن، إذن في وضع نستطيع فيه أن نضع الدمغة الأولى المميزة للانسان : «ان الانسان يقف معتدلا وعندما يمشي انما يستخدم طريقة الخطوة».

والصفة الثانية المميزة اللافتة للنظر والتي تثير الدهشة هي القدرة القوية الجبارة ليد الانسان، قدرة قوية قد تؤدي إلى كسر قالب من الطوب الأحمر بضربة واحدة، أو تمزيق دليل تليفون مدينة ما إلى نصفين متوافقين.

المكون الأساسي لكف الإنسان أو يده هو إبهامها المتقابل الذي بواسطته يمكن إحكام القبضة قوية كانت أو رقيقة - لذا فإن الابهام المتقابل يمكن أن يكون بمثابة دمغة واضحة، أو ميزة ثابتة. ولكن هذه الصفة لسوء الحظ موجودة أيضا في كل حيوانات العالم القديم من القردة والنسانيس.

ولنعد مرة أخرى لدراسة الصفة التشريحية لكف الإنسان حتى سير في الطريق القديم. ولا شك أن قبضة الانسان القوية أكثر تطورا من مثيلتها للقردة. حينما يضع

إنسان أصابعه الأمامية مع الإبهام في هيئة قبضة قوية ، فإنه يستخدم لذلك منطقتين من الجسم في غاية الحساسية . والاحساس الناتج من هاتين المنطقتين أننا يعطي الحساسية العصبية الأساسية التي تترجم إلى مهارة الجراح مثلا أو صانع الساعات أو الذي يعمل في تجميع الأجهزة الكهربائية الدقيقة .

استنتج العلماء منذ عهد بعيد ، مقياس نسبي بسيط لتقوية قبضة الحيوانات العليا . وهو «معامل المقاومة» وهو الطول النسبي لأصبع السبابة إلى الإبهام - وقد جد أنه في الانسان يساوي ٦٥ وفي الشمبانزي ٤٣ والبابون ٥٧ وهو يشابه ويقرب من الانسان إلى حد كبير وبناء على ذلك فأنا الآن في وضع يسمح لنا بتوضيح العلامة المميزة للانسان وهي نسبة طول أصبع الإبهام التي تصل إلى ٦٥٪ من طول أصبع السبابة . (١)

الصفة التي تثير دهشتنا في الانسان تنصب على أن المخ كبير ومستدير . وبما أن المخ طبيعيا غير قابل للاستحجار فان دراسته تلزمننا دائما بدراسة المحتوى الذي يحيط بالمخ ، ومن سوء الحظ ليس هناك من وسيلة أخرى غير فحص شكل وطبيعة الجماجم المتحجرة .

وحجم المخ نفسه يعتبر عاملا مضملا لأن الحجم يختلف باختلاف النوع ، فمثلا يتراوح حجم مخ الانسان بين ٩٥٠ ، ٢٠٠٠ سم^٣ ومتوسط حجمه يعادل ١٤٠٠ سم^٣ . ويتناسب حجم المخ عادة مع حجم الجسم ، فالحيوانات الضخمة لها مخ كبير . ولاتستطيع ، بأي طريقة أن نستنتج مدى ذكائه . (٢)

ومع ذلك فإن لحجم المخ أهمية بالغة لعلماء الحفريات الذين يحاولون تتبع التغيرات التي طرأت على الانسان على مدى الأزمنة . لوحظ ازدياد حجم المخ منذ عصر ما قبل الإنسان حتى ازدهار العائلة الانسانية ممثلة [بالهومو ساينتر]. تلك الصفة قد تكون هي الصفة المميزة التي يمكن اعتبارها قد طرأت على الانسان خلال تطوره ، حتى صار الحجم النسبي للمخ المستدير بالنسبة إلى حجم الإنسان الكلي قد يزيد على

(١) المرجع نفسه ص ٤٠ .

(٢) المرجع نفسه ص ٤١ .

١٤٠٠ اسم^٣.

نلاحظ أخيراً أيضاً، أن للإنسان أسناناً صغيرة مرتبة في شكل منظم منسجم في الفك العلوي والسفلي.

وتتكون أسنان الإنسان، مثل جميع أسنان الحيوانات العليا من أربعة أنواع هي القواطع والأنياب وما قبل الضروس والضروس، ومجموع هذه الأسنان يعادل ٣٢ في الفكين. وهذا العدد هو الذي كان يميز كل الحيوانات العليا في العالم القديم للقردة والنسانيس.

■ - ملحوظة هامة على هذه الفقرة من تحريف «نابيير»:

نسى نابيير أن الإنسان يختلف عن القردة في أن الأسنان في الإنسان صغيرة مستوية الارتفاع تقريباً. في حين أن الأنياب طويلة في القردة حيث تكون الأسنان بارزة أيضاً. وضروس الإنسان تحتوى على سطح مستدير غير حاد بعكس القردة والنسانيس.

كما نجد أيضاً أن الضرس الثالث في الفكين، في الإنسان، صغير وقد لا يوجد، بعكس القردة حيث يكون الضرس الثالث أكبرها وأبرزها.

أن أسنان الرامايثكس ليست قريبة الشبه بأسنان الإنسان وبعيدة كل البعد عن أسنان القردة الموجودة في الاجتوبيثكس والبروكنسول الأفريقي. حيث أن وضع الأسنان مستدير والأنياب صغيرة ولا تزداد - الضروس في الحجم من الأمام إلى الخلف كما في القردة. وقد عاش - الرامايثكس منذ حوالي ١٢ أو ١٤ مليون سنة ماضية. وبالطبع فإن أسلافه نشأت قبل هذا الزمن بملايين السنين^(١). ونعود إلى تحريف نابيير فنجدته يقول:

«بدأت الخطوة التالية للسلسلة البشرية ظاهرياً منذ ٤ أو ٥ ملايين سنة على الأقل.

وتشير بعض أدلة قليلة على وجود مخلوقات قبل الإنسان تتبع جنس اوستراييثكس الموجود في منطقتين في شرق أفريقيا تعرفان باسم كاتابوى ولوثاجام. ثم نجد هذه الأجناس [القريبة من الإنسان] بعد ذلك بمليوني من السنين في مناطق بحيرة

(١) المرجع نفسه ص ٤٣.

«رودلف» في جنوب افريقيا وفي تنزانيا في «أولدوفالي جورج»، تلك الأجناس الأخيرة تعطي الكثير من المعلومات الخاصة بأصل الانسان حيث هناك تشابه في الصفات المميزة كقبضة اليد وحجم المخ والاسنان كما سبق ذكره - أما جنس الأسترالوبيثين «لوثاجام والكانابول» فلا يقربنا كثيرا من أصل الانسان!!
وسنؤجل الرد على تحريف [نايير] وشططه، حتى نستعرض باقي مظاهر تحريفه وشططه.

جون نايير والانسان الحاذق

● يرى جون نايير:

ان جنس الأسترالوبيثين، بوجه عام. أقرب ما يكون للانسان. كما يوضحه فنيا علم وصف الأنسان، أي يمكن أن نتقبل الحقيقة التي تقول أن الانسان ظهر منذ ١,٧٥٠,٠٠٠ سنة. وكان طريقه للحياة بسيطا جدا حيث كان يقوم بأعمال في غاية البساطة كالقنص وصنع الأدوات البسيطة.

ان جنس الهوموهابليز «الانسان الحاذق» كما يطلق على هذا الانسان القديم كان يمشي على رجلين ويمشي بطريق الخطوة، والمخ صغير ولكنه أكبر من مخ أسلافه الأولين. وأسنانه متطورة قليلا عن جنس الاسترالوبيثين. وتشبه الأيدي إلى حد كبير أيدي الانسان الحديث إلا أنها تفتقر إلى القبضة القوية.

أن الإنسان الحاذق قد أعقب في السجل الحفري الهرمواركتس «الانسان المنتصب» الذي وجد في جنوب شرق آسيا «جاوا» وفي آسيا «الصين» وفي أوروبا «غرب ألمانيا» - وكذلك في شمال وشرق أفريقيا، وأنه قد وجد أن مخ الهومواركتس الأول أكبر من مخ الهوموهابيلز «حيث كان ٩٣٥سم^٣ إذا قورن بالهوموهابيلز ٦٥٦سم^٣. وأنه قد وجد أن حجم مخ هذا الكائن الموجود في بكين يعادل ١٢٢٥سم^٣(١).

أنه بالرغم من كبر حجم المخ فإن للهومواركتس جمجمة من النوع البدائي ذات

(١) المرجع نفسه ص ٤٤.

شكل سهل التمييز. وهو يمشى على رجلين في هيئة خطوة. وشكل الأيدي غير معروف. والمرشد الوحيد لذلك هو الأدوات التي كان يصنعها وكانت هذه الأدوات من صنف الأحجار التي صنعت لأغراض بدائية مثل قتل وقنص الحيوانات وقطع الأخشاب وطحن وحصد المحاصيل الزراعية وقد ثبت بالتجربة أن هذه الأدوات صنعت واستخدمت بدون الأيدي ذات القبضة القوية.

● وأخيراً يقول [جون نابيير]:

«ربما كانت زيادة حجم المخ هي التي أثرت بدورها على تطور وتحسن استعمال الأيدي أو ربما كان الأمر بالعكس. ويبدو على أية حال أن التركيب المعقد وأحكام قدرة الأيدي وتطور الآلات المستعملة كانت كلها وثيقة الصلة ببعضها ببعض.

ولم يعرف. على وجه الدقة، أين ومتى وجد [الهومواركتس] في عجلة الإنسانية حتى تطور إلى [الهوموسابينز]. ربما حدث ذلك في أماكن مختلفة من العالم في أوقات مختلفة وبطرق متباينة لم يعرف بعد أي مجتمع جغرافي بدأ بها.

وتنتهي بذلك رحلتنا الطويلة الشاقة بتطور [الهوموسابينز] الذي وجد منذ ٢٥٠,٠٠٠ أو ٤٠٠,٠٠٠ سنة مضت. وقد مررنا بذلك في حقب متباعدة ورأينا علامات كثيرة وأمورا متباينة ومعقدة إلى حد كبير. وهنا تنتهي رحلة بعينها بعد أن أدى كل من أسهم فيها واجبه. وينبغي أن تبدأ رحلة أخرى يتحمل مسئوليتها اخصائيون من نوع خاص يتولون بحث ما يصادفونه من أمور معقدة».

■ - وهكذا نلمس مقدار انحراف «نابيير» بنظريته وآرائه عن الصواب. والصواب هو القرآن الكريم الذي حدد نشأة الانسان وجاهر بالخلق السوي والنشأة المستقلة للإنسان من الطين وأن - الانسان قد خلق في أحسن صورة وأكمل تقويم.

ياكيموف وتطور الانسان :

ومن الدارونيين الذين كان لهم رأي واضح ومحدد في مسألة أصل الانسان : البروفيسور فسيفولوب . ياكيموف^(١) . وهو يرى أن علماء الإنسان يميزون من بين

(١) فسيفولو ياكيموف : عالم سوفيتي ذو شهرة عالمية اكتسبها بمؤلفاته عن انسان ما قبل التاريخ وقد كتب ماير بوعلى مئة دراسة عن الرئيسيات وتطور الإنسان . وهو مدير معهد البحوث الانثروبولوجية ومتحف د . ن . أنوخين للانثروبولوجية بجامعة موسكو وعضو اللجنة التنفيذية للاتحاد الدولي للانثروبولوجيا وعلم الأجناس البشرية .

النوع البشري الهائل العدد جماعات من البشر ذات أصل واحد مشترك . يعيشون ، أو عاشوا ، في بعض المناطق المختلفة . مختلفين في ملامحهم ووجوههم ولون بشرتهم ونمط شعورهم ولونها .

ويسمى العلماء تلك الجماعات من البشر بالأجناس ، ولكن علينا أن نتذكر أنه لا توجد حدوداً فاصلة قاطعة للتمييز بين الأنواع : فكل هذه الجماعات يختلط بعضها ببعض بطريقة غير ملموسة فتتولد عنها أنماط وسطى ذات خصائص فيزيقية عديدة مشتركة .

ويمكن ادراك أن الاختلاف بين هذه الجماعات كل على حدة لا يؤثر في الخصائص الأساسية التي يشترك فيها الناس عامة . قامة منتصبة ، أيد وأقدام متطورة تماماً ، مخ معقد البناء داخل جمجمة كبيرة ذات جبهة عالية مستقيمة ، يخلو حاجبا العينين فيها من نتوء عظمي أسفلها ، مع وجود ذقن بارز . وبناء مشترك لأعضاء وظائف الكلام كذلك يشترك البشر جميعاً في عدد الكروموزومات (٤٦) في نواة الخلية ، على حين أن للحيوانات المعروفة بالرئيسيات ٤٨ ، وللقردة الدنياكروموزومات تتراوح بين ٥٤ ، ٧٨ .

● ويرى «ياكيموف» :

أن الإنسان الحديث موحد بيولوجيا في الخصائص الأساسية ومتعدد فيها يتعلق بكثير من السمات الثانوية . ويرجع العلماء كل الكائنات البشرية إلى نوع واحد ، هو الإنسان العاقل . والاختلافات التي توجد في الجماعات التي تعيش في مناطق جغرافية مختلفة لا تعكس إلا التغيير داخل النوع الواحد طبقاً لمجموعة من العوامل البيولوجية والاجتماعية وغيرها .

وأنه قد سبقت ظهور الإنسان العاقل مرحلة ظهور الإنسان الأقدم ثم مرحلة ظهور الإنسان القديم . ومن الأمور الهامة أن نلاحظ أن الإنسان القديم قد ظهر في وقت واحد مع الإنسان العاقل المبكر في مناطق متجاورة .

والعلاقة الوراثية بين هاتين الجماعتين المختلفتين من الإنسان القديم والإنسان العاقل مسألة خلافية هامة . والمسألة التي انقسم أزماء علماء الانتروبولوجيا هي . هل

يمكن اعتبار كل الجماعات الانسانية القديمة اسلافا للانسان العاقل . وهل نشاهد الانسان العاقل في منطقة واحدة أم في مناطق متعددة؟

● ويرى «ياكيموف» أن :

هناك مدرستان في علم الإنسان المعاصر لكل منهما فكرها عن أصل الانسان والأنواع الرئيسية، هما مدرسة المراكز المتعددة ومدرسة المركز الواحد .

ويفترض العالم الأمريكي [فيلدنرينش] مؤسس نظرية المراكز المتعددة أن الانسان العاقل قد نشأ في مراكز متعددة، مستقلة بعضها عن البعض الآخر استقلالاً نسبياً، وان الناس قد تطورت في مستويات مختلفة وتنادي نظريته بأن الانسان العاقل قد وجد من الانسان الأقدم والانسان القديم كل في منطقة وان هذا قد مكن من تشكيل الأنواع الرئيسية وهي . الأوربيون والزنج والاستراليون والمغول، الخ .

وعلماء الانسان من أصحاب هذه المدرسة مثل العالمين السوفيتيين ج . وف . اليكسيف، والعالمين كارليتون كون . وس . لورينج بريس من الولايات المتحدة، يعلنون أن انحطاط الأنواع البشرية الحديثة ماتزال لها سمات نمطية من الحفريات التي وجدت في المناطق التي كانت تعيش فيها تلك الأنواع القديمة .

ومن جهة أخرى، فإن اتباع مدرسة المركز الواحد، ومنهم العالمان الفرنسيان [هنري فيكتور فاليروس] . و[ج أوليفيه] ، والعالم [فرنسيس هاول] من الولايات المتحدة، والعالم الانجليزي كينيث أوكلي، والعلماء السوفيت [فيكتور بوناك] . و.م . نستورخ]، و[أروجينسكي]، وجميع هؤلاء يرون أن الانسان العاقل قد نشأ في منطقة واحدة . ويعتقد الأستاذ [روجينسكي] أن الانسان العاقل قد ظهر في منطقة واسعة نسبياً تغطي غرب آسيا وأجزاء من وسطها وجنوبها وتغطي شمال شرقي أفريقيا . في تلك المنطقة اختلطت جماعات مختلفة من الانسان القديم، مما أغنى الأصل الوراثي، وعمل على تطور الانسان العاقل .

ويرى ياكيموف أن الانسان العاقل الذي نشأ هناك كان لا يملك سمات واضحة مميزة من أي مما تتمتع به الأنواع الحديثة . فقد كان ذا خصائص جنسية غير محددة . وقد وجدت فيه خصائص الأجناس الحديثة متشابكة تشابكاً بيناً^(١) .

(١) انظر : الانسان الأول ونشأة الأجناس - اليونسكو - المرجع السابق - ص ٥٠ .

كما يرى أن الأنماط الجنسية لم تنشأ إلا عندما انتشرت الجماعات البشرية جغرافياً واستقرت في مناطق محددة وهذا هو السر في أن أجناس الانسان العاقل تشبه بعضها بعضاً شبيهاً قوياً. وهذا الشبه هو علامة اصلهم المشترك، وعلامة نشأتهم في منطقة واحدة.

... ويقول ياكيموف ...

... «ومع ذلك فإن أصحاب فكرة المركز الواحد، الذين يعتقدون أن الجنس البشري الذي مر في تطوره خلال المرحلة الانسانية القديمة لا يعتقدون مع ذلك أن كل جماعة محلية بين الجماعات القديمة تشكل جزءاً من أسلاف الانسان العاقل. ولأسباب تاريخية وطبيعية لم تسهم بعض الجماعات في تكوين الانسان العاقل، ولم تسهم في تلك العملية خلال الاختلاط اللاحق بالانسان العاقل الآن. ويعتقد بعض الباحثين، وأنا منهم أن انسان نياندرتال. ويدعي بانسان نياندرتال «الكلاسيكي» الذي كان يعيش في العصر الجليدي المعروف بالعصر الفيرومي القديم منذ فترة تتراوح بين ٥٠٠٠٠ و ٣٥٠٠٠ سنة خلت، واحد من ثلاث جماعات بشرية قديمة».

ويقول ياكيموف أنه باستخدام الكربون المشع أمكن معرفة وتحديد عصر حفريات الانسان العاقل في أوروبا بفترة ترجع إلى ٣٥٠٠٠ أو ٢٨,٠٠٠ سنة. ق.م. وأن أقدم حفريات الانسان الحديث، هي جمجمة اكتشفت في جزيرة كاليانان بأندونيسيا، وأنها تكشف عن السمات الكاملة التي تشكلت للانسان العاقل، وأنها ترجع إلى حوالي ٣٩,٠٠٠ سنة خلت^(١).

ويرى أن كثيراً من النظريات الأصلية المعنية بالعوامل المسؤولة عن تطور الانسان العاقل قد تقدمت كثيراً إلى الأمام. ففي بداية هذا القرن قام عالما الآثار الفرنسيان جبريل وادريان دي مورتييل بدراسة التغيرات المناخية (من المناخ الرطب إلى المناخ دون الاستوائي إلى المناخ الجاف) والتغير الناجم من الانتقال من الحياة فوق الأشجار (وهما يعتقدان أن انسان نياندرتال هو الذي يحياها) إلى الحياة فوق الأرض (وهما السببان الرئيسيان للتحول إلى الانسان الحديث). وبعد ذلك قرر العالمان هـ. فينيرت من ألمانيا الاتحادية، وف. جرورموف. من الاتحاد السوفيتي وغيرها من العلماء

(١) المرجع السابق : ص ٥٠.

أن المناخ الشديد البرودة الذي أدى إلى زحف الغطاء الجليدي، كان هو العامل الرئيسي في التطور المتقدم لاسلاف الانسان العاقل .

ومع ذلك فإن علماء داروينيين آخرين مايزالون يعتقدون أن تطور انسان نياندرتال إلى الانسان العاقل مرده إلى حد كبير، إلى التغير من الاختلاط بجماعات صغيرة مبعثرة من الانسان القديم إلى الاختلاط بجماعات مختلفة، مما وضع نهاية للنتائج السلبية الناجمة عن الاختلاط بالمحارم وبالطبع فأن كل واحد من هذه العوامل كان هاماً، ولكن مما يبعث على الشك أن تكون قادرة بمفردها، على تحويل انسان نياندرتال إلى الانسان العاقل .

ولم يخجل ياكيموف وهو يغالط واقع الأمور، ويدعي تطور الإنسان من مخلوقات سبقت مايسميه بالانسان العاقل . . . بل نجده يقول :

«وفي عام ١٩٤٩ عن لي راى (وصل إليه كذلك العالم فرنسيس هارل من علماء الولايات المتحدة بطريقة مستقلة عام ١٩٥١) ومؤداه أن الانتخاب الطبيعي في الظروف المناخية القاسية في فترة ما قبل العصر الجليدي عاق تطور انسان نياندرتال إلى الانسان العاقل أكثر مما ساعد على هذا التطور. ان المناخ الشديد البرودة لم يرق بالتطور المتقدم للنوع الانساني، بل أن الظروف الطبيعية القاسية قد جعلت التكوين الفيزيقي لانسان نياندرتال أكثر غلظة وقسوة .

ويشير أصحاب نظرية تعدد المراكز، وهم يدحضون النظرية السالفة الذكر، إلى أن انسان [نياندرتال] «الكلاسيكي» قد وجد في مناطق بعيدة عن الجليد، خاصة في العراق (كهف شانيدار) وفي فلسطين (منطقة وادي العمود)، ولكنهم يتجاهلون أن انسان [نياندرتال] في هاتين المنطقتين لم يكن نياندرتاليا كلاسيكيا نقياً إذ كانت له بعض الملامح الفكرية في بناء وعاء المخ وفي شكل تجويف الجمجمة كما اتضح من البقايا المتجمدة التي كشفت عن خصائص السطح الداخلي للجمجمة .

ولقد تقدم تشكل الملامح الفكرية فوق المناطق الخالية من الجليد بفاعلية أكبر. ونحن عندما ندرس تلك الملامح فان الاهتمام الذي نوجهه إلى الملامح المورفولوجية أقل من ذلك الذي نوجهه إلى الملامح الخاصة بالانسان العاقل، عندما نفرق بينه تفريقاً جوهرياً وبين الانسان القديم جده المباشر .

وقد ذهّل الباحثون دائماً أمام التطور الرفيع نسبياً للإنسان العاقل، إذا ما قورن بحضارة إنسان [نياندرتال]. وبما لديه من أدوات الزينة وبما يتمتع به من حاسة تمييز لم يكن لأجداده نصيب منها، وبما لديه من أشكال عديدة من فن تصويري (من نحت وحفر على الصخور والعظام، ومن صور حائطية متعددة الألوان، الخ. (١).

ويشهد هذا بصحة ما طرأ من تغير نوعي في العلاقات القائمة بين الناس، ومن ثم على صحة ما طرأ على التطور المتقدم للنظام الاجتماعي وأشكال الجماعات وظهور اللغة».

ويقول ياكيموف :

... «ان الدراسات المقارنة للمحتويات المتجمدة داخل وعاء المخ في حفريات الإنسان القديم والإنسان العاقل تثبت ان مناطق المخ لدى الأخير ترتبط بعمل هادف، أي بنشاط فيزيقي، في الكلام وتنظيم السلوك الاجتماعي للفرد، وأنها قد قطعت مرحلة هامة من مراحل التغير. لذلك نستطيع أن نفترض أن ظهور الإنسان العاقل قد تطلب خصائص هامة للإنسان ككائن اجتماعي. وسرعان ما وجدت جماعات من الإنسان القديم، تتميز بمثل هذه الخصائص. أنها في وضع أفضل من جماعات الإنسان القديم التي كانت أقل تطوراً في نظامها الاجتماعي.

وقد كان الأستاذ السوفيتي [روجينسكي] أحد الأوائل الذين قدموا هذا الفرض كذلك لفت الأنظار إلى الثبات النسبي للسمات التي يكشف عنها النوع الإنساني منذ ظهوره حتى وقتنا الحاضر، عبر ذلك التقديم السريع المذهل للتطور الاجتماعي وللأساليب التكنيكية.

وفي الوقت نفسه فإن استبدال الحضارة الموسستيرية المرتبطة بإنسان نياندرتال بحضارة العصر الحجري القديم المتأخر، المرتبطة عامة بالإنسان العاقل، قد دفع إلى السير قدماً ضد جذور التغيرات الهائلة في النمط الفيزيقي للإنسان. وكان شديد الاهتمام في التكيف مع البيئة. وخلال الانتقال من الإنسان القديم إلى الإنسان بنائه الجسماني الحالي حدث تطور للجنس البشري بتحول نمط من الانهاط الإنسانية إلى

(١) المرجع نفسه - ص ٥١.

آخر. ويمكن أن نفترض أن الانتخاب الطبيعي الذي وجه عملية التطور للقدماء، في المجتمع البدائي، هو الذي حرك تطورهم إلى الانسان العاقل.

وبمجرد ظهور الانسان العاقل، عملت الميول الاجتماعية على أضعاف وشل فعل الميكانيزمات الانتقائية المشكلة للانواع، ومن هنا اكتسبت تلك العوامل أهمية بالغة. وبدأ الانسان الحديث في حل المشكلات التي تواجهه لا عن طريق التكيف مع ظروف البيئة الجديدة التي نجمت عن التغيرات في أسلافه وأنها بدأ يحل تلك المشكلات بالاعتماد على جنى ثمار العمل الجماعي^(١).

ولهذا السبب لم يتعرض الشكل الفيزيقي للانسان العاقل لتغيرات كبيرة خلال الالاف العديدة من السنين، بينما تطورت ضروب نشاطه تطورا هائلا من حيث مداها وتعقدها. وبرغم التغيرات المورفولوجية التي طرأت على الانسان العاقل خلال تكوين الأجناس الرئيسية، والتي كانت تقوم على التكيف، فانها لم تغير من خصائص الانسان كنوع. وطبقا لوجهة النظر هذه فان الانسان العاقل مرحلة عليا لتطور الانسان بالمعنى الكيفي المحدد، أي مرحلة تتسم بمستوى عال من التنظيم الاجتماعي وقد لعب الكلام دورا رئيسيا في عملية تطور الانسان هذه من حيث هو كائن اجتماعي، وذلك لنقل التجربة والحكمة الهائلة وتراكمها على مدى أجيال كثيرة، وجعل تكاملها أمرا ممكنا جنبا إلى جنب مع التجربة الفردية، في قدر هائل من المعرفة».

تلك هي خلاصة آراء [ياكيموف] ولا يخفى على القارئ مقدار تعصب ياكيموف للفكر الدارويني المشبوه، والذي سنثبت في هذا الكتاب مقدار شططه وتخريفه وبعده عن الصواب.

[نظرية التطور] وتفسيرها لظاهرة «انسان بكين»:

من العلماء الذين «صاغوا» الصفات التشريحية لانسان بكين في قالب «دارويني» البروفيسور «بيير ليروى»^(٢) ومن أهم ما قاله في ظاهرة (انسان بكين):

(١) المرجع السابق - ص ٥٢

(٢) الأب بيير ليروى: بالجمعية اليسوعية للمركز القومي للبحوث العلمية، في باريس. وكان قبل ذلك مديرا لمتحف التاريخ الطبيعي في «نتسين» والمعهد الجيولوجي في بكين. كما كان صديقا ومعانوا للأب «تيلهارد دي شاردن» =

أن الاكتشاف الذي وقع بالقرب من «بكين» في ديسمبر عام ١٩٢٨ . الخاص بالبقايا المتحجرة والمبكرة جدا للانسان «السينا ثروبيسي أو «الانسان البكيني» كما يطلق عليه ، يعتبر حادثا له أهميته في تاريخ أصل الانسان .

وقبل ذلك في عام ١٩١٤ كان أحد القساوسة الجزويت - وهو مؤرخ للطبيعات ايضا ، هو الأب اميل ليسينت - قد بدأ اكتشافات في حوض النهر الأصفر في شمال الصين . وهناك عثر على بعض التراكيب الهامة لحيوانات ثديية متحجرة ، يدعوها الصينيون باسم «انسان التنين» ولم يكن «الأب أميل» نفسه عالماً في البليونتولوجيا (علم الحفريات) ولذلك أرسل عينة من هذه المتحجرات إلى مارسلين بول مدير معهد «البليونتولوجيا الانسانية» في باريس وعهد الأخير بمهمة فحصها وفهرستها إلى أحد تلاميذه وهو الأب تيلهارد دي شاردن . وأخيرا ، في عام ١٩٢٣ ، تقرر أن يذهب تيلهارد بنفسه إلى الصين ليتفحص هذه «التراكيب المتحجرة» على الطبيعة .

وعلى ذلك تم اعداد بعثة «بليونتولوجية» فرنسية ، اكتشف خلالها ليسينيت وتيلهارد منطقة عند حافة [السور العظيم] بها تراكيب هامة لبعض المتحجرات الثديية والأحجار الرقيقة التي ثبت من فحصها انها موغلة في القدم . وقد انتهوا إلى أن إنسان ما قبل التاريخ عاش في هذه المنطقة يوما ما . غير أن أحدا لم يعثر على أية بقايا آدمية يمكن أن تفيد في التحقق من شخصية أصحاب الحرف الذين صنعوا هذه الأدوات الحجرية .

ومن الذين اهتموا بظاهرة «إنسان بكين» البروفيسور السويدي «اندرسون» فقد وجد فوق الرواسب الطباشيرية طبقات أخرى من الطفل الأحمر تكونت في عصر أحدث عهدا من عصر الطباشير . وفي هذا الطفل وجد حفريات لعظام بشرية قديمة مختلطة مع عظام حيوانية وبقايا نباتات وآثار لموقد قديم للنار - وقد كان ذلك في السنة الرابعة لبعثة أندرسون أي في عام ١٩١٨ . وفي عام ١٩٢١ اصطحب أندرسون معه عالين آخرين من علماء الحفريات إلى موقع تلك الحفريات وهما الأستاذ

ومن مؤلفاته «اقتفاء آثار السيناثروبسيس بالفرنسية . فيارد - باريس (١٩٧١) . وفيه قدم رسالة لم تنشر بين تيلهارد دي شاردن وجيه جونار اندرسون ، الذي كان أول من نقب في منطقة «شوكوتين» بالصين حيث تم اكتشاف بقايا الانسان البكيني .

[أوتوزدانسكي] Otto Zdansky من السويد والدكتور [ولتر جرانجر] Walrer Granger من متحف التاريخ الطبيعي بنيويورك. وفي أثناء التنقيب في العظمة المذكورة عثر زدانسكي على ضرسين هامين لانسان عادي قديم في التراب، يرجح أن لهما أهمية خاصة في حفريات الانسان القديم. . وأعلن [زدانسكي] هذا الكشف بمناسبة زيارة ولي عهد السويد في ذلك الوقت لمركز الحفائر في بكين يوم ٢٢ أكتوبر سنة ١٩٢٦ (هو الملك الحالي جوستاف أودلف ملك السويد وهو شغوف بدراسة الآثار وقد رأس لجنة اليونسكو عام ١٩٦٠ لانقاذ آثار النوبة^(١)).

ثم وقع الاختيار في عام ١٩٣٥ على الدكتور [فرانز فيد نرايخ] وكان يشغل في ذلك الوقت وظيفة أستاذ التشريح بجامعة شيكاغو- ليخلف بلاك في مهمته في الصين^(٢).

وامتاز [فيد نرايخ] بأبحاثه المستفيضة عن الهيكل العظمي للانسان والقردة، واثبت أن الانسان لم ينحدر مباشرة من القردة المعروفة. وإلى هذا العالم يرجع الفضل أيضا في وصف الخصائص التشريحية الدقيقة لانسان الصين، فأيد بذلك وجهة نظر الدكتور [دافيد سون بلاك]^(٣).

ويمكن تلخيص تلك الفروق الأساسية في المراحل الانتقالية من القرد إلى الانسان حسب وجهة نظر [فيد نرايخ] في الآتي:

«أما عن الجمجمة فالغوريلا ليس لها جبهة بالمعنى المعروف وعظام الوجه بارزة إلى الأمام والفك سميك مربع الشكل تقريبا تترتب فيه الأسنان في صفين متوازيين، والأنياب بارزة وليس للقرود بروز ذقني. وتبدأ جبهة انسان بكين في الاستدارة ويأخذ الفك في الصغر فيقل بروز الوجه إلى الأمام، ثم تصبح الجمجمة أكثر استدارة والوجه أقل بروزا في الانسان الحديث^(٤).

ويلاحظ أن الأسنان تترتب على شكل قوس في الانسان العادي، وهذا القوس أقل استدارة في انسان بكين الذي يمثل حلقة متوسطة بين الانسان الحديث والغوريلا».

(١) د. أنور عبد العليم - المرجع السابق - ص ٤٣.

(٢) المرجع السابق - ص ٤٥.

(٣) المرجع نفسه ص ٤٦.

(٤) المرجع نفسه ص ٤٧.

ويرى [فيدنرايخ] أن ثمة تطور آخر في مؤخرة الجمجمة يتدرج من القرد إلى انسان بكين إلى الانسان الحديث، ويلاحظ ميل الجمجمة إلى الاستدارة في انسان بكين ثم بشكل أوضح في الانسان الحديث، وتزداد سعة صندوق المخ من نحو ٤٥٠ سم^٣ في القردة العليا إلى نحو ١٠٠٠ سم^٣ في انسان بكين ثم تصبح نحو ١٣٥٠ سم^٣ في الانسان الحديث.

كما وجدت بعض جماجم الحيوانات المذكورة مثقوبة من الخلف بفعل فاعل، مما يوحي بأن انسان بكين هذا كان من آكلي لحوم البشر. ويعتقد البعض أن العصر الذي عاش فيه هذا الانسان كان منذ حوالي ٨٠٠,٠٠٠ ألف سنة تقريباً^(١).

وظل العمل متواصلاً في هذه القبور بالقرب من بكين قرابة عشرين عاماً حتى انه في سنة ١٩٤١ كان قد تجمع ماينوف على عظام أربعين فرداً من سلالة انسان بكين.

وفي تلك الأثناء كانت الحرب العالمية الثانية مشتتة الأوار، وكان الاستاذ [فيدنرايخ] قد سافر إلى الولايات المتحدة كما تقدم ذكره، وعهد إلى الدكتور ونج Wong الصيني بأمر المحافظة على هذه الجماجم القيمة إذا ما حدث غزو الصين. أما البروفيسور [تيلهارد] فقد عثر على مجموعة من صخور الكوارتز المهذبة واتخذ من ذلك دليلاً على أن الذي هذبها إنما هو انسان بكين القديم المسمى بالسيناثروبيس.

وظل «تيلهارد» متيقناً من رأيه هذا، حتى في خلال رحلته إلى باريس شتاء عام ١٩٣٠، عندما زار الأب «برويل» معهد البليونتولوجيا الانسانية، ووضع فوق مكتبه قرناً صغيراً لأحد الوعول البرية، عليه نتوءات بارزة «انني لن أخبرك من أين أتيت بها». هكذا قال الأب: «ولكن ما رأيك؟».

«لقد تم صهره بعد مقتل الحيوان بقليل «أجاب الأب» وهو أداة شكلها انسان بواسطة طرق جبهة الحيوان بحجر، بل يمكن رؤية آثار الطرق بالحجر فوق العنق، كانت في الواقع بالقرب من «شوكوتين». أجب تيلهارد: «انني لا أعبأ من أين أتت».

(١) المرجع نفسه ص ٤٩.

انسان «سينانثروبليس»

ودون ان ينتظر اجابة من [الأب] سافر «تيلهارد» إلى «كالجان» حيث كان عليه أن يلحق مرة أخرى بقافلة سيارات بعثة «ستروين» العلمية، التي كانت على وشك الرحيل إلى وسط آسيا.

وفي الوقت نفسه وبدعوة من مؤسسة «روكفلر» ذهب الأب «برويل» إلى بكين في أخريات عام ١٩٣١. وكانت به رغبة أن يتفحص منطقة «شوكوتين» بنفسه، دون أن يضع في اعتباره وجهة نظر عالم التشريح «دافيد سون بلاك» أو تلميذه السابق «بي - سن - وانج» أو صديقه «تيلهارد». بل كانت تقويماته الأولى تتركز في أن ال «سينانثروبليس» ليس انسانا. ومن المرجح أن يكون نوعا من الحيوانات المضادة التي كان يتغذى عليها الانسان الأول، وكان يقذف بعظامها، وكذلك بالأدوات والآلات المصنوعة من قرون الوعول البرية، في محجر «شوكوتين».

وقد أثبت فحص كسرات هذه الصخور البلورية بوضوح أنها مصنوعة بترو، وأن من السهل التعرف عليها «كأدوات». وعلى ذلك لا يوجد شيء يؤكد أنها من أعمال «السينانثروبليس».

ويفسر هذا لماذا تجمدت الأمور، عندما عاد «تيلهارد» إلى بكين. بعد رحلة طويلة ومرهقة عبر آسيا، ولم يلبث أن استأنف أعماله في معمل «سينوزويك». ثم بدأ في إعادة فحص جميع العينات التي أحضرها معه ثانية من «شوكوتين»، واضعا في اعتباره تلك الشكوك التي أثارها أصدقاء «برويل»، مع مقارنة العينات ببقايا ال «سينانثروبليسي» التي ظهرت في جانبها أثار النيران في صورة طبقة من الرماد سمكها ١٢ سم. (١)

(١) بير ليروي - لغز الانسان البكيني - اليونسكو - العدد ١٣٦ - ص ٥٣.

لماذا تكونت لدى «برويل» مثل هذه التحفظات القوية، ولماذا عاد من جديد إلى التفكير في هذه النظرية غير المحتملة الخاصة بالصيد وحيوانه المضاد؟ ان السبب يكمن في انه لم يستطع أن يلحظ وجود صلة زمنية محتملة بين بقايا الـ «سينانثروبيس» وبين درجة الاتقان في الأدوات المصنوعة المنوعة من العظام والأحجار التي يفترض انه استعملها.

ان «تيلهارد» ليس هو الرجل الذي يسمح لنفسه بأن يتأثر فقط بمجرد «وجهات النظر». فهو يريد أن يبني حكمه على أدلة بينة وقد أرسل فعلا بملاحظاته الخاصة إلى «برويل». وبعد أن تبادل الاثنان العديد من الخطابات لم يتمكن «تيلهارد» من أن يقنع «برويل» وكذلك عجز «برويل» عن أن يزعم من معتقدات «تيلهارد».

وقد كتب «برويل» عن «تيلهارد»: «كان يؤسفني جدا ان يظل «تيلهارد» متمسكا بموقفه الأصلي. في حين أن «تيلهارد» «ملاحظ» بارع للمواقع الجيولوجية، كما أنه عالم حفريات ممتاز غير أنه لم يتمرس في دراسات ما قبل التاريخ التكنيكية كما أن النواحي الصناعية ليست في متناوله.

والخلاف بين الاثنين هو: بالنسبة «لتيلهارد» انه يرى أن أدوات «الكوارتز» التي عثر عليها من أعمال الـ «سينانثروبيس». أما بالنسبة لـ «برويل» فإن الحقيقة الخاصة بوجود أدوات مصنوعة من العظام أيضا تجعل هذا الافتراض يبدو مشوكا فيه تماما^(١).

غير أنه بينما عول «تيلهارد» على القيمة الكبرى بالنسبة لتصنيع الحجر كدليل على قدرات انسان الـ «سينانثروبيس» نجد أنه كان أقل يقينا بالنسبة لطبيعة التخصص في تصنيع أو تشكيل الأحجار. وقد كتب في ١٧ يونيو ١٩٣٢، في خطاب إلى صديقه «جورج باربور»: «إن دراسة عن تصنيع احجار «شوكوتين» سوف تظهر في «النشرة» الثانية للهيئة الصينية للمسح الجيولوجي. انها تعرض وجهة نظر أكثر حيطة من تلك التي قدمها «برويل». غير أنني لا أعتقد أن صناعة «منتظمة» للعظام قد وجدت في «شوكوتين» بالفعل».

وقبل ذلك بشهور قليلة (٢٠ مارس ١٩٣٢) عبر «تيلهارد» عن هذا الرأي في رسالة إلى «جيه. ج. اندرسون».

(١) المرجع نفسه ص ٥٤.

[وفيمًا يختص بـ «شوكوتين» فلعلك تسلمت البحث الذي كتبه «بي» (وربما بحث «برويل» أيضا) حول هذه «الصناعة» المكتشفة حديثا، ومنذ أن نشر هذان البحثان، جمعنا أو استخرجنا عددا كبيرا من العينات الجديدة التي تشتمل على مجموعات ضخمة من رقائق جلمودية مستديرة. على أنني آسف فعلا لأنني لست على اتفاق كامل مع صديقي العزيز «برويل». ان ما أشعر به حاليا يتمثل فيما يلي:

١ - الأحجار من صنع انسان بالتأكيد.

٢ - ولكن ، حتى في حالة افتراضنا أن هذه الصخور البلورية في أحسن حالات صنعها، فان هذه الصناعة تبدو بدائية جدا. لم استطع التعرف على «نقطة ارتكاز» واحدة وصادقة. فعلى سبيل المثال ليس ثمة شيء ما قريب في أي مكان، يمكن مقارنته بالصخور الكوراتزية الموجودة في فرنسا، والمتصلة بمفاهيم العصر الموستيري.

٣ - اما تصنيع العظام وقرورن الوعول فتبدو لي مسألة أكبر من أن تكون محل تساؤل. انني أظن ان «برويل» قد انخدع في المظاهر التي تحدث في أية طبقات مكونة للعظام دائما. ومن المنطقي هنا أنه مسبق بلمساته وتمييزه لصناعة متشابهة لذلك في هياكل الأسرة المعروفة باسم «نيهوران سوميريان». وهو افتراض بعيد^(١).

انني أكره اختلافي هذا مع «برويل» لأنني أحبه جدا وطالما ولأنني مسئول إلى حد ما، عن قدومه إلى الصين، ولكن ماذا في مقدوري أن أفعل؟

أن أخطر نقطة في الموضوع أن تثبت - وبلا أدنى شك - أن صانع هذه الأدوات هو الـ «سينانثروبيس» نفسه. ولكن وجود عظام الفك وجزء من الجمجمة، مع الأدوات، يبدو مقنعا نوعا ما بأنه انسان متكامل.

إنني أعد مع «بن» الآن بحثا جديدا حول هذه القضية. ولكم نأسف انك لاتستطيع ان تحضر معنا هنا، ولو لبضعة اسابيع على الأقل، اننا في حاجة إليك!!! . . .

(١) المرجع السابق ص ٥٥.

لك تمنياتنا بالتوفيق في عملك].

«تيلهارد دي شاردين»

وقد حدث عندما كان «تيلهارد» و«دافيد سون بلاك» في طريق عودتهما من المؤتمر الجيولوجي الدولي في «واشنطن» عام ١٩٣٣ ان تلقيا برقية من «بكين» تعلن عن اكتشاف يمكن أن يؤدي إما إلى أن يحسم الأمر بوضوح أو إلى أن يزيد من تعقيد الموقف في «شوكوتين».

ففي أعلى قمة تل «شوكوتين»، حيث كان قد تم التنقيب في المكان نفسه من قبل، حفر خندق واقيم ممر غائر، بناء على أوامر من «تيلهارد» وذلك بهدف إيجاد ممرات جانبية إضافية للطبقات «السيناتروبية» الموجودة في القاع شمال حفرة التنقيب. وفي أثناء هذه العملية اكتشف العمال تحت ركام الحفر. في أعلى التل، مغارة محصنة، هي التي عرفت باسم «المغارة العليا». وقد استعملت كمأوى للحيوان وللإنسان. وهناك عثر على بقايا إنسانية - تشتمل على ثلاث جماجم في حالة جيدة وتتصل بفترة أحدث من الـ «سينانثروبيس» - وقد امتزجت ببعض الهياكل المتحجرة للضباع والديبة والماعز البرية والنمور والوعول وعظام النعام والزياد. وفي وسط هذا الخضم تكمن أدلة ذات دلالات ثقافية مختلفة تتصل بوضوح بالعصر الحجري الحديث (أسنان وجماجم مثقوبة، وأحجار مصنوعة بدقة أكبر، وعقود من العظام وقرون وعول مصقولة)^(١).

نشأة اللغات عند الإنسان حسب المفهوم الدارويني :

لقد ظل العلماء منذ زمن طويل يبحثون في نشأة الكلام، وتقدموا في هذا الشأن بنظريات لا تحصى كثرة.

ومن أقدمها نظرية كانت شائعة عند الأغريق الأقدمين خلاصتها أن الكلمات الأولى التي تفوه بها الإنسان كانت ضربا من محاكاة الأصوات، أي تقليد الأصوات التي ترتبط بضروب النشاط المختلفة عند الإنسان في مصر ما قبل التاريخ. ونظرية أخرى تقول أن الكلمات نشأت من صيحات الخوف والذعر والفرح. الخ، وهي صيحات لا تتضمن ألفاظا واضحة، وتقول إحدى النظريات الحديثة أن الكلام كان

(١) المرجع نفسه ص ٧٢.

مجموعة من الاشارات والأصوات التي استخدمت للدلالة على حدث معين، فادت إلى ظهور الكلام^(١).

ولكن ما من نظرية من هذه النظريات تفسر لنا كيف تحولت الصيحات أو الأصوات التي قلدها الانسان إلى كلمات ومقاطع واضحة، أو تدلنا على العوامل التي حددت نمو النشاط العقلي الذي ترتبط به ملكة الكلام ارتباطا وثيقا. وذلك أن مقدرة الإنسان على الكلام هي الميزة التي تميزه قبل كل شيء عن الحيوان. ويعتبر البروفيسور [بوناك] من أشد الداروينيين تعصباً في فكره، ويتضح ذلك من قوله:

... «والعلم الحديث يجعل بداية التطور البشري في مستهل الدور الجيولوجي الرباعي منذ نحو ١٨ مليون سنة عندما ظهر فرع من الرئيسيات ذات القدمين (أرقى ذوات الثدي). وكان هؤلاء البشر - أقدم أسلاف الانسان - يعيشون في السهول المكشوفة، ويأكلون اللحم والفاكهة والغصون الخضر والجذور ويبيض الطيور والديدان الصغيرة وغير ذلك^(٢).

ولما كانوا مزودين بالوسائل اللازمة للحياة في السهول المكشوفة فقد تعلموا استعمال الأشياء كأسلحة يدافعون بها عن أنفسهم، وكأدوات للحصول على طعامهم، فاستخدموا الصخور ليقذفوا بها أعدائهم أو فرائسهم، وشظايا العظام لتنظيف الجيف، والعصي والأصداف لاقتلاع الجذور - الصالحة للأكل.

وأصبحت هذه الآلات عوامل أساسية تساعدهم في حياتهم اليومية، وتضاعف من قدرة أيديهم، وتحل محل مخالب الدواب الطويلة الحادة». ويقول [البروفيسور فيكتور بوناك] أيضا:

«فمن المقرر أن سلوك الحيوان محكوم بالغرائز، وهي سلسلة من الأعمال التي يرتبط بعضها ببعض بصورة آلية ولا يعترها تغير مطلقا، أما الأعمال المبنية على الاختيار والتجربة والخطأ فهي عند الحيوان نادرة - جدا.

(١) فيكتور بوناك - الانسان أول من مشى وتكلم - اليونسكو - العدد السابق ذكره ص ٥٠.

(٢) المرجع نفسه ص ٥١.

فالشمبانزي - مثلا - يستطيع أن يستخدم العصا لتناول قطعة مرغوب فيها من الطعام . ولكن إذا أعطيته عصاتين صغيرتين فإنه يلهو بهما بدلا من أن يستخدمهما لتناول الطعام . وإذا حاول أن يصل العصاتين معا ليتناول الطعام فإنه يضطر إلى بذل محاولات مفضية ومتكررة بحيث لا تكون لها أي قيمة عملية . والسبب في ذلك أن هاتين الفكرتين : فكرة «الاستعانة بالعصا» وفكرة «اطالة العصا» لارتبطان في ذهنه ، بل توجد كل منهما مستقلة عن الأخرى^(١) .

ولم ينجح استخدام الآلات - إلا بالصدفة كما هو حال الحيوان - إلا عندما أخذ اختيار المواد ومعالجتها يتفقا مع هدف مقصود ، وبعبارة أخرى . عندما يوجد ارتباط بين سلسلة الأعمال .

ويعلن [بوناك] صراحة عن خطه الدارويني قائلا :

«وقد خرج الانسان في النهاية من عالم الحيوان عندما أصبح قادرا على أن يكون في عقله صورا ذهنية للأشياء والأحداث المختلفة ، وان يميز بينها ، وان يربط بعضها ببعض . وهذا مكن الانسان من أن يكون مدركات حسية عن الخواص المشتركة لأنواع الأشياء . والصور الذهنية لهذه المدركات الحسية المرتبط بعضها ببعض هي ما نسميه المعاني الكلية . وقد كانت القدرة على تكوين المعاني الكلية هي أول ميزة رئيسية تميز «الانسان العاقل» عن سبقة من البشر .

وكانت المرحلة الثانية في تطور الانسان هي القدرة على الربط والتفرقة بين الخواص المشتركة لأنواع الأشياء» .

ويرى علماء (التطور) أن :

الكلمات الأولى كانت قليلة وحيدة المقطع تتعلق بالأشياء المادية والحقائق الأساسية في حياة القوم البدائيين ، وبخاصة جمع الطعام ، وربما كانت تتعلق ببعض المدركات الحسية ذات المعنى السحري . ثم تكونت كلمات جديدة بمضاعفة المقاطع أو قلبها أو بإحداث تغيير في طبقة الصوت ودرجة النغم ، وحدث في أول الأمر أن أجاد فرد أو عدة أفراد النطق بهذه الكلمات ، ثم تبعتهم الجماعة كلها في ممارسة هذه الكلمات عند

(١) المرجع نفسه ص ٥٢ .

الحاجة ثم تعدلت هذه الكلمات بالاستعمال .

وفي أثناء العصر الحجري المتأخر أثرى إنسان نياندرتال مفردات لغته بالتدريج ، ولكن يبدو أن ملكاته العقلية وكلامه بقيا على المستوى نفسه في الكلمات المنفصلة ، ثم طرأ تغيير كبير في نهاية العصر الحجري في زمن العصر الجليدي الرابع أو النهائي ، عندما ظهر الأسلاف المباشرين للإنسان الحديث (الإنسان الحالي) منذ نحو ٣٠٠٠٠ أو ٥٠,٠٠٠ سنة^(١) .

ويرى العلماء أن مخ هذا الإنسان القديم كان يعادل في حجمه مخ أسلافه ، ولكن جمجمته كانت ذات قبة أعلى كما كانت أكثر استدارة وبخاصة الجبهة والقفا . وكان الفك الأسفل أصغر ، وكذلك كانت منطقة الاتصالات العضلية أقل مما ساعد على النطق السريع بالكلمات نطقا واضحا . وكانت الاتصالات العضلية في الفك الأسفل مماثلة أيضا لنظائرها في الإنسان الحديث في حين أن العظمة الموجودة في الخارج برزت إلى الأمام لتكون الذقن .

وقد أحرز هؤلاء القوم - أهل العصر الحجري الحديث - تقدما كبيرا في أساليب قطع الأحجار ، فصنعوا آلات ذات أنواع كثيرة أكثر اتقاناً ومنها الأدوات المصنوعة من العظام ، بل لقد صنعوا الأبر أيضا . وتقدم فن الزخرفة والنحت والرسم والتصوير . وكانت حرفتهم الأساسية هي بالطبع صيد الحيوانات المتوحشة^(٢) .

وفيما يتعلق بالتكنولوجيا والاقتصاد والفنون ، فإن أهل العصر الجليدي الأخير في أوروبا وصلوا إلى مستوى من المعيشة وأسلوب في الحياة لا يقل بحال من الأحوال عن بعض القبائل التي تشتغل بالصيد وجمع الطعام في الوقت الحاضر . ولا ريب أنهم استطاعوا أن يكونوا مجموعات مزدوجة من المعاني الكلية والكلمات (تربط بين الحدث ، وموضوع هذا الحدث) وبعبارة أخرى إن كلامهم واضح النبرات^(٣) .

وبظهور إنسان العصر الحجري الجديد الذي جمع بين الكلمات المنفصلة والمعاني المختلفة ينهي تاريخ نشأة الكلام بوصفه سمة عامة من سمات البشرية . وقد شاهدت

(١) فيكتور بوناك - المرجع السابق ص ٧٠ .

(٢) المرجع نفسه ص ٧٠ .

(٣) المرجع نفسه ص ٧١ .

العصور التي أعقبت ذلك العصر وضع لغات مختلفة لها أصواتها وتراكيبها اللغوية والنحوية .

● ويقول البروفيسور [فيكتور بوناك] عن نشأة اللغات عند الانسان القديم :

« . . . وتدل الأبحاث التاريخية والأثرية واللغوية على أن اللغات الاساسية ظهرت في أوائل عصر المعادن منذ نحو ٦٠٠٠ أو ٩٠٠٠ سنة . في حين أن نشأة كثير من اللغات المعاصرة ترجع إلى عصور تاريخية^(١) .

وعلى طول هذا الخط الممتد إلى ما لا نهاية، الذي سلكه الانسان في تطوره، تصادف القليل نسبيا، من الأعمال الفنية .

وفي استطاعتنا، على أحسن تقدير، أن نتخيل أسلاف الانسان الحديث، ومداركهم تنمو وتتطور بالتدريج، وقد استجابوا لدوافع جمالية عارضة، فراحوا يستخدمون أصواتهم، ويدقون بعض الايقاعات ويؤدون بعض الحركات الجسمية، فكانوا على هذا النحو رواد الغناء والموسيقى والرقص .

فإذا اقتربنا من انماط الانسان الأكثر شبيها بالانسان الحديث - انسان نياندرتال . على سبيل المثال - أمكننا ان نضيف إلى هذه الأشكال الفطرية من الابداع الفني أولى دلائل الحفر والتصوير والنحت .

ولم يكتشف حتى الآن أي عمل فني مركب له معنى، من انتاج هذه العهود السحيقة، ولكننا نعلم يقينا أنه منذ ٤٠٠٠٠ أو ١٠٠٠٠٠ سنة مضت كان اناس نياندرتال يستخدمون المغرة (الحمراء) الطبيعية . بل لعلهم قد حفروا خطوطا على شظايا العظام بسن حجر الصوان .

غير أنه لا يوجد مع الأسف سوى القليل من الأشياء التي تساعد المشتغل بشئون ما قبل التاريخ على معرفة الكيفية التي نشأت بها الفنون، ومنها آثار قليلة من الخضاب تثبت أن الناس كانوا يهتمون بالألوان . وكانت الأحجار الغريبة الشكل والقواقع المتحجرة التي وجدت بين الأدوات المصنوعة من الصوان وبقايا اللعب في المواطن السكنية القديمة تدلنا على أن أجدادنا الأقربين قد جذبتهم الأشكال الطبيعية

(١) المرجع نفسه ص ٧٢ .

الفطرية، ورسخت هذه الجاذبية نحو «طرائف الطبيعة» بقوة في تصرفات الانسان الجمالية، وظلت حية على مدى التاريخ في وجدانه وكيانه.

المهارات الفنية عند الأجناس البشرية القديمة

كان لا ناس نياندرتال، أي ذلك النمط من الجنس البشري الذي سبق نمطنا مباشرة، مطالبهم الجمالية، وكذا الوسائل التي تيسر اشباع هذه المطالب، نلمس ذلك في مهاراتهم الفنية المتقدمة بالفعل.

وكان تشكيل الأدوات الحجرية داعيا إلى ابتكار رسوم سرعان ما اتخذت خطوطا منتظمة (منها اشكال بيضاوية ونصال بجوانب متوازية تقريبا ومثلثات، وغير ذلك). وكان أول انتاج لمثل هذه الأشكال المصطنعة قد أملتته الأساليب المستعملة في إعداد كتل من حجر الصوان التي تنحت منها الأدوات.

وعلى الرغم من انه قد ثبت ان شظايا حجر الصوان التي كانت مشروخة بطبيعتها، كان يمكن استخدامها كما هي كأدوات، فانا نلاحظ خلال المليون سنة الأولى التي سبقت تاريخ الجنس البشري سعيا دائما لتدبير الوسائل الخليقة بتوحيد انماط الأدوات المصنوعة. ونجد فوق ذلك تطورا متدرجا في الأساليب التي نستطيع أن نتعرف بفضلها على الأشياء التي تنتمي إلى مختلف العصور.

ان البحث عن الآلات الفعالة والحاجة إلى استخدام المواد الأولية المتاحة استخداما اقتصاديا ليفسران بجلاء هذا التطور في صنع الآلات. غير أن الحقيقة التي لها دلالة هامة هي أن هذا التقدم التكنيكي المطرد يلزم الاتقان المتزايد للأشكال الجمالية.

ومع ذلك فانه لا يتيسر التحدث عن أعمال فنية حقة تنتمي إلى أبعد من ٤٠٠٠٠ سنة قبل الميلاد، أعمال لم تبعد بها يد الانسان أشياء مادية فحسب، وإنما ابتكرت فوق ذلك فكرة ورمزا.

● وفي ذلك يقول البروفيسور «بوناك» :

... « من العسير أن نسطر خطوطا تفصل بين المراحل المتعاقبة لتطور الانسان ،
مداامت هذه المراحل لا تختص ، من الوجهة النظرية بالمخلوقات السابقة للانسان ،
ونحن منذ البداية نتعامل مع اناس اكتسبوا شيئا فشيئا سمات البشر حتى ادركوا
عصرنا الحاضر . ويصدق الشيء نفسه بالنسبة إلى الفن الذي لم يظهر فجأة بصورته
الكاملة ، وانما قد نما وتطور على مر العصور . وعلى ذلك فان اهتمام انسان نياندرتال
بطرائف الطبيعة أو بالأصباغ قد حدد مرحلة حاسمة في تطور مستمر بلغ أوجه فيما
بعد .

هذا التطور الذي ينعكس في طبيعة البشر في الوقت الحاضر ، قد ارتبط على
الأرجح بظهور اللغة ، أو على أية حال ، بالقدرة على التعبير عن المجردات واليد ،
شأنها شأن الأعضاء الصوتية ، تعبر عن الفكر بصدق وأمانة ، . وعلى الرغم من أننا
لانملك ، حتى ظهور الكتابة ، أي دليل مباشر للتعبير الشفوي (الذي ينبع من المراكز
المنحية التي ينبع منها التعبير اليدوي) ، فانه ليس ثمة ما يمنعنا من أن نفترض ان اللغة
والمهارة التكنيكية كانتا متلازمتين على مدى التطور البشري .

ولكن إذا كانت اليد منذ البداية قد حملت للفكرة شكلا يتبدى خلال تصوير
الفنان الصانع ، وتركت ذكرى مطبوعة خالدة تمثل السعي اللاشعوري وراء خلق
الأشكال ، فانه لم يعثر ، بين مخلفات الأناس الذين عاشوا منذ نصف مليون أو مليون
سنة ماضية ، على أي أثر لأشكال مرسومة بوعي وإرادة ، ولها وظيفة رمزية أكثر منها
عملية» . ثم يقول «بوناك» :

... «والشيء الذي لم تعبر عنه اليد لا يحتمل أن يكون له وجود في اللغة . ويبدو
أن كل تغيير كان لا بد له حتى يتم أن تصل عملية التطور العقلي والثقافي إلى مرحلة
معينة . وقد تخطى الانسان «العاقل» - وهو النوع البشري الحاضر - هذه المرحلة منذ
حوالي أربعين الف سنة .

والشيء العجيب ان الحلي (الاسنان المثقوبة والدلايات) قد ظهر أنها ايضا ادنى
المحاولات في سبيل الفن التعبيري . وتبدو وسائل التعبير البارزة وكانها تترجم في
الوقت نفسه رموز السلوك الاجتماعي (كما هو شأن الحلي) ورموز التعبير المجرد . الأمر

الذي يؤكد الرابطة بين التعبير الشفوي، والباعث الجمالي. وهو دائما حامل الأحاسيس الاجتماعية بأوفى معانيها. ولا وجود لهذا الباعث لأنه وسيلة للتعبير عن مشاعر القوة أو الحب أو الخلجات الدينية أو اصفاء شكل على هذه الأشياء.

وفي امكاننا ان نحكم بأن فنون ما قبل التاريخ، زخرفية كانت أو تعبيرية، قد خضعت للقواعد التي خضعت لها الفنون التي أعقبتها، ومن العسير تحديد التاريخ الذي انبثقت فيه هذه الفنون، لأننا لانعرف شيئا عن عهود ما قبل التاريخ في كل بقاع العالم، ولاننا فوق ذلك نتعامل مع فترة متطورة لا مع لحظة معينة من لحظات الزمان. هناك دائما مخترع وراء كل تجديد، ولكن تلوح وراء المخترع خلفية اجتماعية وتاريخية كاملة. وعندما تغطي الحقائق الكثيرة من المراحل الصغيرة المتناثرة على مدى الآف السنين، كما في هذه الحالة، فانه من السذاجة التحدث عن «اختراع» التصوير أو النحت^(١) ثم يقول [بوناك]:

..... [ويغطي علمنا الحقبة الأخيرة من عصر انسان نياندرتال الأوربي، ونهاية العصر الجليدي الأخير (من عام ٥٠٠٠٠ قبل الميلاد على وجه الاحتمال، حتى عام ٩٠٠٠ ق.م على وجه التأكيد). وكانت البدايات بطيئة للغاية، وقد انصرم أكثر من نصف هذه الفترة قبل أن تظهر التصويرات الكبرى أو النقوش البارزة في كهوف غرب أوروبا. ثم كان في النصف الثاني من هذه الفترة عدد هائل من الكهوف المزينة في أسبانيا وفرنسا وإيطاليا، بل كذلك في مناطق الأورال. وغزارة في التماثيل والصور المحفورة على طول الطريق من المحيط الأطلس إلى بحيرة بيكال في سيبيريا. ولا ريب في أن اعمالا تنتمي إلى هذه الحقبة الطويلة من التطور الفني سوف تكتشف في بقاع أخرى من العالم. غير أن الآف الصور والنقوش المحفورة التي اكتشفت حتى الآن في أفريقيا وجنوب آسيا، على سبيل المثال، كانت تنتمي إلى عصور أكثر حداثة، ولا يقلل ذلك بالطبع من قيمتها أودلالتها^(٢).

وثمة نقطة هامة ينبغي أن نذكرها، فيما يتعلق بفنون [ما قبل التاريخ]: ذلك أن وسائلها التكنيكية قد بلغت نضجها الكامل منذ البداية وهذا ما يميز الخلق الفني من

(١) فيكتور بوناك - المرجع السابق ص ٧٢.

(٢) المرجع نفسه ص ٧٣.

الاختراع التكنيكي تمييزاً جذرياً .

فالصيد البري والصيد البحري والغزل والنسيج والمهارات المنزلية نمت وتطورت ببطء حتى أدركت وقتنا هذا . وليس في الامكان ان نتصور انسان ما قبل التاريخ وهو يخترع طائرة على أساس من المعارف العلمية التي كانت متاحة له في مجتمعه ، ولكن الفنان كان يملك من فوره كل وسائل التعبير عندما يحصل على تراب ملون ، وآلات من حجر الصوان الذي كانت كفاءته في القطع أعلى من كفاءة الكثير من المعادن . وأتى الزمن بأساليب جديدة ، كأنواع الفسيفساء ، والتصوير الزيتي وألوان جديدة كالأخضر والأزرق ، وكثير من التنوعات في التنفيذ . ولكن الفنان كان في مقدوره منذ البداية أن يعبر عن ذاته تعبيراً كاملاً من حيث الأشكال والتبيانات في الألوان والبروز . الموقف اذن بين الفن وبين التكنولوجيا مختلف كل الاختلاف .

ففيما يختص بالتكنولوجيا ، يمكن الاغضاء عن عامل الخيال الخلاق لدى الانسان الصانع قبل التاريخ ، إذا ما أخذنا في الاعتبار الآلات التي كان يملكها . أما مستوى انجازاته فانه يتناسب مع المرحلة التي بلغها مجتمعه تبعاً لعصره ووضعها الجغرافي^(١) . أما بخصوص الفن فان لصلته بالبيئة التقنية والاجتماعية طابعا آخر . فالأعمال الفجة وكذا الأعمال التي تبلغ درجة فائقة من القدرة التعبيرية قد توجد معا في مجتمع واحد ، جنباً إلى جنب ، أو على التعاقب .

وفيما يختص بالنحت والحفر . فحجر الصوان كان مناسباً تماماً لقطع العظام وكتل الحجر الناعم وجدران الكهوف والصخور الناتئة أو نحتها ، بل انه من الميسور رسم الأشكال بأصبع اليد على الصلصال أو تشكيل الطين باليد . كانت مثل هذه الأعمال إذن موجودة منذ البداية . ولم يظهر النقش الغائر إلا في زمن أحدث نسبياً ، لا يبعد عن ١٥٠٠ سنة قبل الميلاد على الأرجح . ولكن محاولة الحصول على التأثيرات ذات «الأبعاد الثلاثة» سمة بارزة تميز تطور فن ما قبل التاريخ^(٢) .

وفيما يتعلق بالأعمال الفنية «المجوفة» فإنها نقطة تستحق التنوية . فالنقش الغائر لا وجود له إلا في تجاويف ينيها ضوء النهار ، وذلك لأسباب عملية . ويبدو أن تنفيذ

(١) المرجع السابق ص ٧٤ .

(٢) المرجع السابق ص ٧٤ .

الرسوم كان يستغرق عدة أسابيع ، وهذا العمل داخل الكهوف يتطلب نوعاً معيناً من الاضياء ، مع ضرورة البقاء مدداً طويلة تحت الأرض .

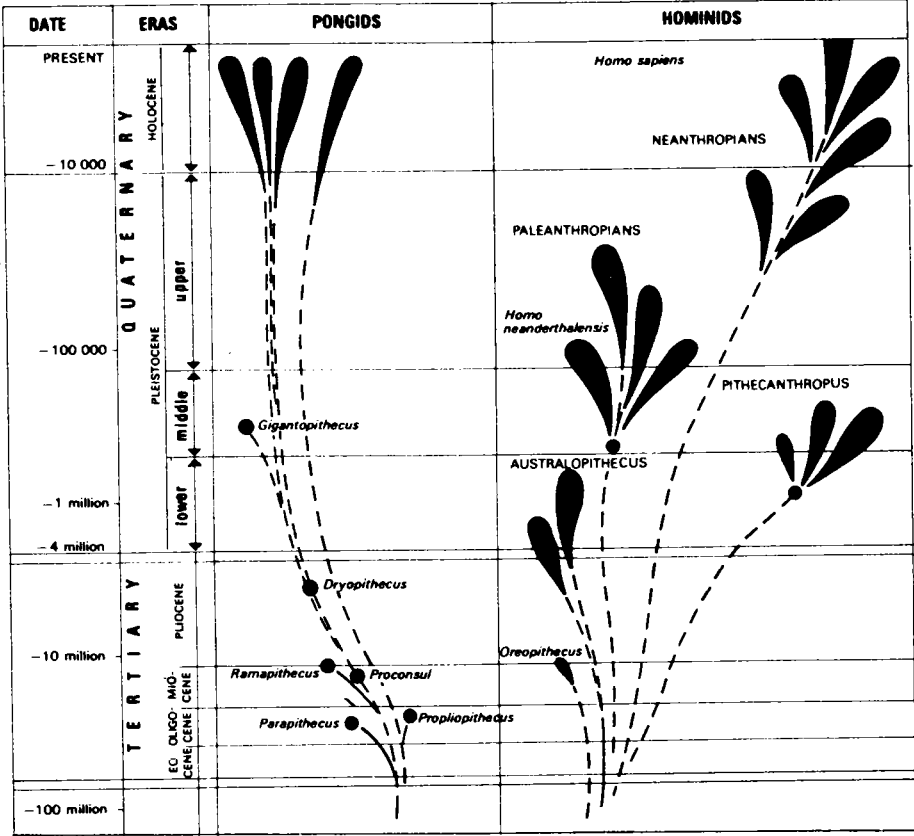
وقفه لابد منها

انني أجد نفسي عاجزاً عن الاستمرار في [عرض] آراء [الداروينيين المحدثين] بما فيها من شطط، وتخريف وضلال وبعد عن العلم والحقيقة، قبل أن أعلن للبشرية جمعاء الحقائق التالية :

● أن الداروينيين المحدثين اتخذوا من مذهب [داروين] وكلامه عن الأعضاء الأثرية وسيلة لنفس الغاية والحكمة من الخلق فأنكروا [الخلق الدفعي المباشر] الذي ذكرته الكتب المنزلة، وزعموا أن الإنسان أصله من القرد، واستدلوا ببعض الشبه بين القرد والانسان . . . ولكن هؤلاء القائلين بنشوء الإنسان من القرد تحيروا في كيفية انتقال القرد من الحيوانية إلى الانسانية، نقلته الأخيرة، فقال بعضهم أنها حصلت فجأة وقال آخرون انها حصلت بالتدرج . . . وبحثوا عن الحلقة المفقودة في طبقات الأرض فلم يجدوا لها أثراً . . . ولم يتمكنوا حتى اليوم من ذلك . . . مما هدم الأساس الكاذب لافتراءاتهم .

● أثبت العلماء أخيراً بطلان ادعاء [الداروينيين المحدثين] أن العظام التي عثروا عليها هي للانسان القرد . . . ومن هؤلاء العلماء البروفيسور [جال بيفتو] رئيس المجمع العلمي الفرنسي . فقد كرس حياته قرابة خمسين عاماً لدراسة أصل الانسان، واستطاع أخيراً أن يؤكد أن الانسان ليس له أدنى علاقة بالقرد . . . كما أثبت أن النظرية القائلة بوجود جذع مشترك يتشعب منه كل من الجنس البشري وجنس القردة الكبيرة قد سقطت من الأساس بعد أن وضع يده على أدلة تثبت أن ما عثر عليه [الداروينيون المحدثون] من عظام وجماجم ليست إلا لمخلوق ذكي عاقل سوى هو الانسان الأول .

● أن البحث العلمي الذي أجراه أخيراً الدكتور [جونسون] أستاذ علم الأجناس البشرية على الهياكل العظمية القديمة للانسان التي يقدر عمرها بثلاثة ملايين من



رسم تخطيطي يوضح تطور أشكال «المومينيدات» كما تراه إي. جنيت فارسين E. Genet - Varcin كما جاء في الموسوعة العالمية المجلد الثامن ص ٤٩٩ .

وكما هو واضح ، فإن جنيت فارسين تعتبر أنه ابتداء من الحقب الثالث (منذ نحو ٦٠ مليون سنة) فإن السلسلة التي نتج عنها القردة الكبار - مبيئة إلى اليسار - والسلسلة التي منها إنسان اليوم مبيئة إلى اليمين - منفصلتان تماما عن بعضها البعض . وحتى بالنسبة للفترات السابقة على الحقب الثالث فليس هناك من دليل يوحى بوجود الأصل أو المنشأ المشترك .

السنين ، أثبت أنها للانسان القديم سوي الذي كان يسير منتصباً على قدميه منذ بداية تاريخه الانساني ، وخرج الدكتور [جونسون] من حفرياته في الحبشة وكينيا . . . وتشاركه في ذلك الأستاذة . . . [إي . جنيت فارسين] . . . بالحقيقة الآتية :
[إن الانسان لم ينحدر من سلالة مشتركة تطورت مع الوقت ، إنما كانت سلالته متميزة فريدة مستقلة].

● وبالجملة فقد أصبح العلماء الآن عن طريق الكشوف الأثرية ، وتقارير العلم الحقيقي متأكدون مما جاء به الدين الحق ، الإسلام ، من أن الإنسان خلق خلفاً مستقلاً وأنه سيد المخلوقات ، وصدق الله العظيم في قوله سبحانه وتعالى :
﴿لقد خلقنا الانسان في أحسن تقويم﴾ «التين / ٤»
وكل ذلك يدل على تحضر الإنسان القديم . . . واستحقاقه الخلافة في الأرض ، واستقلاله بالنشأة السليمة في أحسن تقويم واکرم منزلة .

الذين مهدوا الطريق لداروين

لم يكن «داروين» أول من (فكر) في تطور الكائنات الحية كما لم يكن أول من (زعم) بارتباط تطور الانسان بسلالات أخرى تنتمي (بطريقة ما) لنوع من القردة العليا . . . فقد توصل الدكتور الفريد رسل «Dr. Alfred Russel» إلى نفس (ما فكر) فيه «داروين» قبل أن ينشر (الأخير) كتابه : (أصل الأنواع) بحوالي ١٧ شهراً كما توصل العالم الفرنسي البيولوجي الشهير «جان بابتيست لامارك - Jean Baptiste Lamarck ١٧٤٤م - ١٨٢٩م - قبل أن يولد داروين برقع قرن - إلى قانون الاهمال والصفات المكتسبة . كما لم يكن «داروين» أول من ذهب إلى القول بأن الانسان قد ظهر (نتيجة) لعملية تطور طويل وبطيء من حالة (الحيوانية) كما يمكن القول بأن العلوم الفيزيائية كانت قد اتخذت بالفعل اتجاهها تطوريا في مناهجها قبل أن يظهر كتاب «داروين» عن أصل الأنواع .

وعندما يتطرق المرء اليوم لموضوع التطور، فلا بد من أن ينصرف ذهنه تلقائياً إلى [داروين]. أولم يكن هو الذي فسر قرب منتصف القرن التاسع عشر نشوء الكائنات الحية بشتى أشكالها تفسيراً يناقض كل مبادئ العلم والدين؟ غير أنه لا ينبغي أن ينسبنا كتابه الشهير أصل الأنواع الذي ظهر في ١٨٥٩، ثراء تاريخ مذهب التطور. ذلك لأن هذا التاريخ قد بدأ قبل [داروين] وامتد بعده وربما لم تطو صفحاته بعد، أو كما يقول التعبير السائر: ان مذهب التطور قد تطور. . . وكان [داروين] نفسه على وعي بهذه الحقيقة كما يتضح من «النبذة التاريخية» التي أضافها إلى كتابه أصل الأنواع.

فقد نوه في هذه النبذة أولاً بعدد من مفكري العصور القديمة. والواقع أن بعض الفلاسفة الإغريق قد أدركوا في شيء من الغموض أن الكائنات الحية لا بد أن يكون قد اعترها التغيير والتبديل فكان [انكسمندروس] اليوناني في القرن السادس قبل ميلاد المسيح يرى أن «الانسان قد نشأ في البداية من حيوانات من جنس آخر». والدليل على ذلك في رأيه أن الكائن البشري في مرحلة نموه الأولى يظل غير قادر على تغذية نفسه بنفسه.

● ومما قاله «انكسمندروس»:

. . . . «إن نشأة المخلوقات الحية منسوبة إلى تأثير الشمس في الأرض، وتمييز العناصر المتجانسة بالحركة الدائمة، وأن الأرض كانت في البدء طينية ورطبة أكثر مما هي الآن، فلما وقع فعل الشمس فارت العناصر الرطبة التي في جوفها، وخرجت منها على شكل فقائيع، فتولدت الحيوانات الأخرى، غير أنها كانت كثيفة ذات صور قبيحة غير منتظمة، وكانت مغطاة بقشرة غليظة تمنعها من التحرك والتناسل وحفظ الذات. فكان لا بد من نشوء مخلوقات جديدة. . . أو ازدياد فعل الشمس في الأرض لتوليد حيوانات منتظمة يمكنها أن تحفظ نفسها وتزيد نوعها، أما الانسان فظهر بعد الحيوانات كلها. . . ولم يخل من التقلبات التي طرأت عليها، فخلق أول الأمر شنيع الصورة!!!!. . . ناقص التركيب. . . وأخذ يتقلب إلى أن حصل على صورته الحاضرة.

ومما سبق ذكره من [تخريف] هذا الفيلسوف اليوناني، يمكن التوصل إلى الآتي:

- أنه رد ظهور الحياة إلى أنها طبيعية صرفة . . . إذ ذكر أنها نتيجة لاختلاط العناصر بحرارة الشمس وأثرها فيها .

- أنه أشار إلى تقلب الأحياء في [صور] من الارتقاء والنشوء حتى بلغت حالتها الحاضرة، ولم يستثن ذلك [المخرف] الانسان من تلك المراحل التطورية، بل اعتبره خاضعاً لأثر الانقلابات التي خضعت لها الأحياء كافة على حد زعمه .

وثمة مفكر يوناني آخر هو [امبيدوكليس الأجرى مجنطى] كانت له في القرن الخامس قبل الميلاد أفكار غريبة عن نشوء الكائنات إذ كتب يقول :

● «ظهرت على الأرض رؤوس بلا أعناق، وهامت على سطحها أذرع بلا أكتاف، وتنقلت في أرجائها عيون بلا جبهات . . .» . وفي رأى هذا المفكر أن هذه الأعضاء المنفصلة قد التقت والتحمت بفعل الحب فنشأت عنها الكائنات الحية . ويجد المرء لديه ما ينم عن فكرة الانتخاب الطبيعي فالكائنات التي لمن يكن لديها مقومات الحياة والنمو قد قضى عليها (كالبقرة التي لها رأس انسان مثلاً) بينما بقيت الكائنات التي صح تكوينها !!!

ومن هنا ظن بعض المؤرخين أن أفكار [أمبيدوكليس] كانت نذيراً بقدوم «الداروينية» . غير أن ذلك رأى يصعب إقراره . وقد كان لبعض المفكرين القدماء أحياناً رؤى ملهمة تستلقت النظر من هؤلاء الشاعر والفيلسوف اللاتيني [لوقراتيوس] الذي عاش في القرن الأول قبل الميلاد ووصف على نحو أسطوري «الصراع من أجل الحياة» . وفي رأيه أن من الممكن تفسير منشأ الحيوان بقوانين الطبيعة وحدها دون اللجوء إلى تدخل الآلهة . ولكن هذه الأفكار أياً كانت منهجيتها، لم تطور قط بشكل منهجي منظم . وكان علينا أن نتظر عدة قرون حتى تظهر تأملات أكثر تحديداً . فلم يؤذن بميلاد مذهب التطور المشئوم إلا في القرن الثامن عشر .

ومن المحتمل أن يكون استحداث المنهج التاريخي قد لعب دوراً ما في اتضاح الأفكار البيولوجية الجديدة ذلك أن المفكرين قد اخذوا يتعودون شيئاً فشيئاً على الأخذ بنهج تطوري في تناول الواقع الاجتماعي (العادات والتقاليد، والمؤسسات، والانتاج، الثقافي . . .) فلا غرو أن يطبق هذا المنهج أيضاً على دراسة الطبيعة . وينبغي ألا يعزب عن البال أن المسيحي في ذلك العصر كان عنصرًا غالباً في الثقافة الغربية ويرى

بعض العلماء أن [اخوان الصفا] قد أشاروا إلى [التطور] استناداً إلى ما ورد في رسالتهم حول الفرق بين النبات والجماد، خصوصاً الفقرة التالية:

واعلم يا أخي أن أول مرتبة النباتية أو دونها مما يلي التراب هي خضراء الدمن، وآخرها وأشرفها مما يلي الحيوانية النحل، وذلك لأن خضراء الدمن ليست بشيء سوى غبار يتلبد على الأرض والصخور والأحجار، ثم يصيبها المطر، فتصبح بالغدات خضراء كأنه نبت زرع وحشائش، فإذا أصابها حر الشمس في نصف النهار يجف، ثم يصبح بالغد مثل ذلك من نداوة الليل وطيب النسيم، ولا تنبت الكمأة ولا خضراء الدمن إلا في أيام الربيع في البقاع المتجاورة لتقارب ما بينها. . .

وانتقلت تلك الأفكار إلى أوروبا. وطبقاً لتفسيرات الكتاب المقدس السائدة آنذاك. فإن شتى الأنواع النباتية والحيوانية قد خلقها الله مباشرة وأنها مستقرة لا يطرأ عليها أي تغيير. لذلك كان يلزم قدر كبير من الجرأة للتصدي لهذا الاعتقاد خاصة وأن علوماً مثل علم الأحافير وعلم الأجنة كانت لا تزال في مراحلها الأولى. وبالرغم من كل شيء فقد غامر بعض المفكرين الجسورين بالقول بأن الكائنات الحية ربما تعرضت «لتحولات» على مر الأجيال.

وعلى سبيل المثال، ذكر الفرنسي [بنوا دي ماييه] Benoit de Maillet في كتاب لم ينشر إلا بعد وفاته في سنة ١٧٤٨، أن جميع الكائنات الأرضية ربما كان منشؤها كائنات بحرية مناظرة. وفي رأيه أن أنواعاً من الأسماك قد ألفت الحياة على اليابسة وانجبت حيوانات جديدة (كما انجبت طيوراً أو كائنات أخرى)، وعلى نحو مماثل انجبت الفقمة الفيل الأرضي، وأتى الإنسان بدوره من مخلوق بحري (هو سمندل الماء !!!). ولا شك أننا ننظر اليوم إلى [بنوا دي ماييه] على أنه كان حاملماً بوهيميا مفرط الخيال. غير أن مفكرين آخرين ينتمون إلى نفس الفترة تقريباً قدموا أفكاراً هامة وغريبة للغاية.

فقد سجل مؤرخو العلم أن [بيير دي موبيرتوي] ربما تكون قد راودته قرب منتصف القرن الثامن عشر «فكرة واضحة نوعاً ما عن عملية الطفرة».

وهذا كله يعني أن (أصل الأنواع) ظهر في جو مشحون بالتفكير التطوري (ورث) فيه «داروين». . . ولم (بيتكس) مشكلة الاهتمام العام بالتطور حسبما قال البروفيسور

(ليونتن)^(١) Lewontin وهذا هو ما أوضحه «هيربرت سبنسر» أيضا في كتابه (مبادئ البيولوجيا) «Principles of Biology» والذي نشر بعد كتاب «داروين» بخمسة أعوام، رغم أن «سبنسر» سنة ١٨٥٠ - أي قبل ظهور كتاب «داروين» (أصل الأنواع) بتسع سنين كان يضع أسس نظريته عن (التطور الاجتماعي) ويربط ذلك بالتطور العضوي وذلك في أول كتبه وهو كتاب Social statistics مما يعني أن تفكير «سبنسر» التطوري كان مستقلا عن «داروين» - على الأقل - في بداية الأمر .

ويبدو أن اتصال «هيربرت سبنسر» (بالتفكير التطوري) كان أقدم من ذلك بكثير . فهو يرجع إلى سنة ١٨٤٠ بالذات حين قرأ كتاب «تسالز لايل» عن مبادئ الجيولوجيا Principles of Geology الذي تعرف فيه عن فكرة (التطور) عند «لامارك» . . وتحمرت الفكرة لديه عقب اطلاعه على مبدأ (باير) في الفسيولوجيا .

(٢) Baer,s physiological principle

وقد جعل [شميل] النظام الطبيعي لا [الدين] أو [الله] منبع الأخلاق والمرجع الأخير في تقرير القيم وصحتها ولم يبق له إلا خطوة واحدة حتى يرفض الدين رفضا قطعيا ويستبعده من نظام الحياة الاجتماعية، لتأثره بمذهب دارون الهدام كما شرحه بخنر وكما أورده شبلى شميل وهذا المذهب المدمر الذي يهدف إلى إقرار مبدأ العلمانية في تنظيم المجتمع وفصل الدين عن الدولة والغاء الوطنية الضيقة وازاحة الأديان و الوجود الذاتي الحاضر للأمم والدعوة إلى المواطنة العالمية ليصبح العالم أمة واحدة تحت لواء القوى العالمية الشيوعية والصهيونية والرأسمالية .

ولقد ووجهت هذه الدعوات والنظريات بردود فعل عنيفة وشجب كامل ورفض جماعي ، مما دعا أصحاب الدعوات إلى تخفيف الدعوة ونقلها إلى أسلوب آخر على

(١) يمكن الرجوع في ذلك إلى مقال «ليونتن» نفسه Lewontin عن التطور Evolution في الموسوعة الدولية للعلوم الاجتماعية International Enc. of Social S. كما يمكن الرجوع في ذلك إلى : عالم الفكر - المجلد الثالث - العدد الرابع - تقديم التحرير ص ٦-٣ .

(٢) يرجع في ذلك إلى ، Barnes H.E., 1948: (Herbert spencer and the Evolutionary deffence of individualism), in Barnes (ed) : An introduction to the history of Sociology, Chicago University Press, PP. 108-115.

ويقوم قانون (باير) على تفسير نمو وظهور المادة العضوية من (حالة التجانس) إلى (التغاير)، أي من البناء الموحد المطرد إلى الكائن العضوي الكامل بكل بنائه ووظائفه المعقدة المتفاضلة .

النحو الذي دعا به اسما عيل مظهر ثم سلامة موسى .

وكشفت حركة اليقظة أن نظرية التطور البشري ليست إلا استنتاجا وستظل استنتاجا حتى توجد العظام الحقيقية التي تدلنا على كيفية تقدم الكائنات البشرية . وظل الكلام عن الحلقة المفقودة يثير السخرية بالدعاة إلى مذهب [دارون] حتى يومنا هذا الذي يشهد صحوة إسلامية رائعة من جهودها هدم النظرية من أساسها . وقد ظلت علامات الاستفهام معلقة على رأس [داروين] وتابعيه والداعين إلى فكرته مطالبة بالبراهين ، لماذا كانت هناك حلقات مفقودة؟ ولم يستطع [دارون] ولا أتباعه أن يجيبوا ، لقد كانت [فروضا] ولم تكن حقائق ولكن الفكر التلمودي والمادي استطاع أن ينتفع بها أعظم انتفاع وأن يثير بها جوا من الاحقاد العاصف في كل مكان^(١) .

والمعروف أن النظرية قد تلففها من [دارون] مفكرون وفلاسفة وقوى خطيرة أرادوا بها أن تنتقل من ميدان البيولوجيا إلى ميدان الاجتماع والدين . والهدف هو القول بأنه لا شيء ثابت وكل شيء يتغير والهدف هو استغلال هذه الشبهات وهذه الفروض للقضاء على مفهوم الأديان .

وكان ما أحدثته الدارونية في عالم العقيدة وفي الفكر الأوربي كله أن فكرة [التطور] لم تنحصر في الدراسة العملية التي قام بها [دارون] ولا كان في الامكان ان تنحصر في هذا النطاق وانما دخلت مجالات الفكر الاجتماعي ولم يعد عند الدارونيين المحدثين شيء ثابت حتى فكرة العقيدة والألوهية !!!^(٢) .

ومن [دارون] بدأت فكرة التطور المطلق ، ومن دارون بدأت فكرة حيوانية الانسان وتفتحت الأبواب للفكر الماركسي والفرويدي جميعا . وبه انفصلت النهضة الصناعية والكشف العلمي والحضارة والاستعمار والرأسمالية عن الدين واتجهت الحضارة إلى الاستهلاك : وقامت على صناعة ادوات - سبق ذكرها - للترف والزينة والفساد ومزيد من الأذى ، باح تدخل امبراطورية الربا اليهودية التي تغلغت في كل شرايين الاقتصاد العالمي ومؤسساته الانتاجية والعلمية والسياسية .

(١) أنور الجندي - المرجع السابق ص ١٧ .

(٢) المرجع نفسه ص ١٨ .

الخلفية التاريخية

لنسيج التطوري ومخاطره على سلامة البشرية

من الممكن القول بأن أول مبادئ (فكرة التطور) قد تخللت كتابات بعض فلاسفة الاغريق القدامى كما سبق أن ذكرنا، خصوصا (ارسطو) الذي اعتقد بأن الكائنات الحية قد ارتقت من (أنواع) بسيطة إلى انواع (معقدة) يعتبر الانسان ذروتها. . . وبعد عدة قرون بدأ الهمس يتحول إلى نقاش بين رجال العلم من وراء أسوار الكنيسة منذ العصور الوسطى حتى القرن السابع عشر الميلادي، ففي انجلترا جاهر (رأى) Ray بفكرة التطور وكذلك فعل هوك Hooke (١٦٣٥-١٧٠٣). . . وقال ارازس داروين بالتطور (١٧٣١ - ١٧٨٢). . . والعالم الفرنسي «دومايه» De Maillet (١٦٤٥ - ١٧٣٨) وبيفون Buffon (١٧٠٧ - ١٧٨٨). . . وكلهم اعتبروا فكرة (التطور) خير تفسير لوجود (الأنواع) المختلفة من الكائنات الحية وأكثرها احتمالا، ولكنهم لم يتوصلوا إلى دلائل مقنعة على صحة نظرياتهم. . .

وفيما بين سنة ١٩٤٩، ١٩٦٠ ظهرت نظرية جديدة تسمى «النظرية التركيبية الحديثة» على انقاض الداروينية الجديدة New Darwinism والتي تقوم على مفاهيم (الطفرة) والاختلاف ومجموعة الأفراد والتوارث والعزلة والنوع. . . ويمكن القول انها جاءت لوضع تفسير (للتبديل alteration) التدريجي والمتضاعف في مجال التغيير في التركيب والوظيفة والعادات خلال الاجيال المتعاقبة للكائنات الحية. . . وهي ترى أن (الأنواع) نشأت من تراكم عدد كبير جدا من الطفرات الصغيرة لا من طفرة كبيرة واحدة أو أكثر، ولذلك فالنظرية تشك في ظهور (نوع) جديد في جيل واحد. . . وتفضل النظر إلى الطفرات البالغة الصغر - والتي لايمكن الاحساس بها - على أنها وراء ظهور (نوع) جديد بمساعدة عامل الانتقاء الطبيعي. . . وبذلك لاتحفى النظرية التركيبية الحديثة تأثرها بالداروينية القديمة والحديثة في تأكيد دور الانتقاء الطبيعي في التطور^(١). . . ، ومعروف أن فكرة الانتخاب الطبيعي قد بنيت، على أساس التشابه

(١) انظر في ذلك : د. علم الدين كمال - المرجع السابق ص ٩٨٥.

مع الانتقاء الذي يقوم به البشر: فعلى نحو ما يفعل مربو الماشية لتحسين انتاجهم بإجراء عمليات انتقاء منظمة، تنتج الطبيعة انواعا جديدة عن طريق فرز الافراد والانتخاب فيما بينهم. فمن كان يحمل منهم تغيرات مواتية بقى وتكاثر ومن كانت تغيراته غير مواتية اختفى وانقرض. فإذا تصورنا أن نظاما كهذا للانتخاب الطبيعي ظل يعمل طوال الآف الأجيال فمعنى ذلك أنه تكونت عن طريق تراكم التغيرات الصغيرة مجتمعات جديدة (أي أنواع جديدة)!!!

وكان [داروين] يسلم بوجود عدة عمليات تطورية أخرى (الانتخاب الجنسي أي حسبما كان الفرد ذكرا أو انثى، واستعمال الأعضاء وعدم استعمالها، والأثر المباشر للظروف...) ولكنه كان يرى أن الانتخاب الطبيعي هو الذي يلعب الدور الرئيسي. والحق أن هذه النظرية لم تكن قد أثبتت شيئا من فرضياتها كما اعترف بذلك داروين. ذلك أنه كثيرا ما تردد بين اعتراضات أخرى اعتراض مؤداه أن أحدا لم يَرَقَط نوعا يتحول إلى نوع آخر. ولم يكن [داروين] أبداً على حق عندما قال ان تفسيراته قد أوضحت كما هائلا من الحقائق التي شاهدها المتخصصون في علمي الأحافير والأجنة وغيرهما من فروع العلم. وقد عارض هذه النظرية الهدامة كثيرون من رجال العلم، غير أنها نجحت بعد بضع سنوات في إرساء قواعدها في العديد من البلدان بعد أن احتضنها أساطين اليهودية في العالم.

ومع ذلك فإن نظرية داروين يشوبها عديد من مواطن الضعف. ويعود ذلك بصفة خاصة إلى أن المعارف عن علم الوراثة في عصر [داروين] كانت محدودة للغاية. فدراسات [مندل] الشهيرة عن النباتات الهجينة، وهي الدراسات التي أذنت بمطلع علم الوراثة الحديث، لم تنتشر إلا في عام ١٨٦٥ كما أن [داروين] لم يستخدم أيا كان من الأفكار التي وردت فيها.

وسرعان ما انبرى آخرون من رجال العلم لتفنيد النظرية المعروضة في كتاب أصل الأنواع ونقدها. فبينما قال [داروين] مثلا بوراثه الصفات المكتسبة، جاء العالم الألماني [أوجست وايزمان] في السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر وأكد أن ذلك مستحيل. وكان هذا سببا في نبذ الأفكار الخاصة باستعمال الأعضاء وعدم استعمالها.

وفي سنة ١٩٠٠، شهد علم الوراثة انطلاقة جديدة بفضل إعادة اكتشاف «قوانين

مندل على أيدي [تشرماك] النمسوي [وكورنز] الألماني [ودي فريس] الهولندي . وتوقع بعض العلماء أن هذا التقدم سوف يسهم على الفور في تحسين نظرية «داروين» . ولكن على النقيض من ذلك كان فرصة للخلاف حول طبيعة التغيرات التي ينهض عليها الانتخاب الطبيعي . فمن رأى انصار مذهب [مندل] أن هذه التغيرات فجائية وعارمة ، وكان «هوجودي فريس» مثلاً يعتقد أن «التطور» يمكن أن يفسر «بطفرات» غير متصلة ، أي «بقفزات» هي التي تنتج فجأة اشكالا جديدة (التحولية) . أما [داروين] فقد قال بأن التطور يتحقق على نحو متصل عن طريق تراكم التغيرات الطفيفة .

● وانهدمت نظرية «لامارك» التطورية

كان العالم الفرنسي : [جان بابتيست دي لامارك] قد قدم نظرية عن «التغير التطوري» سنة ١٨٠٩ في كتابه : [الفلسفة الحيوانية] . ويلخصها في أن المخلوقات أثناء الحياة تكثر من استعمال بعض أجزاء من جسمها وتقلل من استعمال أجزاء أخرى ، وأنه تبعاً لذلك تنمو الأجزاء التي يزداد استعمالها في حين أن تلك التي يقل استعمالها تضمّر ، وأن نسلها يرث عنها ذلك سواء في النمو أو الضمور .

وقد تحطمت نظرية [لامارك] لارتطامها بعدة حقائق أهمها :

كانت نظرية [لامارك] تتخيل وجود دافع يقوم به الكائن الحي رغبة في التطور، ولكن ذلك لا يفسر مثلاً تولد الألوان الوقائية للحيوان ، فكثير من الحشرات تأخذ لون البيئة التي تعيش فيها ومما لا ريب فيه أن الزرافة مثلاً لم تحاول أن تزيد جلودها بقعاً لتورث نسلها بقعاً أحسن .

أن الصفات المكتسبة - بكل بساطة - لا تورث كما زعم لامارك ، وهل أفاد ختان الذكور مثلاً جيلاً بعد جيل بعد جيل في وجود جيل يولد به طفل مختون ، أو حتى بزائدة جلدية أقصر من المعتاد؟ . . .

. بالطبع لا

وحدث نتيجة ذلك أزمة في الفكر البيولوجي في مستهل القرن العشرين ولم تحل حقا إلا في غضون الفترة ١٩٢٠ - ١٩٣٠ عندما وضع (ر.م. فيشر، وس. رايت،

وج. ب. س. هالدين اسس علم الوراثة في مجتمعات الأحياء .
فبفضل هذا العلم الذي يدرس كيفية انتشار الوراثة في مجتمعات الأحياء ، صار
من المستحيل عرض نظرية «داروين» بشكلها القديم المهلهل .
وللأسف ظهر قرابة عام ١٩٤٠ [تصور هدام] جديد يعرف عادة باسم «النظرية
التوليفية» للتطور. وارتكزت أساسا على أبحاث «ثيودوسيوس دوجانسكي»
«وأرنست ماير» «وجورج جيلورد سيمبرن» . وتعرف فيها التغيرات العزيزة على نفس
«داروين» ، بأنها [ظفرات] أي أحداث تقع [مصادفة] وتؤثر في بعض الوراثة . ولم
تأخذ النظرية الجديدة في اعتبارها هدم التقدم الذي أحرز في علم [الوراثة] فحسب
بل أيضا مختلف النتائج المتعلقة بفكرة النوع ، والجغرافيا الحيوية ، وعلم الأحافير وما
إلى ذلك . وقد لقيت معارضة شديدة من كثير من العلميين وهي تنطوي في خطوطها
العريضة على التفسير المادي عند [الداروينيين المحدثين] لنشأة الأحياء وتطورها .
وقد أتاحت التطورات الأخيرة في البيولوجيا الجزيئية والكيمياء الحيوية الفرصة لنقد
ودراسة ظواهر التطور المزعومة وتدقيقها . وغدا من الممكن ان نتابع عن كثب مسارات
السموم الداروينية الحديثة ونعد لها الرد المناسب .

وبشكل عام أثبتت النتائج التي خلصت إليها مختلف علوم الحياة خطر المخططات
النظرية المذكورة آنفاً . على أنه لا ينبغي أن نتخيل أن جميع المشكلات قد وجدت
حلولاً وان النظرية الداروينية الجديدة (أو الشكل الجديد للداروينية الجديدة) قد
لفظت أنفاسها النهائية وأردمت فوقها أشلاءها تماماً . فالفكر الهدام لا ييأس أبداً .
فقد خرج أحد النشويين المحدثين إلينا قائلاً بأن نوع [الانسان] سابق لأنواع
القردة بمئات الألوف من السنين ، وأن القردة العليا أناسي ممسوخة فقدت أوائل
الصفات البشرية ، وانحدرت في الصفات العقلية والجسدية إلى ما دون تلك المرتبة
بكثير أو قليل .

وصاحب هذا الرأي هو الدكتور [هرمان كلاتش] Klaatsch ، الذي كان يدرس
علم الإنسان بجامعة «برسلو» قبل الحرب العالمية الأولى ، وعنده أن الإنسان المعروف
بانسان [جاوة] الذي وجدت بقاياه المتحجرة وأطلق عليه العلماء اسم «Pithecan
thropus» هو المرتبة الوسطى التي صعد منها خلفاؤها إلى ما فوقها وهبط الخلفاء

الآخرون إلى مادونها .

ويزعم [هرمان كلاتش] هذا أن الانسان ينتمي إلى أصول متعددة، ولاينجم كله من أصل واحد، ويمعن [كلاتش] في تحريفه وضلاله، فيقول :
« فالمغوليون وقرد الأورانج من أصل واحد، وزنوج افريقية والشمبانزي والغوريلا من أصل آخر». ولكنه زعم فاسد لاتؤيده المقابلة بين هذه الأحياء في الخصائص التشريحية .

ولكن مايبشر بالخير أن المفاهيم التي تبدو بسيطة مثل [التكيف] أو [الانتخاب الطبيعي] تتعرض اليوم . لنقد تتفاوت حدته . من ذلك مثلا أن بعض البيولوجيين يلفتون النظر إلى أن من العسير أن نحدد على وجه الدقة ما إذا كانت هذه الوراثة أو تلك قد انتخبت حقيقة بسبب «فائدتها» البيولوجية . ويحمل بنا أن نذكر في هذا الصدد النظرية «الحيادية» للعالم الياباني [م . كيمورا] التي تقول بأن الكثير من الوراثة ليست مفيدة ولا ضارة ولكنها محايدة من وجهة النظر التطورية . فضلا عن ذلك قدم العالمان الأمريكيان جولد Gould وألدرج Eldredge مؤخرا نظرية (تعرف باسم نظرية «التوازنات المنقطعة» تحالف الأفكار الداروينية عموما . وفي رأيها أن التطور لم يحدث على نحو منتظم ومستمر بل على هيئة «قفزات» تطويرية مفاجئة نسبيا . وتدور المناقشات حاليا بشأن هذه النقاط وكثير غيرها . لذلك فمن المحتمل أن تتناول [النظرية الداروينية الجديدة] في المستقبل القريب يد التعديل والتنقيح ، بل قل الهدم والتدمير .

● وثمة فرع علمي جديد يحتل بدوره مكانه في التحريف [الدارويني] وكثر الحديث عنه في الأيام الأخيرة : ذلك هو البيولوجيا الاجتماعية Sociobiology وهو يستهدف الاستعانة بالبيولوجيا في تفسير السلوك - الاجتماعي للحيوان بوجه عام وللانسان بوجه خاص . وكان للعالم الأمريكي إدوارد . ويلسون دور أساسي في نشأة هذا العلم (البيولوجيا الاجتماعية : التوليفة الجديدة، ١٩٧٥) فقد صاغ نظرية شديدة التطرف تستعيد الموضوعات الأساسية للداروينية وتستند فيما تستند إليه إلى علم الوراثة والايكولوجيا وعلم الأخلاق . ووفقا لهذه النظرية، فإن لجميع أنماط السلوك الاجتماعية أساسا وراثياً ويجب أن تفسر بالاستناد إلى الافتراض الأساسي التالي : ان

كل شيء يتم، من وجهة النظر البيولوجية، كما لو كانت أفراد الكائنات لا عمل لها سوى تأمين التكاثر الأقصى للوراثات. وبعبارة أخرى، تتسم الوراثة «بالأنانية» لأنها تستغل الحيوانات (الحشرات القارضة، الأوز، الماعز، القردة، البشر...) لكي تحقق هدفها في التكاثر، وينبغي أن تفهم ضروب السلوك الاجتماعية (السلوك الجنسي، العدوان، الدين...) على أنها استراتيجيات للحصول على «المكسب الوراثي» الأمثل!!!.

● بيد أن [إدوارد ويلسون] لم يقدّم بوضع تفسيرات مقبولة لنظريته، وكل ما فعله هو مجرد تخمينات قدمها انطلاقاً من الفكرة القائلة بأن البيولوجيين الاجتماعيين هم أقدر الخبراء في مجال السلوك الإنساني. وأنه ينبغي لهم أن يصبحوا «معلمي الأخلاق الجدد» وأن يمسكوا بأعنة القيادة في تخطيط المجتمع، غير أن هذا المشروع المشبوه يثير العديد من الأسئلة.

ذلك أنه يجب أولاً أن يُعرف ما إذا كان هذا الشكل الجديد للداروينية ينهض على أسس متينة، وهذا أمر يكتنفه الكثير من الشكوك. فلم يثبت قط أنه توجد وراثات للإيثار، أو وراثات للامتثالية، أو وراثات للجنسية المثلية كما أنه ليس من السهل أن يعزى تحضر المجتمعات البشرية (وهو سريع جداً في بعض الأحيان) إلى التطور البيولوجي المذكور وسرعته فالمقارنة بطيئة للغاية، ولا جدوى من وراثتها.

وهناك سؤال آخر يطرح نفسه على الفور: هل يحق للعلميين (أي للبيولوجيين في هذه الحالة) أن يملوا على الإنسانية معايير أخلاقية، وسياسية؟... ومن مساوئ النظرية التي ينادي بها [ويلسون] أنها تذكرنا بأن هذه القضية الكبرى ليست جديدة. فقد سبقه داروين إلى طرح نظريته المشبوهة في التطور على النوع الإنساني. وأدى به ذلك إلى الحديث عن «الأجناس الأدنى» وإلى أن يعلن أن المرأة هي أيضاً أقل من الرجل ذكاءً وابتكاراً وشجاعة. وكان من السهل، انطلاقاً من هذه النقطة، أن تصاغ الحجج «العلمية» تأييداً للعنصرية وللتفرقة بين الجنسين. وعلى نحو مماثل يمكن أن تسفر فكرة «الانتخاب» ببساطة عن مشروعات رهيبه في تحسين النسل تستهدف إنتاج مجتمعات من «الإنسان الأعلى».

ومن المستبعد أن «داروين» لم يكن يقصد إلى ذلك. ولكن التاريخ ينبئنا بأن عدداً

من المذاهب الفكرية الخطيرة كثيرا ما نمت حول أفكار «داروينية» تكتنفها بعض الشكوك . وإذا كانت هناك دروس يمكن استخلاصها من تلك المذاهب الهدامة فإن قيام النظريات التطورية ليس «مغامرة علمية ساقطة» فحسب بل هو أيضا مشروع هدام يهيم الانسانية عن كذب وعلى نحو ملموس . وعلى ذلك فإنه ولئن كان علينا ان نبدي رفضنا لكل من ألقى شعاعا من الضوء - ابتداء من انكسيمندروس إلى اليوم - على أصل الحياة وعلى أصولها ذاتها، فعلينا في الوقت نفسه ألا ننسى أن النظريات ما هي إلا كيانات من صنع الانسان، فهل نترك العلم الحقيقي الذي جاء من الله خالق الانسان والأكوان، ونتمسك بخيوط واهية من نسج خيال الانسان المخلوق وأوهامه؟
... بالطبع لا ... وألف لا ...

أصل الأجناس البشرية حسب مفهوم النظرية التركيبية عند «بولك»

جاءت النظرية التركيبية الحديثة للعالم الألماني «بولك Bolk» متخذة من ظاهرة النضج الجنسي Sexual maturity مبررا لاثبات (احتمال) ارتقاء الانسان من (القردة)^(١)؛ ولكن فكرة [التطور الارتدادي Regressive] تهدم ذلك الرأي وتقول أن التطور في الثعابين مثلا حدث من سحالي لها أطراف وتعتبر أكثر تعقيدا في وظائف أعضائها البيولوجية، والحيتان التي لا توجد بها أطراف خلفية نشأت من ثدييات بها زوجان من الأطراف، ومعظم الحشرات غير المجنحة انحدرت من حشرات مجنحة . . . وبذلك تختلف هذه (الفكرة) عن ما تقول به بل وتؤكد النظرية التركيبية الحديثة من أن (الأنواع) الجديدة لا تتطور من الأنواع الأكثر تقدما والمتخصصة دائما تتطور من الأنواع (البسيطة) وغير المتخصصة، مستشهدة بتطور الثدييات من مجموعة الزواحف الصغيرة الحجم وغير المتخصصة وعدم تطورها مثلا من الدينوصورات Dinosaurs وترى النظرية أن (التطور) يحدث في بعض الأزمنة الجيولوجية بسرعة أكبر من حدوثه

(١) يقول بولك «Bolk» أنه يحدث أثناء الطور البرقي larval stage أو حينما يكون الحيوان مازال صغيرا نضوج جنس في شكل (طفرة) قد تكون وراء حدوث التطور في الكائنات .

في أزمنة أخرى وتقول أنه يوصف - في وقتنا الحاضر - بالسرعة نظرا لظهور أنواع كثيرة وانقراض أنواع أخرى متعددة. لكن [بولك] يمضي في نظريته الهدامة عن التطور قائلاً:

● «ومنذ عصر [داروين] إلى اليوم، يزداد عدد الأحافير التي تكتشف وتعرف المزيد عن سلوك الكائنات الحية وتأثير بعضها في بعض، وغدت - التفاصيل عن حقيقة التطور - أي الكائنات انحدرت من وعبر أي صنف من المراحل الوسيطة - أكثر وضوحاً...!!! ثم يقول:-

... «وفضلاً عن هذا وجد أن الانتخاب الطبيعي لم يجر مجراه دائماً على نحو تلقائي مؤكد، وذلك نظراً لوجود عوامل أخرى ذات شأن. فمثلاً وجد أن الصدفة تلعب دوراً أخطر مما كنا نظن. فحيثما توجد «مجتمعات» صغيرة من نوع معين، ربما يعود الأمر إلى أن الطفرات التي لم تكن مفيدة بصفة خاصة قد ترسخت لمجرد أن بضع ضربات من الحظ قد ضمنت أن يكون البقاء من نصيب أولئك الأفراد الذين يملكون هذه الطفرات. والحق أن بعض العلماء، في أيامنا هذه، مثل استيفن جولد، يبنون تفكيرهم على افتراض أن التطور يمضي بطيئاً جداً معظم الوقت ولكنه يحدث بسرعة فائقة في ظل الظروف الاستثنائية»... ويتابع [بولك] آراءه الهدامة في التطور قائلاً:

... «وحيثما يوجد (مجتمع) ضخم من نوع ما، فقد يرجع الأمر إلى أنه ما من طفرة تستطيع أن ترسخ إزاء وجود أفراد عديدين بطفرات أخرى. والأعجب من ذلك أن بضع ضربات من الحظ هنا أو هناك لن تكون كافية لدفع التطور في هذا الاتجاه أو ذاك. ومن ثم فقد يستمر النوع دون تغير يذكر لعدة ملايين من السنين». ثم يقول [بولك]:

... «ومن ناحية أخرى، إذا عزل (مجتمع) صغير نسبياً من ذلك النوع في بيئة قاسية، زاد كثيراً احتمال أن تسبب الصدفة المحضنة اندثار بعض الطفرات فيه تماماً وبقاء بعضها الآخر بأعداد كبيرة، وفي ظل هذه الظروف، يكون التطور أشد سرعة وقد تتشكل أنواع جديدة في بضعة الآف من السنين. وقد تكون فترات التغير السريع هذه هي العامل الرئيسي لدفع عجلة التطور إلى الأمام»... .

● وأخيراً يلخص [بولك] ملامح فكره «الدارويني» في الآتي:

■ يمكننا بناء على الوضع المعرّف في ١٩٨٢ ، أن نوجز موقف العلماء من التطور البيولوجي على النحو التالي :

١ - كل العلماء تقريبا مقتنعون بأن التطور البيولوجي قد أخذ مجراه عبر فترة تقدر بالآف الملايين من السنين وان جميع الأنواع الحالية بما فيه [الكائنات البشرية] قد تطورت عن أنواع أخرى كانت موجودة من قبل !!!

٢ - كل العلماء تقريبا مقتنعون بأن الطريقة التي حدث بها التطور البيولوجي هي في جوهرها الطريقة التي وصفها تشارلز داروين ، وبأن الانتخاب الطبيعي بين الانحرافات الفطرية هو العامل الأساسي .

٣ - العلماء الذين يدرسون التطور اليوم يختلفون فيما بينهم اختلافاً شديداً حول بعض التفاصيل الخاصة بآليات التطور . ولسنا بقادرين على التنبؤ الآن بمن سيعقد له لواء النصر في هذه الخلافات . ومع هذا ، وأيا كان الطرف المنتصر ، فلن يؤثر ذلك على القبول العام لنظرية داروين ، وما أدخل عليها مؤخراً من تحسينات كأساس لوصف كيفية تطور الحياة على الأرض .

أما آرثر كيث [أكبر النشوئين المحدثين إسفافا] ، فقد قال في كتابه شجرة نسب الإنسان . . .

«ان الأستاذ وود جونس لفت النظر إلى بقاء علامات كثيرة في تركيب الانسان قد اختفت من تراكيب القردة العليا وعامة القرود ، وإن هذه القردة العليا وسائر القرود قد احتفظت بعلامات شتى زالت من تركيب الانسان ، ولست أرى أن هذه الشذوذات تستدعي تعديل شجرة النسب التي رسمتها هنا (!!!!) . . . ولكني أرى أن تفسيرها ينبغي أن يلتمس في زيادة العناية بفهم قوانين الوراثة ، فإن الكائنات الحية أشبه بأشكال الفسيفساء المتداخلة ينتقل بعض أنماطها بالوراثة ويختفي غيرها . . . فالغوريلا تولد في أكبادها الفصيصات التي تتولد في أكباد القرود ، بينما تقترب كبد الأورانج أشد الاقتراب في تركيبها المتناسك من كبد الانسان ، ولكننا ينبغي أن نفترض أن هذين الحيوانين تحذرا منذ عهود بعيدة من سلف مشترك يشبه تركيب كبد كبد الجيبون» . . .

ثم يستطرد [آرثر كيث] في تخريفه إلى بيان الشبه بين الانسان والقردة الأفريقية

فيقول . . . « أن الانسان له على جانبي تجويفه الأنفي سلسلة من الجيوب تسمى بأسماء العظام التي تجاورها . . . ولا يسعنا أن نعتقد أنها تتولد على حدة في نوعين من الحيوان، ويوجد هذا النمط الانساني في كل من الشمبانزي والغوريلا، وإن كانت الجيوب في الغوريلا وحدها قد اتخذت لها نمطاً آخر، ومن الجائز أن نمطاً آخر كان موجوداً في أنف سلف الأورانج، ويصعب التحقق منه بعد انتكاس تركيب الأنف كله في هذا العضو الكبير من أعضاء الحيوانات القردية العليا وقد عرف أن دم الغوريلا ودم الشمبانزي أقرب استجابة إلى الانفعال بدم الانسان من جميع الفقاريات، وتبلغ العلامات المشتركة بين الانسان وكل من الشمبانزي والغوريلا نسبة إلى سائر العلامات التي أخصبتها تقدر بثمانية وسبعة أعشار في المائة، ولهذا أتوقع أن بقية من بقايا المتحجرات تنكشف يوماً في أفريقية تعتبر السلف المشترك بين الغوريلا والشمبانزي والانسان» . . .

● الرد العلمي على تحريف [آرثر كيث]:

سترك البروفيسور [شايان بنشر] pincher ، في كتابه عن تعليل التطور يرد على تحريف «آرثر كيث» قائلاً:

. . . «لا احتمال لتسلسل الانسان من القردة كما نعرفها، لأن القردة منفردة بتركيب خاص يستحيل تشريحياً أن يتطور منه تركيب الانسان، إذ كان الانسان قد نما له خلال مليون سنة دماغ أكبر وتوأم أقوم ويد - فوق هذا وذلك - أصلح للتناول والتصرف بالاستعمال» . . .

[هكسلي] . . . وكتابه: «معرفة الظواهر الحية» .

وضع البروفيسور [هكسلي] كتاباً عن النشوء والارتقاء جاء فيه:

. . . «من السهل أن نبين أن الانسان بالنظر إلى المخلوقات لا يختلف عن الحيوانات التي هي دونه أو قريبة منه، أكثر مما تختلف هذه الحيوانات عن التي من صنفها . . . ونحن لا نغلو في القول بتسلسل الانسان من القرد، وإنما ما نذهب إليه هو: أنه مهما كان من الفروق بين الانسان والقرد الراقي فإن ذلك لا يكون شيئاً قبالة الفروق التي تقع بين هذا القرد الراقي، وبين غيره من القروء المنحطة . . . فقد قال

«ارنست هيكل» بتسلسل الانسان عن القرد^(١)، وكذلك كان يعتقد استاذة، فيرضو «بنفس الفكرة» ثم شك فيها ثم عارضها في آخر أمره بمتتهى القوة . . . وكان وراء - تحريم تدريس نظرية داروين في المدارس بالمانيا حتى اصدر البرلمان قرارا بذلك - ويرى «ريشنيباخ» أحد زعماء التجريبية العلمية أن نظرية التطور بأسرها مبنية على أدلة غير مباشرة . . . ويتساءل . . . «هل سيكون من الممكن في أي وقت إيجاد ادلة (مباشرة) لها عن طريق (انتاج) انسان في أنبوبة اختبار مثلاً»؟ .^(٢).

ملامح الفكر الدارويني عند جورج كوفييه

حاول [جورج كوفييه] تفسير التطور بحدوث عدة كوارث أفنت الأنواع الأولى البدائية وأدت إلى ظهور أنواع جديدة حتى وصلنا إلى ما نحن عليه الآن . . . وقد تقدم كوفييه بعدة فرضيات بهذا الشأن، حتى وضع صياغة تصور عام لنشأة الانسان يمكن تلخيصه في الآتي:

١ - لقد قلبت الاكتشافات الأخيرة رأساً على عقب المعايير الزمنية التي قبلت لزمن طويل والتي كانت تشير إلى أن الانسان الحديث قد نشأ منذ ٣٥٠٠٠ سنة قبل الميلاد، حيث أظهرت هذه الاكتشافات بجلاء تواجد الانسان الحديث لا انسان النياندرتال، منذ أكثر من ٦٠,٠٠٠ سنة مضت. وأن هؤلاء الناس قد عاشوا في أوروبا بالإضافة إلى أفريقيا والشرق الأوسط وربما آسيا.

٢ - أن الثقافة الموسستيرية، نسبة إلى ما عثر عليه من صناعات خاصة بالانسان في «لاموستير» في جنوب فرنسا، يرجع تاريخها إلى ما بين ٩٠,٠٠٠ و ٣٥,٠٠٠ سنة قبل الميلاد وكان علماء الأنتروبولوجي سابقاً يربطونها بإنسان النياندرتال. ولكن الأشياء التي صنعها الانسان الموسستيري قد وجدت في أماكن مثل قافطة بفلسطين ولم تكن من

(١) ارنست هيكل - فصل المقال في فلسفة الشوء والارتقاء - ترجمة حسن حسين - ط٢ - مطبعة الشباب سنة ١٩٢٤ ص٥٦ ومقدمة المترجم ص٦٦.

(٢) دكتور - محمود عثمان - الفكر المادي الحديث وموقف الاسلام منه الانجلو ص١٥٠، ١٥١ نقلا عن هانز ريشنيباخ - نشأة الفلسفة - ترجمة د. فؤاد زكريا - دار الكاتب العربي للطباعة والنشر - سنة ١٩٦٨ ص١٧٩.

صنع انسان النياندرتال بل من صنع الانسان الحديث .

٣ - أن ادوات . . . الخ من عصر ما قبل التاريخ من نوع العصر الحجري القديم الأعلى - وهو العصر الذي سبق تحديده زمنيا فيما بين ٣٥,٠٠٠ و ٩,٠٠٠ سنة قبل الميلاد - قد عثر عليها في «سيرنياكا» (وهي منطقة «شمت» في برقة بليبيا) كما عثر عليها في بولندا، وأظهرت طرق تحديد العمر الزمني لها بواسطة الكربون ١٤ المشع أنها ترجع إلى ٣٨,٠٠٠ سنة قبل الميلاد، وبهذا تتداخل مع عصر انسان النياندرتال .

٤ - وعلى هذا فمن المؤكد أن الانسان الحديث وإنسان النياندرتال قد وجدا معا لسنوات عديدة، وإن حضارات العصر الحجري القديم الأعلى والموستيري تداخلت زمنيا .

٥ - يبدو أن الانتقال من العصر الحجري القديم الأوسط إلى العصر الحجري القديم الأعلى قد حدث في عدد من المناطق وربما تطورت نسبة من سكان النياندرتال إلى شيء ما أقرب إلى الانسان الحديث، وربما كانت هناك في أماكن شتى بعض «العشائر» من الانسان الحديث الذي بدأت صناعته الحجرية في العصر الموستيري أولا وتقدم فيما بعد إلى العصر الحجري القديم الأعلى . . وهذا ما يعرف بنظرية «المراكز المتعددة» .

٦ - ويظهر ان علماء الانثروبولوجي يقبلون الآن بما يشبه اليقين أن إنسان النياندرتال الأوربي التقليدي من النوع الذي عثر عليه في مدينة [لا شابل أوسانت] بفرنسا يجب أن يستبعد من أن يكون السلف المباشر للانسان الحديث .

٧ - ويظهر أيضا أنه قد أصبح من المقبول أن خصائص معينة للانسان الحديث قد ظهرت منفصلة أو في مجموعات شتى على نطاق متسع من الأماكن المختلفة جغرافيا وعلى مدى فترات مختلفة . (يؤيد هذا الرأي بقايا الحفريات التي عثر عليها في مدينة «أومو» في أفريقيا .

٨ - وفي مرحلة البحوث الحالية، مازال محتملا أن هناك عددا من الفروض الخاصة بأصل الانسان :

فطبقا للنظرية التقليدية، فإن الإنسان الحديث تطور في منطقة شاسعة تتكون من

شرق أوربا وغرب آسيا، من نوع غير مميز من إنسان النياندرتال وهذه النظرية تعرف بنظرية «الانتشار الوحيد المركز».

وعلى أي حال فإن الدكتور ليكي يرى أن انفصاما قد حدث في جنس الانسان في العصر البلستوسيني الاسفل (حوالي ٢-٣ مليون سنة مضت) في «إنسان جاوة» وفي انسان النياندرتال.

أن أغلبية علماء الانثربولوجي يقبلون وجهة النظر القائلة بأن نظرية التطور المتعددة المراكز هي الأكثر ملاءمة لتفسير وجود حفريات بشرية في أماكن وأزمان مختلفة، وعلى أية حال فليس من المؤكد أن تسلسل السلالات اسهم مباشرة في الارتقاء إلى الشكل الحالي للانسان.

٩ - أن الدليل على أن الأنواع المبكرة للانسان الحديث وانسان النياندرتال ليست من أنواع مختلفة ربما يمكن أن توجد في اكتشاف الاجناس الوسيطة في الشرق الأوسط التي ربما نتجت من الهجين حسب «نظرية توما».

١٠ - أن بعض علماء الانثربولوجي يرون أن الاختلافات في البيئة والمناخ قد لعبا دورا هاما في تطور الانسان طبيعيا وثقافيا في المناطق ذات المناخ المتطرف وان كان البعض الآخر يؤكد أن التطور الطبيعي قد تحدد بالحضارة أكثر مما هو بالبيئة.

المؤشرات النهائية لآراء الداروينيين المحدثين :

ما أن أعلن علماء [الانسان] عن وجود حلقات مفقودة حتى الآن بين الانسان والقرود . حتى ذهب علماء الحفريات كل مذهب في سبيل البحث عن هذه الحلقات . . في الجماجم والعظام وبقايا الانسان المتناثرة في أنحاء العالم القديم، من جزر جاوة إلى كينيا، وروديسيا والصين، وعثروا على جماجم وعظام متناثرة يرجع تاريخها إلى ما يقرب من خمسة عشر مليوناً من الأعوام . . .

فماذا قالت تلك العظام والجماجم ؟

قالت . . . على لسان علماء عظام من أمثال الدكتور [رونالد جونسون] أستاذ علم الأجناس البشرية، والبروفيسور [جال بيفتو] رئيس المجمع العلمي الفرنسي، والدكتور [بير بيرسون] الاخصائي في علم الوراثة في جامعة اكسفورد، والبروفيسور

[جوهانز هودبر] العالم الذري في «سنمبال - بسويسرا» . . . وغيرهم كثير كثير . . .
أن الحفريات جميعها تدل على وحدة الأجناس البشرية ، واستقلالها عن غيرها من
الكائنات الحية ، وأن نظرية [داروين] ساقطة ولا أساس لها من العلم . وهاهو العلم
يثبت أن الانسان من ملايين السنين خلق خلقاً سويماً على أحسن وجه وأتم صورة . . .
أليس في ذلك توافقيه مع قوله تعالى :
﴿ لقد خلقنا الانسان في أحسن تقويم ﴾ [التين / ٤]

الفصل الثامن
الطريق نحو التوافقية بين العلم والقرآن
في معالجة أصل الأجناس البشرية

- قصور العلم وشمولية القرآن .
- بخنر وأصل الأجناس البشرية .
- التوافقية بين العلم والقرآن في أصل النشأة من الماء .

الفصل الثامن

الطريق نحو التوافقية بين العلم والقرآن في معالجة أصل الأجناس البشرية

مع أن «داروين» أعلن بأن مذهبه في النشوء والارتقاء لا يعارض الايمان بوجود الله على صورة معينة، لكننا لن ننسى أو نتهاون أو نتغافل طابع نظريته المادي الاحادي المتطرف، الذي أفسد به عددا لا يستهان به من المفاهيم البشرية حول نشأة الحياة . . . لن نتغافل عن إصراره على إدراج الانسان ضمن قائمة الأحياء التي شملها قانون التطور العام . . . كما لا يمكن أن نسامحه في (تعليق) مسألة «النفس» الناطقة واعتباره أن الحياة النفسية في الانسان - كما في الحيوان . مرتبطة بفعل الأعضاء ، وقوله بتطورها من (الدرجات الدنيا) إلى (الدرجات العليا) على هذا الاعتبار^(١) . . .

ولقد كشف الباحثون أن [الدارونية] قد استغلت في محيط السياسة أسوأ استغلال مما أدى إلى سيادة جو مضطرب اطلت منه مذاهب العبقرية وتقديس الجنس ، فقد كان قول داروين بأن العناصر الضعيفة يجب أن تموت أو تستأصل ، قد استغلته حركة الاستعمار العالمي كنظرية لتطبيقها على البلاد المحتلة .

ولاشك أن نظرية التولد الذاتي التي قال بها «دارون» و «ولامارك» و«ارنست هيكل» قد اتخذت منطلقا إلى الاحاد، وجعلها البعض سندا في إنكار العقيدة الدينية واتخذت منها فلسفة لنفي [الخالق]، وإعطاء صفة القادر على كل شيء ، ومن ثم دعا «هيكل» الملحد إلى تأليه الطبيعة وانكار وجود [الله] تعالى وقال بوحدة الوجود .

واتخذت فكرة التطور وسيلة للقضاء على الأديان والقوانين وذاتية الأمم باعتبار أن كل شيء بدأ ناقصا تافها يثير السخرية والاحتقار ثم تطور، فلا قداسة إذن لدين ولا

(١) د . عبد العليم عبد الرحمن خضر - المرجع السابق ص ٧٩ .

لوطنية ولا لقانون ولا لفن ولا لمقدس من المقدسات . وظهر كأنها أخرجت النظرية لرجال السياسة وعلماء الاجتماع ليقنعوا بها أكثر مما أخرجت لعلماء الأحياء ، فقد تركت آثار الصراع من أجل البقاء في أوساط السياسة والحرب ، وكان لمبدأ بقاء الأصلح أثره في مخططات الاستعمار وإبادة الأجناس المغلوبة على أمرها .

وظهرت من خلال ذلك نظرية القوة والتميز العنصري والشعوب المختارة كما صيغت نظرية القوة عند [نيتشة] ، ومن ذهب مذهبه من علماء الجرمان وبها انتفع دعاة الارستقراطية فوجدوا فيها سلاحهم فأعلنوا أنفسهم بأنهم الممتازون والمختارون الذين ورثوا مزايا الاجداد سادة البشر ومالكي العروش وصانعي التاريخ^(١) .

وتلقفها معلنوا الحرب على الأديان فأخذوا يضربون بها في جدران الدين وإعلاء العلم المزيف . وظهر من الداروينيين من ينكر الدين من الأساس .

ومعروف أن التطور قانون اجتماعي وليس قانوناً أخلاقياً ، ويتحرك في دائرة الثوابت ولكنه لا يقتضي مطلقاً تفضيل الطور الأخير على الطور السابق له فليس كل طور أفضل من الطور الذي سبقه ، لأن التطور في الحياة قد يكون ارتقاء وقد يكون تردياً وانتكاساً .

ومن المؤكد أن دارون لم يفهم العلاقة بين الطبيعة والانسان لقصور نظريته وقلة أدلته حول ما أسماه : التنازع «تنازع البقاء» ، وقد حال هذا بينه وبين رؤية التعاون بين الحيوان والنبات الذي هو أوسع وأكبر من التنازع ويرى العلماء أن دارون أخطأ خطأ فادحاً عند ما زعم أن تنازع البقاء هو كل شيء ، أو يكاد يكون كذلك ، وقد تبين للعلماء أن التعاون في الطبيعة أكثر من التنازع بل لا يكاد يكون هناك تنازع في عالم الحيوان بالمعنى البشرى الذي نفهمه هذه الكلمة .

● وهكذا نتوصل إلى فساد [نظرية الانتخاب الطبيعي] التي جاء بها [دارون] ، فقد أعلن العلماء في الأخير أن هذا التفسير الذي تقدمه نظرية التطور والارتقاء ، قد اهتزت أساساته من جذورها فقد طالما انتقد علماء الحياة هذه النظرية . أما في هذه المرة فيبدو أن الهجوم كان صاعقاً بحيث انفتح الباب أمام نظرية جديدة تفسر اختلاف أجناس المخلوقات .

(١) أنور الجندي - سقوط نظرية داروين - دار الاعتصام - ص ١١ .

● لقد تبين فساد [نظرية دارون] التي قال بها حين قال أن الزرافة حين أعطتها الطبيعة ارتفاع القامة، فقد أعطتها الأسقية في البقاء على بقية أبناء فصيلتها، ففي استطاعتها الحصول على الغذاء من لباب الشجر، بينما ظلت الحيوانات الأخرى تقاسي الجوع، فهلك بعضها واندرثر.^(١)

■ وقد رأينا كيف (بقيت) أفكار داروين في نطاق «النظرية» فقط، وشتان بين النظرية العلمية، والحقيقة العلمية. فالحقيقة العلمية هي التي ثبتت نصوصها وموادها بما لا يدع مجالاً للشك فيها. كذلك فالحقيقة العلمية لا تقبل التغيير أو التبديل أو التعديل ومن هنا أقول بإمكانية التقاء (الحقيقة) العلمية بعد صدق نظرياتها وافتراضاتها وتجاربها، مع حقيقة القرآن الكريم. لأن القرآن الكريم هو كتاب الكون المفتوح وهو دستور الإسلام بترائه الشامل. ومنهجه القيم وشرعه المستقيم وفكره المتفتح، وحقائقه المجردة^(٢).

بينما (النظرية العلمية). هي التي لم يقم على صحتها دليل يجعلها غير قابلة للتعديل، أو التغيير أو (التطوير). كذلك فالنظرية لديها القابلية بأن يضاف إليها عناصر أخرى هامة كانت تنقصها، كما أنها تعطينا التفسير الجزئي للأشياء ولا تأخذ شيئاً من منطلق الشمول.

وكانت [النظرية المادية] التي قامت خلال هذه العصور الطويلة على أنقاض نظرية [دارون] ترى أن الخليقة كلها من أصل واحد وأن [الإنسان] فرع من فصيلة الحيوان في أرقى درجاته وهو [القرود]، وقد عارض الباحثون من العلماء البيولوجيين هذا [الافتراض]، ولكن قوى كبرى كانت وراء الانتفاع بالنظرية وتحويلها إلى نظرية [التطور الاجتماعي المطلق] التي اشتقها «هربرت سبنسر» من نظرية التطور البيولوجي وكان لها أبعاد الأثر في معارضة الحقائق الأساسية الجامعة الرابطة بين نظام الثوابت والمتغيرات، من حيث حاولت أن تلقي ظلالاً باطله على أنه لا توجد ثوابت مطلقاً وأن الحياة كلها في تغير دائم وتطور مطلق. وهذا ما ذاع وشاع وسيطر بعد ذلك على مفاهيم النفس والأخلاق والاجتماع^(٣).

(١) المرجع نفسه ص ١٢.

(٢) د. عبد العليم عبد الرحمن خضر - المرجع السابق ص ٨٠.

(٣) أنور الجندى - المرجع السابق ص ٢٠.

● والآن وبعد مرور قرابة مائة عام يجيء العلماء ليعلنوا بطلان هذا كله حيث تعلن جماعة العلماء التجريبيين: في صراحة تامة أنه لا علاقة للانسان بالقرود ولا تجانس بينها.

لقد وقف «جال بيفتو» رئيس المجمع العلمي الفرنسي نصف قرن تقريبا على دراسة [أصل الانسان] واستطاع أن يؤكد أخيرا أن الانسان ليست له علاقة تجانس بالقرود، وهو يثبت بالأدلة أن النظرية القائلة بوجود جذع مشترك يتشعب منه كل من الجنس البشري و جنس القرود الكبيرة لم تزل مفتقرة إلى البرهان الحاسم وستظل كذلك وان هذه المشابهات بين «القرود» و«الانسان» غير كافية للجزم بوجود أصل للانسان والقرود.

وليس من المعقول أن الانسان الحاضر ربما ينحط عن منزلته في غضون ملايين السنين القادمة ليترك المجال لحيوان من الحيوانات ليحل محله ويسيطر على الكون. فهذا الافتراض مرفوض لأن [الانسان] لم يظهر على الأرض بمجرد صدفة بل انها كان بمثابة الهدف الأخير من تنظيم الكون ولذلك ظهر مركبا في أكمل تقويم^(١).

■ فكيف نساوي بين النظرية العلمية و(الحقيقة القرآنية) وكيف نقيم التوافقية بينهما؟ إننا لا يمكن أن نأخذ بأي (نظرية علمية) قد تصدق وقد تكذب . . بل قد تُكذَّب نفسها بنفسها هكذا.

● إننا علميا وإسلاميا في آن واحد لا نقبل بأي (نظرية) مهما كان صاحبها أو ميدانها إلا إذا تأكدنا من صحة مواد تلك النظرية بما لا يدع مجالاً للشك فيها . . . ولن نقبل (علميا وإسلاميا) بأي نظرية حتى تتحول تلك النظرية إلى (حقيقة علمية) . .

فإذا كان السؤال . . ماالنقاط التي اقترب فيها العلم بنظرياته وحقائقه من الحقيقة القرآنية . . كان الجواب «لا» نقاط اقتراب بين حقيقة القرآن ونظريات العلم . . لكن هناك اقتراب ولقاء وتوافقية بين حقيقة القرآن والحقيقة العلمية^(٢) . .

● (قد) تكون الحيوانات انحدرت من حيوانات مثلها سبقتها وتطورت وارتقت . . ولكن ماهي القوة التي تقف وراء كل ذلك وتحركه في دقة مذهلة، وقدرة جبارة نحو

(١) المرجع نفسه ص ٢١ .

(٢) د. عبد العليم عبد الرحمن خضر - المرجع السابق - ص ٥١ .

هدف معين فيه ارتقاء وكمال؟ . .

إنها - بلا أي شك - قوة الله سبحانه وتعالى خالق هذا الكون الذي تعجز عقولنا عن ادراك مبلغ قدرته وعظمته مهما تخيلناها . .

فتطور الكائنات لا يفسر بمثل افتراضات أو تكهنات أو نظريات «داروين» أو غير «داروين»، فما «داروين» وغيره، بل حتى الأنبياء والرسل [وهم أشرف خلق الله جميعا] ما هم الا طين . . تراب وماء لا قيمة له إلا بإشعاع الروح التي هي نفخة من الله سبحانه وتعالى خالق الأكوان ومسير الافلاك . . رب العرش العظيم . .

فالقول الذي يصير عليه (جراهام كانون) بأن في كل كائن حي قوة تدفعه للسير (والتطور) نحو هدف معين يعني بلا جدال وجود قوة إلهية وراء هذه العملية . . وهنا فقط نقول بأنه (يقترّب) من الحقيقة القرآنية . . فالخلق لله وحده . والحيوان لا يتطور إلى (انسان) . . بل على العكس . . ربها ينقلب [الانسان] إلى حيوان إذا انتزعت منه صفات الأدمية التي فطره الله عليها وميزه بها على خلق كثير . . قال تعالى : «ثم رددناه أسفل سافلين»^(١) .

وإذا تأملنا مخلوقات الله من (أدناها) إلى (أرقاها) . . وهو [الانسان] . . وتعمقنا في التأمل في هذا الخلق المتقن الدقيق المتوافق لما وسعنا إلا أن نسجد لخالق الأرض والسموات ومبدعها . . العظيم المتعال . . .

● وبالجملة فقد أصبح العلماء الآن عن طريق الكشوف الأثرية وتقريرات العلم الحقيقي - لا الفلسفة - متأكدون مما جاء به الدين الحق وجاء به الاسلام من أن الانسان خلق مستقلا وأنه سيد المخلوقات وصدق الله العظيم حيث يقول :

﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق﴾^(٢) .

﴿فمنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على رجله ومنهم من يمشي على

أربع ، يخلق الله ما يشاء﴾^(٣) .

(١) سورة التين : (٥) .

(٢) فصلت : (٥٣) .

(٣) النور : (٤٥) .

● لقد تآزر العلم مع أدلة الدين الحق على تأكيد فساد [نظرية دارون] بشقيها، وعلى أنها أسطورة انهارت وصدقت الكشوف الأثرية رأي الدين في أن الانسان خلق من جنس مستقل .

● ان ما أثبتته العلم أخيرا لم يكن مفاجأة فإن علماء كثيرين متجردين أعلنوا أن الأنواع كلها ظهرت إلى عالم الوجود دفعة واحدة كاملة دون سابق إعداد أو خطوات [متوسطة]، فلم يكن هناك حاجة إلى سلسلة من الأجيال المتعاقبة أو [الانتخاب الطبيعي] أو تنازع البقاء، وقد قال بذلك كثيرون من قبل .

ولكن انصار «داروين» وأنصار التطور كانوا كالكلاب الضارية يأكلون كل من يحاول أن يكشف زيفهم في محاولة لثيمة تهدف إلى إفساد الفكر البشري كله وتسميم الأديم الانساني كله بما وراء ذلك من غايات وأهداف، ونحمد الله سبحانه وتعالى أن كشف خطرهم فلقد كان أتباع «داروين» من الملاحدة والفجرة يهدفون إلى تدمير الانسان .

● يقول «أودين لويس»: أن المؤمن يرى كل تطور نتيجة فعل القوة الإلهية في الطبيعة لا نتيجة تطور ذاتي . وأن «دارون» خطر على الدين لأن مذهبه لا يعطي المقام اللازم للعزة الإلهية في تطور الكون، وأن فئات متعددة من الداروينيين الكفرة، تقول بأن الله نفسه من خلق الانسان وأن أصل كل شيء هو الماء، ونسوا، أو تناسوا بأن الله سبحانه وتعالى ليس كمثله شيء .

■ إذا جاء علماء صدق إيمانهم وقالوا بتشابه الحيوانات في الاطار الاساسي لتكوينها . . فإننا نقبل منهم ذلك ونعتبر هذه الجزئية حقيقة تتفق مع إشارة القرآن الكريم إلى ذلك . . يقول سبحانه وتعالى . .

﴿سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض، ومن أنفسهم ومما لا يعلمون﴾^(١) . . فالخالق واحد . . والنشأة واحدة . . فإذا تشابهت الأنواع في الاطار الاساسي لتكوينها عند العلم، فهو اقتراب وتوافق مع ما جاء به القرآن كتاب الله المقروء . لماذا؟

لأن هذا التشابه يدل على وجود أسلوب (واحد) للخلق يبدعه خالق (واحد أحد فرد

(١) سورة يس : ٤٦ .

صمد) فعين القطعة مثلا لا تختلف في تكوينها عن عين البقرة أو الأرنب أو (الانسان)^(١) . . حتى أن دراسة عين البقرة في معامل كليات العلوم تغني عن (قطع) عين الانسان ودراستها، وكذلك الجهاز الهضمي والجهاز العصبي والغدد الصماء وغيرها من الأعضاء في شتى أنواع الحيوانات^(٢) . .

● إذا جاء «داروين» وقال :

ان هناك منافسة شديدة بين أعضاء بعض الأنواع، وخلال هذا الصراع تفرض التغييرات النافعة نفسها على الجسم فيعيش الأصلح للحياة ويموت غير الصالح لها، وينقل الأحياء لا نسألهم التغييرات النافعة، وأن هذا القول يفسر ظهور أشكال حياة جديدة. وإذا أطلق «دارون» على هذا التغيير المزعوم الطارىء لفظ (الاصطفاء الطبيعي)، ولكي يوضح مذهبه يأخذ الزرافة مثلا على ذلك، ويدعي أنه لأسباب غير معلومة ولدت بعض الزرافات باعناق اطول من غيرها بقليل، وانتصرت ذات الأعناق الأطول في صراعها مع الحياة واستطاعت أن تجد غذائها وعاشت بالاصطفاء الطبيعي، ونقلت إلى أنسائها رقابا أطول قليلا، وأن هذه العملية قد تكررت خلال أجيال كثيرة حتى صارت الزرافة كما هي اليوم.

■ حيثذ نقول لـ [داروين] خستت وضللت وأخطأت . . .

. . . هات لنا برهانا واحداً فقط على صدق افتراءاتك ومزاعمك .

. . . بل إننا نتركه لأبناء جنسه أنفسهم يردون عليه بنفس المنهج الذي يؤمن به أهل الغرب فنظرية [داروين] هذه اصطدمت باعتراضات متلاحقة. إذ جاء في كتاب: (علم الأحياء اليوم)^(٣) المطبوع سنة ١٩٦٤ للأستاذين «كلارك ومولد» مايلي:

● «لقد أثار بعض العلماء اعتراضات كثيرة استندوا عليها في رفضهم لنظرية «داروين» رفضاً قاطعاً. . . [أولاً] : لأن النظرية لم تفسر كل عوامل الارث. . ومثال

(١) د. يوسف عز الدين عيسى - التطور العضوي للكائنات الحية - عالم الفكر - المجلد الثالث - العدد الرابع ص ١٠٢ .

(٢) بشير التركي - لله العلم - تونس ص ٦٦ .

(3) Sayles. B. Clarck, Albert Mould-Biology for to day, PP. 201 - 203.

ذلك انها لا تفسر بوضوح لماذا بعض التغيرات إرثية بينما البعض الآخر غير إرثي ، ثم إن كثيرا من التغيرات تكاد تكون ضئيلة جداً ، بحيث لا يمكن الظن بأنها قادرة على مساعدة جسم ماعلى الكفاح للبقاء . [ثانياً]: أن النظرية لا تفسر كيف أن تراكم التغيرات البسيطة المستمرة يمكن أن يؤدي إلى ظهور أجهزة معقدة كالتى تراها الأجسام العضوية للكائنات العليا» .

● ويقول الأستاذ «ميليرش» في كتابه : (قصة الحياة)⁽¹⁾ ما يلي : . . . «أما بالنسبة إلى نظرية [داروين] فيني أرى بأن المشككين على حق في قولهم حينها يقولون : بأنه لا بد للتغيرات من أن تكون فورية حتى يتفجع بها الجسم ليكون حظه أوفر من حظ أمثاله للبقاء حيا وإلا فما الفائدة مما تبذله العين أو أي عضو ظاهر، في مكافحة الهواء ، بانتظار أن يتحول ذلك العضو إلى جناح؟ . . إن الاصطفاء الطبيعي لا يملك ذكاءً ولا غاية» .

● وهكذا فقد ثبت خطأ [نظرية داروين] كما عرضها ، ورفضت من وجوه كثيرة . في سنة ١٩٠١ قطعت الخطوة المهمة التالية في إيضاح سقوط نظرية التطور، حيث قام العالم النباتي الهولندي «هوغو»⁽²⁾ بتجارب على نبات معين ، فشهد نباتات جديدة لها لون أصفر وأشكال غير مألوفة تظهر بين حين وآخر، ورأى هذه النباتات الجديدة تنقل صفاتها إلى أنسائها، فسمى هذا النبات (المتنقل) ، وقد ظن «هوغو» بأن الانتقال النافع الشامل يفسر نظرية التطور، استشهداً بمثال دارويني عن الزرافات المنقلة التى صارت لها اعناق طويلة، وهى أقوى على المكافحة في سبيل البقاء من الزرافات ذات الأعناق الأقصر وأن هذه الزرافات المنقلة أنتجت أجيالا ذات أعناق طويلة وهذا، في نظره، يفسر تطور هذا النوع، ولم يلبث أن اكتشف عدم ديمومة ملاحظاته .

ولم تلبث هذه النظرية الجديدة أن أثارت الانتقادات التي وجهت للتغير الفجائي الذي اعتبره «هوغو» سبب التطور من ذلك ما قاله الأستاذ «بيرر» :
● «كثيراً ما كان هذا الانتقال الفجائي يحمل معه الموت العاجل إلى الجسم الذي

(1) H.E.L. Mellersh- The story of life, PP. 177-181.

(2) Ibid., PP. 205-208.

يحمله . . وبصرف النظر عن كونه لا يؤدي إلى الحصول على الأفضل من الصفات ، فإنه يبدو بأنه عارض مرضي ، ولا يوفر أي إيضاح لسبب تقبل الأجسام هذا التغيير ، ولا لجعلها أصلح حالا . ومن هذا نستنتج بأن الأبحاث التي أجريت خلال العشرين سنة الأولى من القرن العشرين كلها مضطربة ومبهمه شأنها في ذلك شأن [نظرية التطور] (١)

■ لكن المذهل حقا أن يقف (إنسان) مثل «جان مونو» وقد نسي أنه طين حقير فصال تيتها وعربد . . . ونجده ينادي بالتطور عن طريق (الصدفة) . . يقول هذا الملحد . . «إن الصدفة وحدها منبع كل جديد وكل خلق في المعمورة» . . ويقول أيضا «إن الصدفة الخالصة . . أعني أن الصدفة وحدها والتي هي الحرية المطلقة، والعشوائية هي أساس المبدأ الضخم . . الذي هو (التطور)» ويقول . . . «نستطيع أن نقارن مقارنة جيدة، الكائنات الحية بالآلات وذلك من خلال تركيبها الكلي، وأيضاً من خلال وظائفها» . .

● ولعل هذا الملحد قد تأثر بما قاله «ديمقريطش» اليوناني منذ (٢٥٠٠ سنة) «كل ما يوجد في الكون نتيجة الصدفة والضرورة» . . أي أن كل شيء يأتي (صدفة) قبل حدوثه . . ثم يتبين أن ذلك ضرورة في (الطبيعة) بعد خلقه (١) . .

والرد العلمي عليه :

لا يمكن (لعقل) أن يتصور بأي حال من الأحوال أن جهازاً معقداً أشد التعقيد - متناسقا (كالخ) مثلا يكون قد تكون من تلقاء نفسه نتيجة (للصدفة) العمياء (٢) . . ولن أتناول القدرة المذهلة للخالق الأعظم في خلق المخ فهو موضوع طويل ، ولكنني سأتناول فقط جهازا واحدا يتصل عضويا بالمخ . . وهو جهاز (الأبصار) . . إن جهاز الإبصار يتكون من الطبقة الخارجية (الأكثودرم) - أساسا من (المخ) والجلد . . وتبدأ حويصلة الابصار البدائية في الظهور عند الجنين في بطن الأم في الأسبوع الثالث منذ بدء التلقيح ، أي مرحلة العلقة ، وفي الأسبوع الرابع تبدأ الخلايا في حويصلة

(1) Ibid., PP. 205 - 208.

(٢) - انظر د. عبد العليم عبد الرحمن خضر - المرجع السابق - ص ٩٧ .

الابصار تنفصل من حويصلة (المخ المقدمي) . . وفي الأسبوع الخامس تتخذ شكل كوب مكون من طبقتين ، والطبقة الخارجية تنشأ بها حبيبات ملونة تغطي شبكة العين فيما بعد ، أما الطبقة الداخلية فتكون الجزء الحساس المبصر والمتصل بعصب العين . وفي الشهر الثالث يتكامل نمو الشبكية التي تلتقط الصور كالكاميرا وتكون قد اتصلت اتصالاً وثيقاً (بالمخ) عبر العصب البصري ، أما العدسة البصرية فيبدأ ظهورها في أواخر الأسبوع الرابع وأوائل الخامس ، وتفقد خلاياها أنويتها حتى تصبح شفافة مثل البللور وتدعي عندئذ «العدسة البللورية البصرية» . . وما هي إلا خلية من خلايا الجلد^(١) . .

● أتكون هذه الأجهزة من صنع الصدفة؟

● أبعد كل هذه الدقة المتناهية يقول هذا الملحد أنها الصدفة وحدها؟ . . كيف ذلك . .

﴿وهو الذي أنشأ لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون﴾^(٢) .

● ومن الآية الكريمة نفهم أن الله هو الذي خلقنا نحن البشر وكذلك خلق جميع الكائنات الحية ، فخلق الكائنات إذن وتطورها (صدفة) ، أمر مستحيل ، وتعجز النظريات القائمة على الاحتمال والشرك أن تفسر هذا الخلق ، وتتناقض هذه النظريات مع الأصول الأساسية للعلم الحديث نفسه . . فلن يخلق أحد ولو ذباباً سوى الله تعالى ، كما ورد في قوله تعالى . . ﴿إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له ، وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ، ضعف الطالب والمطلوب ، ما قدروا الله حق قدره ، إن الله لقوي عزيز . .﴾ «سورة الحج ٧٣-٧٤» .

(١) د. محمد علي البار - خلق الانسان - الدار السعودية للنشر والتوزيع ص ١٧٦ ، ١٧٧ .

(٢) سورة المؤمنون ٧٨ .

قصور العلم وشمولية القرآن

وبعد أن ثبت قصور العلوم - باعتبارها هي - عن إدراك حقيقي لطبيعة الانسان، غدا ضروريا أن يبحث لنفسه عند بيان حقيقي لطبيعته ليدرك دوره، وينتشل نفسه مما يعاني من قلق واضطراب، ولن يرضى الانسان هذه المرة بتصور بشري يتسم بالنقص ويحتاج إلى التطور وإنما يرضيه أن يجد تصوراً مبرراً من قصور نظرات البشر في علومهم، ولن يكون ذلك بطبيعة الحال إلا في تصور رباني يخالف في أصل تكوينه، وفي خصائصه تلك التصورات البشرية، «ومن ثم لا يحتاج - في ذاته إلى التطور والتغير، فالذي وضعه يرى بلا حدود من الزمان والمكان، ويعلم بلا عوائق من الجهل والقصور، ويختار بلا تأثر من الشهوات والانفعالات . . ومن ثم يضع الكينونة البشرية كلها، في جميع أزمانها وأطوارها أصلاً ثابتاً تتطور هي في حدود وترتقى، وتنمو وتتقدم دون أن تحتك بجدران هذا الاطار» . . .

ولن يجد الانسان ضالته هذه إلا في الاسلام دين الله الذي ارتضاه للناس، مستوعبا كل ماسبقه من مراحل الأعداد للبشرية، وتقضى هذه الخاصية فيه ألا يقبل دين غيره في الدنيا، ولا يصير لغير معتنقه جزاء في الآخرة على أي عقيدة تكون ﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾ «آل عمران ١٩» .

﴿ومن يبتغ غير الإسلام غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين﴾ «آل عمران ٨٥» .

وحاجة الإنسان إلى عقيدة سليمة في طبيعة خلقه، تحتم عليه أن يأخذها من الإسلام بعد أن عجز غيره عن تقديمها، علوماً أو مذاهب فكرية، أو عقائد مشبوهة، وليست مذاهب الفكر البشري بأسعد حالاً ولا أكثر توفيقاً من علوم الإنسان .

وواقع الأمر أن جهلنا مطبق، فأغلب الأسئلة التي يلقيها على أنفسهم أولئك الذين يدرسون الجنس البشري تظل بلا جواب، لأن هناك مناطق غير محددة في حياتنا الباطنية مازالت غير معروفة .

ولا يعرف سرها إلا خالقها . . سبحانه وتعالى . .

ومن المدهش حقاً أن نعرف أن [داروين] كان يأبى الالحاد كما يقول العقاد -

ويؤكد رفضه وانكاره (للصدفة) . . وقد ورد بالفعل ما يشهد بترجيحه لعقيدة الربوبية . . ونجده (بالفعل) حتى أواخر أيامه مؤكداً ان الاستدلال بمذهب التطور على (إنكار) الله خطأ كبير وادعاء لا سند له من العلم ولا من التفكير الأمين^(١) .

ولكننا نشك في ذلك . . فما كان «داروين» إلا ملحداً راسخاً في الالحاد . . وأعجب الظن أنه كان يتظاهر فقط بعدم الصدام مع الدين المسيحي ليصد حملات الكنيسة عليه وعلى مذهبه . . وهذا «بخنر» يشير إلى تمسك «داروين» بالصدفة العمياء في الخلق . . ويقول أن نظرية [داروين] قامت على أفعال طبيعية لا شيء من (القصد) فيها وأن مذهبه الصق بالمادية من مذهب (لا مارك) . . على أساس أن لا مارك يقول بناموس عام للارتقاء . . أما «داروين» فيرى أن ارتقاء الأحياء يتوقف على تجمع تدريجي في الأفعال الطبيعية العارضة الضعيفة التي لا تحصى^(٢) . .

بخنر وأصل الأجناس البشرية :

ويرى «بخنر» أن الأحياء نشأت كلها من أصل واحد . . ويؤكد ذلك الأستاذ «اسماعيل مظهر»^(٣) فيقول : . . «لم أقع في أي كتاب على ما يسلم بخلق أربعة أو خمسة أصول أولية تحولت عنها العضويات . . ، ولذا أرجعها كلها إلى أصل واحد هو الماء» .

● فإذا كان ذلك [سليماً] :

فإننا نقول أن هذه [الجزئية] التي ذكرها الأستاذ اسماعيل مظهر قد (اقتربت) من التوافقية مع الحقيقة القرآنية التي تقول بالأصل الواحد لجميع الكائنات الحية . .

(١) عباس محمود العقاد - عقائد المفكرين في القرن العشرين - مكتبة غريب ص ٥٨ ، ٥٩ .

(٢) لويس بخنر - شرح بخنر على مذهب داروين - ترجمة شبل شمبل ، ضمن فلسفة النشوء والارتقاء ، ط ٢ - مجموعة د جزء ١ - مطبعة المتكطف بمصر - سنة ١٩١٠ ص ١١٤ .

(٣) اسماعيل مظهر - ملتقى السبيل في مذهب النشوء والارتقاء - المطبعة العصرية - ص ٥٦ . . وجدير بالذكر أن الأستاذ اسماعيل مظهر قد عكف على ترجمة كتاب أصل الأنواع لداروين إلى اللغة العربية طوال عشر سنوات ، كما ذكر في مقدمة كتابه (ملتقى السبيل) . . . ويؤكد الدكتور «محمود عثمان» في كتابه : الفكر المادي الحديث وموقف الإسلام منه - ص ١٤٢ . . انه قرأ في كتاب (أصل الأنواع) لداروين تسعة فصول كاملة محاولاً العثور على شيء يدل على أن داروين قد حدد عدداً من (الصور) يكون أصلاً للأنواع فلم يعثر على شيء ما يدل على ذلك .

مصداقاً لقوله تعالى: . . ﴿ أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما، وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون ﴾^(١).

لماذا :

لأن الآية الكريمة تشير إلى أن كل شيء مصدره الماء كمادة أولية وأن (أصل) كل شيء حي هو الماء، وبهذا يتفق (تماماً) مع الحقائق العلمية، فالثابت بالتحديد أن أصل الحياة (مائي)، وأن الماء هو العنصر الأول المكون لكل خلية حية.

● فلا حياة ممكنة بدون الماء . .

ويدعم ذلك عثور العلماء على طحالب ترجع إلى ما قبل العصر الكمبري Pre cambrien أي في أقدم الأراضي المعروفة، وهذا يدل على أن أقدم الكائنات الحية كانت تنتمي إلى عالم النبات وأن عناصر عالم الحيوان قد ظهرت بعد ذلك بقليل . . وتدلل الدراسات على أنها أتت أيضاً من المحيطات . .

ويقول سبحانه وتعالى: ﴿والله خلق كل دابة من ماء﴾ . . «النور: ٤٥» . .
. . والسائل المنوي ماء . . والبروتوبلازم أيضاً ماء . .

وإذا كان العلماء المؤمنون (وصدق إيمانهم) قد استمدوا من دراسة المورفولوجيا المقارنة للحيوانات والفسولوجيا وعلم الأجنة والتشريح المقارن، على أن كل الحيوانات تتشابه في أن أجسامها مكونة من مادة (البروتوبلازم) المشكلة على هيئة خلايا، وأن هذه الخلايا تتشابه في تركيبها العام في جميع الكائنات الحية . .

التوافقية بين العلم والقرآن

في أصل النشأة من الماء

فإننا نرى أن هذه (الجزئية) لا تختلف مع ما جاء في سورة النور . . حيث أشار القرآن الكريم إلى أن كل من عالم النبات والحيوان نشأ من سائل هو الماء وهو أصل كل صور الحياة، وسواء كان المقصود هو أصل الحياة عموماً أو (العنصر) الذي يجعل

(١) سورة الأنبياء (٣٠).

النباتات تنمو وتتكاثر في التربة أو كان المقصود هو (بذرة) الحيوان، فإن كل الآيات التي تناولت ذلك تتفق تماما مع معطيات الحقائق العلمية الحديثة .

ونذكر من الآيات التي تناولت (أصل المملكة النباتية على سبيل المثال، قوله تعالى: ﴿ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَى ﴾ «طه : ٥٣» .

وقوله تعالى: ﴿ وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً إِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾ . . (الحج : ٥) .

وذكر الخالق الأعظم أن (الانسان) أيضا ينطبق عليه نفس المبدأ فيقول سبحانه وتعالى:

﴿ ثُمَّ جَعَلْنَا نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ﴾ «السجدة : ٨»

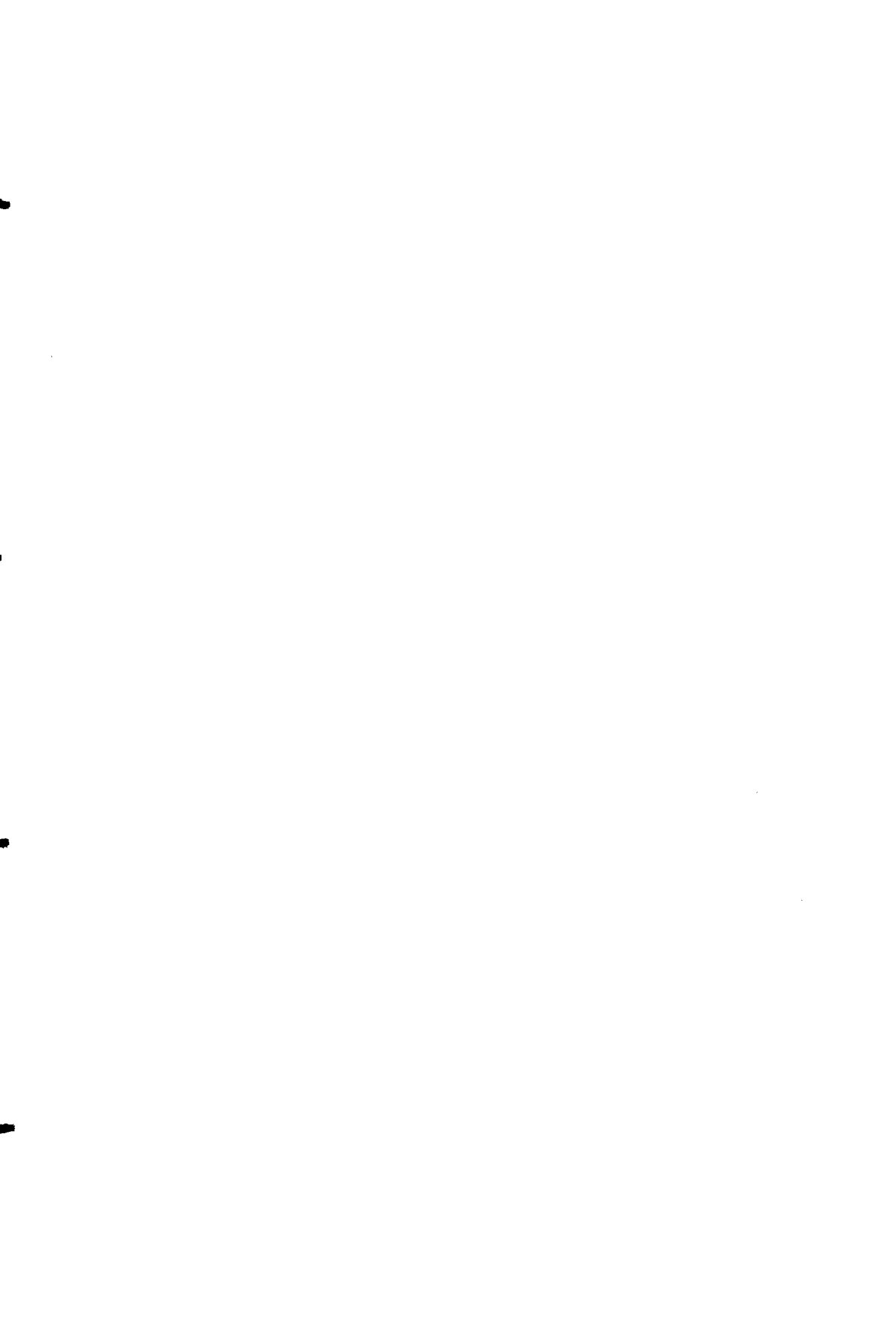
﴿ خَلَقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ ﴾ «الطارق : ٦» .

﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نَظْفَةٍ أَمْشَاجٍ ﴾ . . «الانسان : ٢»^(١) . .

ونحن إذا نظرنا إلى عملية (الانقسام) التي تحدث عن تكوين (الامشاج) حيث يختزل عدد «الكروموسومات» إلى النصف ليعود كما كان عند اندماج الخلية التناسلية الذكورية (الحيوان المنوي) مع الخلية التناسلية الانثوية (البويضة) لتكوين الخلية الملقحة لعرفنا على الفور أنها نتيجة قدرة إلهية واعية مبدعة .
. . «فسبحان الله ، وتبارك الله أحسن الخالقين» . .

■ مجمل القول أن الطريق إلى التوافقية بين العلم والقرآن يكون بوضع جميع الفرضيات العلمية موضع التجربة والتثبت والتأكد والاستقراء والملاحظة والدراسة .
فإذا ثبت صدقها، وشمولها، وديمومتها . . . تصبح حقيقة علمية .
وحينئذ [فقط] يمكن أن تتوافق مع الحقيقة القرآنية .

(١) الأمشاج : المخالط أو نطف (المني) ذات العناصر المتعددة كما ورد في صاحب المنتخب الذي نشره المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة .



الفصل التاسع

الأسس العلمية التي نخرج بها من المفهوم القرآني لأصل الأجناس البشرية

- الخلق لله وحده .
- تطور الانسان في الرقي حسب الخط الإلهي .
- كمال التكوين الإنساني .
- الانسان في الديانات الأخرى .
- أدلة أخرى على انحراف نظرية داروين .

الفصل التاسع

الأسس العلمية التي نخرج بها من المفهوم القرآني لأصل الأجناس البشرية

يمكن الخروج من العرض السابق لنشأة الانسان بين شبهات الداروينية -Darwins and the truth of the Quranic creation by the prophet Muhammad (ﷺ) :
يمكن الخرج من العرض السابق لنشأة الانسان بين شبهات الداروينية -Dar-

الخلق لله وحده :

يقول سبحانه وتعالى . . ﴿والله خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم جعلكم أزواجا وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب، إن ذلك على الله يسير﴾ . (١)

فالله وحده، ولا أحد سواه هو الذي خلق «الانسان» من تراب . . وجعل أبناء سلالته مختلفين في المظهر، متحدين في النشأة والبدء من التراب، وهذا دليل القدرة المطلقة التي لا يتصف بها الا خالق الأكوان - الواحد الأحد المنزه عن الصفات، الذي ليس كمثله شيء . .

ولقد رأينا أن القرآن الكريم بتوغله العمودي العليم بأعماق الانسان وتكوينه الذاتي، يحدثنا في أكثر من موضع - وبمواجهة إعلانه الأول عن تفضيل بني آدم وسيادتهم - عن نقاط الضعف والسلبية في سلوك الانسان . . . وفي سورة التين (٤-٦) يطرح القرآن المعادلة البشرية بطرفيها: ﴿لقد خلقنا الانسان في أحسن تقويم . ثم رددناه أسفل سافلين . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ . .

ولقد تبوأ الانسان مركزاً فريداً في هذا الكون . . . فهو يجد كتلة السموات والأرض قد سخرت له لأداء مهمته . . .

(١) سورة فاطر ١١ .

قال تعالى: ﴿ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم في البر والبحر، ورزقناهم من الطيبات، وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً﴾ «الاسراء ٧٠».

من هنا يحتل الانسان مركزه الذي أراده له الله سبحانه وتعالى في الأرض كسيد للعالمين، فهو يُخضع ولا يُخضع، يصوغ ولا يصاغ، يخطط وينفذ، ولا يتخذ مجرد أداة لتنفيذ خطط الطبيعة ومتطلبات العلاقات المادية . .

من أجل ذلك كان الانسان عامة . . . والانسان المؤمن خاصة، غالياً عزيزاً عند الله، لأنه كلمته الفاعلة في الأرض، وإرادته النافذة في العالم . . . ومن أجل ذلك كان قتل الانسان، أو إهانته في آدميته، أو إصاق البهيمية من الأمور التي يكرهها الله ويحرمها لأنه هو وحده خالق هذا الانسان .

وفي الآيات الآتية ما يدل على انفراد الله سبحانه وتعالى بالخلق :

﴿وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق﴾ «الحجر ٨٥» .

﴿إن الله خالق كل شيء، وهو على كل شيء وكيل . له مقاليد السموات والأرض والذين كفروا بآيات الله أولئك هم الخاسرون﴾ «الزمر/٦٢-٦٤» .

﴿وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين . وما خلقناهما إلا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ «الدخان ٣٨-٣٩» .

﴿وخلق السموات والأرض بالحق، ولتجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون﴾ «الدخان ٢٢» .

. . ولو تمعنا قليلاً في القرآن الكريم لوجدنا:

أنه لم يحظ مخلوق من مخلوقات الله بعناية مثلما حظي الإنسان، فقد أرسل الله الرسل إليه وأنزلت الكتب تحمل هدى السماء إلى الأرض من أجل صلاح هذا الانسان وبصلاحه يصلح كثير من مخلوقات الله في هذا الكون .

ولا عجب فالانسان هو الكائن الذي كرمه الله بالعقل ليعي ويتفهم الأمور، ويستمتع بالحياة وفق منهج الله الذي حملته تعاليم الله إلى الإنسان .

وأما الميزة التي تميز بها الانسان وكرم من أجلها كل هذا التكريم، فهي الخلافة التي تعني تنفيذ عدل الله الخالق الواحد ومنهجه قرناً بعد قرن وجيلاً بعد جيل، وهي العبادة بمعنى الخلافة وشمولها لكل نشاط انساني من أجل الدين ونشره . . .

بعبارة أخرى ميزة [الانسان] على كل الكائنات أنه المخلوق الوحيد الذي كلفه الله بالعمل على عمارة هذا الكوكب الأرضي .

هذا الانسان . . . مخلوق من طين خلقه الله بقدرته وحكمته وجعل من الطين بشراً سوياً .

ويقول سبحانه وتعالى : ﴿وبدأ خلق الانسان من طين، ثم جعل نسله من سلاله من ماء مهين ثم سواه ونفخ فيه من روحه﴾^(١) . . . والذي بدأ خلق الانسان الأول من طين انما هو الله سبحانه وتعالى ثم سواه وأتمه ونفخ فيه من روحه فكان الانسان مكونا من مادة هي طين لازب ثم من روح هي من الحق تبارك وتعالى . .

ومن الأدلة على انفراد الله سبحانه وتعالى بالخلق، وكمال قدرته، بعث الحياة في الأرض الخاملة اليابسة التي لا نبات فيها . يقول سبحانه وتعالى : ﴿ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت، إن الذي أحيها لمحيم الموتى إنه على كل شيء قدير﴾^(٢)

والأدلة على انفراد الله بالخلق موجودة في الانسان نفسه . .

ففي هذا (الغلاف الحيوي) الكبير الذي يغطي به وجه الأرض، والذي يضم أنواعا عديدة من الكائنات الحية الثامة التباين، لم يهياً لنوع ما أن تكون له السيادة المطلقة على سائر الأنواع الأخرى إلا الانسان ذلك المخلوق العجيب الذي ضم في أعماقه وظاهره كل آيات قدرة الله تعالى في الخلق . .

قال سبحانه وتعالى : ﴿وفي أنفسكم أفلا تبصرون﴾^(٣) . .

في الانسان آيات للمتقين . . أليس في نفسك أيها (الانسان) وما فيها من علوم ومعارف، وغرائز وميول واتجاهات للخير تارة وللشر تارة - أخرى آيات للمتقين؟ . . أليس في نفسك التي بين جنبيك وما فيها من حواس السمع والبصر والاحساس واللمس والذوق وما فيها من دورة الدم وأجهزة التنفس والبول والهضم والافراز، كل ذلك آيات لمن يعقلها، ولا يعقلها حقيقة ويدرك سرها الخفي ودلالاتها على الاله

(١) سورة السجدة : ٧-٩ .

(٢) سورة فصلت : ٣٩ .

(٣) سورة الذاريات : ٢١ .

القوي القادر الحكيم الخبير إلا المؤمنون بالله .

فالانسان هو العجيبة الكبرى في هذه الأرض، ولكنه يغفل عن قيمته، وعن أسراره الكامنة في كيانه، حين يغفل قلبه عن الايمان وحين يحرم نعمة اليقين . .
. . انه لا يملك أجنحة مثل الطيور، ومع ذلك يطير . . وهو سباح ضعيف إذا قورن بالاحياء المائية، ولكنه مع ذلك يقطع الآف الأميال راكبا سفينا يمحربها عباب أعالي البحار التي كشف أعماقها في غواصته لا يتسرب إليها الماء . . ووقودها الذرة . .
. . والانسان لا يملك مخالب تضارع ما يملكه الأسد أو النمر مثلا، ولكنه حفر أعظم الانفاق في باطن الأرض الصخري الصلد، وجسمه عار . . والانسان لا يملك أنيابا ولا ينث سما، ولكنه - رغم ذلك - قادر على قتل أي كائن حي . .
إنه عجيبة في تكوينه الجسدي . . في أسرار هذا الجسد، عجيبة في تكوينه الروحي . . في أسرار هذه النفس . . وهو عجيبة في ظاهره، وعجيبة في باطنه . .

● أما في نظر الماديين :

فالانسان لا يزيد عن قبضة من تراب هذه الأرض . . . من الأرض نشأ، وعلى الأرض يمشي، ومن الأرض يأكل . . . وإلى الأرض يعود . .
هو كتلة من اللحم والدم والأعصاب والأجهزة، والغدد والخلايا، وما العقل، والتفكير إلا [مادة] يفرزها المخ، كما تفرز الكبد الصفراء، أو كما تفرز الكلية البول . .
هو عند [الماديين] كائن ليس له أهمية . . . ولا امتياز على غيره . . إنه أحد الأحياء الكثيرة المتنوعة على هذه الأرض . . بل هو - في نظرهم - من جنس هذه الهوام والحشرات والزواحف والقروود!!! . . . غاية أمره [عندهم] أنه تطور!!! وبمرور الزمن أصبح هذا الانسان .
لا روح هنالك . . . ولا نفحة من السماء يختص بها هذا الكائن الفذ!!! . يقول أحد ملاحدة الغرب المعاصرين :

«هل نحن فكرة أكثر من كون الحشرات فكرة؟ . . . نحن لا نساوي أكثر من أنفسنا، وكذلك الحشرات . . . ونحن لا نريد أن نحقق أنفسنا، وكذلك أيضا

الحشرات . . . والفرق بيننا وبين الحشرات هو فرق التفوق فقط . . . وفرق التفوق بيننا وبين أرقى حيوان، لا يفوق كثيرا فرق التفوق بين أدنى حشرة وأرقى حيوان . . . ماذا نفقد أو يفقد الكون أو تفقد الشمس والقمر بفقدنا أنفسنا؟ . . .

وليس ماذهب إليه [داروين] كما رأينا في الفصول السابقة، وفرويد، وأمثالهما من الماديين بأفضل من هذه النظرة إلى الانسان . . . إنه عندهم أخو الحشرات، وصنو القرود، إنهم لا يبصرون فيه إلا القشرة والغلاف، ولا يعرفون فيه إلا الطين، والحمأ المسنون . . . فهو مخلوق من طبيعته الانجذاب إلى أسفل، وليس الرقي إلى أعلى من طبيعة الهبوط إلى الأرض . . . وليس الارتفاع إلى السماء . . .

هو في نظرهم . . . [حيوان متطور]

ترقى من طور إلى طور حتى بلغ ما هو عليه . فالحيوانية في الانسان قشرته ولبه، ولحمته وسداه !!! . . .

فأي إحياء للنفس الانسانية أسوأ من هذا الإحياء؟ . . . أن يرى الانسان نفسه مخلوقاً هابطاً . . . حيواناً . . . طينا وحمأً !!! . . .

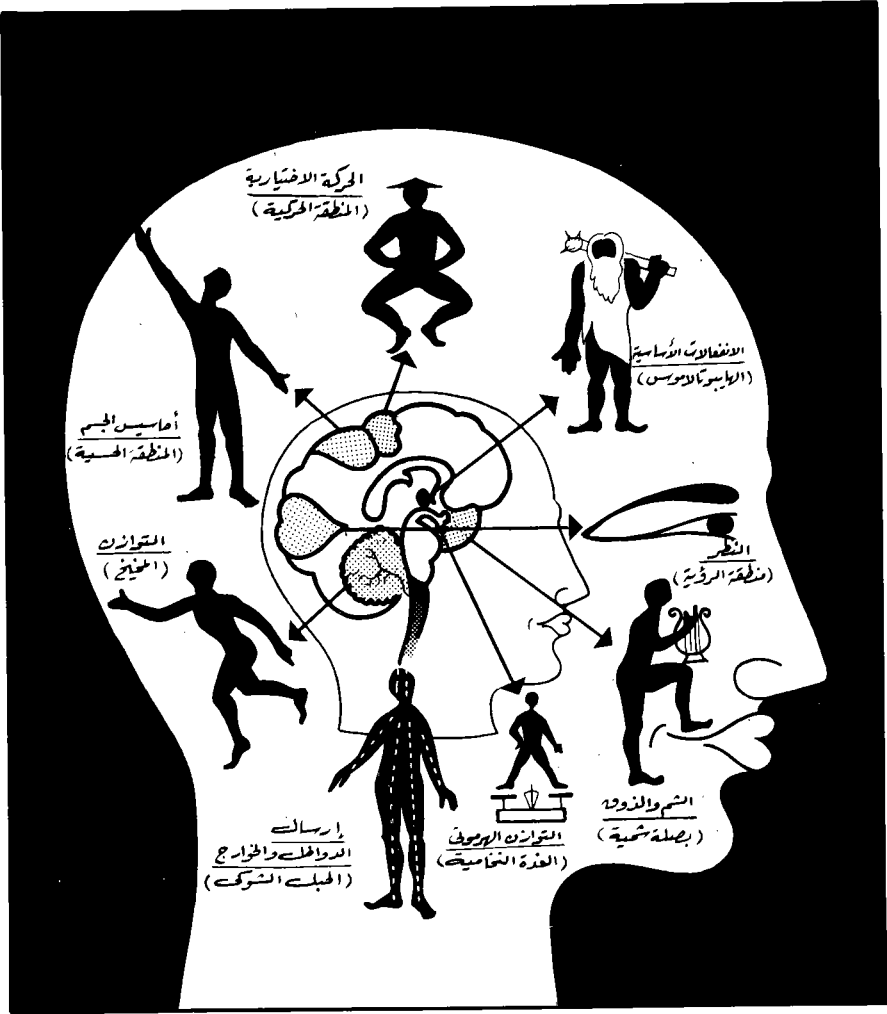
أين هذا التصور المنحط للانسان، من تصور الاسلام الذي جعل الانسان مخلوقا كريماً؟ . . . خلقه ربه في أحسن تقويم، وصوره فأحسن صورته، خلقه بيديه، ونفخ فيه من روحه واسجد له ملائكته، وميزه بالعلم والارادة، وجعله خليفته في الأرض . فالانسان يمثل عناصر هذا الكون وأسراره وخفاياه . . . لقد خلقه الله سبحانه وتعالى، وهياً للنجاح في السيطرة على الأرض وما فيها . . . لسبب واحد . . . هو الخلافة في الأرض . . . فالانسان لم يخلق مثل (الحيوان) بحوافر أو أخفاف يسير عليها . . . وإنما له قدم متخصصة وقوام منتصب . . . وهو مجرد من غطاء ذي ريش أو فراء أو حراشيف، وإنما يغطيه جلد حساس بلا حماية، كما أن يديه ليستا مكيفتين للحفر أو التمزيق أو الضرب . . . أما حواسه من نظر وسمع وذوق وشم فمتفوقة في بعض النواحي، قاصرة في بعضها الآخر عما زودت به منها حيوانات أدنى رقيا من الانسان . . . ومع هذا فقد تفوق الانسان، وأضاف إلى قدراته بما ابتدعه من تخصصات جثمانية ووظيفة دقيقة . . . فعلى سبيل المثال . . . أكسبته قامته المعتدلة حرية ليديه اللتان لا يستخدمهما في المشي . . . كما أن إبهامه تحسن التعاون مع أصابعه

الأخرى في الامساك والالتقاط وتشكيل المواد . . كما أن فم الانسان وحلقه قد خلقها الله خصيصا لتأدية وظيفة أساسية هي (الكلام) . . ولا (مقارنة) بينها وبين نظيرها في (القردة) العليا أو السفلى - أو أي كائن حي على الأرض - التي ليست من الأناس في شيء من حيث أجهزتها العصبية والعضلية الدقيقة .

أما العضو الذي انفرد به (الانسان عن سائر الكائنات الحية كي يحقق الخلافة في الأرض . . هو (المخ) تلك البوصلة الضخمة من النسيج العصبي التي تشغل الجزء الأكبر من الجمجمة بشكل (لايتكرر) عند باقي الكائنات الحية . . إنه هبة الله للانسان . . منحه إياه - دون سائر المخلوقات - كي يستطيع تعلم الأسماء كلها . . إنه العضو الخطير الذي يحتفظ بالقدرة على التكيف لأداء عدد عظيم من الوظائف المختلفة . . أهمها أنه المركز الرئيسي للعمليات العظيمة التي أعطت الانسان قدرات لم يسبقه إليها أحد، ولن يلحقه أحد (إلا بأمر الله ومشيئته) . .

وهنا نقول «للداروينيين» أصحاب نظريات التطور - لماذا لم تلحق باقي الكائنات الحية بالانسان وهم أنفسهم يقولون أن الأحياء موجودون على الأرض قبل الانسان بملايين السنين . .

إنني أقول لهم . . وستظل جميع الكائنات الحية هكذا بلا «تطور دارويني» طوال ملايين السنين الباقية إلى يوم القيامة . . لأن الخالق الأعظم هو الذي خلق الانسان (متكاملاً) منذ أن نفخ فيه من روحه . . وهياً له السيطرة على (البيئة) وسخرها له لتخدم أغراضه، ولن يقوي (حيوان) آخر أن يطبع (الأرض) باستخداماته وآثاره كما فعل الانسان . . وقد يقول قائل أن النحلة تستطيع صنع الشمع بالغريزة وتشكله على هيئة خلايا سداسية متناسقة تماماً، كما تستطيع جمع الرحيق الذي يملأ الخلايا، ولكن مهارة النحلة تنتهي عند هذا الحد، فمثلاً لا تستطيع معالجة الخشب أو الألياف أو الطين ولا تستطيع ابتكار تصميم آخر للخلايا، ومع ذلك لا نستطيع أن ننكر مهارة هذا الكائن - (الذي يدل على قدرة الله تعالى وانفراده بالخلق) - في صنع تلك الأشياء في إطار محدود ونمط متكرر . . أما الانسان فيستطيع اكتساب الخبرات وتخزينها . . وعرف كيف يتجنب العشوائية . . إنه استطاع قبل العصر التاريخي أن يبتكر من العصي والصخور أدوات بدائية تحقق أغراضه وتفي باحتياجاته المتواضعة آنذاك . .



صورة توضح الإعجاز في أجزاء المخ
وتشهد بعظمة الله سبحانه وتعالى الذي خلق هذا الجهاز العجيب، فتبارك الله أحسن الخالقين.

ولا شك أن هذه المبتكرات قد فتحت المجال أمام احتياجات جديدة . . مما حفزه إلى الانتقال (والتطور) من التكيف والملاءمة إلى تصميم الأدوات، والآلات . . وبعد آلاف السنين (تطور) خلالها عبر اكتشاف النار واستخدام المعادن ومعرفة الزراعة - وصل إلى هذه التكنولوجيا الفنية التي شملت عالم اليوم في كل نواحي الحياة . .

نعم تطور الانسان . . . في الرقي حسب الخط الالهي المرسوم له . .

ولم يتطور من قرد أو ضفدعة أو سمكة . .

وإنما تطور في استخدام (الهبّة) التي انفرد بها عن سائر المخلوقات . . تطور الانسان في طريقه استخدام (المخ) . . ولم يتطور المخ نفسه . . فحجم الجمجمة لا يكبر وكذلك المخ نفسه . . بل ان حجم المخ . . مرشح للنقصان لا للزيادة . . ولا يوجد أي حدث معين يمكننا من أن نقول أن ابناء اليوم أكثر ذكاء من الذين سبقوا كما يقول البروفيسور «بيار قراسي» في كتابه «انت الاله الصغير» . .

والانسان - بطبيعة الحال - قابل للتطور . . ويجب أن يكون التطور في القيم والمثل العليا، واستغلال الظواهر الكونية فيما يخدم المجتمع الانساني في السلم، وليس في الحرب ووسائلها التدميرية كما يفعل تجار الحروب في عالم اليوم . . .

ويشير القرآن الكريم إلى حقيقتين هامتين حول الانسان :

١ - الحقيقة الأولى . . . تتمثل في (وحدة الحياة) لكل ما هو موجود من إنسان وحيوان ونبات، وأشار إلى ذلك في قوله تعالى :

﴿وجعلنا من الماء كل شيء حي﴾ . . فالماء مصدر الحياة لكل ما هو كائن .

٢ - الحقيقة الثانية . . . وتحدد في قوله تعالى :

﴿وما من دابة في الأرض، ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم﴾ . وهو يعطي هنا إشارة صادقة لحقيقة الحياة . . والانسان فيها صانع الحضارة والتطور بما يخدم المجتمع الانساني على أسس روحية وقيم اخلاقية تسير ركب التطور الحضاري للانسانية . .

فالانسان مع مادية أصله مطالب بأن يتسامي إلى الروح المثالية بما أودعه الله فيه

من روحه . . . فقد قال تعالى :

﴿لقد خلقنا الانسان في أحسن تقويم ، ثم رددناه أسفل سافلين إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون﴾ . .
ولذلك :

نحن نرفض ما يقوله «داروين» بحيوانية الانسان لأنها تتعارض مع تكريم الله للانسان في أحسن تقويم وتمييزه على باقي الكائنات :

- ﴿ولقد كرمتنا بني آدم﴾ - «الاسراء ٧٠»
- ﴿فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين﴾ - «الحجر ٢٩»
- ﴿إني جاعل في الأرض خليفة﴾ - «البقرة ٣٠»
- ﴿خلق الانسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين﴾ - «النحل ٤»
- ﴿والعصر ان الانسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ - «سورة العصر» .

إذن فالانسان أكرم المخلوقات بسر الروح الذي نفخ فيه، وبسر خلافته في أرض الله، وبسر تسخير الكون كله له . . . وبسر حملة الأمانة . . . وبسر قيامه بأمر الله وعبادته .

خلق الانسان خلقا كاملا على . . . هيئته الحالية في أحسن تقويم :

الثابت بالفعل ان الانسان لم (يرق) أو (يتطور) من (قرد) إلى انسان . . وقد أشار القرآن الكريم إلى إمكانية تحول الانسان إلى قرد بقدره الله وذلك حينما يغضب الله عليه . . فقال جل من قائل عليا سبحانه وتعالى . . ﴿ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم في السبت فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين﴾^(١) . .
وقال سبحانه وتعالى . . . ﴿فلما عتوا عن ما نهو عنه قلنا لهم كونوا قردة خاسئين﴾^(٢)

وقال سبحانه وتعالى : ﴿قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبةً عند الله من لعنه الله

(١) سورة البقرة : ٦٥ .

(٢) سورة الأعراف : ١٦٦ .

وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت أولئك شرُّ مكاناً وأضل عن
سواء السبيل ﴿١﴾ . . .

وجميع الأديان تقر خلق الانسان خلقا (مستقلا . . وبأنه لم تتحول أي كائنات حية
أخرى إلى (الانسان) . . كذلك لم يشترك الانسان وهذه الكائنات الحية في الانتماء
(لأصل) مشترك واحد «اللهم إلا في الرجوع للتكوين الأساسي الأول وهو الماء» . . .
فالانسان خلق خلقا كاملا مستقلا في أحسن صورة وأحسن تقويم . . وكلمة أحسن
تدل على أرقى صورة كان عليها خلق الانسان منذ النشأة الأولى . .

ويدل على ذلك قوله تعالى . . ﴿قال اهبطا منها جميعا بعضهم لبعض عدو فيما
يأتينكم منى هدى فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى﴾ (٢) . . فالهبوط هنا خروج
من الجنة . . والطرده لا يكون إلا لعامل ذي إرادة وقصد للعصيان . . ولا عقاب
لمجنون أو لحيوان أو حشرة أو نبات . . اذن فقد كان أول وجود لآدم على الأرض هو
وزوجه في أحسن صورة وتمام خلقة (٣) . .

ولا يمكن أن يكون الله سبحانه وتعالى قد أمر الملائكة - وهذا قبل هبوط آدم إلى
الأرض - أن تسجد (لقرد) أو ضفدعة أو مخلوق ناقص التكوين . .

يقول سبحانه وتعالى . . ﴿إذ قال ربك للملائكة إني خالق بشرا من طين، فإذا
سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين، فسجد الملائكة كلهم أجمعون إلا
إبليس استكبر وكان من الكافرين، قال يا ابليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي
أستكبرت أم كنت من العالين﴾ «ص ٧١-٧٥» .

وواضح أحقية آدم بالسجود . . سجود تحية وتكريم من الملائكة وليس سجود
عبادة وتأليه . . والأحقية هنا نابعة من تمتع آدم بنفخة الروح من الله سبحانه
وتعالى . . .

(١) سورة المائدة : ٦٠ .

(٢) سورة طه : ١٢٣ .

(٣) فقد اكسب الله الانسان جميع المؤهلات ليفهم كل الاشياء بإذنه . . قال تعالى : ﴿وعلم آدم الأسماء كلها﴾ «البقرة :

فبالعقل وحده فضله الله على كثير من المخلوقات وجعله باذنه خليفة في الأرض . .
وقال تعالى . . . ﴿ولقد كرمتنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا
تفضيلا﴾ . . (الاسراء : ٧٠) .

إذن . . فالإنسان متكامل الصورة منذ البداية . . وفي ذلك يقول الحق تبارك وتعالى . .

● ﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم، ثم رددناه أسفل سافلين إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾^(١) . .

وما كان لمخلوق أن يوصف بتلك الصفات من خالق الأرض والسموات إلا لأنه أهل للعدل والإيمان والهداية والثبات والقوة وحمل الأمانة، وذلك دون غيره من المخلوقات . .

● ويقول سبحانه وتعالى . . . ﴿وعلم آدم الأسماء كلها﴾^(٢) . .

وفي ذلك إشارة إلى ما أودع الله سبحانه وتعالى في آدم من قوى الإدراك، والاستنباط والقياس، وتداعي المعاني وتوالدها، ومن هنا كانت له القدرة على انماء قاموسه اللغوي وإضافة جديد إليه في كل يوم . إذ كلما جد جديد في الحياة من المخترعات والمصنوعات التي تفتق عنها عقل الإنسان، وضع لهذا الجديد اسما يعرفه به . . ويستدل به عليه دون غيره ففي عقل الإنسان، تتولد المدركات، وتشكل الصور، وتداعي المعاني، ومن عقل الإنسان تخرج الأسماء لكل مدرك، ولكل متصور يظهر في عالم الواقع أو الخيال . .

واستخدم الإنسان هذا العقل في تغيير وجه الأرض فأخرج المخبئ من أسرارها وسخرها لخدمته، فعمر جديدها وأحيا مواتها، واستأنس متوحشها، والان حديدها حتى أقام تلك المدنيات وهذه الحضارات، فركب البحار، وسبح في الفضاء واتخذ سبيله إلى الكواكب والأقمار، حتى وضع أخيرا قدميه على القمر،^(٣) بأمر الله سبحانه وتعالى وبإذن وسماح إلهي منه .

ولقد سوى الله الإنسان جسدا متناسقا قادرا على تحمل قوة (العقل) الذي منحه الله إياه . . ذلك الجسد الحي المتحرك . . له أعضاء ظاهرة عاملة مسخرة لتلبية أوامر

(١) سورة التين : ٤-٦ .

يقول ابن كثير في ذلك - «خلق الله تعالى الإنسان في أحسن صورة وشكل منتصب القامة، سوى الأعضاء . حسنها» . . (تفسير القرآن العظيم) ص ٥٢٧ .

(٢) سورة البقرة ٣١ .

(٣) عبد الكريم الخطيب - المرجع السابق - ص ٢٥ .



بقايا عظام انسان شرق افريقية
الذى قدم إليها من Asselar منذ نهاية البلايستوسين فسيحان الذى يحوى العظام وهى رميم.

هذا العقل، كالسمع والبصر واليدين والرجلين، وأعضاء باطنة، تعمل بغير إرادته كأجهزة التنفس والهضم والدم المتدفق من القلب، والمردود إليه، ثم أن وراء هذا كله مدركات ومشاعر^(١) . . . وقد عبر القرآن الكريم عن تلك الصورة الرائعة التي خلق الإنسان عليها، فيقول سبحانه وتعالى: ﴿يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم، الذي خلقك فسواك فعدلك، في أي صورة ما شاء ركبك﴾ . . . (الانفطار ٦-٨) . . . إن هذا الخطاب «يا أيها الإنسان» ينادي في الإنسان أكرم ما في كيانه، وهو «إنسانيته» التي بها تميز عن سائر الأحياء، وارتفع إلى أكرم مكان، وتجلّى فيها أكرام الله له، وكرمه الفائض عليه، ثم يعقبه ذلك العتاب الجميل الجليل . . . «ماغرك بربك الكريم» يا أيها الإنسان الذي تكرم عليك ربك . . . في أي شيء؟ يفصل سبحانه وتعالى شيئاً من هذا الكرم الإلهي . . . فخلق الإنسان على هذه الصورة الجميلة السوية المعتدلة، الكاملة الشكل والوظيفة، أمر يستحق التدبر الطويل، والشكر العميق والأدب الجم والحب لربه الكريم، الذي أكرمه بهذه الخلقه، تفضلاً منه ورعاية منه . . . فقد كان قادراً أن يركبه في أية صورة أخرى يشاؤها، فاختار له هذه الصورة السوية المعتدلة الجميلة . . . وان الجمال والسواء والاعتدال لتبدوا في تكوينه الجسدي، وفي تكوينه العقلي وفي تكوينه الروحي سواء، وهي تتناسق في كيانه في جمال واستواء . . . فتبارك الله أحسن الخالقين . . .

كمال التكوين الانساني

وهناك مؤلفات كاملة في وصف كمال التكوين الانساني العضوي ودقته وإحكامه وليس هناك مجال للتوسع في عرض عجائب هذا التكوين ولكننا نكتفي بالإشارة إلى بعضها:

تقول [مجلة العلوم الانجليزية]: أن يد الإنسان في مقدمة العجائب الطبيعية الفذة، وانه من الصعب جدا - بل من المستحيل - أن تبتكر آلة تضارع اليد البشرية من حيث البساطة والقدرة وسرعة التكيف^(٢) .

(١) المرجع نفسه - ص ٢٧ .

(٢) سيد قطب - في ظلال القرآن - المرجع السابق - ص ٣٨٤٧ نقلا عن (الله والعلم الحديث للدكتور سيد نوفل).

وان جزءا من اذن الانسان (الاذن الوسطى) هو سلسلة من نحو أربعة آلاف حنية (قوس) دقيقة معقدة متدرجة بنظام بالغ في الحجم والشكل ، ويمكن القول بأن هذه الحنيات تشبه آلة موسيقية ، ويبدو أنها معدة بحيث تلتقط وتنقل إلى المخ ، بشكل ما ، كل وقع صوت أو ضجة ، من قصف الرعد إلى حفيف الشجر فضلا عن المزيج الرائع من انغام كل أداة موسيقية في الاركسترا ووحدتها المنسجمة^(١) .

ومركز حاسة الابصار في العين التي تحتوي على مائة وثلاثين مليوناً من مستقبلات الضوء وهي أطراف الأعصاب ، ويقوم بحمايتها الجفن ذو الأهداب الذي يقيها ليلاً ونهاراً ، والذي تعتبر حركته لا إرادية ، الذي يمنع عنها الأتربة والذرات والأجسام الغريبة ، كما يكسر من حدة الشمس بما تلقى الأهداب على العين من ظلال ، وحركة الجفن علاوة على هذه الوقاية تمنع جفاف العين ، أما السائل المحيط بالعين والذي يعرف باسم الدموع ، فهو أقوى مطهر^(٢) . .

● وجهاز الذوق في الانسان هو اللسان ، ويرجع عمله إلى مجموعات من الخلايا الذوقية القائمة في حلقات غشائها المخاطي ، ولتلك الحلقات اشكال مختلفة فمنها الخيطية والفطرية والعدسية ويغذي الحلقات فروع من العصب اللساني البلعومي والعصب الذوقي ، وتتأثر عند الأكل الأعصاب الذوقية فينتقل الأثر إلى المخ . . وهذا الجهاز موجود في أول الفم حتى يمكن للانسان أن يلفظ ما يحس أنه ضار به ، وبه يحس المرء المرارة والحلاوة والبرودة والسخونة ، والحامض والملح ، واللاذع ، ونحوه ، ويحتوي اللسان على تسعة آلاف من نتؤات الذوق الدقيقة ، يتصل كل نتؤ منها بالمخ بأكثر من عصب ، فكم عدد الأعصاب ، وما حجمها؟ وكيف تعمل منفردة ، وتتجمع بالاحساس عند المخ^(٣) . .

● ويتكون الجهاز العصبي الذي يسيطر على الجسم سيطرة تامة من شعيرات دقيقة تمر في كافة أنحاء الجسم ، وتتصل بغيرها أكبر منها ، وهذه بالجهاز المركزي العصبي ، فإذا ما تأثر جزء من أجزاء الجسم ولو كان ذلك لتغير بسيط في درجة الحرارة بالجو

(١) المرجع نفسه .

(٢) المرجع نفسه .

(٣) المرجع نفسه .

المحيط، نقلت الشعيرات العصبية هذا الاحساس المراكز المنتشرة في الجسم، وهذه توصل الاحساس إلى المخ حيث يمكنه أن يتصرف، وتبلغ سرعة سريان الاشارات والتنبهات في الأعصاب مائة متر في الثانية . .

● ونحن إذا نظرنا إلى الهضم على أنه عملية في معمل كياوي، وإلى الطعام الذي نأكله على أنه مواد فقط، فإننا ندرك توا أنها عملية عجيبة، إذ تهضم تقريباً كل شيء يؤكل ما عدا المعدة نفسها، وحين تتحلل هذه الأطعمة، وتجهز من جديد، تُقدَّم باستمرار إلى كل خلية من بلايين الخلايا، والتي تبلغ من العدد أكثر من عدد الجنس البشري كله على وجه الأرض، ويجب أن يكون التوريد إلى كل خلية فردية مستمراً من تلك المواد التي تحتاج إليها تلك الخلية المعنية لتحويلها إلى عظام وأظافر ولحم وشعر وعينين وأسنان .

فها هنا إذن معمل كياوي ينتج من المواد أكثر مما ينتجه أي معمل ابتكره ذكاء الانسان، وها هنا نظام للتوريد أعظم من أي نظام للنقل والتوزيع عرفه العالم^(١)، ويتم كل شيء فيه يمتهى النظام وتبقى للانسان خصائصه العقلية والروحية الفريدة التي هي موضع الامتنان في هذه السورة بصفة خاصة «الذي خلقك فسواك فعدلك بعد ندائه: «يا أيها الانسان» . . هذا الادراك العقلي الخاص الذي لا ندري كنهه، إذ أن العقل هو أذاتنا لادراك ماندرك، والعقل لا يدرك ذاته ولا يدرك كيف يدرك . . هذه المدركات . نفرض أنها كلها تصل إلى المخ عن طريق الجهاز العصبي الدقيق، ولكن أين يخترنها، إنه لو كان هذا المخ مسجلاً، لاحتاج الانسان في خلال الستين عاماً التي هي متوسط عمره إلى آلاف الملايين من الأمتار ليسجل عليها هذا الحشد من الصور والكلمات والمعاني والمشاعر والتأثيرات، لكي يتذكرها بعد ذلك ويذكرها فعلاً بعد عشرات السنين . .

● هذه إحدى خصائص الانسان المميزة .

ان الفارق بين الانسان والحيوان هو أن الانسان بما أوتي من طاقاته كان مكلفاً وان الحيوان لنقصان طاقته لم يكلفه الله بشيء، وان الانسان الذي يرفض أن يقوم بعبء التكليف قد أقام نفسه بمنزلة الحيوان . . ولذلك فقد سقط عن رتبة الانسانية: وقد

(١) كريسي موريسون - العلم يدعو إلى الايمان - المرجع السابق - ص ٩٨،

ذكر الله عز وجل في أكثر من آية من القرآن ان الكافرين ليسو جديرين بصفة الانسانية بل هم حيوانات، وشر الحيوانات، لأنهم عطلوا حكمة وجودهم:

● ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ «الفرقان ٤٤».

● ﴿إِنْ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ «الأنفال ٥٥».

إن الله عليم . . وجعل الانسان على استعداد للعلم .

والله مرید وجعل للانسان إرادة .

والله قادر وجعل للانسان قدرة .

والله حي ونفخ في الانسان من روحه وجعل له حياة .

والله سمیع وجعل الانسان سمياً .

والله بصير وجعل الانسان بصيراً .

والله متكلم وجعل الانسان متكلماً .

والله حكيم وجعل عند الانسان استعداداً للحكمة .

والله كريم وجعل عند الانسان استعداداً للكرم .

والله رحيم وجعل عند الانسان استعداداً للرحمة .

والله هاد وجعل عند الانسان استعداداً للهداية .

والله حلیم وجعل عند الانسان استعداداً للحلم .

هذا مع ملاحظة أن هذه عند الخلق غيرها عند الله . . فالله سمیع وليس كسمعه

شيء . . وبصير وليس كبصره شيء ومريد وليس كإرادته شيء . . وهكذا . .

ولكننا فقط أردنا أن نبين للانسان كم كرمه الله سبحانه وتعالى على كثير من

خلقه . . .

أفلا يكون لله من الشاكرين؟ . .

وهناك ذلك القبس العجيب من روح الله، هنالك الروح الانساني الخاص الذي

يصل هذا الكائن بجمال الوجود، وجمال خالق الوجود . . هذا الروح هو هبة الله

الكبرى لهذا الانسان، ثم يأتي نداء الله للانسان ﴿ما غرك بربك الكريم﴾ . . انه

عتاب وتنبيه حين يتصور «الانسان» حقيقة مصدره وحقيقة مخبره، وحقيقة الموقف

الذي يقفه بين يدي ربه، وهو يناديه ذلك النداء ثم يعاتبه هذا العتاب .

الانسان في الديانات الأخرى

لقد نصت الديانات السماوية الأخرى كذلك على أن الانسان (خلق خلقاً مستقلاً) وأنه لم ينحدر من (أصل آخر) . . فقد جاء في الاصحاح الأول من سفر التكوين في الكتاب المقدس :

«وقال الله لتنبث الأرض عشبا، وبقلا يبذر بذراً وشجراً ذا ثمر يعمل ثمراً كجنسه»^(١) . .

«فخلق الله التنانين العظام، وكل ذوات الأنفس الحية الدبابة التي فاضت بها الحياة كأجناسها، وكل طائر ذي جناح كجنسه» . .

«وقال الله لتخرج الأرض ذوات أنفس حية كجنسها بهائم، ودبابات ووحوش أرض كأجناسها» .

وفي الفصل الثاني من السفر الأول في التوراة، وهو سفر التكوين جاء ما يلي^(٢) :
«وإن الله خلق آدم تراباً من الأرض، ونفخ في أنفه الحياة، فصار آدم نفساً ناطقاً، وغرس الله جنانا في عدن شرقاً، وصير هناك آدم الذي خلقه، وأنبت الله من الأرض كل شجرة حسن منظرها، وطيب أكلها . . وجعل نهراً من عدن ليسقي الجنان، ومن ثم يفترق فيصير أربعة أنهر، اسم أحدها النيل، وهو المحيط بجميع بلاد زويلة، واسم النهر الثاني جيحون، وهو المحيط بجميع بلد الحبشة، واسم النهر الثالث دجلة، وهو يسير شرقي الموصل، واسم النهر الرابع الفرات .

فأخذ الله آدم، وأنزله في جنان عدن ليفلحها ويحفظها . . وأمر الله آدم قائلاً : من جميع شجر الجنان تأكل، ومن شجرة معرفة الخير، والشر لا تأكل . . وحشر الله من الأرض جميع وحش الصحراء، وطير السماء، وأتى بها إلى آدم ليريه ما يسميها به . . .
«قال الله : لنعمل الانسان على صورتنا كشبهنا ويتسلطوا (كذا) على سمك البحر، وعلى طيور السماء وعلى البهائم وعلى كل الوحوش والدبابات التي تزحف على الأرض» .

(١) علي أحمد الشحات - المرجع السابق ص ١٣٩ .

(٢) عبد الكريم الخطيب - المرجع السابق - ص ٢١ .

وانظر كذلك : موريس بوكاي - القرآن الكريم والانجيل والعلم - دار المعارف ص ٤٧ .

«فخلق الله الانسان على صورته، وعلى صورة الله خلقه، ذكر وأنثى خلقهما. وباركهما الله وقال لهما: أثريا وأكثرًا واملاء الأرض، واخضعها، وتسلطا على سمك البحار، وطيور السماء، وعلى كل حيوان يدب على الأرض. . . وقال الله: اني قد اعطيتكما كل بقل يحمل بذراً على وجه الأرض، وكل شجر فيه ثمر ويحمل بزراً، لكما يكون طعاما، ولكل الوحوش ولكل طيور السماء، ولكل ذبابة على الأرض وكائن حي اعطيت كل خضرة النباتات طعاما « . . . » وكان كذلك. ورأى الله كل ما عمله فإذا هو حسن جدا، وكان مساء وكان صباح اليوم السادس . . .

وفي رواية ثانية^(١). . . «عندما عمل يهوه الرب الأرض والسماء، كل شجرة البرية لم يكن بعد في الأرض وكل عشب البرية لم ينبت بعد، لان يهوه الرب لم يكن قد أمطر على الأرض. ولا كان انسان ليفلح الأرض، لكن كان سيل يطلع منها ويسقى كل وجهها.

وعندئذ جبل يهوه الانسان من طين الأرض. ونفخ في أنفه نسمة حياة فصار الانسان، نفسا حية . . .

وهذه الرواية تدع لنا الفهم الضمني انه عند خلق الله للانسان لم تكن هناك نباتات أرضية (فلم يكن المطر قد نزل بعد). . . هذا برغم أن المياه الآتية من جوف الأرض كانت تغطي سطحها. . . وهذا ما تؤكدُه البقية التالية للنص . . . «زرع الله بستانا في نفس الوقت الذي خلق فيه الانسان . . . » والتوراة بذلك تجعل خلق الانسان مصاحبا لخلق النباتات .

● ورغم أن ذلك يخدم قضيتنا . . . أن يدعم قولنا بأن الانسان خلق خلقا مستقلا ولم ينحدر من أي أصل آخر. . . إلا أننا للأمانة العلمية نقول أن رواية التوراة خاطئة تماما . . . فقد ظهر الانسان على الأرض حين كانت الأرض حاملة للنباتات بل وفصائل الحيوانات منذ ملايين السنين وان كنا لا نستطيع - علميا - ان نقول كم من مئات الملايين من السنين قد مرت بين مرحلة تعمير الأرض بالكائنات الحية وفترة ظهور الانسان .

(١) الاصحاح الثاني : ٤ - ٧.

وتلك هي الرواية اليهودية الموجودة في نصوص كتب العهد القديم المأخوذة الآن .

● وجاء في كتاب «منوسمري» وهو أحد كتب الهنادكة المقدسة - قوله: «ثم ان برامتا - الاله الأعظم - الذي لا يدرك بالعقل وحده، اللطيف الخفي والمحيط بجميع المخلوقات أظهر ذاته بذاته. ثم بدا له ان يخلق المخلوقات من جسمه، فخلق أولا الماء بفكرة، ثم القى فيه بذرته، فصارت هذه البذرة بيضة ذهبية لها لمعان كلمعان الشمس وانبعث منها «برماتما» ذاته في صورة براهما (هو أحد آلهة الثالوث عند الهنادكة) جد العالم كله». (فقرات ٧، ٨، ٩). (ثم إن براهما خلق هذا العالم ومافيه، وقد انصرف كل مخلوق حين ظهوره إلى عالم الوجود إلى ما خلق له وإلى عمله الذي خصه براهما منذ الأزل (فقرة/٢٨).

وأكد هذا القول بقوله: (وذلك لأن كل مخلوق حصل حين ظهوره إلى عالم الوجود على الصفة التي اختص بها من بطش ورأفة ولين وشدة، وصلاح وفساد، وصدق وكذب، وغير ذلك فقرة/٢٩). . ولا يكفي الهنادكة أن تكون الأجناس قد خلقت مباشرة بل انهم يرون أن الله خلق الفرق مباشرة ايضا وذلك لأن الهنادكة كاليهود يؤمنون بالطبقات في المجتمع، اذ تقول [الفقرة ٣١] مايلي: (خلق براهما البراهمة من وجهه والكثيرين من ذراعيه والريش من فخذه والشودر - أي المنبوذين - من قدميه)^(١).

● ومن هذا يبدو أن كل البيانات تقول بالخلقة المباشرة لجميع الكائنات التي خلقها الله منذ البداية بأشكالها وأجناسها مباشرة كما هي الآن.

● وكما أن علماء الأديان قد استنكروا نظرية [التطور] ونبذوها وفندوها استنادا إلى كتبهم الدينية، فإن فريقا من علماء الطبيعة وعلم الأحياء قد استنكروا الفكرة وفندوها أيضا، كما يرى القارىء ذلك بالتفصيل في الفصل السابق وكذلك اللاحق. ولم تعد نظرية التطور إلا «ظاهرة» تذكر في معرض الشطحات التي تصدر عن بعض الناس. وقد ظهر الاختلاف بين التطوريين أنفسهم إذ أن بعضهم قد انكروا وجود الله بته، وآخرون لم ينكروا وجوده تعالى بل قالوا: ان الله هو الذي خلق الخلية الأولى ثم تركها تنمو وتتطور بفعل نفسها.

ومن غريب أمر التطوريين أنهم نظروا إلى هذه الأرض وما عليها فراحوا يخرعون

(١) د. احسان حقي - المرجع السابق - المقدمة ص ٧.

أسبابا لوجودها، ونسوا أن هذا الكوكب وما عليه من مخلوقات إنما هو ذرة في هذا الكون الواسع. فإذا كانت مخلوقات هذه الأرض وجدت من غير خالق فمن أوجد الأرض ذاتها، ثم من خلق هذا الكون وما فيه من آيات؟

● نظرية التطور تقوم على ثلاث قواعد رئيسية هي :

١ - ان الكائنات الحية تتبدل أشكالها جيلا بعد جيل تبديلاً بطيئاً وتنتج في النهاية انسالاً تتمتع بصفات غير صفات أسلافها.

٢ - ان هذا التطور قديم وجد يوم وجدت الكائنات وهو السبب في وجود كل أنواع الكائنات الحية في هذا الكون وتلك التي انقرضت وهذا هو التناسخ الذي تقول به بعض الديانات.

٣ - ان جميع الكائنات الحية من حيوان ونبات مرتبط بالبعض الآخر ارتباط صلة وقرابة وكلها تجتمع عند الحد الأعلى للكائنات كلها.

ولكي يسهل دعاة التطور على الناس هضم هذه الفكرة يقولون: بأن التطور لا يحصل فجأة ولا يتم في جيل أو جيلين أو بضعة أجيال بل يحتاج إلى ملياري سنة. وإذا علمنا بأننا لا نستطيع أن نعود بوسائلنا التاريخية إلى أكثر من ستة آلاف سنة، وبوسائلنا العلمية إلى أكثر من عشرين أو ثلاثين الف سنة ونظل على شبه اليقين مما نقول، أدركنا أننا نعيش فيها وراء ذلك على فرضيات لا بل وتحرصات يختلف العلماء بشأنها اختلافا كبيرا. فالقول بالرجوع إلى ملياري سنة إلى الوراء لا يزيد عن حديث خرافة^(١).

● وملخص القول أن جميع الديانات السماوية قالت بنشأة الانسان نشأة راقية ومستقلة وترفض تدرج الكائنات الحية إلى طور (الانسان)^(٢) . .

■ يقول الحق تبارك وتعالى في تطور الانسان من التراب إلى الانسان السوي . . ﴿ وما لكم لا ترجون لله وقارا وقد خلقكم أطوارا ﴾^(٣)

(١) المرجع نفسه ص ٨ .

(٢) د. عبد العليم عبد الرحمن خضر - المرجع السابق ص ٧٤ .

(٣) سورة نوح ١٣ - ١٤ .

والآية الكريمة تشير إلى خلق الانسان في (اطوار) مختلفة وفي أحوال تكاد تكون متباينة . . الم يخلقكم من تراب ثم من نطفة ، ثم من علقه ، ثم مضغة ، ثم أخرجكم أطفالا ، ثم كنتم شيوخا ، أليس صاحب هذا بقادر على كل شيء فما لكم لا تخافون عظمة الله . .

(والأطوار) التي يخاطب بها قوم نوح في ذلك الزمان لا بد أن تكون أمراً يدركونه ، أو أن يكون أحد مدلولاتها مما يملك أولئك القوم في ذلك الزمان أن يدركوه ، فيكون من وراء تذكيرهم به أن يكون له في نفوسهم وقع مؤثر يقودهم إلى الاستجابة . .

● والذي عليه أكثر المفسرين :

أنها (الأطوار) الجنينية . . من النطفة - إلى الطاقة - إلى المضغة - إلى الهيكل - إلى الخلق الكامل . . وهذا يمكن أن يدركه القوم إذا ذكر لهم . . لأن الأجنة التي تسقط قبل اكتمالها في الأرحام يمكن أن تعطيهام فكرة عن هذه الأطوار (وهذا أحد مدلولات الآية) .

● ويمكن أن يكون مدلولها ما يقوله علم الأجنة :

من أن الجنين في أول أمره يشبه (حيوان) الخلية الواحدة ، ثم بعد فترة من الحمل يمثل الجنين شبه الحيوان المتعدد الخلايا ثم يأخذ شكل (حيوان مائي) ثم حيوان ثديي ، ثم شكل المخلوق الانساني . .

(وهذا أبعد عن إدراك قوم نوح) . . فقد كشف هذا منذ سنوات قليلة فقط . . وقد يكون هذا الكشف هو مدلول قوله تعالى في موضع آخر بعد ذكر أطوار الجنين ﴿ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين﴾^(١) . . وبعض المسلمين^(٢) تجرأ وسبق

(١) سورة المؤمنون : ١٤ .

(٢) من المدهش حقا أن نشير هنا إلى «ابن خلدون» تجاوز ذلك . . قائلا بأن أنشأناه خلقا آخر هو تحوله من (القردة) صاحبة الإدراك إلى الانسان السوي - في ذلك يقول . . «ثم لننظر إلى عالم التكوين كيف ابتدأ من (المعادن) ثم النبات ، ثم الحيوان على هيئة بدیعة من التدريج ، آخر أفق المعادن متصل بأول افق النبات مثل الحشائش ومالا بذرله وآخر افق النبات مثل النخل والكرم متصل بأول أفق الحيوان مثل الحلزون والصدف . . ولم يوجد لها إلا قوة اللمس فقط ، ومعنى الاتصال في هذه المكونات أن آخر افق كل منها مستند (بالاستعداد الغريب) لان بصير أول أفق الذي بعده . . واتسع عالم الحيوان وتعددت أنواعه . . وانتهى في تدرج التكوين إلى الانسان صاحب الروية ترتفع إليه من عالم (القردة) الذي اجتمع فيه الحس والادراك . . ولم ينته إلى الروية والفكر بالفعل . . وكان ذلك أول أفق من (الانسان) بعده . .

«داروين» بالقول بتطور الكائنات حتى تصل إلى (القردة) . . ثم الانسان ، ولاشك ان قصة خلق الانسان (مرحلة) بعد (مرحلة) ، و(طورا) بعد (طور) أمر مثير للاهتمام والتفكير، والتعجب من هذه القدرة الباهرة التي تحول (النطفة) التي لا ترى إلا بتكبيرها مئات وآلاف المرات . . تحولها إلى انسان كامل البنية سوى الخلقة بديع التكوين . .

● فهل التطور أمر واقع حقا ؟

للجواب على هذا الاستفهام يكفي ان نحلل بدقة وامعان نظر تصريحات الذين يؤمنون بالتطور كواقع لكي نرى وضعاً محيراً . يبدو أن أكثر الناس يجهلونه وهو عديم المثل في فروع العلوم الأخرى .

فقد كتب «دارون» منذ أكثر من مئة سنة في الفصل السادس من كتابه (أصل الأنواع) المطبوع سنة ١٩٥٩ يقول : «اني لا أشك بأن اعتراضات كثيرة قد خطرت ببال القارئ قبل أن يصل إلى هذا الفصل من كتابي، وبعض هذه الاعتراضات خطير إلى حد أنني حتى اليوم، لا أفكر بها إلا وتعتريني هزة» .

فهل نستطيع أن نصف التطور بأنه حقيقة رائعة واقعة، بينما [دارون] نفسه يهتز للاعتراضات الواردة على هذه النظرية؟

● لقد تآزر دليل العلم مع أدلة الدين الحق على فساد نظرية داروين بشقيها، وعلى أنها أسطورة انهارت وصدقت الكشوف الأثرية رأي الدين في أن الانسان خلق من جنس مستقل .

إن ما أثبتته العلم أخيراً لم يكن مفاجأة . . . فإن علماء كثيرين متجردين أعلنوا أن الأنواع كلها ظهرت إلى عالم الوجود دفعة واحدة كاملة دون سابق إعداد أو خطوات متوسطة، فلم يكن هناك حاجة إلى سلسلة من الأجيال المتعاقبة أو الانتخاب الطبيعي أو تنازع البقاء . . .

وها قد مضى أكثر من قرن على [دارون] وعلماء التطور مستمرين في أبحاثهم .

وهذه غاية شهودنا . . .

يرجع في ذلك إلى : دكتور محمد علي البار - المرجع السابق ص ١١ . وقال بذلك أيضا الدميري - البلخي - الفخر الرازي - الفارابي .

فهل أثبتت هذه الأبحاث واقعة التطور؟

● كلا إنها لم تثبت ذلك، وهاهو كتاب (سنة العلم) المطبوع سنة ١٩٦٦ يعترف بما يلي:

«على الرغم من النجاحات التي أحرزها علم الآثار، فإن العلماء مازالوا في بداية المهمة العظيمة التي يتوخونها ونعنى بذلك معرفة تاريخ الانسان» ونحن نقول: ان البداية التي وصلوا إليها لا يمكن اعتبارها واقعا راهنا.

ويبدو تناقض الآراء، بهذا الشأن واضحا من مطالعة كتاب «الأساس الحيوي لحرية الانسان» للعالم «دويز هنسكي» حيث يقول: «لقد ثبت بما لا يدع مجالا للشك، حتى العشر الأخير من القرن التاسع عشر، بأن التطور أمر واقع «ولكنه بعد صحيفتين من هذا القول يرجع ليقول: «مما لاشك فيه أن المظاهر التاريخية المتممة لحلقات التطور مازالت غير معروفة تماما. . ولا نستطيع أن نرى الأسباب التي قررت تطور النوع الانساني إلا من خلال ضباب».

فهو من جهة يؤكد بأن التطور أمر واقع، ومن جهة أخرى يعترف بأن المظاهر التي قررت حلقات هذا التطور غير معروفة تماما بل أنه يراها من خلال ضباب. . وهل يرى المرء شيئا ثابتا من خلال ضباب؟!!

● وتقول «الموسوعة البريطانية» أيضا مثل هذا القول حيث تقول أولا: «ليس لدينا أي شك فيما يتعلق بكون التطور حقيقة واقعة وأن الأدلة عليها، في الوقت الحاضر، غير قابلة للرفض «وبعد بضع صفحات تصف الموسوعة المذكورة الأدلة «بأنها غير كافية وغير متسلسلة، بل هي كثيرة الفجوات».

وتضيف الموسوعة قائلة: «إننا مازلنا لا نعرف شيئا عن هذه الظواهر الحيوية التي قررت هذا التغيير».

وقد اعترف بنقص الأدلة رئيس «الجمعية الأمريكية لتقدم العلوم» في مقال نشره في مجلة «العلوم» بصدد حديثه عن التطور فقال: «تعال معي لنقوم برحلة فرضية فيما قبل التاريخ، ولنتصور الزمن الذي ظهر فيه نوع الانسان العاقل (سايين) ولنقطع بسرعة آلاف السنين التي نعتمد في القسم الأكبر من معلوماتنا الحاضرة عنها، على الحدس والتخمين والاستنتاج إلى ان نصل إلى فترة الوثائق التاريخية التي تسمح

بالتقاط بعض الوقائع». وإليك ما نقرره نحن :

مضت الآف السنين قبل أن يبدأ عصر الوثائق الأولية، والعلماء يعترفون بأن مراحل التطور التي يظن بأنها سبقت عصر الوثائق، انها بنيت على الحدس والتأويل والبحث النظري، وهي بالتالي صرح من الفرضيات .
وفيما يتعلق بكتاب «دارون» الشهير : (اصل الأنواع) فقد أبدى عليه العالم المذكور الملاحظة التالية :

«لقد أحصى ما جاء في كتاب (أصل الأنواع) وحده أكثر من ٨٠٠ جملة ارتيابية مثل قوله : قد نستطيع أن نستنتج . . قد يمكن أن يكون . . الخ . فالمرء الذي يبحث ليفهم لا يلبث عند سماع هذه العبارات الارتيابية، أن يقع في حيرة من هذه التناقضات، إذ يرى بعض العلماء يؤكدون على التطور بكل صراحة، ويرى آخرون يعترفون بأن كل الاستنتاجات فرضية»

وهذا التناقض هو الذي دفع العالم الفسيولوجي «تهميسان» الملحق باللجنة المركزية للطاقة النووية، إلى القول : «ان العلماء الذي يؤكدون على أن التطور واقع علمي هم منافقون، أن مايروونه من احداث انها هو من الشعوذات التي ابتدعت ولا تحتوي على نقطة واحدة من الحقيقة»، وقد وصف هذه النظرية بأنها «خليطة مضطربة من الأحاجي وشعوذة الأرقام» .

ومما أسهم في هدم نظرية [داروين] من جذورها، ذلك الكشف الذي توصل إليه أخيراً البروفيسور [ليكي] في جبال كينيا، ثم قام بتحليله بأجهزة التحليل الذري، وأثبت أن الجمجمة التي عثر عليها وكذلك العظام الأدمية تدل على وجود الانسان السوي منذ تلك الحقبة السحيقة الموغلة في القدم، وأن ذلك المخلوق لا علاقة له بتاتا بالقردة العليا . . . وكان من أهم ما يميز هذا المخلوق، أن شكل الجمجمة والأسنان وعظام الساق تشير إشارة واضحة إلى أنه انسان متكامل عاقل سوي، وتكشف عن كيفية سيره على الأرض . . . إذ أكدت زاوية ارتباط العمود الفقري بقاع الجمجمة أنه كان قادراً على المشي مثلنا تماماً، ولم تكن له صفات الوحش المفترس .

وذلك كله يثبت خطأ النظريات الاجتماعية التي بنيت على نظرية [داروين] المشؤومة من أن الصفات العدائية في الانسان ترجع إلى أجداده القردة!!! . . .

ومما أسهم أيضا في هدم نظرية [داروين] . . . أبحاث البروفيسور [جوهانز هودبر] من علماء سويسرا سنة ١٩٥٦ ، التي أجراها حول أصل الانسان ، فقد عارض نظرية داروين بشدة وقال انه لا يوجد دليل واحد على أن الانسان من سلالات القروء ، وأثبتت أبحاثه وتجاربه الواسعة أن الانسان منذ عشرة ملايين سنة يعيش منفرداً وبعيداً جداً ، كذلك أعلنه الدكتور [دوفير] المشرف على أبحاث جامعة كولومبيا ، وأيده البروفيسور [هوردلر] أن نظرية داروين هي مجرد [رأي] لا أساس ولا أصل علمي له ، وأن الكائنات إنما خلقت مستقلة الأنواع استقلالاً تاماً فمنها [الانسان] الذي يمشي على رجليه ، ومنها الدواب التي تمشي على أربع ، ومنها الزواحف التي تمشي على بطنها . . .

وصدق الله العظيم إذ يقول:

﴿فمنهم من يمشي على بطنه ، ومنهم من يمشي على رجلين ومنهم من يمشي على أربع ، يخلق الله ما يشاء﴾ «النور/٤٥» .

وقصة خلق الانسان وتطوره في القرآن لها (أطوار) كثيرة . . . وأولها بداية الخلق (التطور) الطيني وخلق آدم . . .

يقول سبحانه وتعالى . . . ﴿إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم ، خلقه من تراب ، ثم قال له كن فيكون﴾^(١) .

ويقول سبحانه وتعالى . . . ﴿ومن آياته أن خلقكم من تراب ، ثم إذا أنتم بشر تنثرون﴾^(٢) .

ويقول سبحانه وتعالى . . . ﴿الذي أحسن كل شيء خلقه ، وبدأ خلق الانسان من طين ، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين﴾^(٣) .

ويقول سبحانه وتعالى . . . ﴿يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإننا خلقناكم من تراب﴾^(٤) .

(١) سورة آل عمران : (٥٩) .

(٢) سورة الروم : ٥٩ .

(٣) سورة السجدة : ٧ - ٨ .

(٤) سورة الحج : ٥ .

ويقول سبحانه وتعالى . . ﴿ولقد خلقنا الانسان من سلاله من طين ثم جعلناه نطفه في قرار مكين﴾^(١).

ويقول سبحانه وتعالى . . ﴿وإذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من طين فإذا سويته ونفخت فيه من روحي، فقعوا له ساجدين﴾^(٢).

ويقول سبحانه وتعالى . . ﴿ولقد خلقنا الانسان من صلصال من حمأ مسنون﴾^(٣).

ويقول سبحانه وتعالى . . ﴿خلق الانسان من صلصال كالفخار وخلق الجن من مارج من تار﴾^(٤).

وقد شرح أصحاب الفضيلة المفسرون (الحمأ) بأنه الطين الأسود المتين والمسنون أي الذي أسن (وتغير) . . وهو صفة للحمأ . . ويقول العلم الحديث أن نشأة الحياة كانت من الطين الاسن . . وهو طين المستنقعات التي تتصاعد منه الغازات الكريهة الرائحة . . وهي غاز (الميثان) Methane وغاز كبريتور الهيدورجين H2 S وغاز النوشادر، (الأمونيا) Ammonia .

وفي متحف التاريخ «بلندن» شروح كاملة (لتطور) الغازات المنتنة التي تجمعت من الحمأ المسنون لتكوين الأحماض (الأمينية) . . ثم كيف تطورت هذه لتكون (البروتينات) وأهمها الحامض (النوى) الذي كان الوسط الوحيد المناسب لاستقبال اشعاع الحياة من الله سبحانه وتعالى .

● لقد أمرنا الله سبحانه وتعالى بالتفكير والنظر في خلق الانسان وتطوره بعد (مرحلة الطين) فقال جل من قائل عليا . .

﴿ولقد خلقنا الانسان من سلاله من طين، ثم جعلناه نطفه في قرار مكين، ثم خلقنا النطفة علقه، فخلقنا العلقه مضغه فخلقنا المضغه عظاما، فكسونا العظام لحما، ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين، ثم إنكم بعد ذلك لميتون، ثم إنكم يوم القيامة تبعثون﴾ . . «المؤمنون ١٢-١٦»

(١) سورة المؤمنون : ١٢-١٣

(٢) سورة ص : ٧١-٧٣

(٣) سورة الحجر : ٢٦

(٤) سورة الرحمن : ١٤ - ١٥

● [مرحلة النطفة] مذهلة في دلالتها على قدرة الخالق الأعظم . . ففيها اختصار لوجود (الإنسان) كله، واشتملت على كل ما في كيانه من قوى عاقلة، ناطقة، مبصرة، سمعية، مريدة، فما النطفة إلا الإنسان (مضمرا) في كيانه، وما الإنسان إلا النطفة سابجا في محيطها متحركا في فلكها.

[مرحلة العلقة] (اعجاز علمي آخر) . . فقد جعل الله سبحانه وتعالى (مرحلة) إيجاد الإنسان من الطين عملية خلق . . ﴿وخلقنا الإنسان من سلالة من طين﴾ . . وجعل توالد الإنسان من (النطفة) عملية وظيفية تخضع لسنن ظاهرة يدركها الإنسان ويعمل على تحقيقها وقد عبر عنها القرآن بلفظ (وجعل) ﴿ثم جعلناه نطفة في قرار مكين﴾ .

وموضوع الاعجاز العلمي في نظري يكمن في (تحرك) النطفة نحو غايتها إلى أن تكون مولودا بشراً، ينتقل من نطفة إلى (علقة) . . إلى (مضغة) . . إلى (هيكل عظمي) إلى (هيكل بشري) يكسوه اللحم . . إلى (جنين) . . ثم طفل وهذه الأطوار هي في الواقع انطلاقة لهذه - النطفة - والله (وحده) هو الذي يعلم ما تحمله المرأة في بطنها أهو ذكر أم أنثى . . قال سبحانه وتعالى . . ﴿الله يعلم كل انثى، وما تغيض الأرحام وما تزداد وكل شيء عنده بمقدار﴾^(١).

● ثم [مرحلة المضغة]، وهي (تطور) من العلقة . . وقد تكون «مضغة مخلقة وغير مخلقة» . . ويصل خلق الإنسان إلى هذه المرحلة عند بداية الأسبوع السابع . . وهي مقدار ما يمضغ من اللحم، وقد حددها الحديث النبوي الشريف الذي رواه ابن مسعود رضي الله عنه بانها تبدأ بعد أربعين يوماً من (العلق) (أو ٧ أسابيع منذ بدء التلقيح) . . ثم تستمر في النمو لمدة أربعين يوماً أخرى^(٢) . .

(١) سورة الرعد - (٨).

(٢) تنمو المضغة حتى تبلغ في نهاية نموها سبعة سنتيمترات وهو مقدار طول (السبابة) وذلك أكبر حجم للمضغة يمكن أن يأخذها النهم في طعامه.

وفي هذه المرحلة يتم نمو الأجهزة المختلفة، فالقلب ينمو سريعا من انبوب مغلق بسيط التكوين إلى أن يتم اكتمال القلب بانتهاء (مرحلة) المضغة وفي تلك المرحلة تتشكل أيضا العينان والأذنان والأنف - والشفتان ويتكون الوجه ويتصور وتتشكل الأطراف وكذلك الجهاز العصبي والمخ والعظام . . فسبحان الله أحسن الخالقين.

ثم ينفخ الله سبحانه وتعالى فيها الروح .

حينئذ تصير خلقاً آخر . . .

فتبارك الله أحسن الخالقين . .

● [مرحلة الهيكل العظمي والبشري والاكتساء باللحم] . . وفيها يشكل الخالق الأعظم جميع معالم البنيان البشري ويحدد فيها مواضع الفصل والوصل ثم تبنى الأعضاء شيئاً فشيئاً . . وفي ذلك يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحماً ، فلما تبين له قال أعلم أن الله على كل شيء قدير ﴾ . . .
«البقرة: ٢٥٩» .

● [التطور إلى جنين] . . ونجد الجنين الانساني في هذه - (المرحلة) مزود بخصائص معينة هي التي تسلك به طريقه الانساني فيما بعد ، وهو ينشأ «خلقاً آخر» في آخر أطواره الجنينية ، بينما يقف (الجنين الحيواني) عند التطور الحيواني . . لأنه غير مزود بتلك الخصائص ، ومن ثم فإنه لا يمكن أن يتجاوز الحيوان مرتبته الحيوانية .

● . . نقول (للداروينية) . . لا يمكن أن يتجاوز (الحيوان) مرتبته (الحيوانية) . .

● . . أي أن (الحيوان) لن يتطور في يوم من الأيام إلى مرتبة (الانسان تطورا آليا كما تدعي النظرية المادية) . .

■ لماذا؟ . .

لان (الحيوان) . . و(الانسان) . . نوعان مختلفان . . اختلفا بتلك النفحة الالهية

التي بها صارت سلالة الطين انسانا .

واختلفا بعد ذلك بتلك الخصائص المعينة الناشئة من تلك النفخة والتي ينشأ بها الجنين الانساني «خلقاً آخر» قابلا لما هو مهياً له من الكمال بواسطة خصائص مميزة وهبها له الله عن تدبير (مقصود) ، لا عن طريق (تطور آلي) من نوع الحيوان إلى نوع الانسان . . .

أدلة أخرى على انحراف نظرية داروين

● تقوم نظرية الارتقاء «لداروين» على أساس مناقض . . كنه تحريف . . فالنظرية (تفترض) أن الانسان ليس إلا (طورا) من أطوار (الترقى) الحيوانية، (وتفترض) أن الحيوان يحمل خصائص التطور إلى مرتبة (الانسان) . . والواقع المشهود (يكذب) هذا الفرض لتفسير الصلة بين الحيوان والانسان، ويقرر أن الحيوان (لا يحمل) هذه الخصائص^(١) . .

فالحيوان يقف (دائما) عند حدود جنسه الحيواني لا يتعداه . .
ولكن يبقى (النوع) الانساني متميزاً بأنه يحمل خصائص معينة [تجعل منه إنساناً] وليست نتيجة (تطور آلي) . . وإنما هي هبة مقصودة من قوة خارجية تمام هي قوة (الله) سبحانه، وهو بكل شيء عليم^(٢) . .

● يستدل من هذا الاهتمام الدارويني بتعليل هذه الظاهرة التي يستند في تعليلها وأهميتها الكبرى - إلى جانب تلك السنة الاحيائية - على سنة الانتخاب الطبيعي، على ما تكوّن في عقلية داروين من نزعة علمية تميل بكنهها وماهيتها إلى الاحاد. لماذا؟ . . .

لأنه جعلها مفتاحاً لأبواب النشوء التي فتحتها على مصارعيها^(٣) . ومهما يكن من أمر، فإن نظرية أصل الأنواع بالانتخاب الطبيعي تتضمن بالضرورة ظاهرة انحراف الصورة المنتخبة عن صفات أصولها لأن الفرد الذي يغوص في التحول، لا بد من أن ينحرف عن جوهر نوعه، وأثبتت نظرية «داروين» بما لا يدع مجالاً للشك أن العلوم البشرية تظل ناقصة مهلهلة طالما ظلت تفتقر إلى الصدق والشمولية والديمومة . . وهكذا تبقى الحقيقة القرآنية هي الصدق المطلق . . لأنها من كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . . . إنه تنزيل العزيز الحميد . . فسبحان الله وتبارك الله أصدق القائلين .

(١) د. عبد العليم عبد الرحمن خضر - المرجع السابق ص ٨١ .

(٢) المرجع نفسه ص ٨٢ .

(٣) باسمه كيال - اصل الانسان وسر الوجود - دار ومكتبة الهلال - بيروت ص ٣٦ .

الفصل العاشر

سقوط نظرية داروين

- الأدلة العلمية على سقوط نظرية داروين .
- أين هي المخلوقات المتوسطة ؟
- الرد العلمي والايابي على هراء الداروينية .
- علماء المسلمين يهدمون فرضية التطور [ابن مسكويه] .
- علماء الغرب يسقطون نظرية داروين .

الفصل العاشر

سقوط نظرية داروين

قبل كل شيء يجب أن يفهم البشر - كل البشر - اليهود والنصارى والوثنيون والملحدون أننا نحن المسلمين (نقبل) أي رأى أو (حقيقة) علمية تخدم الانسان وتحقق خلافته في الأرض وتكون قد (اختمرت) تماما في وعاء (التجربة - والملاحظة - والاستنتاج - والشمول - والوضوح - والحقيقة)^(١)، وعندئذ فهي (عندنا) «جزئية» صادقة من «معادلة كلية» مطلقة في قانون الله الالهي العام الاعظم للكون^(٢). . . فإذا كانت منسجمة مع هذا [القانون] فهي ليست في حاجة إلى تأييد أو رفض من انسان . . . ولقد قوبل إعلان مذهب [النشوء] لداروين في الغرب نفسه بثورة عاصفة من حملات الاستنكار والتكفير في البيئات الدينية، وحرمت زمرة من معاهد العلم في أوروبا تدريس هذا المذهب الهدام . . . بل لقد حوكم البروفيسور [سكوب] في «دايتون» - في شهر يوليو سنة ١٩٢٥ - لأنه خالف القانون الذي حرم تدريس هذا المذهب الفاسد لخروجه على العقيدة الدينية .

وقد صدر كتاب سنة ١٩٢٠م للبروفيسور [ث. ب. بيشوب] بعنوان:

[النشوء منتقداً Evolution Critieised] . . . يهاجم نظرية «داروين» ويطالب الداروينيين المحدثين بالاتيان بدليل واحد على صدق مزاعمهم . . . وأثبت أن العصور الجيولوجية لم تتكشف قط عن انسان يخالف في تكوينه الثابت . تكوين النوع الانساني المكرم في صورته الحاضرة . . . وأهم من ذلك، أثبت [بيشوب] أنه لا توجد أدلة تؤيد تحول الأنواع في عالم الحيوان أو عالم النبات . وأن أدلة النشوئين على التشابه القديم

(١) د. عبد العليم عبد الرحمن خضر - المرجع السابق ص ٨٢ .

(٢) المرجع نفسه ص ٨٣ .

بين أنواع الحيوانات تكمن في تشابه الأجنة، أدلة كاذبة، لأن صور الأجنة الصحيحة لا تبرز هذا الشبه، وماعدا ذلك من الصور المتشابهة فهو «مزور» باعتراف واضع تلك الصور، العالم الألماني [ارنست هيكل] . . . فقد أعلن بعد انتقاء علماء «الأجنة» له أنه اضطر إلى تكملة الشبه في نحو ثمانية في المائة من صور الأجنة لوجود نقص في الرسم المنقول!!!! . . .

ولم يترك البروفيسور [بيشوب] إدعاءً ارتكبت عليه التطورية إلا وهدمه من الأساس بأدلة علمية رائعة . . . وأثبت أن كل ما ورد بخصوص [الحلقة المفقودة] في تطور الكائنات - حسب تخريف الداروينية - هراء لأساس له من العلم .

وإذا كان [داروين] قد اعترف صراحة بأن الطريقة التي وجدت بها الحياة على وجه الأرض، لاتزال مجهولة حتى يومنا هذا، فإن جهله بالطريقة التي تسلسلت بها الكائنات الحية وتنوعت [كما يزعم] لا يقل عن جهله بالطريقة التي وجدت بها الحياة الأولى على وجه الأرض وكيف ومتى وجدت؟ .

فالمتتبع لما كتبه ونشره [داروين] عن نظرية التطور والارتقاء يجد أن «داروين» لم بين هذه النظرية على أسس علمية قاطعة ثابتة، لا يمكن الرجوع عنها، وإنما بناها على افتراضات وتقديرات وتخمينات بعيدة كل البعد عن مناهج البحث العلمي المعترف بها في عالمنا المعاصر .

فجميع الذين قالوا بنظرية التطور والارتقاء [وعلى رأسهم «داروين»] يعترفون بأن هذه النظرية هي فرض علمي يعوزه الدليل الحسي، بل ان جوهر بحوث علماء [التطور] والارتقاء جميعاً تشير كلها إلى أن أصول هذه النظرية وفروعها هي من باب الافتراض لا القطع، والتخمين لا التأكيد .

ومن الأدلة العلمية على سقوط نظرية داروين، ما أعلنه العالم الفلكي الشهير «كراما سانج» . وما قاله في ذلك^(١) :

(١) مالين شاندر وكراما سنح - استاذ الرياضيات التطبيقية وعلم الفلك بالكلية الجامعية، كارديف ويلز ومدير معهد الدراسات الأساسية، سري لانكا في عام ١٩٦٢، عندما كان يعمل في جامعة كمبرج، منح جائزة «بأول» في الشعر الانجليزي، علماً بأنه من أصل سري لانكي . وقد وردت تفاصيل الآراء التي يعرضها في هذا المقال في كتابين اشترك في تأليفها مع السير فريدهويل .

● [لا أكاد أذكر بالضبط متى كان أول عهدي بنظرية التطور لداروين . ولكنني لا بد أن أكون قد تعلمتها في قاعة الدراسة في سن مبكرة لم أكن عندها في وضع يؤهلني لتقييم الحقائق . وقد قدمت لنا ضمناً على الأقل ، على أنها حقيقة مثبتة لاتتزعزع . وطلب منا آنذاك أن نصدق أن المادة غير العضوية وغير الحية قد بعثت إلى الحياة عن طريق خلط عشوائي للجزيئات في زمن ماضٍ سحيق على كوكبنا . وطلب إلينا كذلك أن نسلم بأن الحياة التي نشأت على الأرض بعدئذ كانت بأكملها نتيجة التطور وفقاً للمذهب الدارويني الجديد . فالأنواع القوية تعيش لتصبح أكثر قوة أما الضعيفة فتموت وتتوارى في زوايا النسيان . وقد راعيتي كمنظرة عظيمة الشأن وجذابة ومقنعة على الرغم من أنها كانت على طرف النقيض مما ورثته ولقنته من معتقدات بوذية ترى أن الكون خالد سرمدي وأن لانهاط الحياة صور ذات طبيعة دائمة].

ثم يقول «كراما سانج» :

. . «ورسخت الأفكار الداروينية الجديدة في ذهني وأصبحت جزءاً لا يتجزأ من زادي العلمي . وقد تخصصت أولاً في الرياضيات ثم درست الفلك وكنت عندئذ أسلم ضمناً بصحة الأفكار البيولوجية السائدة . ونظراً لأنني ، إلى ما يقرب من خمس سنوات خلت ، لم أقم بدراسة منظمة للبيولوجيا ، لم يتسن لي حتى ذلك الحين أن أعرف كنه الحقائق أو أن أسبر أغوارها^(١) .

. . . ويرجع منشأ نهوضي للتصدي للمعتقدات المسلم بها في «التطور الدارويني» إلى ما أجرته من دراسات مشتركة مع السير فريد هويل . ذلك أننا شرعنا سنة ١٩٦٢ في البحث في طبيعة الغبار فيما بين النجوم وتوصلنا حينذاك إلى نتيجة مؤداها أن جسيمات الغبار في الفضاء لا بد أن تحتوي على مكون في شكل كريات مجهرية من الجرافيت يقل حجم الواحدة منها عن الميكرون . واستمر جهادنا الطويل المضني بعد ذلك لاكتشاف ما قد يكون في الغبار الفضائي من مكونات أخرى خلاف الجرافيت ، حتى كان عام ١٩٧٢ حين اكتشفت وجود البوليمرات العضوية - وهي سلاسل طويلة من جزيئات عضوية مؤلفة من ذرات الكربون . ومنذ عامين توصلنا إلى أن مجموعة كاملة من البيانات الفلكية تشير إلى وجود كائنات دقيقة في الفضاء على نطاق هائل إذ

(١) المرجع نفسه .

يقدر عدد الخلايا المنفردة في مجرتنا بنحو $10^{(52)}$ خلية. وكانت طريقة اعتماط طيف النجوم من شتى الألوان بالغبار الفضائي هي التي هدتنا إلى وجود خلايا حية في الفضاء وقد تحول بعضها على نحو انتقائي إلى جرافيت. وخلصنا الآن ونحن على قدر كبير من الثقة إلى أن الميكروبيولوجيا تعمل على نطاق كوني - بسبب التوافق الشديد المبين هاهنا من جهة، ولأن هذا التوافق من جهة أخرى لم يحدث إلا بعد قرابة عقدين من الاخفاق والاحباط في الحصول ولو على توافق معقول مع نفس البيانات باستخدام نماذج مألوفة من هذا الغبار.

وعند دراسة سلوك أطيف الكائنات الدقيقة في المختبر لاحظنا وجود أثر تشخيص للبيولوجيا في منطقة الأطوال الموجبة دون الحمراء. وقمنا بمقارنة البيانات المخترية مع طيف الامتصاص في المنطقة دون الحمراء لضوء نجم في مركز مجرتنا، ولمسنا التناظر الوثيق الرائع بين الميكروبيولوجيا والفلك. ومن ثم يبدو أن البكتريا موجودة في كل أرجاء المجرة.

وفي رأى السير «فريد هويل» ورأى أن أوجه التطابق هذه لا تقل حسما عن أي أوجه تطابق أخرى يمكن الحصول عليها من مقارنة البيانات المخترية بالمشاهدات الفلكية. كما تم مؤخرا الاكتشاف الحاسم لأحافير الكائنات الدقيقة في الأحجار النيزكية الكربونية، وهي شظايا من الصخر تسقط من السماء ولا يمكن أن تكون لها أية علاقة بالأرض. ويعزى سبب تخلف اغلب العلماء اليوم عن الاعتراف بهذه الحقائق البينة، لحد كبير، إلى تشرهم منذ صغرهم لنظرية «داروين» التي تفترض ضمنا ان الحياة بدأت على الأرض.

وتشير الحقائق التي في حوزتنا بوضوح إلى أن الحياة على الأرض مشتقة مما يظهر أنه نظام حياة شامل يعم أرجاء المجرة جميعا. وتمتد أصول الحياة على الأرض إلى سحب الغاز والغبار الفضائية التي اندمجت وتضخمت فيما بعد في المذنبات. أي أن الحياة قد استمدت ولا تزال تستمد من مصادر خارج الأرض على طرف النقيض مما تقوله نظرية داروين]. ثم يقول:

● [ويتبين من الأدلة الحديثة أن الحياة ظهرت أول ما ظهرت على الأرض منذ قرابة ٣,٨ بليون سنة.

ولاشك في أن الثغرات الواسعة الكثيرة في سجل الأحافير وغيبة الأشكال الانتقالية في أشد مراحل تطور الحياة حسما تبين بجلاء أن «الداروينية» عاجزة عجزا يرثى له عن تفسير الحقائق. ويوضح سجل الأحافير بشكل قاطع أن خواص جديدة للحياة قد أدخلت على مستوى الوراثة عن طريق التجارب الطبيعية المتعاقبة، وأن التغيرات الناجمة عنها لا تدوم إلا عندما تنجح هذه التجارب. ومن ثم اندثرت السلالات عندما فشلت فيها إضافة الوراثة أو كانت متعذرة التطبيق.

ويمكن أن تحدث إضافات الوراثة عن طريق التفاعل بين الفيروسات والفيروسيدات المتولدة في الفضاء وجميع أشكال الحياة القائمة على الأرض في أي وقت معين. وحين اكتشفت فيروسات التركيب لأول مرة قال بعض العلماء أن هذه الجسيمات هي الحلقة المفقودة التي طال البحث عنها بين المادة غير الحية والحياة في التصور «الدارويني». بيد أنه سرعان ما تبين أن بروتينات الفيروسات أكثر تعقيدا من أن تتيح التسليم بصحة هذا الفرض. والواقع أن تركيب مختلف البروتينات الفيروسية قريب الشبه بتركيب البروتينات في أشكال الحياة العليا لدرجة أدت إلى الاعتقاد لفترة ما بأن هذه الجسيمات يمكن أن تكون مشتقة على نحو ما من الحياة العليا. وقد قلنا في كتابنا أنا والسير فريد هويل وعنوانه:

(أمراض من الفضاء)، أن مجموعات صبغياتنا مكتظة بالفيروسات والفيروسيدات. وعمليات الغزو الفيروسية قد تؤدي إلى أمراض وبائية كما في حالة الانفلونزا مثلا. وقد أثبتت نماذج انتشار الانفلونزا بوضوح وجود تأثير مباشر من الفضاء بالنسبة لمسببات المرض^(١). ثم يقول:

● [ومن رأينا أن أية خاصية حاسمة جديدة قابلة للتوريث تظهر أثناء تطور الأنواع لا بد أن يكون لها أصل كوني خارجي. ومع أن من المسلم به أن القرد والانسان يشتركان في سمات كثيرة، فما أوسع البون بينهما من النواحي البيوكيميائية والتشريحية والفسولوجية. وليس في وسعنا أن نقبل أن الوراثة اللازمة لإنتاج روائع الفنون التشكيلية أو الأدب أو الموسيقى أو لتنمية قدرات الرياضيات العليا قد انبثقت من طفرات أتفاقية حدثت لوراثات القروء قبل أن يكون لها أية صلة ملموسة بالبقاء

(١) المرجع نفسه.

بالمفهوم الدارويني بوقت طويل . وكما هي الحال بالنسبة لمعظم أشكال الحياة البدائية على كوكبنا، كان لابد لجميع هذه الخواص أن تغرس من الخارج . فلو كانت الأرض معزولة تماما عن كافة مصادر الوراثة الخارجية لاستمرت الفسافس في التكاثر إلى يوم القيامة ولكنها لن تعدو أن تكون فسافس ولتناسلت مستعمرات القروء أيضا ولكن لانتاج المزيد منها ليس إلا ، وكانت الأرض مكانا كثيبا بلا نزع^(١) .

● ثم يقول :

... [بيد أنه ربما تكون أهم صعوبة تقترن بالمذهب الدارويني الجديد للحياة هي أن الكائنات الدقيقة مفرطة في التعقيد . فعندما خلقت البكتيريا أو اكتملت أو شكلت حسبها تكون الحالة، فمن الصحيح أن نقول: أن ٩٩,٩٩ في المائة من الكيمياء الحيوية للحياة العليا كانت قد اكتشفت بالفعل . والمعروف أن زهاء الفين من الخمائر (الانزيمات) تعد حاسمة على امتداد نطاق واسع نسبيا للحياة ابتداء من الكائنات الدقيقة البسيطة وانتهاء بالانسان . والاختلافات في سلاسل الأحماض الأمينية في هذه الخمائر طفيفة إجمالا . وفي كل أنزيم تحتل أحماض أمينية لا تكاد تتغير عددا من المواضع الحساسة . ولنبحث كيف أمكن لهذه الخمائر أن تشتق من خليط أصلي يحتوي على نسب متساوية من الأحماض الأمينية العشرين الهامة بيولوجيا . ولنقل، على سبيل إعطاء تقدير معتدل، إنه يجب تخصيص ١٥ موقعا لكل أنزيم لملئها بأحماض أمينية معينة حتى تضمن أداء بيولوجيا سليما . ويمكن بسهولة حساب عدد محاولات التجميع اللازمة للحصول على هذه الفئة، وقد وجد أن يناهز (١٠) ٤٠٠٠٠ وهو عدد فلكي هائل حقا . واحتمال اكتشاف هذه الفئة عن طريق الخلط العرضي يساوي واحد من (١٠) ٤٠٠٠٠ . ويمكن أن يتخذ هذا العدد الأخير مقياسا لكمية المعلومات عن الحياة كما تنطوي عليها الخمائر وحدها . كما أن عدد مرات الخلط اللازمة للعثور على الحياة يفوق ببلابين البلايين عدد جميع الذرات في الكون المرصود بأسره . والحق أن إعصارا يهب من خلال حطام طائرة لأقدر على أن يجمع من ذلك الحطام طرازا جديدا كل الجدة من البوينج ٧٤٧ - من العمليات العشوائية على تجميع كائن حي من عناصره .

(١) المرجع نفسه .

● وأنا أرى أن الحياة لا يمكن أن تكون مصادفة، لا على الأرض فحسب، بل في أي مكان على الإطلاق في الكون. والحقائق كما نراها اليوم تشير إلى واحدة من وجهتي نظر واضحتين: أما إلى فعل من أفعال الخلق المتعمد، أو إلى دوام لا يمحي لصور الحياة في كون سرمدي لا نهائي الابعاد. وقد يبدو الرأي الأخير غير متعارض مع الأول في أعين من يقبلون وجهات النظر الكونية الحديثة كحقائق منزلة، وإني أرى وأصرُّ على أن تؤخذ الحياة على أنها أحد أفعال الخلق المتعمد من إله عظيم جبار، يسيطر على الكون بقوته، ولا يشاركه في ذلك أحد. ففكرة وجود خالق يهيمن على الكون من خارجه هي أقرب الأفكار منطقية وليس من اليسير عليَّ أن أرفضها. . . وما أميل إليه فلسفياً هو في جوهره كون سرمدي لا نهائي الابعاد، خلقه الله على نحو ما، وعلى نحو طبيعي هو خالق الحياة. . . أو نوع من القوة الخارقة الذكاء التي ليس كمثلهما شيء بالقياس إلى ذكائنا. وقد أعرب زميلي السير فريد هويل عن تفصيل مشابه لذلك. وفي وضعنا المعرفي الراهن عن الحياة وعن الكون، ينطوي الانكار القاطع لشكل من أشكال الخلق العشوائي البعيد عن الحقيقة لأنه غطوسة لا يمكن الصفع عنها. وكما ثبت أن الأرض ليست هي المركز الفيزيائي للكون، فإني أرى بالمثل أن «الذكاء الأعلى» في الكون لا يمكن أن يكون مركزه كوكبنا الأرضي، لأنه في كل مكان.

● إن ما أسماه [داروين] بتطور الكائنات الحية من نوع إلى آخر، وتحول البقرة إلى حصان، أو كتطور القرد إلى إنسان، عملية خيالية غير واقعية، لم تحصل لا بالتجربة، ولا في الحياة العامة، ولم يلاحظ ذلك على الإطلاق عبر تاريخ البشرية الطويل إلى يومنا هذا، وبالتالي فلا يمكن اعتبار النظرية علمية، وفي ذلك قال الأستاذ [وحيد الدين خان]: .

« هذه النظرية هل لاحظها أحدهم، أو جربها في معمله؟

والجواب لا

فذلك ضرب من المستحيل».

واستحالة ملاحظة نظرية داروين وخروجها عن دائرة التجربة والاختضاع لاختبار، وبالتالي خروجها عن نطاق العلم التجريبي - رغم أن أنصارها يحاولون

إقحامها على العلم التجريبي - هي التي جعلت العلامة [جيمس كونانت] الرئيس السابق لجامعة هارفارد، يقول:

«إن كثيرا من تلك النظريات المتعلقة بأصل الحياة ومنشئها، ليست نظريات علمية على الاطلاق، بل مجرد أفكار تأملية لا يمكن إخضاعها للاختبار».

إن النظرية الساقطة . . . [نظرية داروين] اعتمدت على الحفريات، لكن الاكتشافات العلمية الحديثة المتطورة والأجهزة العلمية الدقيقة والتي لم تكن متوفرة في عصر [داروين]، قد كشفت عكس ما ذهب إليه [داروين]، فقد قام «د. ليكي» مدير المتحف الوطني في كينيا بأبحاث في هذا المجال - سبق الإشارة إليها - دامت حوالي ٢٨ سنة، وانتهت ١٩٦٤، وقد اكتشف خلالها أنموذجين من الجهاجم وقيس عمرها بأجهزة الاشعاع الذري، ووجد أنه بلغ مليونين وستمائة ألف سنة، وحجم غمها ضعف حجم مخ القرد. فماذا نستنتج من ذلك؟
نستنتج من ذلك أنها جماجم انسان سوي متكامل.

● إن الاكتشاف العلمي الذي هدم نظرية داروين من أساسها هو اكتشاف وحدات الوراثة التي أثبتت استحالة تطور الكائن الحي وتحوله من نوع إلى آخر.

● جاءت أفكار «داروين» قميئة، مهلهلة، قاصرة، عاجزة عن الدخول في حيز الصدق المطلق . . . إنها مجرد (أفكار) . . . ظهرت أفكارا . . . وانهدمت بعد أن تغيرت عدة مرات، تغييرات جذرية من الأساس بعد أن (انهارت) أمام مجرد (افتراضات) أخرى من أفكار البشرية، ومازالت تضاف إليها (فروع فرضية) . . . ويحذف منها أجزاء كاملة .

- ونحن لا نقبل بالفرضيات . . .
- نحن نرفض «الداروينية» إنها لم تتسم بالشمولية والبقاء والاستمرار . . .
- نحن نرفض «الداروينية» لأنها انعدمت من الصدق . . . صدق التطبيق على الماضي والحاضر والقدرة على إضافة المفاهيم المستقبلية في جيز مجالها . . .
- إننا نحن المسلمين لا نعرف (التعصب) لفكرة ما أو (نظرية) ما أو حقيقة ما لاعتبارات (الدين) أو اللون أو الجنس لأننا نؤمن ونعمل بقوله عز من قائل عليهما

سبحانه وتعالى : ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا، إن أكرمكم عند الله أتقاكم، ان الله عليم خبير﴾ . . (الحجرات ١٣) :

□ ومن الأدلة العلمية الأخرى على سقوط نظرية داروين :

● عدم مشاهدة أي ارتقاء من أي نوع كان في الأحياء الأرضية من عهد أئوف السنين .

● طول الزمان اللازم لحصول الترقى بين الأحياء، فإن عمر الأرض كما قالوا لا يكفي لآحداث كل ما يرى من هذه الأشكال المختلفة غاية الاختلاف .

● عدم وجود الصورة المتوسطة بين الأنواع اللازمة لمذهب التسلسل .

● إذا كانت الكائنات ذات الخلية الواحدة قد تحولت، في الماضي إلى كائنات عليا في الحياة الحيوانية والنباتية، فمن الواجب أن نجد أدلة على هذا التطور في وثائق «علم الحفريات» ولا بد أن تكون الكائنات ذات [الأشكال المتوسطة] البدائية قد تركت آثارا متحجرة، أو بصمات، أو أدلة أخرى في طبقات الأرض . فإذا تكشف لنا الحفريات؟ لقد أبدى «شارلز داروين» منذ أكثر من مئة سنة . اضطرابه من شهادات الحفريات، حيث قال في كتابه : (أصل الأنواع) ما يلي^(١) :

«هناك صعوبة أخرى، ولكنها أخطر شأنًا . . وأعني بذلك الظهور المفاجيء،

لأنواع تعود إلى التقسيمات الرئيسية لعالم الحيوان، في صخور أقدم الحفريات التي نعرفها . . فإذا كانت نظريتي في التطور صادقة فمن الواجب أن تكون فترتها قد انقضت قبل ترسب الطبقات [الكامبريانية الدنيا]، وهو زمن بعيد ولعله أطول من زمن أي فترة من الفترات الواقعة ما بين زمن الكامبريانية وعصرنا الحاضر، وهي الفترة المجهولة التي تكاثرت فيها الكائنات الحية على وجه الأرض . . أما لماذا لا نجد مستودعات غنية بالحفريات تعود إلى هذه الفترات البدائية التي سبقت فترة الكامبريانية؟

فهذا سؤال لا يستطيع الجواب عليه جوابا مقنعا . وأسباب الصعوبة في الإجابة على ذلك هو عدم وجود طبقات واسعة من الحفريات تحت طبقات النظام الكامبرياني الأعلى» .

(١) باسمه كيال - المرجع السابق ص ٥٤ .

فكيف يمكن تفسير هذا الأمر؟ وهل يمكن تفسيره إلا أنه هروب دارويني واضح من الحقيقة والعجز عن إثباتها؟ أما القائلون بالتطور، الذين سبق ذكرهم والذين قبلوا هذا الأمر على أنه حقيقة واقعة فقد أضافوا إلى ذلك الملاحظة الغربية التالية: حيث قالوا: «ان هذا الاعتراض قائم على أدلة سلبية فقط. وقد دلت التجارب على أن لا قيمة لمثل هذه الأدلة». أو بمعنى آخر: على الرغم من أن هؤلاء التطوريين لم يجدوا أي حفريات صادقة يعود تاريخها إلى ما قبل الفترة الكامبريانية، وعلى الرغم من أن النصف الأول، على الأقل، من كتاب عمر الدهر لا يحوي إلا صحائف بيضاء، فإنهم يعتبرون التطور أمرا واقعا بدعوى أن عدم وجود حفريات يشكل دليلا سلبيا فقط. ومثل هذا القول بعيد جد البعد عن التفكير العلمي، لأن الطريقة العلمية الحقيقية هي استخلاص النتائج من الوقائع الراهنة، فإذا فقدت الوقائع الراهنة وجب إهمال النتائج. ولكن التطوريين يصرون على الاستنتاج متحدين الوقائع. ولا يقبل مثل هذا القول ويعتبره أساسا صلبا لنظرية التطور إلا ساذج!⁽¹⁾

● أين هي المخلوقات المتوسطة؟

. . . إن نحو ثلاثة ارباع المراحل التي تخيلها التطوريون لم توجد قط. فماذا كشفت لنا الحفريات المكتشفة حقا؟ هل قدمت لنا أدلة على التطور؟ أو هل أن وثائق المستحدثات تحتوي، على الأقل، على المراحل الأخيرة من الربع الأخير من المراحل التي يدعيها التطوريون؟ لنبحث الوقائع⁽²⁾:

يقول [تشارلز داروين] في كتابه: (أصل الأنواع) بشأن المخلوقات المتوسطة مايلي:

«إذا كانت الأنواع تنحدر من أنواع أخرى بتدرج بطيء وغير محسوس، فلماذا لا نجد أشكالا كثيرة من المخلوقات الانتقالية المتوسطة بين النوعين؟ لماذا لا يوجد شيء في الطبيعة في حالة مشوشة؟ لماذا لكل من الأنواع شكل ووصف محدد؟ لماذا لا نجد باستمرار، على قشرة الأرض بقايا هذه الأشكال الانتقالية العديدة التي تقضي فرضية التطور وجودها».؟. . . ثم يقول:-

(1) Glenn L. Jepsen, E. M. Genetics Paleontology and evolution, P. 131

(2) D'Arcy Thompson - on growth and form, PP. 51-66.

« ان الأبحاث الجيولوجية لا تقدم لنا السلم التدرجي اللامتناهي وغير المحسوس للكائنات التي توسطت الأنواع الحاضرة وأنواع الماضي كما تقتضيه نظريتي ».

● فكيف يفسر «داروين هذا الفراغ»؟

● يقول في الرد على ذلك ماييلي :

«إني أكتفي بالقول هنا : بان الوثائق التي قدمها علم الجيولوجيا هي من القلة بمكان يفوق التصور».

ثم بعد ذلك يقول: «ولكننا إذا حصرنا بحثنا بكائن واحد غدا من الصعوبة بمكان أن نفهم لماذا لا نجد سلسلة مترابطة متدرجة من الأشكال التي كان من الواجب أن تربط الأنواع المتشابهة بعضها ببعض الآخر».

«وقد نجد أنفسنا أمام الأمر الواقع ذاته في ميدان حياة النبات».

● وهنا يرد عليه الأستاذ «نيسلون» أستاذ النباتات في جامعة لاند في كتابه «التنوع الاصطناعي» يقول:

إذا ما فحصنا المجموعات الكبيرة الخاصة بنباتات الحفريات، فإننا نفاجأ حينما نرى ظهور مجموعات تظهر فجأة بأوقات منتظمة على مدى العصور الجيولوجية وهي مليئة بالأزهار وذات أنواع مختلفة. ويعجب المرء حينما يرى، بعد حقبة من الدهر، لا تقاس بالملايين بل بعشرات الملايين من السنين، اندثار هذه الأزهار فجأة كما ظهرت. وهي خلال حياتها لا تتغير في أشكال انتقالية تتصل بالأشكال الرئيسية للحقبة القادمة، بل ان الأشكال الانتقالية المتوسطة معدومة بتاتا.

وفي جماعة القردة الموجودة حالا والتي من المفترض أن تكون أقرب الحيوانات إلينا لا نجد أي نوع وسيط بيننا وبينه، ولا نجد أي قرد يشبه الانسان، وكذلك لا يوجد

بين الحيوانات الحية حالا أي حيوان يمثل [الشكل الوسيط]، ويرينا أصل القرد الانسان، ولا نجد أيضا في الحفريات واحدا من أجداد الحيوان المفترض أنه قرد

انسان!

● وهناك من علماء الغرب من سخر من نظرية [داروين] الساقطة، وتهكم عليها عندما استيقن من فسادها، ومنهم العلامة الدكتور الفسيولوجي [إيلي دوسيون] الذي قال عن النظرية:

«الداروينية لا تقوم إلا على حكايات مخترعة لا تعلق قيمتها العلمية على قيمة حكايات المرصعات» . . . !!!

● وقد جاء، بهذا الصدد، في كتابه: (الانسان الأول) المطبوع بالفرنسية سنة ١٩٦٦ ما يلي:

« من المؤسف أنه لا يوجد لدينا إلا وثائق غير تامة من الحفريات عن أصل القرد الانسان ولا نعلم في أي وقت ولا في أي مكان بدأ شكل الانسان يختلف عن شكل القرد»^(١).

● إننا نرفض بمتتهى الحزم والشدة ما قاله «داروين» عن انتهاء الانسان وانحداره من (القردة العليا) . . . ونؤمن بشدة وبلا حدود بما جاء في [القرآن الكريم] من أن الانسان خلق خلقاً مستقلاً . . . متكاملًا . . . في أحسن صورة . . . ومن ذلك قوله سبحانه وتعالى . . .

﴿لقد خلقنا الانسان في أحسن تقويم﴾ (التين : ٤).

﴿خلق السموات والأرض بالحق، وصوركم فأحسن صوركم وإليه المصير﴾ . . . (التغابن : ٣).

﴿ولقد كرّمنا بنى آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً﴾ (الاسراء : ٧٠).

● يقول الشيخ «حسين الجسر» مخاطباً [الداروينيين]:

وأنتم لا داعي لكم إلى ترجيح النشوء، والجزم به بعدما أظهرت لكم منزلته من الثبوت، هذا بعدما تقدم، إذاً لم يثبت النشوء فلا يبني عليه اشتقاق الانسان والقرد من أصل واحد كما تزعمون، وقولكم أنه بمقتضى مشابهته للقرد لا يمتنع أن يكون قد اشتق هو إياه من أصل واحد شبهة في غاية السقوط. لأن المشابهة الصورية لا توجب هذا الأمر ولا تقتضيه كما هو ظاهر. . . وإن قلت نعم هي لا توجهه ولكن لا أقل من أنها تحدث الظن به، قلت أن أتباع محمد عليه السلام لا يعتمدون الظن في باب الاعتقاد، ولا يعتبرونه معارضاً لظواهر نصوص شريعتهم.

على أن تلك المشابهة يعارضها أمر يدفع ما أحدثته من الظن، وهو أننا نرى

(1) N.J.Berrill - L'Origine des vertebres, PP. 108-113.

[الانسان] في أول ولادته في غاية من الضعف عقلاً وجسداً لا يقدر على مشي ولا جلوس بنفسه ولا أدنى حركة جسدية تكون منتظمة، وهو في غاية البلادة والبله، لا يدري ما هو محيط به، ولا يعرف الأرض من السماء، ولا النار من الماء، فلا يتجنب مؤذياً، ولا يختار نافعاً حتى لا يدري كيف يأخذ ثدى أمه. فتعالجه الأيام حتى يهتدي إليه، ثم بعد كل ذلك الضعف وجميع تلك البلادة نراه قد أخذ يترقى في القوة والادراك حتى يبلغ درجة فيها لم تكن منتظرة منه فيما لو قيس على بقية الحيوانات التي تكون عند ولادتها أقوى منه حالاً جسداً وإدراكاً. وهذه الحالة فيها من أعجب أعمال الخالق سبحانه وتعالى، ودليل ساطع على عظمته. قدرته من ترقية أضعف حيوان وأبلده إلى درجة لم يلحقه فيها لاحق، فيغدو قويا جباراً يقتلع الصخور ويشيد المباني الهائلة بعد أن كان في غاية الضعف والعجز، ويصبح عالماً مدققاً وفيلسوفاً محققاً. (١).

ويقول الشيخ «جمال الدين الأفغاني» . . في كتابه [الرد على الدهريين]:
«رأس القائلين بهذا القول داروين، وقد ألف كتاباً في بيان أن الانسان كان قرداً ثم عرض له التنقيح والتهذيب في صورته بالتدرج على تتالي القرون المتطاولة، وبتأثير الفواعل الطبيعية الخارجية حتى ارتقى إلى برزخ [أوران أوتان]، ثم ارتقى من تلك الصورة إلى أول مراتب الانسان، فكان صنف النيسم، وسائر الزنوج، ومن هنا عرج بعض أفرادهم إلى أفق أعلى وأرفع من أفق الزنجيين فكان الانسان القوقاسي» .
ثم يقول . . .

«وكأنني بهذا المسكين وما رماه في مجاهيل الأوهام ومجاهيل الخرافات إلا قرب المشابهة بين القرد والانسان، وكأن ما أخذ به من الشبهة الواهية أهية يشغل بها نفسه عن آلام الخيرة، وحسرات العماية» . . . (٢).

● أن علماء المسلمين انما يأخذون عقيدتهم عن (العقل) يوجبون ما أوجبه، ويحيلون ما أحاله، ويجيزون ما اجاز. . (٣)

(١) الشيخ حسين أفندي الجسر - كتاب الرسالة الحميدية في حقيقة الديانة الاسلامية وحقية الشريعة المحمدية - بيروت - ص ٣٢٦.

(٢) محمود عباس العقاد - المرجع السابق - ص ٣١٨.

(٣) يمكن مراجعة مقال: «اتجاه العلم الحديث نحو روحانية الشرق» المنشورة بملحق العدد الصادر في ١٤ أكتوبر =

ومن صريح القرآن أخذ المسلمون . . لأنه لا يعارض العقل ولا يصادمه . .
وقد جاء في القرآن بأن (الله) سبحانه وتعالى قد خلق شخصا اسمه (آدم) وزوجته
(حواء) وأنها أصل (النوع) الانساني . . وأنه خلق آدم من الطين، ونفخ فيه من روحه
وجعله (بشراً) .

وهذا القول (عندنا) صريح لا يعدل عنه إلى تأويله إلا إذا قامت الأدلة التي لا تُرد
على نظرية «داروين» وأن الانسان ليس (أصلاً) بنفسه بل جنس أو نوع مشتق من
غيره .

فإذا صارت أدلة (داروين) - على سبيل الافتراض طبعاً - بديهية في حكم (السماء
فوقنا والأرض تحتنا) وجب أن نسلم بها، وأن نلجأ إلى (تأويل) نصوص القرآن بما لا
يخالف الواقع . . . لأن القرآن هو الواقع لكل العصور التي مر وسيمر بها الانسان .
ولكن نظرية «داروين» لم تبلغ من المتانة هذا الحد الذي يجعلها أمراً قطعياً «لا يأتيه
الباطل من بين يديه ولا من خلفه»^(١) . . بل على العكس من ذلك تماماً، فإن هذه
النظرية لم تبلغ شيئاً من الصحة على الاطلاق . . والمسلم الحقيقي لا يترك الساق إلا
ممسكاً ساقاً أقوى منها وأمتن .

فهل يترك المسلم حبل الله المتين في القرآن ويتعلق بخيط العنكبوت الدارويني؟
بالطبع لا .

● يقول الشيخ جمال الدين الأفغاني منتقداً أفكار الداروينية الخبيثة :

«ومن واهياته ما كان يرويه [داروين] من أن جماعة كانوا يقطعون أذنان كلابهم،
فلما واطبوا على عملهم هذا قرونا صارت الكلاب تولد بلا أذنان . . كأنه يقول حيث
لم تعد للذنب حاجة كفت الطبيعة عن هبته، وهل صُمّت أذن هذا المسكين عن سماع
خبر العبرانيين والعرب وما يجرونه من الحتان ألوفاً من السنين، لا يولد مولود حتى يختن
. . . . وإلى الآن لم يولد واحد منهم مختوناً إلا لإعجاز»^(٢) .

سنة ١٩٣٢ من جريدة السياسية، فانكم واجدون أن فطاحل العلماء مثل (هلدان) واللورد (رزرفورد) قد هدموا
المذهب الذي بنى عليه «داروين» نظريته - المقال بقلم أحمد خيرى سعيد أفندي .

(١) قال عالم الماني أن (القرود) انسان متفهم، وليس الانسان قروداً مرتقياً ونظريته التي يقول بها عكس نظرية «داروين»
واتباعه وقد جعل أدلة وبراهين على صحة نظريته . . وعلى العموم فإدام الأمر مجرد نظرية . . فإنها لا تكون حجة ملزمة
لاحد . .

(٢) عباس محمود العقاد - المرجع السابق ص ٣١٩ .

لم يتمكن محامو «نظرية النشوء والارتقاء» - وأتحادهم أن يتمكنوا - من تمكيننا من مشاهدة أو تجربة أي أساس تقوم عليه مزاعمهم فعلى سبيل المثال ليس بوسعهم أن يثبتوا لنا بالرؤية المباشرة في معمل ما كيف توجد (الحياة) من مادة لا حياة فيها . . وكل ما استطاعوا قوله هو الأول كان (لمادة بدون حياة) . . وان الحياة بعد ذلك بدأت تدب في الكون .

● فأين هذا من قوله تعالى . .

﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ، وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾^(١) .

وقوله تعالى :

﴿أَو لَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ، قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ، ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(٢) .

إن الداروينية نظرية . . لا تثبت شيئا أكثر من أن الأنواع المختلفة لم توجد في وقت واحد، بل وجدت أنواع مختلفة في مراحل مختلفة وأن هناك ترتيبا زمنيا في الأنواع الحية أي أن الأنواع البسيطة للحياة (وجدت) قبل الأنواع الحية المعقدة . . فإذا قال (تطورت) رفضنا ذلك مثلما قال . . «إن الماعز تطور إلى زرافات نتيجة لعمل طبيعي طويل الأمد» .

ونحن غير مستعدين لقبول (هراء) لم يثبت على الاطلاق .

وخير دليل على أن ما قاله الداروينيون في هذا المجال هراء في هراء ما قالوه عن تطور الانسان، وما قيل :

«وكان من بين الحيوانات التي اتيح لها البقاء خلال التغيرات المناخية الكبرى في العصر الأوليجوسيني، سلالة من التارسيويدات أمكنها أن تتحور لتلائم ظروف الحياة الجديدة . وقد تدرجت هذه الكائنات شيئا فشيئا أثناء تلك العمليات التطورية حتى أصبحت من القردة العليا . وقد أدخلت هذه المجموعة من الرئيسيات ذات القوام شبه المنتصب شيئا جديدا على العالم، إذ أنها توصلت إلى حل دائم للمشكلة القديمة

(١) سورة الروم : ١٩

(٢) سورة العنكبوت : ١٩ - ٢٠

التي سببت فناء الكثير من أنواع الحيوان التي سبقتها، ألا وهي مشكلة «الملاءمة والتخصص». وذلك أنها كونت دماغا أفضل بدلا من أن تكون عضلات أقوى، ونجحت في البقاء بتغلبها بسعة الحيلة على أعدائها الطبيعيين الذين يفوقونها سرعة وقوة إلا أنهم يقلون عنها ذكاء. والقردة العليا تسير جماعات في حلها وترحالها. ولا بد أن أوائل هذه القردة قد أدركت ان السلامة في التجمع. وإذا انحصرت فائدة الأرجل الطويلة القوية ذات السرعة الفائقة في الأراضي المكشوفة وحدها فإن التعاون الفكري مفيد في كل مكان (وزمان).

ولكن ما السر في تطور الدماغ، ذلك العضو الذي له هذه الفوائد والميزات، إلى مثل هذه الدرجة الكبرى من التقدم في هذه المجموعة دون غيرها؟ أو لم يكن في وسع الكريودنتات أن تتلافى مصيرها المحتوم لو أنها اتخذت في تخصصها اتجاها مائلا؟. يبدو أن الأمر يختلف بالنسبة للكريودنتات. فالقردة العليا توصلت إلى أن تخطو هذه الخطوة لأنها، كانت قد ورثت على أسلافها الأعضاء الضرورية اللازمة للخطوة التطورية التالية، حتى تكون منها في أوائل العصر البليستوسيني جماعة عجيبة من القردة العليا الشبيهة بالانسان، أو القرود الانسانية، اسمها العلمي «استرالوبيثيكاس» Australopithecus وقد وجدت أحافير لأنواع كثيرة من هذه الجماعة في الكهوف والسهول النهرية في جنوب افريقيا. وقد تبين أن هذه القردة، التي يبلغ طولها أربعة أقدام، كانت تسير وتجري وقوامها منتصب تمام الانتصاب، ودليلنا على ذلك وجود نقطة الاتزان في الجمجمة في موضع أمامي، واتساع عظام الحوض، وانشاء العمود الفقري على شكل حرف (S) «...» .

ومن دلائل حماقة الداروينيين أيضا قول [نابيير] :

«لقد فتحت يدا هذا [القرد - الانسان] عالما جديدا غاية الجدة من الامكانيات . فالقردة العليا تعيش على الديدان المختلفة والفاكهة والحشرات وتستخلصها من البيئة بصعوبة وعناء. ولكن يدي «الاسترالوبيثيكاس» كانتا على درجة عالية من المهارة والقدرة توصلتا إليها بعد [تطور] دام سبعين مليون عام من تاريخ الرئيسيات . وتضاعفت فائدة اليدين مرات عديدة باستعمال الأدوات المختلفة، فإن حجرا صلبا

يستخرج من مجرى الماء يجعل من قبضة اليد سلاحا قاتلا . كما أن الحافة الحادة لحصاة مكسورة يمكن استعمالها في قطع اللحم أو استخراج جذور النباتات . وهكذا أصبح في الامكان ان تضاف إلى قائمة الطعام أصناف أخرى كالضفادع والسحالي أو حتى البايون وصغار الوعول التي يمكن القضاء عليها باستعمال هذه الأدوات» . . .

. . «وأحدث ما اكتشف من هذه [القرود الانسانية] في أفريقيا نوع اسمه العلمي «زينجانثروباس» Zinjanthropus ويطلق عليه بالانجليزية اسما معناه «كسار البندق». فقد أدى البحث الدقيق في الصخور الرسوبية في تنجانيقا حيث وجدت أدوات بدائية إلى أقصى درجة كان يستعملها هذا [القرود الراقبي]، إلى العثور على مجتمه سنة ١٩٥٩، بعد عشرين سنة من البحث والتنقيب . ويستنتج من كبر حجم ضروسه الخلفية (التي يرجع إليها السبب في التسمية الانجليزية) أن غذاءه كان يشتمل على مقادير كبيرة من الطعام النباتي كالقردة العليا . وإذا صح ما يعتقد به البعض من أن صنع الأدوات يميز [الانسان] عن [القرود الراقبي] فإن استنتاجنا يكون خاطئا . ويضع بعض علماء التصنيف جميع الاناس القردية في نوع واحد أطلق عليه الاسم العلمي «هومواريكيتاس» Homo erectus ، رغم أن الاحافير تبين وجود سلالات عديدة تميزها فروق واضحة . وقد عاش [الانسان القرد] الأول في جاوة في الفترة بين الثلجية الأولى . وجاء من بعده قوم استمروا حتى الفترة بين الثلجية الثانية . وكان بين كل من السلالتين الجاوية والبيكينية فرق أساسي هو اختلاف حجم الدماغ . فجهاجم سلالة جاوة تتسع لدماغ يتراوح حجمه بين ٧٧٥ و ١١٠٠ سم^٣ في حين أن سعة جماجم سلالة بيكين تصل أحيانا إلى ١٣٠٠ سم^٣ .»

■ وتتجلى أبشع صور الحماقة الداروينية في تساؤل أحدهم :

● «هل كان [هومواريكيتاس] ناطقا؟ ثم إجابته : نحن نعتقد انه ربما كان كذلك . ومن الأدلة على هذا الأمر ان الطابع الداخلي لمجمته يبين أن أجزاء نصفي الكرتين المخيتين المختصة بالكلام والاتصالات العصبية كانت نامية نموا كبيرا . ولكن بعض العلماء انتقد هذه الطريقة في جمع المعلومات من دراسة الأحافير انتقادا مرا إذ اعتبروها نوعا من «الفريولوجيا» Phrenology أي دراسة خواص العقل عن طريق بروزات

في الجمجمة ولكن الأدوات الحجرية التي وجدت مع بقايا القوم تعتبر برهانا آخر ذا أنها دليل على وصولهم إلى مستوى من الثقافة البدائية يستدعي التفاهم بالكلام . فمن المستبعد أن يستطيع البعض منهم تعليم الآخرين ما اكتسبوه من مهارة في صنع تلك الأدوات دون تفاهم بالكلام .

لقد وصف ليكي Leaky وطوبياس Tobias ونايير Napier الأدميات المبكرة في عصر البلايستوسين بأنها أنواع جديدة من الجنس البشري ومن الانسان الحاذق Homo Habilis . وكما هو الشأن بالنسبة لانسان جنوب افريقيا القرد فإن هذا النوع يتألف من آدميات لها أنماخ صغيرة كأنماخ القردة ، بينما أسنانها وهيكلها العظيمة تشبه أسنان الإنسان وهيكله العظمى وثمة عينة على درجة عالية من الروعة والأهمية تتألف من مجموعة عظام القدم المتحجرة تبين بوضوح أن الانسان الحاذق Homo Habilis يمشي منتصبا على قدمين ولا يسير على أربع» . . . !!! . . .

■ ومن صور الهراء الدارويني قول بعضهم :

● « كذلك كان هذا الانسان صانعا للآلات ، وقد أمكنه أن يصنع أشكالاً من الأدوات الحجرية على درجة كبيرة من الدقة تدعو للدهشة . ولقد كان الحظ حليف الدكتور ليكي وزوجته حين اكتشفا موقعا كاملا يضم عددا من الآلات والبقايا الحيوانية في حالة جيدة وبه بعض الدلائل التي تشير إلى أن «الانسان الحاذق» عرف بناء المساكن التي يأوى إليها . وهذا الاكتشاف الأخير على درجة كبيرة من الأهمية ، فهو يوحى بأنه منذ نحو مليوني عام كانت جماعات أشباه البشر تمضي فترات من الوقت في مكان واحد يصطادون فيه ويعيشون في تجمعات متميزة» .

● ومن صور الهراء الدارويني ما يقوله «ليكي» :

[إلا أن هناك جدلا طويلا لا يزال يدور حول الوضع الحقيقي الذي يحتله «الانسان الحاذق» في التطور الانساني . ورأي باختصار هو كما يلي] :

« لقد ساد عصر البلايستوسين الأوسط أشباه البشر الأواخر في مناطق كثيرة من العالم القديم ، وليس من غير المعقول أو من غير المنطقي أن نفترض أن الأجداد المباشرين لهذه الأدميات «أشباه البشر» كانوا هم أيضا منتشرين في كثير من المناطق .

والواقع أن العينات الخاصة بإنسان جنوب أفريقيا القرد في العصر البلايستوسيني المبكر جمعت من هذه الأنواع الأولى المبكرة (الأسلاف)، وكذلك كان الحال بالنسبة لأنواع الانسان الحاذق Homo Habilis في شرق أفريقيا. وأعتقد أن كلا من إنسان جنوب أفريقيا القرد والانسان الحاذق كانا ببساطة فئتين من البشر منفصلتين جغرافياً ولكنهما تنتميان إلى نوع واحد، وليس من شك في أن هناك أقواماً من عصر البلايستوسين المبكر تنتمي إلى هذا النوع قد وجدت في مناطق أخرى من العالم ولكنها لم تكتشف بعد».

الرد العلمي والايماي على هراء الداروينية

● لترك (الداروينيون) أنفسهم ينقدون النظرية الداروينية فهم خير من يهدمها من الأساس.. فهذا هو السير «أثر كيت» ١٨٦٦م - ١٩٥٥م يقول.. «الارتقاء غير ثابت.. ولا يمكن إثباته»..

● كما وردت في القرن الكريم بشأن خلق الانسان [كما رأينا] نصوص تدل على أن الله تعالى بدأ خلق الانسان من طين، وأنه خلق من تراب، ومن طين لازب ومن سلالة من طين، ومن حمأ مسنون، ومن صلصال كالفخار، وورد أنه خلقه من ماء، وأن الله خلق البشر من (نفس واحدة) وخلق منها زوجها، وبث منها رجالاً كثيراً ونساءً^(١).

● ولقد ورد في نصوص الشريعة الاسلامية التي عليها مدار الاعتقاد في خلق [الانسان].. أن الله بدأ خلقه من طين، ومن حمأ مسنون، ومن صلصال كالفخار، وورد أنه خلقه من ماء، وقد قال بعض المفسرين أن التراب والماء أصلان للانسان، أي أنه خلق منها، فتارة تذكر النصوص هذا، وتارة تذكر ذلك. وورد أن الله خلق الانسان بيديه، وورد أنه خلق البشر من نفس واحدة، وخلق منها زوجها وبث منها رجالاً كثيراً ونساءً.

(١) دكتور محمود عثمان - المرجع السابق ص ٢٢٤.

فهذه النصوص تفيد ظواهرها أن الله خلق الانسان نوعا [مستقلا]، لا بطريق النشوء والارتقاء من نوع آخر. وليس في تلك النصوص صراحة بأن الله خلق الانسان الأول من تراب [دفعة واحدة] . . . أو بتكوين متمهل على انفراده، فسبيل هذا عندنا التوقف وعدم الجزم بأحد الأمرين، وإن كان قد يظهر من بعض النصوص الأحادية أن تكوّن الانسان الأول. وهو [آدم] كان يتمهل، ومرت عليه مدة من الزمان، ولكن ظواهر النصوص التي عليها مدار الاعتقاد تدل على الخلق المستقل. (١).

ولا يجوز تأويل هذه النصوص، وصرفها عن معناها الظاهر، إلا إذا قام الدليل العقلي القاطع على ما يوجب ذلك.

محمل القول إذن أن النصوص القرآنية - وهي الصدق المطلق - تؤكد خلق الانسان خلقا مستقلا متكاملًا في أحسن تقويم.

● وكل تلك النصوص يدل ظاهرها على أن الله تعالى خلق الانسان (نوعا) مستقلا، لا بطريق النشوء . . .

ولو فرضنا - وهذا لم يحدث بالطبع - أن يصل أصحاب (التطور) إلى دليل يقيني على (النشوء) حينئذ يجوز تأويل هذه النصوص - وتأويلها ممكن (٢) - ويجوز للمسلم ساعتها أن يعتقد بالنشوء والتطور - على شرط:

أن يعتقد بأن هذا النشوء والتطور يسير حسب القانون الالهي العام الأعظم للكون والذي وضعه الله تعالى ليسير كل شيء في الكون حسب الخط الالهي المرسوم . . . وهي أسباب عادية على رأي أهل السنة . أو حقيقة على رأي المعتزلة. (٣).

● ويقول العالم الشهير «جان رويستانت» في كتابه (التطور) ما يلي:
«هل حقيقة أن قضية التطور قد حلت الآن حقا كما يقول أصحاب نظرية الداروينية الحديثة؟ . . . إني لا أعتقد ذلك ولا أستطيع أن أصر، ككثير غيري، على الاعتراف بهذه النظرية . . . إن الانتقال، الذي نعرفه، والذي ينسبون إليه عالم الأحياء إنها هو، على الغالب الحرمان من عضو أو زيادة عضو على عضو موجود قبل ضياع

(١) الشيخ نديم الجسر - قصة الايمان - دار العربية - ص ٢١٤.

(٢) دكتور محمود عثمان - المرجع نفسه - ص ٢٢٥.

(٣) المرجع نفسه - ص ٢٢٤.

الصبغيات أو انعدام زائدة ما، وهذا، على كل حال، لا يأتي بشيء جديد أو مبتكر بالنسبة إلى الكيان العضوي ولا يأتي بشيء يمكن أن يظن بأنه قابل أن يكون أساساً لعضو جديد أو بداية لعمل جديد.

إنني بكل تأكيد، لا أستطيع بأن أعتقد بأن هذه (الهفوات) - في الصفات الارثية قد استطاعت، حتى مع مساعدة الاصطفاء الطبيعي، وحتى مع طول الزمن الذي اقتضاه تطور الحياة، بأن تنشئ كل عالم الأحياء بكل مايجوبه من ثراء ولطافة هيكل ومن مؤهلات عجيبة.. . إنني لا أستطيع أن أتصور بأن العين والاذن ودماع الانسان قد تكونت بهذه الكيفية.. . إني لا ألمس شيئاً يؤهلني لفهم هذا التغير العميق وهذا التحول العجيب الذي نتصوره في تاريخ التطور حينما نستعرض «فيلم» مرورنا من مخلوقات غير فقارية إلى مخلوقات فقارية».. .

● وجاء في «الموسوعة العالمية»⁽¹⁾ طبعة ١٩٦٦ قولها: «إن [نظرية التطور العضوي] تنطوي على ثلاث فكر رئيسية هي :

- ١ - أن الكائنات الحية تتبدل جيلاً بعد جيل وتنتج نسلاً يتمتع بصفات جديدة.
- ٢ - إن هذا التصور قديم جداً وبه وجدت كل أنواع الكائنات الحية.
- ٣ - إن جميع الكائنات الحية يتصل بعضها ببعض الآخر بصلة قرابة.

وهذا ليس بصحيح، لأن مجرد التغير الذي يطرأ على أي كائن حي لا يمكن اعتباره دليلاً على التطور بل هو مثال على أنواع مختلفة في نطاق جنس واحد، وهذا ما نجده في النباتات والحيوانات والانسان. فوجود هرر كبيرة مثلاً وأخرى صغيرة، وغيرها متوسطة الحجم، وألوانها مختلفة لا يعني أن هذه الهرر نوع واحد، بل هي أنواع خلقت كذلك وليست أجسامها نتيجة تطور عضوي».

● وأما فيما يتعلق بالزمن اللازم لحدوث التطور، فيقول الأستاذ «دوبزهنسكي»⁽²⁾، الأستاذ في جامعة كولومبيا، في كتابه: [الوراثة وأصل الأنواع].. ما يلي: «إن التطور يحتاج إلى نحو ملياري سنة، وأن هناك عوامل فاعلة تحجب دراستها دراسة تجريبية حتى نصدق حدوثها».

(1) World book Encyclopedia.

T. Dobzhansky,

(2) Genetics and the Origin of species, pp. 121-127.

.. ولكن ..

لم يرق حتى الآن أي دليل على الإطلاق يشير ولو بطريقة ما لحدوث ما يسمى بالتطور. فكل أدلة النشويين على أن الإنسان ليس خلقاً مستقلاً كانت مجرد فروض ظنية لا أكثر، وانهدمت منذ مدة طويلة. . بعد أن طرأ عليها من شطب، وتعديل وإضافة حتى تغير جوهرها تماماً، خلال أقل من قرن من الزمان، وهو في حد ذاته شيء نسبي قياساً بحقائق القرآن النهائية والمطلقة والتي لا يخضع مصدرها للزمان ولا للمكان.

علماء المسلمين يهدمون فرضية التطور

● ابن مسكويه

هو أبو علي أحمد بن محمد بن يعقوب المعروف بابن مسكويه المتوفي يوم ٩ صفر سنة ٤٢١هـ (١٠٢١م) أما تاريخ ميلاده فلم يرد ذكره فيما وقع تحت أيدينا من مراجع، وإنما يمكن تقديره على ضوء ما جاء من قصيدة له شكها فيها أثر الهرم، وبلوغه إلى أرذل العمر، مما يرجح أنه أشرف على أوائل القرن الرابع الهجري^(١).

وهو عالم إسلامي ذائع الصيت عمل خازناً للملك عضد الدولة [ابن بويه]، كما كان كاتب سر الوزير المهلبي، وأمين خزانة كتبه، وصحب بعد ذلك ابن العميد. وقد خلف لنا ابن مسكويه عشرات المؤلفات العلمية النادرة، ولكن دائرة المعارف الإسلامية أغفلت ذكر العديد من مؤلفاته مثل كتب: [الفوز الأصغر - الفوز الأكبر - ترتيب السعادات - المستوفي - الجامع - كتاب السير].

وفي كتابه: [الفوز الأصغر]... تناول ابن مسكويه علم الأحياء [البيولوجيا] بالشرح العلمي النادر، ووضع القرود وأشباهاها في مرتبة الثدييات الراقية. . ولكنه جعل مكانها بعيداً، منفصلاً عن مرتبة الإنسان. . وشرح في كثير من الدقة، الفروق بين القرود والإنسان، فميز الإنسان بانتصاب القامة، وبالناطق الكامل، أي باختراع اللغة.

(١) د. حسين فرج زين الدين - المرجع السابق - ص ٣٣٤.

وهنا تجدر الإشارة إلى أنه لم يتعرض إطلاقاً إلى انحدار الانسان عن القردة، أو إلى إمكان بلوغ القردة بالترقي مبلغ الانسان، ومما يساند رأي «ابن مسكويه» عن التفرقة بين القرد والانسان، ما يقول به علم الحيوان الحديث من أن الانسان يفترق عن القردة بمميزات أربع، هي انتصاب القامة في أثناء المشي، والتركيب التناسبي للأيدي والأرجل، واختراع اللغة والاعتماد على الكلام في التفاهم، وأخيراً خاصية الإدراك.

فستان ما بين القرد والانسان - كما يقول الشيخ [حسين الجسر] . . فلو كان الانسان مشتقا هو والقرد من أصل واحد، ومترقياً عنه لكان من حقه أن لا يكون في تلك الحالة التي ذكرناها فيه، فلا يكون عند ولادته دون القرد الذي ترقى هو عنه إذ يقال ما السبب في ذلك الانحطاط في القوة والادراك في طفل الانسان مع أن شريكه في الاشتقاق من أصل واحد الذي ترقى هو عنه نراه أكمل منه فهما، ولو قيل أنه ترقى عند شريكه في حسن الصورة وانحط عنه في القوة والادراك لأسباب أوجبت ذلك قلنا: فما الذي أكملهما له عند الكبر ورقاه منهما على القرد بكثير؟ . .

فالحق أن هذا مما يوهن كل الوهن قولكم - والكلام هنا للشيخ حسين الجسر موجه للداروينيين - باشتقاق الانسان والقرد من أصل واحد إذا لم نقل أنه يبطله .
فإذا تأملتُم أيها الماديون بعين الانصاف، ظهر لكم أن المشابهة الصورية بين الانسان والقرد لا تقاوم هذا الفرق العظيم الذي شرحناه لكم بينها، هداانا الله تعالى وإياكم لما فيه الصواب، فهذا ما أردت الآن إيراده عليكم وهو كاف في أن دلائلكم ومعتمداتكم في النشوء ظنية . . .^(١)

والمسلمون على صواب عندما يتمسكون بظواهر النصوص القرآنية ولا يتركون هذه الظواهر إذا عارضتها (أدلة ظنية) من صنع الانسان الظلوم الجهول وليس لهم ان يتركوها . . إلا لداع قوي يتمثل في دليل عقلي قطعي يتوافق مع عطاء القرآن ومدلولات آياته الكريمة . .

فمثلا . . يقول القرآن الكريم . . ﴿ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين﴾

(١) حسين الجسر - المرجع السابق - ص ٣٢٧ .

.. «المؤمنون : ١٢» .. فإذا خرجت نظرية في النشوء والارتقاء «لوالاس» و «داروين» .. (تفترض) ان الحياة بدأت خلية واحدة وان هذه الخلية نشأت في الماء، وانها انتهت إلى خلق الانسان ..
فهل يجوز (لنا) أن نحمل الآية القرآنية ونلهث جريا وراء (نظرية) [داروين]، ونقول: (هذا هو الذي يقصد القرآن)؟ ..

- .. بالطبع لا ..

- لماذا؟

● لأن الدراسات المعملية أثبتت وجود نقص في (قطاع) وحدات الوراثة التي نحفظ لكل (نوع) بخصائصه ولا تسمح بانتقال (نوع) إلى آخر .. الشيء الذي يهدم النظرية من الأساس .

● ولأن الحقيقة القرآنية (نهائية) .. وليس من المقبول (عقليا) أن يكون معناها هو نفس فحوى نظرية «داروين» فالحقيقة القرآنية تثبت فقط أصل نشأة الانسان ولا تذكر تفصيلات هذه النشأة ..

● ولأن الحقيقة القرآنية (نهائية) في النقطة التي تستهدفها وهي (أصل) النشأة الانسانية .. وكفى .. ولا زيادة .

● ولأن نظرية التطور (فرض) .. وذلك باعتراف غلاة التطورين الماديين .. ومن هنا نستطيع القول بأن عدم (ثبوت) نظرية التطور بدليل كاف حتى لتوصيلها إلى مرتبة (الظن) يجعل من المستحيل علينا أن نقول بأن الانسان والقرد هما من أصل واحد، أو أن الانسان (متطور) عن القرد اعتمادا على المشابهة الظاهرة علاوة على نقصها وزيفها فإنها لا تؤدي بأي حال من الأحوال إلى وحدة الأصل وكل ما يمكن أن تعطيه هذه المشابهة هو الظن السيء .

والمسلم لا يربط تحليل المفاهيم العلمية بالظن .. وإنما بدليل عقلي قاطع .. بل إنه لا يجوز لنا أن نقف فنجرى مقارنة بين معطيات القرآن الكريم عن خلق [آدم] الأول .. وبين نظريات النشوء والارتقاء والاختيار الطبيعي التي قال بها ذلك [المخرف] داروين وغيره من [الطبيعيين]، مادام التطور في القرآن لا يعدو أن يكون تطوراً في عملية خلق آدم بإرادة الله ، أو خلقه مباشرة بها هو عليه من تكوين نحن ثماره

المحمولة في مجريات القوانين الوراثية المعروفة. . . إن الله قد خلق آدم كفعل مباشر لا نملك مقاييسه الزمنية الكافية. . . وهو خلق يحيى ممتما لخلق الأرض وتهيئتها لاستقبال هذا المخلوق الفاعل الذي أتيج له أن يتخذ مكانه في الأرض خليفة .

إننا - حتى على مستوى خلق الانسان - نجد المسألة الزمنية كما يطرحها القرآن فيها الحل المنع للتناقض القائم منذ بدايات [الداروينية] الأول بين القائلين بالخلق المباشر المستقل، والقائلين بنظرية التطور الطبيعي والارتقاء التدريجي . . . ففي لحظة كونية واحدة، تبلغ بحسابنا ملايين الوحدات الزمنية، يصدر الأمر النهائي الالهي بخلق آدم من الطين اللازب المزوج بالماء .

ولتتمعن في هاتين الآيتين :

● ﴿والله خلق كل دابة من ماء، فمنهم من يمشي على بطنه، ومنهم من يمشي على رجلين، ومنهم من يمشي على أربع، يخلق الله ما يشاء إن الله على كل شيء قدير﴾ .
«النور/٤٥» .

● ﴿وهو الذي خلق من الماء بشراً، فجعله نسباً وصهراً وكان ربك قديراً﴾ .
«الفرقان/٥٤» .

وهكذا . . فسواء قلنا بأن عملية الخلق هذه تمت مباشرة، أم عبر سلسلة طويلة من التطورات والتغيرات الطبيعية المتمخضة عن لقاء الحياة بالطين اللازب في فجر الابداع الالهي على الأرض، فإننا سوف لن نخرج عن الاطار الزمني الذي يطرحه القرآن نفسه، وسوف لن نكتشف أبداً [سر الروح] الذي أبداع الحياة^(١)، والذي عجز عنه الطبيعيون كافة، وقال عنه القرآن :

● ﴿ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي، وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً﴾ . «الاسراء/٨٥» .

يقول علماء التطور إن الهوة بين الانسان والحيوان قد ملاءها إنسان ما قبل التاريخ أو الانسان القرد الذي لم يوجد قط . وتقول مجلة «العلوم» في عددها الصادر في مايو ١٩٦٥ ما يلي :

(١) د. عماد الدين خليل - التفسير الاسلامي للتاريخ - دار العلم للملايين - ص ١٢٢ .

« يتصور علماء التطور أجدادنا أجلافا وبيلا ذنب وهو أضخم بقليل من الانسان القرد الذي يعيش في أيامنا هذه . وأنهم كانوا يتمتعون بعضلات وجه متحركة ، ولكنهم لم يكونوا شديدي الذكاء . وكانوا يتسلقون الأشجار ويعيشون على الأكثر عليها ، كما يعيشون على وجه الأرض . وكانوا يستطيعون أن ينتصبوا انتصابا غير تام كما كانوا يمشون على أربع وعلى رجلين ، ويبدو أنهم لم تكن لهم لغة محكية» . . . ! ! ! ! !

وتبع لهذا الوصف نجد كتب العالم ومتاحفة مليئة بصور أو بتماثيل تمثل إنسان ما قبل التاريخ بهذا الشكل . ويجد الطلاب أنفسهم ، إزاء ذلك أنهم أعقاب إنسان قردى ذى جسم حيواني . ولكن هل هذه البنية تقوم على واقع علمي أو أنها قائمة على خيال؟ إليكم ما قاله العالم التطوري «جان رويست» في كتابه (التطور) بالنسبة إلى هذه البنية المزعومة .

. . «ما هي الأدلة التي تقدمها الحفريات التي تدعم هذه القرابة المشتركة»؟ . .

● لقد أجابت على هذا السؤال مجلة «العالم الحديث» في عددها المؤرخ في ٢٥ من شهر مارس ١٩٦٥ بقولها:

« إن القرابة ، التي يريدونها ، بين الانسان والانسان القردى لا تدل بصراحة على أن لهما جدا مشتركا ، ثم إن هذا الجد لم يوجد قط حتى الآن» . . .

علماء الغرب يسقطون نظرية داروين

لقد أضحى واضحا أن العلماء القائلين بالتحول - مع تمسكهم بالقول بوجود انحدار الانسان من قرد هو وجد الانسان القردى أيضا - عاجزون - عجزا كاملا عن أن يقدموا الدليل على ذلك ، ولا تقوم استنتاجاتهم على دليل أو واقع . وتعترف مجلة [ستردي إيفنغ بوست] في عددها الصادر في ٣ ديسمبر ١٩٦٦ ، أنه «على الباحثين عن أصل الانسان أن يستمروا في البحث حتى يكتشفوا أصول أجدادهم ، والمؤكد أنهم لن يجدوها قردة أو ضفادع» . .

● يقول العلامة [والاس] . .

«إنه من المستحيل أن يكون الانسان قد تم تكوينه على طريقة [التطور] والارتقاء»
.. ثم يقول: «.. إن الارتقاء بالانتخاب الطبيعي لا يصدق على الانسان، ولا بد
من القول بخلقه رأساً..»

● ويقول البروفيسور [فرخو]..

«قد تبين لنا من الواقع أن بين الانسان والقرد فرقاً بعيداً فلا يمكننا أن نحكم بأن
الانسان من سلالة قرد أو غيره»..

● ويقول [أجاسير]

إن النشوء لا يتم إلا وفقاً لخطة إلهية حكيمة وإن الاصطفاء الطبيعي إذا ما حل
محل الخلق الإلهي فإن الانسان يكون قد جرد من روحه وغدا آلة صماء.. إن التفسير
الحرفي لنظرية داروين يفسح المجال لتأليه سوبرمان [نيتشة] وتمجيد القوى البدنية
على أنها الأساس الوحيد للسلوك بين الناس.

إن الفكرة التي يعتنقها [الداروينيون] عن تناسل نوع جديد بواسطة نوع سابق
ليست إلا افتراضاً اعتباطياً يتعارض والآراء الفسيولوجية الرصينة.

هل هناك أدلة على وجود المراحل الأولية التي يفترض أنها جاءت بعد الجذ المشترك؟
يجيب مؤلف كتاب «الانسان الأول» على هذا السؤال بقوله: «من المؤسف أن تظل،
حتى الآن، المرحلة الأولى من التطور الانساني سرّاً غامضاً». وتقول مجلة «العلوم
الأمريكية» لشهر نوفمبر ١٩٦٦: «إن نوعية نسب أجداد الإنسان مازالت نظرية
محصنة».

«وفي الواقع إن أدلة المستحاثات التي سبق ذكرها أدلة واهية، بمعنى أن بعض
علماء التطور لا يوصلون نسب أجداد الإنسان بالحيوان الأول (Proplio)^(١)، بل
يوصلونه بالقرد المعروف باسم غيبون. ويقولون بأن (Dryopith)^(٢) يتصل بنسب
الانسان القردى الكبير المتطور وهم يرون أن أقدم أجداد الانسان حيوان أسموه
(Ramapith)^(٣)، وهذا كله مجرد افتراض».

(١) الدكتور محمود عثمان - المرجع السابق ص ٢١٤-٢٢٠، وكذلك: د. احسان حقى - المرجع السابق - وحيث أنه
لا توجد مسميات - عربية لهذه الحيوانات فاني مضطر أن أذكرها بأسمائها الغربية، وقد اختصرتها للتسهيل فهذا الاسم
هو في الأصل [Propliopithecus]

(٣) وهذا الاسم هو [Ramapithecus]

(٢) وهذا الاسم في الأصل [Dryo Pithecus]

وقد كتبت مجلة «نيويورك تايمس» بهذا الصدد تقول: «منذ نحو ١٢ مليون سنة - أي في منتصف الطريق بعد ظهور الحيوان الأول - (Dryopith) ظهرت مخلوقات فردية^(١) لها ملامح الانسان اكتشفت في سلسلة جبال سيواليك^(٢) في شمال غرب الهند وكان من البديهي أن يوسع هذا القول الثغرة بين هذا المخلوق وبين المخلوق الذي يفترض أنه الجد المشترك للانسان وللانسان القردي معا، مما يجعلنا أمام مجموعة من الفرضيات المتعارضة.

وهناك كثير من الحفريات التي ليست في الواقع إلا أنواعا من الانسان العاقل تعرض في الصور والمتاحف بأشكال حيوانات. ولكن هذه الصور وهذه الهياكل العظمية التي جمعت لا تمثل الحقيقة، إذ أننا لا نستطيع أن نتبين من خلالها مظهرها البدائي ولا هيكلها ولا لون جلدها...!!!

● كتب العالم التطوري «غرو كلارك» في كتابه: (أدلة علم الحفريات في تطور الانسان) يقول: «لا يوجد جنسان تتميز صفات جمجمة الواحد عن الآخر مثل الجنس الأسود والاسكيمو وقد لا يتفق الخبراء بشأنها حينها يكونون أمام جمجمة من المفروض أن تكون لأحدهما. فإذا كان يصعب البت بأمر التمييز بين هذين الجنسين فكم من الصعب - لا بل من المستحيل - التمييز بنثرات من الهيكل العظمي بين جماعات عرقية صغيرة علاماتها المميزة أقل ظهوراً من هذين العرقين»؟

ويؤكد هذا القول الأستاذ «إيفار» في كتابه • (وكان الله هناك) حيث يقول: «لقد بدأنا نشعر بأن الانسان البدائي لم يكن متوحشا، وقد بقى علينا أن نفتنع بأن انسان - بليستوسين - لم يكن جلفا ولم يكن قردا ولذا فإن الهياكل العظمية التي أعيد تركيبها والتي يقال بأنها تمثل النياندرتال أو غيره من الناس لا تمثل الحقيقة»..

■ سقوط نظرية «داروين» لعجزها عن الرد على السؤال التالي :

نحن نسأل «داروين».. لو افترضنا جدلا وجود (مشابهة) تعطى (الظن) باشتراك الانسان والقرد في أصل واحد.. أو أن الانسان متطور عن القرد.. فلماذا يوجد

(١) اسموه Simiesque

(٢) جبال سيواليك توجد أمام جبال همالايا.

(فرق) رهيب بين سلسلة تطور القرد الطفل، وسلسلة تطور الطفل الانسان؟
فالعلم، والعقل، والمشاهدة البحتة تثبت أن (البون) شاسع جدا بين (الانسان)
.. والقرد في مرحلة (الطفولة) ..

فالانسان الطفل يولد (عاجزا) من الناحيتين البدنية والعقلية ويترقى فيهما ببطء
شديد، وتستمر حالة العجز فيه زمنا طويلا .. ولكنه عندما يكبر يصل إلى درجة
عظيمة من (القوة) و (الذكاء).

بخلاف القرد .. فإنه بمجرد ولادته، يساعد أمه في رعايته، ويستطيع أن يعتمد
على نفسه اعتمادا كاملا، وهو مايزال (جروا صغيرا).

ولو كانت هناك أدنى صلة بين الانسان والقرد لما كان بينهما هذا البون الرهيب.
فهل يملك «الداروينيون» لسؤالي هذا جوابا؟

وإن أجابوا .. فلن يخرج هذا عندنا عن مفهوم قدرة الله وانفراذه بالخلق .. ولكني
متأكد أنهم «بكم» لا ينطقون .. ولن ينطقوا إلى يوم الدين^(١).

● ولقد كشفت حركة اليقظة الفكرية في العالم أن نظرية [التطور البشري] ليست
إلا استنتاجاً، وستظل استنتاجاً حتى توجد العظام الحقيقية التي تدلنا على كيفية تقدم
الكائنات البشرية .. ومن المؤكد أننا لن نعثر على شيء من ذلك .. لأن الفرضية
ساقطة من الأساس.

ولقد ظلت علامات الاستفهام معلقة على رأس داروين وتابعيه والداعين إلى
فكرته مطالبين بالبراهين، لماذا كانت هناك حلقات مفقودة؟ ولم يستطع [داروين] ولا
أتباعه أن يجيبوا .. لماذا؟ ..

لأن أفكارهم كانت مجرد [فرضيات] .. ولم تكن حقائق .. ولكن الفكر التلمودي
والمادي استطاع أن ينتفع بها أعظم انتفاع وأن يثير بها جوا من الاحاد العاصف في كل
مكان ..

● حينها يؤكد علماء التطور على أن الانسان وجد على سطح هذه الأرض منذ مئات
الآف السنين، ويرفضون أقوال التوراة التي تعطي الانسان عمرا أقصر بكثير، يظن
الناس أنهم قادرون على إثبات اقوالهم بوثائق تاريخية، وهذا ما كان يعتقد العالم

(١) د. عبد العليم عبد الرحمن خضر - الانسان في الكون بين القرآن والعلم - ص ١٠٢.

بالفيزياء الذرية الاستاذ «ليبي» الحائز على جائزة نوبل . وفي طليعة العاملين بطريقة الاشعاع الكربوني لمعرفة التواريخ . وإليكم ما كتبه في مجلة [العلم] بتاريخ ٣ يناير ١٩٦١ :

«ان الأبحاث الضرورية لتطوير طريقة معرفة التواريخ هذه يجب أن تتم عن طريق معرفة تاريخ الأشياء التاريخية، ثم فحص نماذج عائدة إلى زمن ما قبل التاريخ . لقد عجبت أنا ومساعدتي «أرنولد» حينما أخبرنا مستشارونا بأن التاريخ لا يصعد إلى أبعد من ٥,٠٠٠ سنة .

إننا كثيراً ما نقرأ تصريحات تؤكد بأن الجماعة الفلانية أو المكان الأثري الفلاني يرجع بتاريخه إلى ٢٠,٠٠٠ سنة . وقد علمنا فجأة بأنه ليس بالمستطاع تعيين هذه التواريخ والأزمان، المعرفة في الزمن، تعيينا دقيقا قط . وفي الواقع أن أقدم الأزمان التاريخية التي حددت بشيء من الدقة تعود إلى زمن السلالة الفرعونية الأولى» .

● وجاء في مجلة «ساينس ورلد» في عدد (١) فبراير ١٩٦١ بهذه المناسبة مايلي : «إن الانسان قد وقف عن التطور، فالجنس البشري الذي نحن منه لا يختلف في شيء عن الكائن البشري الذي عاش قبل مئة ألف سنة .

إن ماض الانسان منذ أقدم العصور قد سار على نمط واحد من غير أن يغير شيئا في الانسان والاختلاف الكبير الذي يوجد بين نمط صنع الآلات من الأحجار الصوانية، فيما مضى، وبين ورثتهم، أبناء اليوم، إنما هو حصيلة المدنية والثقافة المتراكمة المنقولة اليهم عبر الأجيال، بالتقاليد الاجتماعية . ولو كان بالامكان - وبصورة خارقة - بعث طفل عاش منذ ذلك اليوم لأصبح إنسانا مثلنا تماما» .

● وكتبت «الموسوعة الأمريكية» هذا الصدد تقول : «ان القسم الأكبر مما نعتبره، غالبا، تطورا إنسانيا إنما هو تطور اجتماعي وليس تطورا عضويا وليس تطور الانسان إجتماعيا هو نتيجة تطور عضوي»^(١) .

وليس هناك من شك في أن الانسان القديم كان على درجة عالية من الذكاء بدليل هذه البرقية التي نشرتها جريدة «نيويورك تايمز» بشأن اكتشاف ظهر في العراق قالت : «منذ ألفي سنة ق . م كان لتلاميذ شاديبور، وهي بلدة في إمارة سومير، كتاب

(1) Biology and Human prgress. L. Eisman. C.Tanzer PP. 113 - 115.

يحتوي على حل لقضية المثلث الشهيرة، أي قبل «إقليدس» بسبعة عشر قرناً . وكان هذا الكتاب مصنوعاً من لوحات من فخار تحتوي على خلاصة موسوعية لمعلومات علمية تابعة لذلك الزمن . وقد اقتضى هذا الاكتشاف إعادة النظر الكاملة في تاريخ تطور العلوم وبالتالي في تاريخ تطور الفكر الانساني .

«وهذا يدل على أن الرياضيات بلغت قبل ألفي سنة درجة من التطور لم تخطر على بال علماء الآثار والمؤرخين» .

«وهذا الاكتشاف يساعدنا على أن ندرك أننا إذا أخذنا طفلاً من الأقوام البدائية، التي يسميها بعض العلماء، بأقوام ما قبل التاريخ وعلمناه خلال جيل من الزمن، وأدخلناه في جماعتنا المعقدة . . فقد يكون في بداية الأمر دوننا، ولكن لا من حيث الطاقة الدماغية بل من حيث تكديس المعلومات، فإذا تعلم، كما يجب، فإنه يرتقي كأبي شخص منا . وهكذا كان شأن الانسان منذ وجوده أي منذ ٦,٠٠٠ سنة»^(١) .

● لقد كان من نتيجة انتشار الانسان على سطح الأرض أن انتشرت ثقافات مختلفة ومتفاوتة الدرجات في تقدمها، ولكن تقدمها ونموها لم يكونا نتيجة تطور بل كانا نتيجة أسباب جغرافية ولغوية .

وإذا كانت بعض الثقافات قد انحطت عن مستواها الأول حتى صار أهلها يعيشون عيشة أهل العصر الحجري، كما هي حال قبائل غينيا الجديدة، وبعض قبائل إفريقيا، وسكان أستراليا الأصليين، وأهل الهند الأصليين المعروفين، فإن هذا يثبت بأن ارتفاع الانسان لا يظل مطرداً في التقدم، بل قد ينحدر بعد ارتفاعه . وكل هذه الأقوام التي ذكرناها والتي هي، اليوم، في أدنى درجات الانحطاط، كانت في يوم من أيام الدهر أمماً راقية، على اعتبار أن الله خلق الانسان في أحسن تقويم^(٢) .

إن مجموع النصوص القرآنية في خلق [آدم] عليه السلام، وفي نشأة الجنس البشري، تدل على أن إعطاء هذا الكائن خصائصه الانسانية ووظائفه المستقلة كان مصاحباً لخلقه، وأن الترقى من تاريخ البشرية كان ترقياً في بروز هذه الخصائص ونموها وتدريبها، ولم يكن ترقياً في وجود الانسان من تطور الأنواع، ووجود أطوار

(1) New discoveries in Babylonia about Genesis, PP. 210 - 226.

(٢) د . احسان حقي - المرجع السابق ص ١٣٣ .

مترقية من الحيوان تتبع ترتيباً زمنياً هو مجرد نظرية ظنية واهية، وليست يقينية. على أنه على فرض التسليم بمستند النظرية من تقدير أعمار الصخور، فإنه ليس هناك ما يمنع من وجود أنواع من الحيوان وفي أزمنة متوالية بعضها أرقى من بعض بفعل الظروف ومدى ما تسمح به من تلاؤم.

ولكن هذا لا يحكم أن يكون بعضها متطوراً من بعض.

وعندئذ تكون نشأة الانسان [مستقلة] في الزمن، وهذا ما ترجحه النصوص القرآنية من نشأة البشرية، وتفرد الانسان من الناحية البيولوجية والفسولوجية والعقلية والروحية هذا التفرد الذي اضطر معه [الداروينيون المحدثون] ومنهم الملحدون بالله للاعتراف به - هذا التفرد دليل مرجح على تفرد النشأة الانسانية وعدم تداخلها مع الأنواع الأخرى من تطور عضوي. (١)

● ولقد سقطت نظرية التطور لعجزها عن اثبات (الاتفاق) بين الانسان والحيوان في مجال النفس والعقل. . . ولينتبه شباب الاسلام إلى خطورة استغلال المحلدين في أوروبا وروسيا لنظرية التطور وادعائهم بانها تقول بوجود اتفاق بين «النفس» الانسانية «والعقل» الانساني، وبين النفس الحيوانية، والعقل الحيواني.

فقد اعتبروا الانسان حيواناً، وغرائز حيوانية وتفكيره في الأغلب له صلة وثيقة بالحيوان^(٢). . . (وغزوا) بلاد الاسلام بنظريات في «علم النفس» تطالب باشباع غرائز الانسان ورغباته بدون قيود - على غرار الحيوان - وتدعي أن توازن النفس الانسانية لن يحدث إلا عن هذا الطريق الاباحي القذر. . . وذلك توصلنا إلى تقويض الوازع الديني وهدمه في نفوس شباب المسلمين كخطوة حاسمة لهدم الإسلام ثم الاستيلاء على كل شيء في عالم الاسلام. . .

ليس الخطر الحقيقي في نظرية داروين راجعاً إلى إهانتة للعلم والدين معاً فحسب، وإنما الخطر في محاولة إذاعتها وفرضها على علوم الاجتماع والنفس والأخلاق والدين والأدب، ذلك هو ما حاولته القوى التلمودية الصهيونية التي اتخذت من النظرية منطلقاً إلى نشر الدعوى المادية وإلى تدمير المجتمعات. . .

(١) عثمان جمعة ضميرية - التصور الاسلامي للكون والحياة والإنسان - دار الأرقم - الكويت ص ٩٧.

(٢) د. عبد العليم عبد الرحمن خضر - المرجع السابق ص ٨٩.

ويكفي خطراً على البشرية ما زعمته [الداروينية] عن فكرة التطور المطلق الذي يعارض طبيعة الحياة، ومفهوم الفطرة، ومقررات الدين الحق .

ويكفي خطراً على البشرية أن [الداروينية] قد فتحت باباً خطيراً من الشبهة حمل لواءه رجال الفلسفة من بعده بالدعوة إلى حيوانية الانسان، معارضين لمفهوم الدين الحق الذي أعلن كرامة الانسان واحقيته في الخلافة .

ويكفي خطراً على البشرية جمعاء أن الباحثين كشفوا استغلال [الداروينية] في محيط السياسة، مما أدى إلى إيجاد جو مضطرب من العنصرية والتمييز والقول بوجود أجناس عبقرية وأخرى غبية وما زاد الطين بلة، استغلال الاستعمار العالمي كنظرية لتطبيق أفكار [الداروينية] على البلاد المحتلة .

ويكفي خطراً على البشرية أن نظرية [التولد الذاتي] التي قال بها داروين ولا مارك وأرنست هيكل، قد اتخذت منطلقاً للحاد، وجعلها البعض سنداً في انكار العقيدة الدينية، واتخذت منها فلسفة لنفي [الخالق]، وإعطاء [المادة] صفة القادر على كل شيء!!! ويكفي أن [هيكل]، دعا إلى تأليه الطبيعة وانكار وجود الله تعالى - ويكفي خطراً على البشرية

أن نظرية [التطور] الداروينية اتخذت سمومها وسيلة للقضاء على الأديان والقوانين، وذاتية الأمم باعتبار أن كل شيء بدأ ناقصاً تافها يثير السخرية والاحتقار، ثم تطور، فلا قداسة إذن لدين ولا لوطنية، ولا قانون، ولا فن، ولا لقدس من المقدسات، وظهر كأنها أخرجت النظرية لرجال السياسة وعلماء الاجتماع ليقتنعوا بها، أكثر مما أخرجت لعلماء الأحياء، فقد تركت آثار الصراع من أجل البقاء في أوساط السياسة والحرب، وكان لمبدأ بقاء الأصلح أثره في مخططات الاستعمار وإبادة الأجناس المغلوبة على أمرها :

لقد تلقف مجرموا الحرب من صهاينة أوروبا وأمريكا نظرية [داروين]، وأخذوا يضربون بها صرح الأديان والأخلاق والقيم . . .

أفبعد ذلك كله نجد مسلماً يؤيد نظرية [داروين] الهدامة ؟

مادام جميع علماء التطور مجمعين على أن الانسان منحدر من إنسان مستوى القامة، أو ليس من حقنا أن نظن بأنهم يستندون إلى أدلة قاطعة لا تقبل الرفض؟

فماهي هذه الأدلة ياترى؟ تجيب على هذا السؤال الموسوعة الأمريكية ذاتها وتقول: «ليس هناك أي دليل مباشر عن الانتقال»، فكيف يستطيع الانتقاليون، إذن، ان يتفوقوا على أن الانسان مستوى القامة قد تحول إلى الانسان العاقل بينما هم يعترفون بأنهم لا يستندون إلى أي دليل؟ ألا يمكن أن نفسر هذا النوع من الاتفاق بأنه عقيدة وسداجة في التصديق، لا بل وإيهان أعمى لا ناس يجعلون من رغبتهم أمرا واقعا. ومهما يكن من أمر فإن مثل هذا التفكير لا يستند إلى واقع علمي .

● ولنذكر أيضا بأن «المجلة العلمية الأمريكية» ذكرت في عددها الصادر في نوفمبر ١٩٦٦ بأن الحفريات التي اكتشفت في المجر قد دلت على أن جماعة راقية تنسب إلى الانسان الحالي كانت تعاصر جماعة من الانسان مستوى القامة. وهذه المناسبة كتب الدكتور «وينشستر» أستاذ علم الحياة في كتابه: (علم الحياة وعلاقته بالانسان) المطبوع سنة ١٩٦٤ - يقول:

«إن بقايا الإنسان [سوانسكومب] في أوروبا، وبقايا انسان «كانجيرا» في أفريقيا وغيرهما، توحى بأن الانسان الحقيقي وجد منذ نحو ٣٠٠ ألف سنة وبهذا يكون قد عاصر الانسان مستوي القامة.

فإذا كان الإنسان مستوي القامة إنسانا فإنه، على الغالب، يحتل فرعا من الإنسان، ولعله انحط ثم انقرض مثل غيره من الأجناس. وهناك حفريات أخرى اعتبرت فيما مضى دون الانسان الحاضر وهي تعتبر اليوم مماثلة للانسان، وقد صنفت في صنف الانسان العاقل». وكتبت [الموسوعة العالمية] تقول بهذا الصدد ما يلي:

«إن لفظ - الانسان العاقل - هو الاسم الذي يطلق، غالبا، على جميع الأجناس ذات الجسم السوي والدماغ الذي لا يقل حجمه عن ١١٠٠ اسم مكعب، ويتراوح وسطيا بين ١٣٥٠ وبين ١٥٠٠ اسم مكعب وهذه الجماعة تضم كل أشكال الانسان الحديث. وإنسان ما قبل نياندرتال هو المثال الأول على الانسان العاقل ويرجع وجود هذا الانسان إلى نحو ٣٠٠ ألف سنة ق. م وقد وجد علماء الآثار بقايا جمجمة بالقرب من [سوانسكوب] في إنجلترا و[ستينهم] في المانيا» . .

هذا، ولم يمض بعد وقت طويل على علماء التطور يوم كانوا يظنون بأن إنسان نياندرتال هو انسان قرد والحلقة المفقودة للجد المباشر للانسان الحاضر. فجاءت مجلة

[هابر] لتقول في عددها الصادر في ديسمبر ١٩٦٢ مايلي: «إن إنسان نياندرتال لم يكن دميما ولا محدودبا، ولا كان شكله شكل حيوان كما يظن غالبا، بل كانت جماعة منهم تشتكي من التهاب المفاصل». وكتبت مجلة «نيويورك تايمز ماجازين» في عددها الصادر في ١٩/٥/١٩٦١ تقول إن حجم جمجمة إنسان نياندرتال كانت ١٦٢٥ سم^٣ أي أنها أكبر من حجم جمجمة الانسان الحاضر).

■ فما معنى ذلك؟

● ذلك معناه أن الانسان لم يتطور. . ومعناه سقوط نظرية داروين من الأساس. يقول سبحانه وتعالى: ﴿ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين، ثم جعلناه نطفة في قرار مكين، ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة، فخلقنا المضغة عظاما، فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقاً آخر، فتبارك الله أحسن الخالقين، ثم أنكم بعد ذلك لميتون، ثم أنكم يوم القيامة تبعثون﴾ (المؤمنون ١٢-١٦) . . فليتذكر الانسان «أنه ميت لا محالة» . .

وسيعرض على خالق السموات والأرض . . ويسأل عن نكرانه وجحوده . . . وليتذكر الإنسان أن (الموت) برزخ ما بين الدنيا والآخرة . . وهو إدن (طور) من أطوار النشأة الانسانية وليس نهاية (الأطوار) . . ثم هو البعث المؤذن (بالطور) الأخير من (أطوار) تلك النشأة . . وبعده تبدأ الحياة الكاملة، المرأة من النقائص الأرضية . . حياة الخلود، إما في جهنم، وإما في جنات النعيم . . وأخيرا فإنه مما لا شك فيه أن فشل نظرية [داروين] وبطلانها وثبوت زيفها خلال صفحات كتابي هذا يؤكد ما يلي:

● عدم قصر النص القرآني على كشف علمي بشري قابل للخطأ والصواب، وقابل للتعديل كلما اتسعت معارف الانسان، وكثرت وتحسنت وسائله للمعرفة كما قال المفكر الاسلامي الشهيد سيد قطب.

● تأكيد عظمة الفكر الاسلامي وسموه على جميع المذاهب الأرضية البشرية، وخلوه من التناقض وأنه يجب أن يبقى القول الفصل دائما للقرآن الكريم في كل الكشوف العلمية التي ورد بشأنها نص في القرآن الكريم.

● إفلاس الفكر الغربي وتفاهته، فإذا كانت نظرية [داروين] التي حاولت أن تتكىء

على العلم، قد فشلت، فإن نظريات أوجست كونت - وماركس - وفرويد - ودور كايم - وسارتر في الفلسفة والعلوم الانسانية هي نظريات افتراضية وتفسيرات ذاتية قد أسست على المنهج المادي الغربي، وبنيت على تصور قاصر في فهم الكون والانسان والحياة، لأنها لا تضع في اعتبارها دور الخالق عز وجل في خلق الكون وتاريخ الانسانية .

● أن القرآن الكريم كتاب هداية ونور، لا يستغنى عنه عالم ولا إنسان . وأن العالم إذا واظب عليه تأملاً وتدبراً، فلا ريب يزيده هداية وعلماً ونوراً، حتى في اختصاصه، وأنه كلما تعلم وتعمق، وإختصص، زاد إيمانه بالقرآن وفهمه له ولأسراره، ووجوه إعجازه التي تتجدد ولا تتحدد، ولم يجد فيه أدنى تعارض مع العلم الصحيح، وأنه يضع العلم والجهد والسعي في المسار الصحيح الذي يؤمن للناس الهداية لما هو أقوم دائماً، ولما فيه خير المعاش والمعاد .

والله تعالى عند حسن ظن عبده به، وهو سبحانه العليم اللطيف الخبير، تقدست أسماؤه، وتباركت صفاته، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

● أنه لو سار الناس في المسار الصحيح، لما زادهم علمهم إلا تمسكا بدين الله، ولما زادهم دينهم إلا علماً، ومن لم يوصله إلى الدين عقله أوصلته فطرته، لكنها الأغراض الدنيوية والشهوات هي التي تحول دونهم والرؤية الصحيحة، وهي التي تمنع الايمان أو تضعفه .

● أنه - يجب التنبيه إلى أن بعض دوائر التنصير والماركسية تحاول إحياء نظرية [داروين] وبعثها من جديد، وإعادة الاعتبار لها، لتستخدمها كسلاح للغزو الفكري والتشكيك في قيم الاسلام وعقيدته النقية .

● سلامة النوع الانساني من أي هزات عضوية⁽¹⁾، أو فجوات من النشأة، واستمرارية صفاته الهيكلية والعقلية في أحسن صورة كما كان أول مرة منذ النشأة الأولى .

● انعدام الثقة في الادعاء بوجود الحلقة المفقودة بين الانسان وأسلافه المزعومين⁽²⁾ .

(1) Biology and its relation to mankind, PP. 18-13.

(2) Ibid., pp. 33-41.

- عقم المحاولات التي تسعى لإيجاد تفسير للقرآن الكريم بالاعتقاد فقط على الاعتبار المادية.
- عدم احتياج المسلمين إلى مصادر غربية، أو نظريات فكرية معينة تستورد من الخارج، فلديهم القرآن الكريم الذي يشتمل على كل إجابة لأي سؤال في أي مجال من مجالات العلم والمعرفة، إنه تنزيل من رب العالمين.

الفصل الحادي عشر

نظرية داروين والتفرقة العنصرية

بين الأجناس البشرية، وموقف الاسلام منها

- العنصرية والأجناس البشرية .
- العنصرية ومنطق الافتراض .
- العنصرية والأصول الثقافية للأجناس البشرية .
- صور التفرقة العنصرية .
- التفسير الطبقي للعنصرية .
- الخلفية التاريخية للتفرقة العنصرية .
- الاستعمار وسياسة التفرقة العنصرية في العالم .
- الصلة بين العنصرية والداروينية .
- النسيج الطبقي للأجناس البشرية في الدول المُستعمرة .
- المستعمرون السادة وسكان المستعمرات العبيد .
- نظرية داروين وحاجز اللون بين البشر .
- نظرة الاسلام إلى الأجناس البشرية .

الفصل الحادي عشر

نظرية داروين والتفرقة العنصرية بين الأجناس البشرية وموقف الاسلام منها

لم يتوقف الأثر التدميري لنظرية [داروين] عند تحطيم المثل العليا والتشكيك في الديانات السماوية فحسب، بل لقد صحبت النظريات الخاصة بالتطور البيولوجي نظريات أخرى خاصة بالتطور الاجتماعي مثل دراسات [لويس مورجان] الذي أهتم فيها اهتماما خاصا بنظام القرابة والزواج والملكية فقد قسم التاريخ كله إلى ثلاث مراحل رئيسية متعاقبة هي الوحشية والبربرية والمدنية^(١)، وربط كلا من هذه المراحل الثلاث بانجازات فكرية واقتصادية معينة، ولما كانت مرحلة المدنية مرتبطة بتعليم الكتابة كان معنى هذا أن كل الجماعات التي لا تعرف الكتابة بما فيها كل الشعوب الزنجية في أفريقيا اعتبرت في مستوى أدنى وأكثر بدائية من الأوربيين^(٢).

وفضلا عن أن الجزء الأخير من القرن التاسع عشر قد اتصف بأنه فترة تقسيم أفريقية السوداء بين القوى الأوربية فانه تميز أيضا بوجود استعداد عقلي لدى الأوربيين لتقبل الاتجاهات الاستعمارية، وانضم البريطانيون إلى هؤلاء الذين يمسكون بالخرافات العنصرية مثل فكرة الآرية والنوردية والتوتونية التي تؤمن جميعها بتفوق الجنس الأبيض، وتنسب إلى الأجناس الملونة صفات بيولوجية تجعلها في مراتب أدنى^(٣).

(1) MAC-MILLAN, W.M. Africa emergent. Faber, 1938 P.151.

(2) MAC-WILLIAM, Carey, Brothers under the skin. Little, Brown and Co., 1944. PP. 30-41.

(3) MYRDAL, Gunnar. An American dilemma. Harper, 1944. PP. 113-141.

العنصرية والأجناس البشرية

لقد قويت عادة النظر باحتقار إلى العناصر الملونة نتيجة للاهتمام المتزايد بنظرية [التطور] والعلاقة بين الانسان وغيره من الكائنات التي تنتمي إلى مملكة الحيوان، فقد قدم للجمعية الفلسفية في [ما نشستر] عام ١٧٩٦ بحثاً بعنوان «دراسة للترتيب المتدرج في الانسان وفي مختلف الحيوانات والنباتات ومن السابق إلى اللاحق» وكانت النقطة الرئيسية في هذا البحث هي أن الزوج في شكلهم العام يعدون من المخلوقات الدميمة^(١)، وأهم بذلك بعيدو الشبه عن الأجناس البشرية الأخرى وانتشر بعد ذلك في خلال القرن التاسع عشر تداول نظريات علم الحياة بين العامة بما تضمنه من أمثال تلك الأفكار التي نجمت عن الإيمان بنظرية [داروين]، ويبدو أن تلك الأفكار قد حلت محل الحجج السابقة التي كانت تساعد على تأكيد سيادة الأجناس البيضاء على اعتبار أنها قد بقيت وكانت أكثر نجاحاً من الأجناس الأخرى فلا بد أن في تنظيماتها وقدراتها ما يرتبط بامتيازها في مختلف الصفات الجسمية المميزة^(٢) ولا بد في أية دراسة للجنس والمجتمع من فهم واضح للاصطلاحات المستخدمة، فالتطور التاريخي لا الجنسي هو العامل الرئيسي الذي يسبب اختلاف الثقافات وتباين مستوياتها بين سكان العالم، والحقيقة أن هذه الاختلافات لا تعد سبباً كافياً يبرر الاعتقاد السائد لدى البعض في وجود تفاوت أصيل بين الأجناس في القدرات الفطرية على النمو العقلي والوجداني^(٣).

العنصرية ومنطق الافتراض

إذا كان الاستعلاء الجنسي مجرد خرافة تفتقر إلى السند الصحيح حسب مزاعم العنصريين فلماذا إذن يقوم الجنس بذلك الدور الهام في شؤون الحياة الحديثة حتى لقد

(1) PLERSON, Donald. Negroes in Brazil. Chicago University Press, 1942. PP. 201-203.

(2) REUTER E. B. Race and culture contacts. Mc - Graw - Hill, 1939. pp. 155-170

(٣) كينيث ليتل - السلالة والمجتمع - ترجمة جلال عباس - الألف كتاب ص ١٦ .

أصبحت الاختلافات بين الأجناس في جهات كثيرة من العالم أساسا للقوانين التي ينص فيها على التمييز، فضلا عن أنها أصبحت سببا للكثير من تصرفات بعض المجتمعات نحو الأجناس الملونة، وتدل على الانكار السافر لوجهة النظر العلمية والاسلامية التي تؤكد المساواة بين الأجناس فالبيض في الجزء الجنوبي من الولايات المتحدة الأمريكية وفي جمهورية جنوب أفريقية مازالوا يجادلون في أن الزنجي - من وجهة النظر البيولوجية يعد أقل في الدرجة من الرجل الأبيض ، ويصل الأمر بالكثير من البيض الجنوبيين في الولايات المتحدة الأمريكية إلى الادعاء بأنهم مخلوقات تختلف تماما عن الزنوج^(١).

ويغلب وجود ظاهرة [التفرقة العنصرية] حيث تتحكم أقلية من الناس في أكثرية أخرى، تختلف عنها في صفاتها الجسمية وخاصة في لون البشرة كما هو الحال في بعض المناطق الأفريقية التي نكبت بالاستعمار والاستيطان الأوربي .

كما تظهر التفرقة العنصرية حيث توجد بعض الأقليات المستضعفة في وسط محيط واسع من البشر، يختلفون عنهم جنسياً، كما هو حال الملونين في الولايات المتحدة - والذين - بالرغم من تحررهم ومنحهم حديثا حقوقهم المدنية - فإنهم لا يزالون يعانون الكثير من الاضطهاد والعنت، وخاصة في الولايات الجنوبية، مما جعلهم في وضع أقل شأناً من سائر المواطنين.

وليس هذا فحسب . . بل إن الأفكار والمذاهب العنصرية وصلت في التفرقة بين الأجناس البشرية إلى حد رهيب . . . فقد نادى بحاجز الرائحة الذي يقال أنه يجعل الرجل الأبيض يحس بنفور طبيعي من جسم غير الأبيض ورائحته^(٢) . . . وبطبيعة الحال هذه إدعاءات خاطئة . . .

لا تستند إلى أسس علمية مثلها مثل الآراء التي تنادي بأنه يمكن تمييز الأجناس البشرية من الناحية العقلية، رغم أنه من الحقائق المسلم بها علميا أن الفروق العقلية والنفسية، ما هي إلا نتيجة لظروف بيئية، فقد تأتي نتيجة لأن أفراد جماعة من

(١) المرجع نفسه - ص ١٨ .

(٢) ر. د. ج. سيمونز - لون البشرة وأثره في العلاقات الانسانية - ترجمة على عزت الأنصاري - مجموعة الألف كتاب - سنة ١٩٦٤ . ص ٢٠ .

الجماعات قد سنحت لهم فرصة التعليم عن طريق الاحتكاك الحضاري، أو لأن بيئتهم سمحت لهم باستغلال مواردها الطبيعية استغلالاً حسناً الأمر الذي أعطى لحضارتهم المادية وقوتهم الاقتصادية والسياسية نوعاً من التميز عن الحضارات الأخرى.

وليس أدل على ذلك من التجارب التي أجريت على طلبة المدارس بأمريكا حيث وجدوا أن المستوى العقلي لتلاميذ [الزنج] في الولايات الشمالية، يفوق مستوى أشقائهم من الولايات الجنوبية. (١).

وهذا يدل على أن المسألة ليست مسألة جنس . . بل هي مسألة بيئة، وفرص متاحة . . . ومستوى حضاري مهياً.

● وتعد مسألة الجنس والمجتمع مشكلة معقدة من الناحية السيكولوجية فإن اختلاف المشاعر ووجهات النظر الخاصة بالأجناس لا يمكن أن تعيش في فراغ، ولما كان الأساس البيولوجي ليس هو السبب في وجهات النظر الخاصة بالأجناس لا يمكن أن تعيش في فراغ، ولما كان الأساس البيولوجي ليس هو السبب في وجهات النظر العنصرية فلا بد لها من أساس اجتماعي ومعنى ذلك أن وجهات النظر العنصرية جاءت نتيجة لنوع الاتصال الذي مارسته الجماعات فيما بينها في الماضي، ولهذا النقطة أهميتها لما هنالك من اختلاف في المدى الذي تصل إليه المشاعر العنصرية بين مجتمع وآخر ففي بعض المجتمعات لا يلفت اختلاف الصفات بين الأجناس أنظار الناس بينما تصبح هذه الاختلافات في مجتمعات أخرى مسألة تثير الكثير من الاهتمام. بل وتؤدي في بعض الحالات إلى سن قوانين خاصة لتنظيم الاختلاط بالتزاوج، وفي بعض الحالات الأخرى قد لا يترتب عليها تنظيم الاختلاط بالتزاوج. وفي بعض الحالات الأخرى قد لا تترتب عليها أية نتائج اجتماعية.

وبينا قامت هذه النظريات العامة لتفسير أي مجتمع على الإطلاق كانت نظرية مجتمع الأغلبية قد برزت بنوع خاص بتفسيرها للمجتمع الاستعماري وقد وضع [ح. س. فيرنفال]، هذه النظرية لتفسير التباين بين المعالم الانسانية لبناء المجتمعات الاستعمارية الاستوائية كإندونيسيا والمجتمعات الرأسمالية في أوروبا. أما «م. ح.

(١) د. عبد العزيز كامل - الاسلام والتفرقة العنصرية - اليونسكو - ص ٦٥.

سمت» فقد رأى أنه يقوم أطارا مناسباً لدراسة مجتمعات الكاريبي، أكثر مما تسلم به النظرية التقليدية لعلم الاجتماع.

وقد تسلم «فيرنفال» بما يمكن أن ندعوه ببيت القصيد في دراسة «دوركيم» لمجتمعات السوق الحديثة، أعنى بالرغم من أن علاقات السوق الفردية هي أس العلاقات ذاتها قد قامت في إطار الإرادة العامة، وأن الإرغام والتدليس المشترك يعدان دائما جريمة حتمية على الأقل. ومهما يكن ما رآه في وضع اندونيسيا، فإن السوق قد نشأت بعيدا عن هذه الإرادة العامة وانطوى الناس في جماعات متحدة في بنائها وثقافتها بعيدا عن السوق، فمن ناحية كان هناك عالم، كانت الحياة فيه - كما يقول [هربز] - في غاية الفقر والتعاسة والوحشية والاملاق ومن ناحية أخرى كان هناك عالم آخر لجماعة عنصرية عاشت متوافقة متأسكة بعيدا عن أي حياة اقتصادية في حياتهم الخاصة، وكانت العقبة التي واجهت «فيرنفال» أن يرى كيف يتسنى للإرادة العامة أن تفرض وجودها على السوق متجاوزة الإرادات العامة المنفصلة في قوتها المتأصلة في الحياة القبلية والعائلية.

العنصرية والأصول الثقافية للأجناس البشرية

يرى الكثيرون أن العامل الرئيسي للمشكلة هو الثقافة وأن الاحتكاكات والنزاع سوف يبقى مادام هناك اختلاف في اللغة والعادات وبين أفراد ينتمون إلى مجتمع واحد. غير أن هناك ظاهرة أخرى هامة، فبينما توجد جماعات ذات ثقافات مختلفة تعيش في مجتمع واحد حياة وثام يوجد في نفس الوقت عداء بين الأجناس التي تعيش في مجتمعات ذات ثقافات متجانسة، وبالعكس تسود المودة والوثام في مجتمعات أخرى بين أجناسها المختلفة في ظل الثقافة المتجانسة، وفي الأمثلة التالية سوف نتبين هذه الحقيقة بوضوح:

● ففي جامايكا بجزر الهند الغربية البريطانية شعب يتكون من خليط من عناصر بيضاء وعناصر ملونة ذات دماء مختلطة وعناصر أخرى سوداء ولكنهم جميعا يشتركون في دين واحد ويتكلمون لغة واحدة ويخضعون لسلطة قانون موحد، ولكن البيض

يتمتعون هناك بمميزات خاصة .

وكان الفكر [الماركسي] يقوم أصلا، وحتى في الغرب، على أن التركيز على الأقليات والجماعات العنصرية ما هو إلا لتحويل الأنظار عن الواقع الأصيل للاستغلال الطبقي، وسط اهتمام متزايد خلال الستينات بالأوضاع المختلفة للعلاقات الطبقية، ولربما بأساليب الإنتاج أيضا سواء في المركز أم في الهامش في نظام الاقتصاد العالمي . بينما نزع الماركسيون أنفسهم في الوقت نفسه منزع الديمقراطية في الحوار، فقدموا تفسيراً للوضع في تلك البلاد على أساس من الدراسة المقارنة لنظام العبودية في المزارع الاستغلالية .

● ويقول «فان دربيج» ان اهتمامه كان بالعناصر كجماعة إنسانية ترى نفسها أوتراها الجماعات الأخرى مختلفة عن غيرها من الجماعات في سماتها الطبيعية الفطرية الثانية . وهذه السمات الطبيعية [معنوية وعقلية] في جوهرها، وفي كل ما لها من سجايا أو قدرات أخرى، غير طبيعية ويتركز الاهتمام في هذا على الوصف الاجتماعي (وإن لم يكن صحيحاً من الناحية العلمية) بما يستشهد به من السمات الطبيعية، كما يستبعد أن يقوم الاختلاف والتمايز بين الجماعات على سمات غير طبيعية (ثقافية أو تاريخية مثلا) وإن كان هناك في الواقع اختلاف حاد وتمايز بين الجماعات^(١) .

● وعلى أية حال فإن «فان دربيج» يعترف بأن الاختلافات - الطبيعية [يمكن أن توجد] وإن لم تكن قوية حادة، وفي هذا اعلان صارخ باعتناقه لمذهب داروين التطوري .

ولننظر قوله: «إلى جانب اختلافها الطبيعي . . . فإنها تختلف ثقافيا أيضا (على الأقل عندما تلقي لأول مرة) وتعدو خاضعة لتمايز مقنن حيث تتأصل فكرة التباين الفطري في العنصر .

● ويبدو التباين الثقافي والتميز في النظام قائما في حالات الغزو العسكري وغلبة جماعة على أخرى، والامتداد الاقليمي، والهجرة الدائمة للعمال (كتجارة الرقيق مثلا)، أو عندما ينزح الناس كلاجئين^(٢) .

(١) جون ركنس - العلاقات العنصرية والأقليات - ترجمة د. حسين النجار - ص ١٥٢ .

(٢) المرجع نفسه - ص ١٥٣ .

وإذا كان «فان دربيرج» لم يلجأ إلى تقديراته للمواقف التي يبدو فيها التباين العنصري قويا حادا ويكون قاعدة لتصنيف العلاقات العنصرية فإنه قد وضع صيغة تجريبية للتمييز بين المواقف التي يصفها بأنها [أبوية] وتلك التي يصفها بأنها [تنافسية] بينما هو في الوقت نفسه، قد دخل في حوار حول الأغلبية والأقلية فالتفرقة بين المواقف الأبوية والتنافسية ميدان فسيح، ويبدو كما لو كان مطابقا لما بين المجتمعات الرأسمالية وما قبل الرأسمالية، وأن اساء التفرقة بين المجتمعات الزراعية التي تعد الزراعة فيها مشروعات رأسمالية للتسويق، وتلك التي تتسم بطابع إقطاعي بوصفها معا على أنهما متلازمين.

كما أنه في حديثه عن الأغلبية والأقلية يقرر أن العلاقات العنصرية ليست غير [صورة] خاصة منها تبدو في وضعها الاجتماعي الناجم عن ثنائية التشريع قائمة تماما على التفرقة الاجتماعية الناجمة عن التمييز العنصري مما يؤدي إلى بقاء تميز الأغلبية واستمراره أكثر منه في أية حالة أخرى.

● وعلينا أن نقرر أن البداية التي انتهجها «فان دربيرج» تستند تماما إلى حكم الأغلبية وأنها مليئة برؤى بديعة لم تكتمل، أكثرها اثارا أنها لا تجد لها مكانا في الاقتصاد ولا في الأسلوب ولا في العلاقات الاجتماعية لعلاقات الانتاج العنصري، وهو ما يندرج إلى حد ما على البحث الذي قام به «ريتشارد شيرمير هورن» وإن كان بحثه أكثر تنظيماً^(١).

صور التفرقة العنصرية

وتختلف الصورة التي تتخذها [التفرقة العنصرية] من مكان لآخر حسب الأوضاع الاجتماعية والسياسية والاقتصادية في كل منطقة. وقد تكون التفرقة العنصرية نوعا من التحيز العنصري [Racial Prejudice]، ومؤداه أن يعتقد عنصر من العناصر أنه أرفع شأنًا من غيره من العناصر.

فبعض الأوربيين مثلاً يعتقدون بأنهم أرقى عنصراً من غيرهم، وأن صفاتهم

(١) المرجع نفسه - ص ١٥٤.

العنصرية الممتازة من شأنها أن تعطيهم نوعاً من المميزات العقلية والحضارية لا يمكن لغيرهم من الأجناس البشرية أن تصل إليها، ويطلق علماء النفس على هذه الظاهرة اسم توكيد العنصر [Ethno - Centrism].

وقد سبب هذا التحيز العنصري الكثير من المشاكل العنصرية التي تتمثل في النازية والفاشية، وكراهية الأجانب وغيرها من المظاهر . . . وفي جميع الحالات يجابي الأفراد من نفس العنصر، ولا تعطي نفس الحقوق لأفراد من العناصر الأخرى. (١)

وقد يكون التحيز العنصري ضد مجموعة جنسية واحدة، كما هو الحال في تحيز الأوربيين ضد الزنوج، أو قد يكون ضد الأجناس غير البيضاء، كما هو الحال في أستراليا، أو ضد العناصر غير النوردية كما كان في ألمانيا النازية، أو ضد البشر جميعاً كما هو الحال عند اليهود.

والحقيقة أن فكرة العنصرية - في العصر الحديث - لم تقتصر على الصراع بين الألمان واليهود، أو سيادة الجنس الأري على غيره من الأجناس، إنما يبدو بوضوح فيما يسميه بالحاجز اللوني . . . (٢)

التفسير الطبقي للعنصرية

أما نظرية [سميث] عن الأغلبية السوداء فكانت تقوم على تشجيع إخضاعها في ظل الأوضاع التي ننا فيها الاقتصاد الرأسمالي بصورة بارزة، للأقلية البيضاء، على زعم أنها هي القادرة على استغلال الموارد الطبيعية بالصورة الأمثل، وعلى زعم أنها تملك التكنولوجيا واللوائح التنظيمية لحياة عصرية، وأنها تفتح أبواب العمل لآلاف العمال من السود الذين لا يجدون مورداً للرزق سوى مؤسسات البيض في جنوب إفريقيا» وهو ما رفضته بشدة، مدللاً على أن العمال الأفريقيين في جنوبي أفريقيا هم جماعة مطحونة انتظمت في طبقة من العمال النازحين من الأدغال وأن مافي جنوبي

(١) د. فؤاد محمد الصقار - المرجع السابق - ص ٩٢.

(٢) د. يسري الجوهرى - الانسان وسلالاته - منشأة المعارف بالاسكندرية - ص ٤٨٢.

أفريقية يفوق مايسمى بالصراع الطبقي ويتعداه إلى استعباد الانسان الأبيض لجموع الوطنين السود. وفي ذلك يقول الدكتور [فان هورست]: -

« عند شرح موقف شعب البانتو في جنوبي أفريقية في صورة طبقية وجدت نفسي في مواجهة حادة - حينذاك - مع الماركسيين في أفريقيا الجنوبية، بسبب تفسيري لدور طبقة العمال البيض الأفريقيين في علاقتهم بعمال البانتو، حيث قلت أن هؤلاء العمال النازحين الذين يعملون تسعة أشهر متصلة في السنة بعيدا عن أسرهم، ويعيشون في معازل لا يجدون رعاية من النقابات، تختلف علاقتهم بوسائل الانتاج عما عليه العمال البيض⁽¹⁾ .»

ومن المظاهر الواضحة للطبقية الصارخة في ميدان العلاقات الاقتصادية تلك الصلة الوثيقة بين نوع العمل والطائفة الاجتماعية، فالوضع في جنوب أفريقية - كما يصوره الدكتور [فان هورست] - يشكل صورة من الفوارق العميقة بين الأوروبيين والأفريقيين في ميدان العمل، فالملونون والآسيويون يحتلون مراكز متوسطة في المناطق التي يسكنون فيها أو الجهات التي يعملون بها. أما الوظائف الرئيسية والأعمال الفنية العليا فلا يشغلها إلا البيض الأوروبيون وفي قليل من الأحيان يشغلها بعض الآسيويين أو الملونين، بينما هي محرمة تماما على الأفريقيين، وينطبق هذا على كل نواحي النشاط الاقتصادي مثل الزراعة والصناعة والنقل وإدارة الأعمال فضلا عن الوظائف الرسمية. ولا يستثنى من هذه القاعدة سوى وظائف التدريس والتمريض والوظائف الدينية حيث نجد أن الأفريقيين يشغلونها ولكن في مجالات خدمة مواطنيهم فحسب⁽²⁾.

وتبدو مظاهر التفرقة الصارخة بصورة واضحة بين الأوروبيين وغير الأوروبيين في مجالات الحياة الاجتماعية المختلفة، وصدر تشريع جديد بني على سياسة الحكومة القائمة وهي سياسة الأبارتهيد (Apartheid) أو الفصل بين عناصر السكان، وينص هذا التشريع على الفصل بين الأوروبيين وغير الأوروبيين في مجال إقامتهم فتعين

(1) LITTEL, K.L. Negroes in Britain. Routledge and Kegan Paul, 1948. pp. 75-81.

(2) LOCKE, A. and STERN, B. J. When peoples meet.

Ninds, Hayden and Eldredge, 1964. pp. 104-114

لغير الأوروبيين معازل خاصة لكل طائفة منهم ، ومعنى ذلك أنه لا يمكن لشخص ما أن يسكن في منطقة من المناطق إلا إذا كان من نفس الطائفة المخصص لها هذا المعزل ، ويستثنى من ذلك العمال الذين ترتبط أعمالهم ارتباطاً مباشراً بطائفة غير التي ينتمون إليها ، ومعنى ذلك أن الأفريقيين الذين يشتغلون في خدمة المنازل أو في المزارع التي يملكها الأوروبيون يمكنهم أن يعيشوا في مناطق خاصة بجوار الأحياء الأوروبية أو مساكن بجوار قرى البيض الزراعية⁽¹⁾ .

فإذا نظرنا إلى الوضع في جنوبي إفريقيا ، وإلى الوضع في الولايات المتحدة وأوروبا . فإن الانسانية تحتم إثارة موضوع العلاقات المتبادلة بين العنصر والطبقة وبتعبير أدق بين العنصر والصراع الطبقي الذي ولدته التفرقة الاجتماعية التي اتبعتها البيض إزاء السود في جميع نواحي الحياة . والانسانية تحتم التدخل لتطبيق مبادئ حقوق الانسان الذي نادى به الأمم المتحدة باسم الإعلان العالمي لحقوق الانسان ولم تطبقه حتى الآن وإذا تركنا جنوب إفريقيا وغيرها من البلدان الرأسمالية التي تطبق فيها التفرقة العنصرية ، وتوجهنا إلى الدول الاشتراكية فلن نجد غير القليل من المفكرين في البلدان الاشتراكية الذين يساعدونا على توضيح الدراسة المقارنة لعلاقات العنصر والسلالة ، لا لقلة ما كتبه علماء الاجتماع الاشتراكيون ، ولكن لأن النظرية مثلها في ذلك مثل غيرها من الدراسات العملية [طبقيّة] . ومادامت الطبقيّة قد زالت شعوراً وإسماً ، فإن استمرار السلالة يحتاج إلى تفسير آخر . وقد عمل علماء السوفييت بالذات على متابعة هذا الموضوع في صورة بدت لأقرانهم في الغرب ، وحتى لأولئك الماركسيين منهم وكأنها من المخلفات الأثرية ، ومن الطبيعي أن يتصدى نقاد العالم الاشتراكي من الغربيين لمناقشة ما يقال من أن الخلافات السلالية باقية لأن الخلافات الطبقيّة باقية ، وإن لم يكن ثمة دليل لدينا حتى الآن على اختفاء الخلافات السلالية في العالم الاشتراكي وإن كان هناك دليل من كوبا يبدو على درجة من الأهمية مادام يزدنا بينة عن تأثير الاشتراكية على مجتمع كان من قبل طبقياً وخاضعاً للاستعمار ولكنه لم يتحرر من الاستعمار إلا ليقع في [أتون] - الصراع الدموي بين الطبقات الذي يقوم عليه الفكر الماركسي .

(1) MAC-CRONE, I.D. Race attitudes in South Africa. Oxford University Press, 1937. pp. 63-69.

وما زال بعض الماركسيين الغربيين إلى عهد قريب يحاولون في الحاح وإثارة موضوع العلاقات العنصرية والصراع العنصري بصورة عامة. ومن بين هؤلاء «أوليفر كرمويل كوكس» الزنجي الأمريكي الماركسي، ولكن الموضوع لديه لم يتعد التذليل على أن استغلال السود وقهرهم هو ظاهرة للقهر الرأسمالي للطبقة العاملة، وأن بدا عاجزا عن تفسير طبيعة الطبقة المميزة من البيض، لاختلاف نظم العمل في العالم الرأسمالي الذي يستخدم السود في هذا الميدان النسبي للرق.

الخلفية التاريخية لتفرقة العنصرية

كانت الفضيحة الكبرى التي تردت فيها الامبريالية في الغرب عن سلوك العمال البيض في جنوب أفريقية، فقد كانت الأسطورة التي تدعي أن العمال البيض قد نشروا أعلامهم عام ١٩٢٢ منادين «بإعمال العالم اتحدوا من أجل البيض في جنوبي أفريقية» قد انكشفت ونجدها قد غدت قاعدة للادعاء بالألا دخل للعنصرية في الرأسمالية وأن الديمقراطية ليست غير وباء في صفوف الطبقة العمالية في مؤسسات البيض.

ويعتبر وضع العلاقات بين الأجناس في جنوب أفريقية نتيجة من نتائج الاستعمار الأوروبي الذي بدأ سنة ١٦٥٢ بإقامة أول مركز استيطان هولندي قرب مدينة [الكاب]، وحينما استولى البريطانيون على هذه المستعمرة سنة ١٨٠٦ كان عدد السكان بها نحو ٧٦ ألف نسمة من بينهم ٣٠ ألفا من الرقيق الذين ترجع أصولهم إلى [مدغشقر] و«الهند الشرقية»، ونحو ٢٠ ألفا من الوطنيين الذين ينتمون إلى جماعات [الهوتنتوت] والباقي من البيض الذين بلغ عددهم ٢٦ ألفا تقريبا، ولم يكن للجنس أو اللون في ذلك الوقت مكانا للاعتبارات الدينية من أهمية، ولذا تزوج الكثير من الاماء المعتقات اللاتي عمدن من رجال بيض وكان المجتمع في ذلك الوقت يعترف بتلك الزيجات ويعتبر نتاجها من الأبناء جزءا من مجتمع البيض، غير أن زواج البيض من نساء [الهوتنتوت] كان نادرا جداً، واقتصرت الصلة بين البيض و«الهوتنتوت» على

حالات الاتصال غير الشرعي .

ولقد وجد هذا الاحساس بالفوارق بين الجماعات انعكاسا له في مشاعر الاستعلاء العنصري والاجتماعي الذي يتفق مع فكرة التمييز بين الناس على أساس من العقيدة واللون . ومن هنا أصبح اللون علامة تميز بين السلالات ، وبدأت التفرقة على أساس اللون تظهر لأول مرة في تاريخ جنوب إفريقيا ، وتقبل كظاهرة اجتماعية معترف بها .
وصدر أول القوانين من اتحاد جنوب إفريقيا سنة ١٩١١ ، وبمقتضاه منع الأفريقيون من الحصول على التصاريح التي تمكنهم من شغل أنواع معينة من الأعمال الفنية ، كما حدد هذا القانون أنواعا من الأعمال خصصت للبيض وحدهم ثم وضع قانون آخر تضمن كل التشريعات والتنظيمات الخاصة بالعمل في مناجم الذهب والماس ، ونص القانون على أن الأفريقي الذي يفسخ عقد عمله أو يضرب عن العمل يعتبر مذنبا ويقدم للمحاكمة^(١) .

وفي العمارات الجديدة هناك مصاعد خاصة تستخدمها العناصر غير الأوروبية وتحديث التفرقة حتى في غرف الاستراحة والأمانات في جميع محطات السكة الحديد ، بل وفي المظلات التي توجد على طول امتداد الخطوط الفرعية في المحطات الصغيرة ، وفي النقل البري أيضا يوجد الفصل الواضح ، فهناك سيارات مخصصة للأفريقيين وحدهم ، وأخرى مخصصة للملونين ، وللأوروبيين سياراتهم التي لا يسمح لغيرهم بركوبها ، وتستمد هذه المقاييس وتلك النظم التي تحدد العلاقات بين الأجناس قوتها من السيطرة السياسية للعناصر الأوروبية ، فلا يرشح للانتخابات البرلمانية إلا من يرجع إلى أصول أوروبية ، ولقد ألغيت بالتدريج معظم الحقوق السياسية التي منحت لغير الأوروبيين^(٢) .

(1) Cf. Shea T. van der Horst in Handbook of Race (1) Relations in Soth Africa, ed. Ell en Hellman, O.N.P., 1949.

p. 134

(2) Ibid., pp. 137.

الاستعمار وسياسة التفرقة العنصرية في العالم

● ظهر في الآونة الأخيرة الكثير من السياسيين المتحمسين لمبدأ الفصل العنصري يرون أن بلادهم سوف تحقق كسبا اقتصاديا وصناعيا أكبر إذا ما استخدمت القوى العاملة المدخرة من غير الأوروبيين استخداما كاملا، غير أن الكثير من البيض، وبخاصة العناصر الأفريكانية، لديهم فكرة لا تتفق مع هذه المبادئ، إذ أن اتجاهاتهم مليئة بمعارضة الاجتماع بالملونين والاختلاط بهم، وتتعارض تلك الاتجاهات كلية مع فكرة المساواة بين الأجناس⁽¹⁾، وهذه الاتجاهات في أصلها موروثه عن المزارعين البوير الذين يعتبرون الطلائع الأولى التي كونت جنوب أفريقية الحديثة، وبمعنى آخر يقوم عدم قبول فكرة المساواة بين الأجناس على أساس من المعتقدات والتعاليم التي سادت في عهود الجهالة، وما زالت تمثل محور المعارضة القوي - ذلك المحور الذي يقف في وجه أي حل للمشكلة لا يقوم على أساس مبدأ الفصل بين الأجناس.

● ولقد تميزت في مجتمع البرازيل، منذ السنين الأولى لتكوين المستعمرة، ثلاث طبقات في كل من المدن والريف هي: الطبقة العليا التي تتكون من البيض أو ملاك الرقيق، والطبقة المتوسطة التي تتكون من العناصر المختلطة، والطبقة الدنيا من السود، وبيانهاء نظام المزارع الكبيرة ارتقى ذوو الدماء المختلطة بحيث ارتفعت منزلتهم في المجموع وقد ساعد على ذلك التحول الفكرة التي أخذت تتبلور في أذهان المثقفين البرازيليين منذ أواخر القرن الثامن عشر من أن الزواج هم بناء اقتصاديات البرازيل بما تميزوا به من قوة بدنية في أذرعتهم المفتولة وصدورهم العريضة وأن من بين ذوي الدماء المختلطة من ساهم في بناء التاريخ الثقافي للبرازيل مؤلفين ورسامين ونحاتين وموسيقين وعلماء⁽²⁾ . . ممن لا يمكن حصرهم إلا في ثبت طويل، وعلى الرغم من نجاح هؤلاء المولدين أو [المولانوا] [الأفتح لونا] - في صراهم من أجل إثبات وجودهم بأن أصبح معظم العناصر الناهضة من بينهم. إلا أنهم لم يحتكروا ميادين الثقافة والفنون والعلوم، بل أن بعض العناصر التي هي أكثر سمرة قد لحقت

(1) Ibid., pp. 141-145.

(2) Donald Pierson. Negroes in Brasil, Cloe of a Unit. Press 1947.

بهم بل وتفوقت عليهم أحيانا. ومع ذلك فإنه من المتوقع في بلاد مثل اتساع [البرازيل] أن نجد اختلافات محلية كثيرة في السلوك العنصري، فمثلا تتكون نسبة كبيرة من سكان [ساوباولو] من حديثي الهجرة من أوروبا، بينما تتركز معظم العناصر السمراء في أماكن أخرى وبخاصة الولايات الشمالية مثل [باهيا]، ولكن التوزيع المناسب للعناصر هو الظاهرة الأكثر شيوعا ويقل الاهتمام بلون البشرة والأصل الجنسي بالنسبة للشخص الذي يتمتع بميزات شخصية أو يظهر قدرات خاصة، ويمكن لأي شخص مهما كان لونه سواء أكان من السود أو [المولانو] أن يكتسب شهرة خاصة أو تقديرا بين مواطنيه أو أن يكون له اعتباره في الأقليم الذي يعيش فيه لما اختص به من مزايا شخصية، وبصفة عامة ربما يبدو التمييز على أساس اللون في بعض الأوساط الاجتماعية في البرازيل غير أنه لا يمارس بصورة علنية لأن الرأي العام هناك يعارض أي نوع من أنواع التمييز العنصري المبني على أساس الجنس⁽¹⁾.

الصلة بين العنصرية والداروينية

● في انجلترا بصفة خاصة يبدو تأثير الانجليز واضحا بأثار [نظرية داروين] والتطور البيولوجي على الأفكار العنصرية لديهم نحو كل من هو أسمر. بسبب لون بشرتهم وغيرها من صفاتهم الجسدية، وتضاف إلى ذلك أيضا الآثار الثقافية المترتبة على ربط اللون بشعور النفور والخوف والاشمئزاز وينعكس ذلك في فكر البعض بأن سواد الزنوج سوف يمتد أثره إلى الأفراد المحيطين بالزنوجي بل وبالأشياء الأخرى حتى أن البعض يعتقدون أن الاقتراب الجسدي قد يذنبهم !!!، وتحدث النساء على وجه الخصوص بكثير من الاشمئزاز من مجرد تصور مس الزنجي بشرتهن البيضاء⁽²⁾.

● ويستنتج من هذا أن لون البشرة له اعتباره الهام عند الكثير من الانجليز، فالبشرة الفاتمة تقلل من قبول صاحبها في المجتمع، وعلى ذلك فإن هناك نزعة عامة لتجنب

(1) Emilis Willeniss, Race Attitudes in Brazil Journal of sociology. Vol 54, 1948-pp. 462-8.

(2) BENEDICT, Ruth. Race, science and politics. Viking Press, 1945. pp. 111-113.

الأفريقيين وأبناء جزائر الهند الغربية الملونين، لا لأنهم يختلفون من ناحية جنسهم عن الانجليز والانجليزيات الذين يخاطونهم ولكن بسبب الارتباط الذهني بين وصمة اللون وتلك المعاني السائدة المرتبطة به^(١). وبتعبير آخر يرتبط التمييز اللوني إلى حد ما بالتمييز الطبقي، وعلى ذلك فإن هناك تفرقة واضحة تمتد حتى إلى البريطانيين الذين يتميزون بشيء من تلون البشرة وينتمون إلى الطبقة المتوسطة مهما كان قدر التعليم الذي بلغوه^(٢).

● وعلى أي الأحوال سواء كانت الاتجاهات تتضمن التمييز اللوني أو لا تتضمنه فإن الحقيقة التي لا سبيل إلى انكارها هي أن الكثير من الملونين يعيشون وهم يتوقعون مقابلتهم بالتمييز على الدوام، ولذلك فإن الرجل الملون العادي يكون شديد الحرص في علاقاته مع البريطانيين وفي بعض الأحيان يصبح شديد التخوف من الإهانة لدرجة تجعله يعتزل طريق الرجل الأبيض ولا يخاطر بالسير فيه^(٣).

● وتكشف لنا دراسة السياسة الغربية خلال القرن التاسع عشر الستار عن وجود صلة وثيقة بين الخرافات التي انتشرت عن الجنس وبين الأطماع القومية والاستعمارية^(٤). وعلى ذلك يمكن وصف وجهات النظر والخصومات العنصرية بأنها من آثار التنظيمات الكبرى للمجتمع الغربي، ونتيجة من نتائج الحركات الاجتماعية التي شكلت تطوره في أثناء القرون الستة الماضية^(٥) والبعض يفترض أن كل المجتمعات التي احتلها الاستعمار الأوربي، كانت لعبة هشة في يديه. وإن كانت المؤسسات الاجتماعية في بعض الحالات قد دمرت تماما في موجة النهب الاستعماري وغدا الأفراد أداة للاستغلال الفردي، كما تعرضوا للخطف في حالات أخرى، واقتلعوا من جذورهم الثقافية والاجتماعية، ليتم تصديرهم عبيدا إلى مجتمعات جديدة في طور الانشاء، وأن بقيت فيهم فضلا من ثقافتهم الأولى وحياتهم الاجتماعية

(1) BROOMFIELD, A.W. Colour conflict, Edinburgh Hous, 1943. pp.201-203.

(2) BROWN, Ina C. Race relations in a democracy. Harper, 1949., pp. 60-63.

(3) COX, Oliver C. Caste, class and rac. Doubleday, 1948., pp 28-31.

(4) DINGWALL, E.J. Racial pride and prejudice. Watts 1946., pp. 88-93.

(5) DOLLARD, J. Caste and class in a southern town. Yale University Press, 1937, pp.105-108.

القديمة قبل أن يغتالهم الاستعمار امتزجت في أعماقهم بثقافة التحدي والمقاومة، هذا إلى حالات أخرى بداية من تلك العصابات القبلية التي تصدت لشركة خليج [الهدسن] في كندا إلى امبراطورية المغول القوية حين جاءت إليها شركة الهند الشرقية أول مرة، ولم تكن الثقافات والأبنية الاجتماعية التي تلاقت وواجهت بعضها البعض قابلة للاستواء إلى حد كبير أو أن تدققها المرامي الرأسمالية والاستعمارية.

ولا شك أن الفكر الاستعماري العنصري يلتقي بفلسفة التاريخ، مستعينا بعلم مقارنة اللغات، على الدعوة لنزعة عنصرية تعصية تولى المناداة بها واللاح عليها ليف من المفكرين والفلاسفة الأوربية الذين اتخذوا من [نظرية داروين] منطلقاً لأفكارهم.

ومن الحق أن توصف هذه القاعدة الفكرية التي تقوم عليها النزعة العنصرية بأشكالها المختلفة، وصورها المتعددة، بأنها استخدام للفكر في نزعة شريرة، وتسخير لفروض العلم ونظرياته في تبرير الظلم وترسيخ الفساد وكان من العنصريين الأوائل الارستقراطي الفرنسي الكونت جوزيف أثروه جويو (ت ١٨٨٢م) . . . فقد تحدث في رسالته: [عدم المساواة بين الأجناس] عن تفوق الأجناس الآرية في شمال أوروبا في صنع الحضارة للجنس البشري. (١).

كما زعم اليهود أنهم شعب الله المختار وأن لهم مميزات خاصة عن سائر الجنس البشري . . . بل يقولون أنهم أبناء الله أحبأؤه!!!

ولقد جاءت الحركة الصهيونية التي قامت على مزيج من النزعة العنصرية المتطرفة، وتعاليم الأسفار الدينية اليهودية - وبخاصة التلمود - لتؤكد نظرة اليهود إلى غيرهم من الأمم نظرة ازدراء وكرهية ومقت.

ولقد نشأت النزعة العنصرية الحديثة في مناخ الشعور المفرط عن المستعمرين الأوربيين بالاستعلاء والتفوق في الجنس والحضارة والنظام الاجتماعي.

وكانت المجتمعات التي شهدت تدخل الاستعمار في إعادة صياغة نسيجها الاجتماعي والاقتصادي والسياسي تتمثل في الآتي :

- إمبراطورية المغول في الهند.

(١) عمر عودة الخطيب - نظرات اسلامية في مشكلة التمييز العنصري - مؤسسة الرسالة - ص ١٦١ : ص ١٨٠ .

- إمبراطورية العنصر البرونزي في أمريكا الوسطى .
 - إمبراطوريات افريقية الغربية التي استغلت انظمتها قاعدة لتجارة العبيد .
 - مجتمعات العبيد والعمال المنقولين إلى مجتمعات استعمارية حديثة البناء .
 - المجتمعات الرعوية الصغرى المغلقة داخل محاسنها .
- وقد ظلت تلك المجتمعات حقلاً خصباً للدراسات الاثنوغرافية والبشرية والاقتصادية لثلاث أسباب :

أولها : أن بناء المجتمع الاستعماري الناشئ يختلف فيما كان عليه نمطه الاجتماعي قبل الاستعمار عما أصبح عليه أن يتعامل معه .

ثانيا : تتوقف على الأصول الاجتماعية والثقافية للشعوب المستعمرة إمكانية ذوبان الانتفاء الوطني أو صموده .

ثالثا : بدأ خلال الفترة التي تلت الاستعمار أن الوضع الاجتماعي لفترة ما قبل الاستعمار يمكن أن يكون عوناً لمجتمع ما بعد الاستعمار على التقدم المستقل .

وعلىنا أن نشير بنوع خاص إلى أن البحوث الأوربية حول المجتمع الاستعماري قد اتخذت مساراً خاصاً ملخصه أن هذا النمط من العنصرية الفكرية قد أدى إلى توكيد التباين بين المجتمعات الوثنية وسادتهم من المستعمرين المسيحيين . وأن هذه السمة كانت محلاً للنقد من جانب الأحرار الذين يقفون ضد العنصرية وينادون بأن جميع الناس سواء ولا فرق بينهم . وكان من الأرجح أن ينمو هذا النوع من المعرفة العلمية للعنصرية التي تقوم على الحط من الثقافات جميعاً ماعدا الثقافة الغربية التي يعدونها ثقافة عالمية . وهو ما يراه كل من «فير» و«ماركس» وإن كان «فير» يرى أن الرأسالية الغربية المعقولة يمكن أن تؤدي إلى التقدم الاقتصادي ، بينما يرى [ماركس] أن الاحتلال البريطاني للهند كان هو الثورة الوحيدة التي شهدتها آسيا .

وقد ظهر نوع من المتغيرات السلبية في حياة الشعوب المغلوبة على أمرها ، فقد ظهر في مجال المشروعات الاستعمارية المتنوعة ، وهي المشروعات التي قامت عليها اقتصاديات المستعمرة ، وهو ما يقوم أساساً على الحرف البسيطة ، تلك الحرف التي تقوم على التدليس والأرغام ، كما تقوم على ابتياع محاصيل الفلاحين وتسويقها وزراعة الأراضي المؤجرة من الملكيات الواسعة والمزارع والمناجم التي تستغل العبيد وعمال

السخرة وأراضي الجباية، مما ساد خلال القرنين السادس عشر وخواتيم القرن التاسع عشر، لا عن طريق المغامرين الاستعماريين من الأفراد، ولكن على الأخص، عن طريق الشركات - الاستعمارية الرسمية بطابعها الامبريالي الاجتماعي المميز الذي عرفه العالم القديم والتي أصبحت مركزا للتوسع الأوربي عبر البحار.

ومن المعترف به أن استغلال المزارعين حقيقة استعمارية عالمية فالمزارع هو من يقوم بزراعة الأرض، وليس حرا تماما، ولكنه يخضع لنظام متين من أنظمة الخضوع، أما الفلاح المستقل فهو الذي يقوم بزراعة يملكها ويقوم عليها معاشه، ولا يدخل في دائرة النظام الاستعماري.

ومن المعترف به في هذا الصدد أيضا، أن هذه المشروعات وان عدت من قبيل المشروعات الرأسمالية، إلا أنها قد تتكس لتصبح نوعا من الجباية عندما تفتقد السوق لتصريف منتجاتها، فضلا عن ذلك فإن القوى الاستعمارية قد تحتوي البعض ممن تقل لديهم النزعة الرأسمالية من بعضهم الآخر، وفي هذا تتباين المشروعات الاستعمارية بين من ينشدون الاستغلال الرأسمالي ومن يكتفون بالبحث عن مأوى أو ملك ثابت.

إلا أن المجتمع الاستعماري لا يفسر بالرجوع إلى مشروعاته الاقتصادية الأولية، فالتسليم بتلك الفروض، يعني قيام جماعات أخرى يمكن أن تنجز أعمالها الأساسية التي اكتسبتها في ظل الاستعمار بينما ينبذ النظام القائم جماعات جديدة لها من ظروفها المحدودة ما يوجب اندماجها بصورة ما في المجتمع الاستعماري الجديد مقابل تنازلات خاصة للمستعمر حتى يرضى بظهور تلك الجماعات الوطنية الجديدة على مسرح الحياة في البلد المُستعمر.

النسيج الطبقي للأجناس البشرية في الدول المُستعمرة

في معظم الدول التي غلبت على أمرها ووقعت فريسة للاستعمار كان النسيج الطبقي للأجناس البشرية هناك يتكون من:

- أولئك الحواشي من الأفراد الذين شردوا من أماكنهم المريحة كالعبيد المحررين

والمولون وفقراء البيض في المجتمعات الزراعية .

- أصحاب الحرف الثانوية من الأجناس غير السلالة الاستعمارية أو من غير القوة الأساسية من العمال الذين شغلوا حرفا غير مجزية أو تلك التي يعزف عنها المستعمرون الأوائل لأنها لا تليق بهم .

المستوطنون البيض ، وهم أصلا من المستعمرين النازحين من العاصمة وليس لهم مكان في المؤسسات الاستثمارية ، ولكنهم يبحثون وغالبا ما يجدون الفرص السانحة ليكونوا رأسماليين أحراراً عمالاً أو فلاحين ومع ما يناوشهم من صراعات داخلية حول مصالحهم فانهم يتبعون أن يكونوا طبقة مميزة لها مصالحها المشتركة التي تجتمع على الدفاع عنها .

الكادر الاداري للدولة الاستعمارية وتبدو علاقة أصحابه بالمستعمرين الأوائل غامضة من حيث أنها على الأقل شبيهة بعلاقة الدولة برأسمالية العاصمة .

كادر الاكليروس الذين يتساوى لديهم الواجب الأخلاقي مع الواجب السياسي للاداريين ولهم ، كما لأصحاب الادارة دورهم المستقل فيما يقومون به .

وفي الآونة الأخيرة وبعد مناشدة الأمم المتحدة لشعوب العالم (المتقدم) بتطبيق مبدأ حقوق الانسان في المستعمرات وفي كل بقاع الدنيا، تم الاصلاح الزراعي . وصار العبيد أحراراً .

● ولكن الفلاحين ظلوا أسرى للرأسمالية لا يفيدون من المنافسة الحرة، وضرب عليهم الكفاف في صورة جديدة، وبينما رأى العبيد المحررون الذين نزحوا إلى المدن، أنفسهم مقيدين فيما يشبه الجيتو، محرومين من الأعمال الصناعية الجديدة التي يظفر بها المهاجرون الجدد من المستوطنين الأوروبيين وما من مكان تبرز فيه ظاهرة هذا التحول كما تبرز في الولايات المتحدة فالمهاجرون السود وهم ينشدون التحرر من وصمة الزنجية في الجنوب، قد لا يعانون هذه الوصمة في شيكاغو ولكنهم يجدون أنفسهم في مواجهة الحقيقة القاسية في التنافس على طلب العمل والمأوى .

● ومن الواضح أيضا، أن إجراءات التحرر أبعد من أن تكون عامة تأو متكاملة، فالعبيد في جنوبي أفريقية لم يصبحوا عمالاً أحرارا ولكنهم أجبروا على الانتقال للعمل بعقود وغالبا تحت وطأة نظام جائر بعقود قصيرة الأجل وكانت تلك هي القاعدة

وبقيت قاعدة الوضع الاجتماعي في التعدين وفي المشروعات الصناعية، فالتحرر وحرية العمل، كما يجب أن نعلم مازالا ناقصين وفي صورة قبيحة تقترن بالاستعمار. وفي أمريكا الشمالية كان للتحالف بين الأوتوقراطية الزراعية والمستوطنين الرأسماليين دوره في حرب الاستقلال كما اعترك أطراف هذا التحالف عندما حان الوقت للسيطرة على النظام في الحرب الأهلية.

المستعمرون السادة وسكان المستعمرات العبيد

ويمكن القول أن أهم ما تمخضت عنه النهضة في أوروبا هو الاقبال على الكشوف الجغرافية واستغلال البلاد المكتشفة ابشع استغلال. . . وكان الأوربي يشعر بتفوقه الثقافي والاجتماعي تجاه أي واحد من الهنود الحمر في أمريكا، والزنوج في أفريقيا. ولا شك أن الثورة الصناعية في أوروبا كانت وراء استعباد الأوربيين لكثير من سكان المستعمرات الذين استخدموا كوقود للتقدم الصناعي في أوروبا وزيادة الانتاج بأي ثمن.

ولقد واكب تهجير السود إلى العالم الجديد عملية هجرة معاكسة من الأوربيين البيض إلى إفريقيا. . . ورغم قلة عددهم بالنسبة للسكان الأصليين فقد فرضوا سيطرتهم على المناطق التي استعمروها وليت الأمر توقف عند مجرد استغلال موارد البلاد التي استعمرها الأوربيون وانما تعدى ذلك إلى الاستهانة بسكانها والتشكك في آدميتهم، ومن ذلك قول [المستر لونغ] في كتابه «تاريخ الخامايبك».

«لا يمكننا التأكيد أنهم غير خليقين بالحضارة جذريا، طالما نستطيع تعليم القروء أن تأكل، وتشرب وتسترخ وتكتسي مثل البشر. ولكن بالنظر إلى سفالة عقولهم الطبيعية فيبدو أنهم أقل جميع الأجناس البشرية المكتشفة حتى يومنا هذا قدرة على التفكير والتصرف كبشر. . . ولا أعتقد بأن من المشين لامرأة زنجية أن يكون زوجها قرداً» . .

وهكذا آتت نظرية داروين الخبيثة أكلها. . . وبهذا المنطق الساقط صارت الاختلافات بين البشر سبيلاً إلى البرهنة على تفوق البيض السادة الأوربيين. . . وانحطاط السود العبيد في أفريقيا.

وفي أمريكا اللاتينية حملت الحركات التي قادها «بوليفار» المولدين والمستوطنين من البورجوازيين فوراً إلى السلطة في معظم أرجاء أمريكا الأسبانية، وفي بلدان [الكومنولث] البريطاني القديم ظل البيض في جنوبي أفريقيا يمارسون سياسة العسف الرأسمالي الأولى^(١).

● وتطبيقاً لهذا الأسلوب في الدراسة نجد أن نظام الرق الذي ساد في مزارع الولايات المتحدة هو الذي ساعد على نمو فكرة انحطاط الزواج في أذهان البيض هناك^(٢).

نظرية داروين وحاجز اللون بين البشر

ماكاد داروين يخرج على الناس بكتابه المفسد [أصل الانسان] حتى تهافت المفسدون من أنصاره على بناء نظريات التفرقة العنصرية بين الأجناس البشرية على أساس الأصل والجنس واللون . . . وظهر من يقول منهم أن الملونين في أفريقيا من حيث كثرة عددهم بالنسبة للبيض - إذا ما سوى بينهم وبين البيض في الحقوق العامة، وإذا ما منحوا حق الانتخاب، وكان لهم صوت مسموع في أداة الحكم والادارة - فسوف يكتسح طوفان السود والملونين جماعات البيض في إفريقيا!!! . . . ومن هنا نادي البيض - لصد التيار الملون - بفكرة ما يسمى (حاجز اللون - Co-lour bar) . . . وهو تيار عنصري يقوم على اتخاذ أي وسيلة تجعل الأسود في منزلة أدنى من الأبيض من حيث المستوى الثقافي والمكانة السياسية والاقتصادية والاجتماعية . . . بحيث تظل في إفريقيا للبيض الغلبة والسيادة على السود.

ومن عبّروا عن هذا المبدأ الرخيص الجنرال [سمطس] في جنوب إفريقيا سنة ١٩١٧ قائلاً: «إننا بدلاً من الخلط بين البيض والسود جزافاً على الطريقة القديمة فقد أخذنا نعمل على وضع سياسة ترمي إلى المباعدة بينهما بقدر الامكان في نظمنا، فمن ناحية تملك الأراضي، والاستقرار بها. وفي أوضاع الحكومة. يجتهد في

(1) FRAZIER, E.F. The negro in America. Macmillan, 1950. PP 17-22.

(2) FREYRE, G. The masters and the slaves. Knopf, 1947. pp. 35-38.

أن يباعد بينهما، وهذه الطريقة نضع ملخصاً للسياسة العامة التي قد يستغرق تنفيذها مئة سنة، ولكنها في النهاية سوف تؤدي إلى حل هذه المشكلة الوطنية» . .

بل إن البيض في أفريقيا الجنوبية وروديسيا يرون أن اختلاطهم بالسود سوف يؤدي إلى ضياع الحضارة البيضاء . . ويرى السود في ذلك الادعاء كذب واقتراء ويرون أن البيض المستعمرين يخفون وراء دعواهم الخوف من ضياع السيادة على السود تلك السيادة التي تركز على التعصب والكراهية والظلم والاضطهاد . ومن حق السود أن يقاوموا تلك التفرقة الرخيصة بتحطيم حاجز اللون Colour-bar ، الذي لا يقوم على أي أساس .

هل من المعقول أن يقيم البيض في جنوب إفريقيا حواجز بين الأبيض والأسود في مكاتب البريد بتخصيص نوافذ خاصة لكل منهما؟ . . هل من المعقول أن توجد في محطات السكك الحديدية قاعات للانتظار ومرافق خاصة بالبيض يحظر على السود الاقتراب منها؟

لقد تناولت سياسة الميز العنصري في إفريقيا التفرقة الاجتماعية التي اتبعتها البيض نحو السود والملونين في جميع نواحي الحياة تقريبا، بل لقد شملت التفرقة كل شيء في المسكن ومحال الإقامة، ونوع العمل، والانتخابات والادارات . .

ولقد تم تطبيق كل ذلك بقوة القانون !!!

وفي جنوب أفريقيا . . . كانت الحواجز الاجتماعية والمدنية التي أقامها البوير هي السبب الرئيسي الذي أدى إلى تلك النظرة التي ينظر بها البيض إلى الوطنيين الأفريقيين والملونين غير الأوربيين على أنهم عناصر منبوذة ومعاملتهم على أساس هذه النظرية .⁽¹⁾ ولم يكن التطور التاريخي العامل القطعي الوحيد، ففي [جاميكا] كان الرقيق يعملون في المزارع في ظروف مشابهة لتلك التي كانت في جنوب الولايات المتحدة وكذلك الحال في [البرازيل]، غير أن العلاقات التي قامت بين الأجناس في كل من جاميكا والبرازيل قد اتخذت شكلا مغايرا لما قام في [الولايات المتحدة] فقد ساد في البرازيل وجاميكا نوع من التسامح في العلاقات بين الأجناس⁽²⁾.

(1) HANKINS, F.H. The racial basis of civilization. Knopf, 1927., pp., 55-66.

(2) HELLMAN, Ellen (ed.) Handbook on racial relations. Oxford University Press, 1949., pp. 121-133.

● كانت ظاهرة امتهان العناصر السوداء والملونة عقب الحرب بين المستعمرين البيض والوطنيين في جنوب أفريقيا، لها ما يقابلها في [نيوزلندا] حيث قامت حروب بين البيض والوطنيين واستمرت نحو مائة عام^(١).

نظرة الاسلام إلى الأجناس البشرية

في الاسلام جميع الأجناس البشرية متساوية تماماً، فكلها خلق الله . وفي هذا يقول الله تعالى : ﴿يأيتها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منها رجالاً كثيراً ونساء . واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام . إن الله كان عليكم رقيباً﴾ «النساء : ١» .

ومن هنا جاء منهج الاسلام عاماً للناس جميعاً، يخاطبهم بالتكليف والأمر والنهي . بوصفهم الانساني الواحد الذي لا يميز فيه لجنس على جنس ، أو شعب على شعب ، أو لون على لون ، فهم جميعاً عباد الله مكلفون بعبادته سبحانه وتعالى ، وحده لا شريك له ، مدعوون إلى الاستمتاع بها في الحياة من طيبات ويشهد التاريخ للاسلام بسبقه الزمني الهائل في تقرير الوحدة الانسانية من حيث الأصل ، والتكوين والنشأة البشرية ، وما تقتضي هذه الحقيقة من كرامة الانسان وحرية ، وحقه في العدل والمساواة والتكافؤ أمام فرص الحياة ، دون تمييز أو تفریق^(٢) .

الانسان إذن - في التصور الاسلامي - مخلوق مكلف ، مهمته الخلافة في الأرض ، وهو عامل رئيسي مهم في نظام الكون . . . قال تعالى :

﴿وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة﴾ «البقرة / ٣٠» وفي هذا ما يدل على تكريم الانسان . . . كل انسان . . . دون تفریق أو تمييز على الإطلاق . . . وفي هذا أيضاً ما يدل على أن الانسان . . . كل انسان . . . هو سيد هذه الأرض . . . ومن كل أجله خلق كل شيء فيها ، فهو إذن أعز وأكرم وأعلى من كل شيء مادي ، ومن كل قيمة مادية في هذه الأرض . . . فلا يجوز - في الاسلام أن يستعبد الانسان أو يستذل لقاء توفير قيمة مادية أو شيء مادي ، ولا يجوز أن يعتدى على أي مقوم من مقومات

(1) JOHNSON, C.S. Patterns of negro segregation. Harper, 1943 . 135-141.

(٢) عمر عودة الخطيب - المرجع السابق ص ١٣٢ .

انسانيته الكريمة ، ولا تهدر أي قيمة من آدميته لقاء تحقيق أي مكسب مادي . (١)
والاسلام لا يُقرُّ أي نوع من أنواع التمييز والاستعلاء والكرهية والبغضاء ويرفض
تحييز البشر - بباعث عنصري أو طبقي - إلى فئات متناحرة أو أجناس متنافرة، أو ألوان
يستبد بعضها ببعض . قال تعالى : ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ،
وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾ [الحجرات/١٣] .
والاسلام - كما قرر وحدة الجنس البشري في النشأة والمصير - حث البشر جميعاً على
التعارف والتعاون ، والعمل الانساني المشترك ، دون أن يكون لاختلافهم في الجنس
واللغة واللون أي أثر في تشويه هذا المبدأ السليم ولقد قرر الاسلام المساواة بين الناس
في الحقوق والواجبات ، ورفض كل أسباب التفاوت والتفاضل ، لأن أصل الانسانية
المشترك واحد من حيث خلق كل إنسان من تراب . . . (٢) .

قال تعالى : ﴿والله خلقكم من تراب ثم من نطفة ، ثم جعلكم أزواجاً﴾
«فاطر ١١» .

والاسلام قد اهتم بالعمل على إزالة الرق بوسائل كثيرة ترجع جميعها إلى حقيقة أن
عتق الرقيق ، وفكه من قيود التبعية والملكية لانسان آخر، عمل عظيم يتقرب به
الانسان إلى الله تعالى ، كما قرر الاسلام إعطاء جزء من الزكاة لتحرير الأرقاء . كما
أوصى بحسن معاملة الرقيق .

والاسلام قبل كل شيء أقر أن الناس جميعاً تضمهم وحدة إنسانية أنعم الله بها
عليهم من حيث : الخصائص والاستعدادات والميول . . . فقد غرس سبحانه في كل
إنسان فطرة نقية سليمة ، وركز في الطباع البشرية ألوانا من الميول والرغبات . . .
وهذا تتجلى الوحدة الانسانية في نشأة الانسان وتكوينه ، وطبيعته ، ومواهبه
واستعداداته . . . وأصله المشترك .

● ويؤكد ربنا ذلك بقوله : ﴿وهو الذي خلق من الماء بشرا فجعله نسبا وصهرا وكان
ربك قديراً﴾ «الفرقان : ٥٤» أما اختلاف اللون واللغة فمن مظاهر آيات الله وقدرته

(١) المرجع نفسه - ص ١٥٢ .

(٢) د . محمد البهي - الاسلام في حياة المسلم - ص ٤٦٣ .

﴿ومن آيته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين﴾ (الروم : ٢٢) وجاءت أحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام مؤكدة هذا الأساس العريض الذي تقوم عليه الحياة الانسانية «أيها الناس أن ربكم واحد، وإن أباكم واحد . كلكم لأدم وآدم من تراب . إن أكرمكم عند الله أتقاكم . وليس لعربي فضل على عجمي إلا بالتقوى» هذه وصيته في حجة الوداع^(١) . .

(١) د . عبد العزيز كامل - المرجع السابق - ص ١٧ .

أهم المراجع العربية

- القرآن الكريم .
- الأحاديث النبوية الشريفة .
- أحمد خيرى سعيد أفندي - اتجاه العلم الحديث نحو روحانية الشرق - جريدة السياسة - ١٤ أكتوبر سنة ١٩٣٢م .
- أحمد أبو زيد - الأصول البشرية - عالم الفكر - المجلد الثالث - العدد الرابع .
- إسماعيل مظهر - ملتقى السبيل في مذهب النشوء والارتقاء - المطبعة العصرية - الفجالة سنة ١٩٢٤م .
- إسحق أزيموف - السؤال الذي أجاب عنه داروين - ترجمة : اليونسكو / العدد ٢٥٢ سنة ١٩٨٢م .
- ألفرد شيروود رومر - أصل وتطور الحياة في البحر - الترجمة العربية - القاهرة .
- إرنست هيجل - فضل المقال في فلسفة النشوء والارتقاء - ترجمة حسن حسين ط ٢ مطبعة الشباب سنة ١٩٢٤م .
- أنور عبد العليم - قصة الإنسان القديم وحضاراته - الدار المصرية للتأليف والترجمة - سنة ١٩٦٥م .
- أنور الجندي - سقوط نظرية داروين - دار الاعتصام - القاهرة .
- بشير التركي - لله العلم - تونس .
- الأب بيير ليروي - اقتفاء آثار «السينانتروبيس» - فيارد - باريس - ١٩٧١م .
- الأب بيير ليروي لغز الإنسان البكيني - اليونسكو - العدد ١٣٦ .
- ابن خلدون - مقدمة ابن خلدون - المطبعة الأزهرية - القاهرة - سنة ١٩٣٠م .
- باسمه كيال - أصل الإنسان وسر الوجود - دار ومكتبة الهلال - بيروت .
- جون نابيير - الرحلة الطويلة للحيوانات العليا - اليونسكو - العدد/ ١٣٦ .

- جون ركس - العلاقات العنصرية والأقليات - ترجمة د. حسين النجار.
- خلق لا تطور - تعريب : د. إحسان حقي - دار النفاس - بيروت .
- روبرت ل. ليرمان - الطريق الطويل إلى الانسان - ترجمة د. ثابت جرجس قصبجي - بيروت .
- سيد قطب - في ظلال القرآن - دار الشرق .
- شارليس داروين - أصل الأنواع - ترجمة ترجمة اسماعيل مظهر - جزء ١ - دار العصور للطباعة - سنة ١٩٢٨ م .
- عباس محمود العقاد - عقائد المفكرين في القرن العشرين - مكتبة غريب . القاهرة .
- د. عبد العزيز كامل - الاسلام والتفرقة العنصرية - اليونسكو - القاهرة .
- د. عبد العليم عبد الرحمن خضر - الانسان في الكون بين القرآن والعلم - عالم المعرفة - جدة .
- عبد الكريم الخطيب - التفسير القرآني للقرآن - جزء ١/١٨ - دار الفكر العربي .
- د. عبد الفتاح محمد وهيب - الجغرافية التاريخية - دار النهضة العربية .
- د. عماد الدين خليل - التفسير الاسلامي للتاريخ - دار العلم للملايين - بيروت .
- عمر عودة الخطيب - نظرات إسلامية في مشكلة التمييز العنصري - مؤسسة الرسالة - بيروت .
- علي أحمد الشحات - نظرية التطور - القاهرة .
- علم الدين كمال - تطور الكائنات الحية - عالم الفكر - المجلد الثالث - العدد الرابع .
- د. فيليب رفل - الجغرافية البشرية - الانجلو - القاهرة .
- د. فؤاد محمد الصقار - التفرقة العنصرية في إفريقيا - القاهرة سنة ١٩٦٢ م .
- فرانسوا بوردي - حياة إنسان العصر الحجري - اليونسكو - ١٣٦ .
- فسيغولوب . ياكيموف - الانسان الأول ونشأة الأجناس - اليونسكو .
- فيكتور بوناك - الإنسان أول من مشى وتكلم - اليونسكو - العدد ١٣٦ .
- كينيث ليتل - السلالة والمجتمع - ترجمة جلال عباس - الألف كتاب - القاهرة .

- لويس س. ب. ليكن أجدادنا الأفريقيون اليونسكو - العدد ١٣٦ .
- لويس بخنر - شرح بخنر على مذهب داروين - ترجمة شبل شميل - ط٢ مجموعة - جزء ١ - مطبعة المقتطف .
- د. محمد البهي - الاسلام في حياة المسلم - القاهرة .
- د. محمد فتحى عوض الله - الماء - الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة .
- د. محمد فتحى عثمان - الأرض في القرآن الكريم - بحث للمؤتمر الجغرافي الاسلامي الأول - الرياض - ١٣٩٩ هـ .
- د. محمد محمود حجازي - التفسير الواضح - مطبعة الاستقلال الكبرى - القاهرة .
- د. محمد السيد غلاب - تطور الجنس البشرى - الاسكندرية - ١٩٥٥ م .
- د. محمود عثمان - الفكر المادي الحديث وموقف الاسلام منه - الانجلو - القاهرة .
- د. محمد عوض محمد - سكان هذا الكوكب - القاهرة - ١٩٦٤ م .
- د. محمد على البار - خلق الانسان بين الطب والقرآن - الدار السعودية للنشر والتوزيع - جدة .
- موريس بوكاي - القرآن الكريم والتوراة والانجيل والعلم - دار المعارف - القاهرة .
- هانز ريشينيخ - نشأة الفلسفة - ترجمة د. فؤاد زكريا - دار الكاتب العربي للطباعة والنشر سنة ١٩٦٨ م .
- يوسف قوني - الجغرافيا الاجتماعية والتنظيم الاجتماعي - محاضرات الموسم الثقافي للجمعية الجغرافية المصرية لسنة ١٩٦٥ م . القاهرة سنة ١٩٦٢ .
- يوسف عز الدين عيسى - التطور العضوي للكائنات الحية - عالم الفكر - المجلد الثالث - العدد الرابع .
- د. يسري الجوهرى - الإنسان وسلالاته - منشأة المعارف بالأسكندرية .
- يوسف كرم - تاريخ الفلسفة الحديثة - دار المعارف بمصر - سنة ١٩٦٢ م .

أهم المراجع الأجنبية

- A.k. Weller, 1938: Outlines of Geological history, London.
- A.R. Hall; 1954: The scientific Revolution, "The formation of the modern scientific attitude, Beacon Press.
- Barnes, H.E., 1948: (Horbert spencer and the evolutionary Defence of Individualism), in Barnes (ed.): An introduction to the History of Sociology. Chicago University Press.
- C.E.M. Joad. Guide to modern thought, 1972, N.Y.
- D. Darwin, The origin of species, published by the new American Library, A Menetor Book, N.Y.
- Comte A. : Polit Positive, 1.
- C.A. Cotton, 1947, Geomorphology, New York.
- C.A. Cotton, 1918: Landscape, Willington.
- Carrol L. Fenton John, 1943: Along nature's Highway, johnday Co.,.
- C.A.M. King, 1963 : An introduction to oceanography, N.Y.
- Clarke, A.C., 1951 : The Exploration of space, New York.
- Cllman, Modern theories of the Universe. Signet Science library.
- D.R. Belbeem, 1968 : Human Origins, Advancement of Science.
- E.A. Fath, 1955 : Astronomy, London.
- Edward. P. Men, Mirrors and stars. Harper.
- F. L. Whipple, 1968: Earth, Moon, and planets, Harvard, u.p.
- G. Shubert, c.o. Dumbar, 1914: Historical Geolgy, New York.
- Green, J.C. 1963: Darwin and the midern world view, Mentor, N.Y.
- Gray, L.H. 1954: "Cosmogony and cosmology". Encyclopedia
- Gressy, G.B. 1954: Asia, s lands and peoples, N.Y.
- G.L. Pickard, 1963: Discriptive physical Geography of the ocean, oxford.
- Hofstadter, R., 1966, social Darwinism in American though, Boston. Beacon press.

- Herrison S., 1951: Everyday Weather and how it works, Me Grow - hill.
- Harrison B., 1954 : The challenge of Man, S future N.Y.
- Holton, Gerald, 1968 : Mach, Einstein, and the search for reality, Daedalus.
- Imanuel Kant, 1955 : A General theory of the heavens - or Eassay on the mechanical structure of the universe.
- John R. platt, 1966, the stop to man, wiley.
- John J.O. Neil, Almighty atom, New York.
- Jerome S, Meyer. Loherop lee and shepard : Picture Book of astronomy.
- Kardiner A. and preple, E, 1963: The studied man, mentor Book, N.Y.
- Lynn White, J.r., 1967 : The Historical Roots of our Ecologic Crisis, science, 1155.
- Lewontin : Evolution, International Encyclopedia of social S.
- Lyttleton, Raymond, 1957 : The modern universe, London.
- Lovell, A.C.B. 1959: The individual and the universe London.
- Laland : Vocabulaire technique et critique de la philosophie.
- Ley W, 1962 : Sattelites, Rockets and outer space; Signet sci-ences, L.
- Lewis, R.S. 1962 : Appointment on the moon, N.Y.
- L.C. King, 1963 : Morphology of the Earth, Edinburg.
- Mirican P. waugh., 1941 : What, s in the sky, Oxford university press.
- M.G. Gross, 1969 : Oceanography, Ohio.
- National Geographic society, vol 160, No 1 July 1981 : Saturn Riddles of the Rings.
- O.D. ven Engeln, 1955 : Geamorphology, New York.
- Oberth, Herman, 1969 : Man into space, New York.
- Pffeiffer, J.E. 1910 : The Emergence of man, Thomas Nilson.
- Philip pollock, 1945 : Careors in science, Dutton.
- R.B. Bunnet, 1971 : Physical geography in Diasram. London.
- Realm of flight, 1947, Superintendent of Decoments Catalog No c 31.
- Sir James : The mysterious universe, N.Y.
- Sir James. J., 1960 : The universe around us, C.U.

- Sparks., B.W, 1961 : Geomorphology, London.
- Smart, W.M., 1950 : The Origin of the Earth, Pelican Book.
- Safe Handling of Radioactive Isotopes. Superintendent, catalog c 13. 11.
- Tax sol. (ed), 1960 : Evolution after Darwin, vol. 2. Chicago.
- Thornley, G.C., 1965 : Changing Horizon, London.
- The international control of Atomic Energy, Superintendent, C.S. 1.49.
- The Geiger - Mueller Counter. Superintendent of Documents, C. 13.4 : 490.
- Wheeler, J.H., and others, 1961 : Regional geography of the world, New York.
- Walderman K. 1945 : Science today and tomorrow, viking.
- Webster, S Biographical dictionary, 1951, G & Merriam co.
- W.D. Thornbury, 1962 : Principles of Geomorphology, N.Y.
- Zeuner, F.E. 1960 : Dating the past, London.

الفهرست

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٩
الفصل الأول	١٥
بدء الحياة على الأرض بين نظريات العلم وحقيقة القرآن	١٦
استحالة نشأة الحياة حسب قانون الصدفة	١٨
فجر الحياة على الأرض	٢٢
فشل العلم في تفسير كيفية نشأة الحياة	٢٤
الماء والحياة بين العلم والقرآن	٢٥
كيف يقيس العلماء عمر الصخور؟	٢٧
ما هي الخلية الحية؟	٣٣
العلم يهدم نظرية الخلق الذاتى	٣٥
مقدمات الحياة	٣٨
قراءة في السجل الحيوي لصخور القشرة الأرضية	٤١
من مظاهر عظمة الخالق سبحانه وتعالى	٤٣
نظرية الانتقال وموقف الاسلام منها	٤٧
الفصل الثاني	٤٩
التاريخ الجيولوجي للأرض ونشأة الحياة	٥٠
الحفريات . . صفحات من التاريخ الجيولوجي للأرض	٥٠
نظريات علمية حول نشأة الكواكب	٥٤
التقلبات الجيولوجية وأثرها في توزيع الأحياء على الأرض	٥٩
السلف المشترك للكائنات الحية قبل ظهور الانسان	٦٨
«كوفيه» يهدم نظرية السلف المشترك للكائنات الحية	٦٨
العقم التطورى والانقراض	٧١
نظرية النماذج الأصلية	٧٢

٧٤	عالم الفقاريات في التاريخ الجيولوجى القديم
٧٦	صور الحياة على اليابسة في العصر السيلورى
		الفصل الثالث
٧٩	الأجناس البشرية القديمة وانتشار الانسان في الأرض
٨٤	السلالة وأسس تصنيف البشر
٨٤	تصنيف الأجناس البشرية
٨٧	أهم الأسس أو الصفات التى اتخذت أساساً لهذا التصنيف
٨٨	دوافع انتشار الأجناس البشرية في الأرض
٩٠	الوطن الأول للانسان
٩٣	الأجناس البشرية القديمة في أفريقية
٩٥	التوزيع الجغرافى للأجناس البشرية في أفريقية القديمة
١٠٢	الذبابات المناخية ومراحل التحضر البشرى
١٠٥	الانسان كعامل جغرافى
١٠٦	أثر الانسان في البيئة وتأثره بها
١١٣	القنص والصيد عند الانسان القديم
١١٥	العوامل التى أثرت في انتشار الأجناس البشرية في الأرض
١١٦	اكتشاف النار
١١٨	الطقوس الجنائزية
١١٩	الفنون البدائية وأنماط التحضر البشرى في العصور القديمة
١١٩	المعتقدات القديمة والنظم الاجتماعية
١٢٣	الفصل الرابع
١٢٤	الانسان وهجراته في عصور ما قبل التاريخ
١٢٤	الدورات الجليدية وأثرها في رسم مسار انتشار الانسان في الأرض
١٢٨	هجرة القوقازيين
١٢٩	تقسي «دركن» Dirkem للهجرات القديمة
١٣٣	المحاوير الجغرافية لانتشار الانسان

١٣٩	الهجرات البشرية الحديثة وتعمير العالم الجديد
١٤٢	دوافع الهجرات البشرية
١٤٤	التوزيع الجغرافي للمجموعات البشرية الكبرى
١٤٦	الانسان والحضارة في المفهوم الاسلامى
١٤٩	الفصل الخامس
١٥٠	أصل الانسان في القرآن الكريم
١٥٢	خلق الانسان حسب المفهوم القرآنى
١٥٧	المنهج القرآنى في وصف الانسان وخصائص النشأة
١٥٩	من أين جاءت الحياة؟ وكيف جاءت؟
	الفصل السادس
١٦٣	داروين .. ونظريته [الساقطة] عن أصل الانسان
١٦٨	داروين ورحلة الضياع
١٦٨	المؤثرات البيئية والبشرية في فكر داروين
١٧٠	الرحلة ومقدمات النظرية المشثومة
١٧٢	المؤثرات الفكرية لنظرية داروين ومؤثراتها في أوروبا
١٧٤	أين تحمرت فكرة [التطور] عند داروين؟
١٧٥	الملاحج الجغرافية لجزر «الجلاباجو»
١٨٠	مناخ طيب لنظرية ماسدة
١٨١	داروين وفرضية الانتخاب الطبيعي
١٨٢	الرد الاسلامى على فرضية الانتخاب الطبيعي
١٩٢	أهم ملامح نظرية التطور البشرى عند داروين
١٩٣	أين يكمن الخطر في نظرية داروين
١٩٧	الفصل السابع
١٩٩	الداروينيون المحدثون والرد الاسلامى على افتراءاتهم
١٩٩	روبرت ليرمان ونظريته الفاسدة عن الانسان القرد
٢٠٤	ليرمان وحفريات النسانيس

الموضوع	الصفحة
هويلز ونظرية التطور	٢٠٦
إنسان نياندرتال	٢١٠
نظرية [أصل السلالات] عند كارلتون كون	٢١١
أصل الانسان في نظرية ليكى	٢١٣
الملامح البشرية لانسان جاوزه والصين عند ليكى	٢١٨
أصل الأجناس البشرية حسب المفهوم الحضارى للانسان	
في علم الجغرافيا التاريخية	٢٢٢
دور الجغرافية التاريخية في الكشف عن أنماط التحضر البشرى	
في العصور البائدة	٢٢٥
إنسان ما قبل الطوفان وأنماط التحضر القديمة	٢٢٧
علم ما قبل التاريخ يهدم نظرية داروين	٢٣٠
نظرية التوازي وأصل الأجناس البشرية عند جون نابير	٢٣٢
جون نابير والانسان الحاذق	٢٣٨
ياكيموف وتطور الانسان	٢٣٩
نظرية التطور وتفسيرها لظاهرة [إنسان بكين]	٢٤٥
إنسان سيفانثروبيس	٢٤٩
نشأة اللغات عند الانسان حسب المفهوم الداروينى	٢٥٢
المهارات الفنية عند الأجناس البشرية القديمة	٢٥٧
وقفه لا بد منها	٢٦١
الذين مهدوا الطريق لداروين	٢٦٣
الخلفية التاريخية للنسيج التطورى ومخاطره على سلامة البشرية	٢٦٩
وانهدمت نظرية [لامارك] التطورية	٢٧١
أصل الأجناس البشرية حسب مفهوم النظرية التركيبية عند «بولك»	٢٧٥
الرد العلمى على تحريف (أرثركيت)	٢٧٨
هكسلى وكتابه «معرفة الظواهر الحية»	٢٧٨
ملامح الفكر الداروينى عند جورج كوفيه	٢٧٩

٢٨١	المؤشرات النهائية لآراء الداروينيين الملحدون
٢٨٣	الفصل الثامن
	الطريق نحو التوافقية بين العلم والقرآن
٢٨٤	في معالجة أصول الأجناس البشرية
٢٩٤	قصور العلم وشمولية القرآن
٢٩٥	بخنر وأصل الأجناس البشرية
٢٩٦	التوافقية بين العلم والقرآن في أصل النشأة من الماء
٢٩٩	الفصل التاسع
٣٠٠	الأسس العلمية التي نخرج بها من المفهوم القرآني لأصل الأجناس البشرية
٣٠٠	الخلق لله وحده
٣٠٧	تطور الانسان في الرقى حسب الخط الإلهي
٣١٢	كمال التكوين الانساني
٣١٦	الانسان في الديانات الأخرى
٣٢٨	أدلة أخرى على انحراف نظرية داروين
٣٢٩	الفصل العاشر
٣٣٠	سقوط نظرية داروين
٣٣٩	أين هي المخلوقات المتوسطة؟
٣٤٨	الرد العلمي والايائي على هراء الداروينية
٣٥١	علماء المسلمين يهدمون فرضية التطور [ابن مسكويه]
٣٥٥	علماء الغرب يسقطون نظرية داروين
٣٦٧	الفصل الحادي عشر
	نظرية داروين والتفرقة العنصرية بين الأجناس البشرية،
٣٦٨	وموقف الاسلام منها

العنصرية والأجناس البشرية	٣٦٩
العنصرية. ومنطق الافتراض	٣٦٩
العنصرية والاصول الثقافية للأجناس البشرية	٣٧٢
صور التفرقة العنصرية	٣٧٤
التفسير الطبقي للعنصرية	٣٧٥
الخلفية التاريخية للتفرقة العنصرية	٣٧٨
الاستعمار وسياسة التفرقة العنصرية في العالم	٣٨٠
الصلة بين العنصرية والداروينية	٣٨١
النسيج الطبقي للأجناس البشرية في الدول المستعمرة	٣٨٥
المستعمرون السادة وسكان المستعمرات العبيد	٣٨٧
نظرية داروين وحاجز اللون بين البشر	٣٨٨
نظرة الاسلام الى الاجناس البشرية	٣٩٠
أهم المراجع العربية	٣٩٣
أهم المراجع الاجنبية	٣٩٧
الفهرس	٤٠١

إصدارات: تهامة للنشر والمكتبات

سلسلة: الكتاب العربي السعودي

صدر منها:

- الجبل الذي صار سهلاً (نقد)
 - من ذكريات مسافر
 - عهد الصبا في البادية (قصة مترجمة)
 - التنمية قضية (نقد)
 - قراءة جديدة لسياسة محمد علي باشا (نقد)
 - الظمأ (مجموعة قصصية)
 - الدوامة (قصة طويلة)
 - غداً أنسى (قصة طويلة) (نقد)
 - موضوعات اقتصادية معاصرة
 - أزمة الطاقة إلى أين؟
 - نحو تربية إسلامية
 - إلى ابنتي شيرين
 - رفات عقل
 - شرح قصيدة البردة
 - عواطف إنسانية (ديوان شعر) (نقد)
 - تاريخ عمارة المسجد الحرام (الطبعة الرابعة)
 - وقفة
 - خالتي كدرجان (مجموعة قصصية) (نقد)
 - أفكار بلا زفن
 - كتاب في علم إدارة الأفراد (الطبعة الثانية)
 - الإجماري ليل الشجن (ديوان شعر)
 - طه حسين والشيخان
 - التنمية وجهها لوجه (الطبعة الثانية)
 - الحضارة محمد (نقد)
 - عبر الذكريات (ديوان شعر)
 - لحظة ضعف (قصة طويلة)
 - الرجولة عماد الخلق الفاضل
 - ثمرات قلم
 - بائع التبغ (مجموعة قصصية مترجمة)
 - أعلام الحجاز في القرن الرابع عشر للهجرة (تراجم)
 - النجم الفريد (مجموعة قصصية مترجمة)
 - مكانك تحمدي
 - قال وقلت
 - نبض
 - نبت الأرض
- الأستاذ أحمد قنديل
 - الأستاذ محمد عمر توفيق
 - الأستاذ عز يز ضياء
 - الدكتور محمود محمد سفر
 - الدكتور سليمان بن محمد الغنام
 - الأستاذ عبدالله عبدالرحمن الجفري
 - الدكتور عصام خوقير
 - الدكتور أمل محمد شطا
 - الدكتور علي بن طلال الجهني
 - الدكتور عبدالعزيز حسين الصويغ
 - الأستاذ أحمد محمد جمال
 - الأستاذ حمزة شحاتة
 - الأستاذ حمزة شحاتة
 - الدكتور محمود حسن زيني
 - الدكتور مريم البغدادي
 - الشيخ حسين عبدالله باسلامة
 - الدكتور عبدالله حسين باسلامة
 - الأستاذ أحمد السباعي
 - الأستاذ عبدالله الحصين
 - الأستاذ عبدالوهاب عبدالواسع
 - الأستاذ محمد الهدهد العيسى
 - الأستاذ محمد عمر توفيق
 - الدكتور غازي عبدالرحمن القصيبي
 - الدكتور محمود محمد سفر
 - الأستاذ طاهر زعخشري
 - الأستاذ فؤاد صادق مفتي
 - الأستاذ حمزة شحاتة
 - الأستاذ محمد حسين زيدان
 - الأستاذ حمزة بوقري
 - الأستاذ محمد علي مغربي
 - الأستاذ عز يز ضياء
 - الأستاذ أحمد محمد جمال
 - الأستاذ أحمد السباعي
 - الأستاذ عبدالله عبدالرحمن جفري
 - الدكتورة فائنة أمين بشاكر

- الدكتور عصام خوقير
- الأستاذ عزيز ضياء
- الدكتور غازي عبدالرحمن القصيبي
- الأستاذ أحمد قنديل
- الأستاذ أحمد السباعي
- الدكتور ابراهيم عباس نتو
- الأستاذ سعد البواردي
- الأستاذ عبدالله بوقس
- الأستاذ أحمد قنديل
- الأستاذ أمين مدني
- الأستاذ عبدالله بن خميس
- الشيخ حسين عبدالله باسلامة
- الأستاذ حسن بن عبدالله آل الشيخ
- الدكتور عصام خوقير
- الأستاذ عبدالله عبدالوهاب العباسي
- الأستاذ عزيز ضياء
- الشيخ عبدالله عبدالغني خياط
- الدكتور غازي عبدالرحمن القصيبي
- الأستاذ أحمد عبدالغفور عطار
- الأستاذ محمد علي مغربي
- الأستاذ عبدالعزيز الرفاعي
- الأستاذ حسين عبدالله سراج
- الأستاذ محمد حسين زيدان
- الأستاذ حامد حسن مطاوع
- الأستاذ محمود عارف
- الدكتور فؤاد عبدالسلام الفارسي
- الأستاذ بدر أحمد كرم
- الدكتور محمود محمد سفر
- الشيخ سعيد عبدالعزيز الجندول
- الأستاذ طاهر زحشري
- الأستاذ حسين عبدالله سراج
- الأستاذ عمر عبدالجبار
- الشيخ أبو تراب الظاهري
- الشيخ أبو تراب الظاهري
- الأستاذ عبدالله عبدالوهاب العباسي
- الأستاذ عبدالله عبدالرحمن جفري
- الدكتور زهير أحمد السباعي
- الأستاذ أحمد السباعي
- الشيخ حسين عبدالله باسلامة
- الأستاذ عبدالعزيز مؤمنة
- الأستاذ حسين عبدالله سراج
- الأستاذ محمد سعيد العامودي
- السعد وعد (مسرحية)
- قصص من سومرست موم (مجموعة قصصية مترجمة)
- عن هذا وذاك (الطبعة الثالثة)
- الأصداف (ديوان شعر)
- الأمثال الشعبية في مدن الحجاز (الطبعة الثانية)
- أفكار تربوية
- فلسفة المجانين
- خدعتني مجها (مجموعة قصصية)
- نقر العصافير (ديوان شعر)
- التاريخ العربي وبدائنه (الطبعة الثالثة)
- المجازين اليمامة والحجاز (الطبعة الثانية)
- تاريخ الكعبة المعظمة (الطبعة الثانية)
- خواطر جريئة
- السنيورة (قصة طويلة)
- رسائل إلى ابن بطوطة (ديوان شعر)
- جسور إلى القمة (تراجم)
- تأملات في دروب الحق والباطل
- الحمى (ديوان شعر) (الطبعة الثانية)
- قضايا ومشكلات لغوية
- ملامح الحياة الاجتماعية في الحجاز في القرن الرابع عشر للهجرة
- زيد الخير
- الشوق إليك (مسرحية شعرية)
- كلمة ونصف
- شيء من الحصاد
- أصداء قلم
- قضايا سياسية معاصرة
- نشأة وتطور الإذاعة في المجتمع السعودي (الطبعة الثانية)
- الإعلام موقف
- الجنس الناعم في ظل الإسلام
- ألحان مغترب (ديوان شعر) (الطبعة الثانية)
- غرام ولادة (مسرحية شعرية) (الطبعة الثانية)
- سير وتراجم (الطبعة الثالثة)
- الموزون والمخزون
- لحام الأقلام
- نقاد من الغرب
- حوار.. في الحزن الدافيء
- صحة الأسرة
- سباعيات (الجزء الثاني)
- خلافة أبي بكر الصديق
- البترول والمستقبل العربي (الطبعة الثانية)
- إليها .. (ديوان شعر)
- من حديث الكتب (ثلاثة أجزاء) (الطبعة الثانية)

الأستاذ أحمد السباعي
 الأستاذ عبدالوهاب عبدالواسع
 الدكتور عبدالرحمن بن حسن النفيسة
 الأستاذ محمد علي مغربي
 الدكتور أسامة عبدالرحمن
 الشيخ حسين عبدالله باسلامة
 الأستاذ سعد البواردي
 الأستاذ عبدالوهاب عبدالواسع
 الأستاذ عبدالله بلخير
 الأستاذ محمد سعيد عبدالمقصود خوجه
 الأستاذ ابراهيم هاشم فلالي
 الأستاذ عزيز ضياء
 الأستاذ حسن بن عبدالله آل الشيخ
 الدكتور عصام خوقير
 الأستاذ محمد بن أحمد العقيلي
 الشيخ أبو عبدالرحمن بن عقيل الظاهري
 الأستاذ ابراهيم هاشم فلالي
 الأستاذ ابراهيم هاشم فلالي
 الدكتور عبدالله حسين باسلامة
 الأستاذ محمد سعيد العامودي
 الشيخ سعيد عبدالعزيز الجندول
 الشيخ سعيد عبدالعزيز الجندول
 الشيخ أبو عبدالرحمن بن عقيل الظاهري
 الدكتور غازي عبدالرحمن القصيبي
 الدكتور بهاء بن حسين عزي
 الأستاذ عبدالرحمن المعمر
 الدكتور محمد بن سعد بن حسين
 الأستاذ عبدالله عبدالرحمن الجفري
 الأستاذ عزيز ضياء
 الدكتور محمود محمد سفر
 الأستاذ محمد حسين زيدان
 الأستاذ أحمد عبدالغفور عطار
 الأستاذ حمد الزيد
 الأستاذ عبدالله عبدالوهاب العباسي
 الأستاذ عبدالعزیز المسند
 الأستاذ أحمد صالح التويجري
 الدكتور فؤاد عبدالسلام الفارسي
 الأستاذ محمد عمر توفيق

أيامي
 التعلم في المملكة العربية السعودية (الطبعة الثانية)
 أحاديث وقضايا إنسانية
 البعث (مجموعة قصصية)
 شمعة ظمأى (ديوان شعر)
 الإسلام في نظر أعلام الغرب (الطبعة الثانية)
 حتى لا ننفد الذاكرة
 مدارسنا والتربية (الطبعة الثالثة)
 وحي الصحراء (الطبعة الثانية)
 طيور الأبايل (ديوان شعر) (الطبعة الثانية)
 قصص من تاغور (ترجمة)
 التنظيم القضائي في المملكة العربية السعودية (الطبعة الثانية)
 زوجتي وأنا (قصة طويلة)
 معجم اللهجة المحلية في منطقة جازان
 لن تلحد
 عمر بن أبي ربيعة (الطبعة الثانية)
 رجالات الحجاز (تراجم)
 حكاية جيلين
 من أوراقي
 الإسلام في معترك الفكر
 إليكم شباب الأمة
 هكذا علمني وردزورث
 في رأيي المتواضع (الطبعة الثانية)
 العالم إلى أين والغرب إلى أين؟
 البرق والبريد والهاتف وصلتها بالحب والأشواق والعواطف
 محمد سعيد عبدالمقصود خوجه (حياته وأثاره)
 جزء من حلم
 ماما زبدة (مجموعة قصصية)
 إنتاجية مجتمع
 خواطر مجتحة
 العقاد (الجزء الأول)
 مغازلات ومعاكسات
 وجيز النقد عند العرب
 سفينة الصحراء
 مقالات في التنمية
 الاعلام والصراع العالمي
 من ذكريات مسافر (الجزء الثاني)

الدكتور جميل عبدالله الجشي

• التقنية الإدارية في مشاريع
التنمية الإنشائية

الدكتور اسامة عبدالرحمن

تحت الطبع ،

• عفاؤها النقط

(مقالات في التنمية)

الدكتور غازي عبدالرحمن الفصيبي

(الطبعة الثانية)

• التنمية وجها لوجه

سلسلة :

الكتاب العربي اليمني

صدر منها :

الأستاذ أحمد محمد الشامي

• أطياف (ديوان شعر)

الأستاذ أحمد محمد الشامي

• شعراء اليمن في الجاهلية والإسلام

كتاب المرأة

صدر منها :

الدكتور عبدالله حسين باسلامة

(الطبعة الثالثة)

• سيدتي الحامل

اعداد الأستاذة ثريا عبدالرحمن خياط

• المطبخ السعودي

الدكتور فايز عبداللطيف أورفلي

• أطفال لا يعرفون البكاء

الاستاذة نجاح ابراهيم طرابلسي

سلسلة : الكتاب الجامع

صدر منها :

- الإدارة : دراسة تحليلية للوظائف والقرارات الإدارية (الطبعة الثانية)
 - الجراحة المتقدمة في سرطان الرأس والعنق (باللغة الإنجليزية)
 - الثومن الطفولة إلى المراهقة (الطبعة الثالثة)
 - الحضارة الإسلامية في صقلية وجنوب إيطاليا
 - النقط العربي وصناعة تكريره
 - الملامح الجغرافية لدروب الحجيج
 - علاقة الآباء بالأبناء (دراسة فقهية) (الطبعة الثانية)
 - مبادئ القانون لرجال الأعمال (الطبعة الثانية)
 - الاتجاهات العددية والتنوعية للدوريات السعودية
 - قراءات في مشكلات الطفولة (الطبعة الثانية)
 - شعراء التروبادور (ترجمة)
 - الفكر التربوي في رعاية الموهوبين
 - النظرية النسبية
 - أمراض الأذن والأنف والحنجرة (باللغة الإنجليزية)
 - المدخل في دراسة الأدب
 - الرعاية التربوية للمكفوفين
 - أضواء على نظام الأسرة في الإسلام (الطبعة الثانية)
 - الوحدات النقدية المملوكية
 - الأدب المقارن (دراسة في العلاقة بين الأدب العربي والآداب الأوروبية)
 - هندسة النظام الكوني في القرآن الكريم (الطبعة الثانية)
 - التجربة الأكاديمية لجامعة البترول والمعادن
 - مبادئ الطرق الإحصائية
 - مبادئ الإحصاء
 - المنظمات الدولية والتطورات الاقتصادية الحديثة
 - التعلّم الصقي
 - أحكام تصرفات السفه في الشريعة الإسلامية
 - دراسات في الإعراب
- الذكور مدني عبدالقادر علاقي
الذكور فؤاد زهران
الذكور عدنان ججوم
الذكور محمد عيد
الذكور محمد جميل منصور
الذكور فاروق سيد عبدالسلام
الذكور عبدالمنعم رسلان
الذكور أحمد رمضان شقلية
الأستاذ سيد عبدالمجيد بكر
الذكورة سعاد ابراهيم صالح
الذكور محمد ابراهيم أبو العينين
الأستاذ هاشم عبده هاشم
الذكور محمد جميل منصور
الذكورة مريم البغدادي
الذكور لطفي بركات أحمد
الذكور عبدالرحمن فكري
الذكور محمد عبدالهادي كامل
الذكور أمين عبدالله سراج
الذكور سراج مصطفى زقروق
الذكورة مريم البغدادي
الذكور لطفي بركات أحمد
الذكورة سعاد ابراهيم صالح
الذكور سامح عبدالرحمن فهمي
الذكور عبدالوهاب علي الحكمي
الذكور عبدالعليم عبدالرهن خضر
الذكور خضير سعود الخضير
الذكور جلال الصياد
الذكور عبدالحميد محمد ربيع
الذكور جلال الصياد
الأستاذ عادل سمرة
الذكور حسين عمر
الذكور محمد زياد حمدان
الذكورة سعاد ابراهيم صالح
الذكور عبدالهادي الفضلي

الدكتور سليم كامل درو يش
 الدكتور سعاد ابراهيم صالح
 الدكتور جهيل حرب محمود حسين
 الدكتور عبدالعزيز عبدالمملك رادين
 الدكتور عبدالعزيز عبدالقادر
 الدكتور عمر الطيب الساسي
 الدكتور عبدالعليم عبدالرحمن خضر

• الاقتصاد الصناعي
 • أحكام تصرفات الصغير في الشريعة الإسلامية
 • الحجاز واليمن في العصر الأيوبي
 • الجيولوجيا العملية (المستوى الأول والثاني)
 • الموجز في تاريخ الأدب
 العربي السعودي
 • أصل الأجناس البشرية بين العلم والقرآن الكريم

سلسلة :

اساتك جامعية

صدر منها :

- صناعة النقل البحري والتنمية في المملكة العربية السعودية (باللغة الإنجليزية)
- الخراسانيون ودورهم السياسي في العصر العباسي الأول
- الملك عبدالعزيز ومؤتمر الكويت
- العثمانيون والإمام القاسم بن علي في اليمن (الطبعة الثانية)
- القصة في أدب الجاحظ
- تاريخ عمارة الحرم المكي الشريف
- النظرية التربوية الإسلامية
- نظام الحسبة في العراق .. حتى عصر المأمون
- المقصد العلي في زوائد أبي يعلى الموصلي (تحقيق ودراسة)
- الجانب التطبيقي في التربية الإسلامية
- الدولة العثمانية وغربي الجزيرة العربية
- دراسة ناقدة لأساليب التربية المعاصرة في ضوء الإسلام
- الحياة الاجتماعية والاقتصادية في المدينة المنورة في صدر الإسلام
- دراسة اثنوغرافية لمنطقة الاحساء (باللغة الإنجليزية)
- عادات وتقاليد الزواج بالمنطقة الغربية
- من المملكة العربية السعودية (دراسة ميدانية انثروبولوجية حديثة)
- افتراءات فيليب حيي وكارل بروكلمان على التاريخ الإسلامي
- دور المياه الجوفية في مشروعات الري والصرف بمنطقة الإحساء بالمملكة العربية السعودية (باللغة الإنجليزية)
- تقويم التمولجستاني والنشوء
- العقوبات التفويضية وأهدافها في ضوء الكتاب والسنة
- العقوبات المقدرة وحكمة تشريعها في ضوء الكتاب والسنة
- الدكتور بهاء حسين عزّي
- الأستاذة ثريا حافظ عرفة
- الأستاذة موزي بنت منصور بن عبدالعزيز آل سعود
- الأستاذة أميرة علي المداح
- الأستاذ عبدالله باقازي
- الأستاذة فوزية حسين مطر
- الأستاذة آمال حمزة المرزوقي
- الأستاذ رشاد عباس معتوق
- الدكتور نايف بن هاشم الدعيس
- الأستاذة ليلى عبدالرشيد عطار
- الأستاذ نبيل عبدالحفي رضوان
- الأستاذة فتحية عمر حلواني
- الأستاذة نورة بنت عبدالمملك آل الشيخ
- الدكتور فايز عبدالحميد طيب
- الأستاذ أحمد عبدالاله عبدالجبار
- الأستاذ عبدالكريم علي باز
- الدكتور فايز عبدالحميد طيب
- الدكتور ظلال محمود رضا
- الدكتور مطيع الله دخيل الله اللهيبي
- الدكتور مطيع الله دخيل الله اللهيبي

- الطلب على الإسكان من حيث الاستهلاك والاستثمار (باللغة الانجليزية) الدكتور فاروق صالح الخطيب
- تطور الكتابات والنقوش في الحجاز منذ فجر الإسلام وحتى منتصف القرن السابع الهجري الأستاذ محمد فهد عبدالله الفهر
- أنرا الاستماع في تعلم اللغة الانجليزية الأستاذ مأمون يوسف بنجر

تحت الطبع :

الدكتورة فاطمة نصيف

• حقوق المرأة وواجباتها

في الاسلام



صدر منها :

- حارس الفندق القديم (مجموعة قصصية) الأستاذ صالح ابراهيم
- دراسة نقدية لفكر زكي مبارك (باللغة الانجليزية) الدكتور محمود الشهابي
- التحلف الإملائي الأستاذة نوال عبدالمنعم قاضي
- ملخص خطة التنمية الثالثة للمملكة العربية السعودية إعداد إدارة النشر بتأمة
- ملخص خطة التنمية الثالثة للمملكة العربية السعودية (باللغة الانجليزية) إعداد إدارة النشر بتأمة
- تسالي (من الشعر الشعبي) (الطبعة الثانية) الدكتور حسن يوسف نصيف
- كتاب مجلة الأحكام الشرعية على مذهب الإمام أحمد بن حنبل الشيباني (دراسة وتحقيق) الشيخ أحمد بن عبدالله القاري
- النفس الإنسانية في القرآن الكريم } الدكتور عبدالوهاب إبراهيم أبو سليمان
- واقع التعليم في المملكة العربية السعودية (باللغة الإنجليزية) (الطبعة الثانية) الدكتور محمد إبراهيم أحمد علي
- صحة العائلة في بلد عربي متطور (باللغة الإنجليزية) الأستاذ إبراهيم سرستق
- مساء يوم في آذار (مجموعة قصصية) الدكتور عبدالوهاب محمد الزيد
- النيش في جرح قديم (مجموعة قصصية) الدكتور زهير أحمد السباعي
- الرياضة عند العرب في الجاهلية و صدر الإسلام الأستاذ محمد منصور الشقحاء
- الاستراتيجية النفطية ودول الأوبك الأستاذ السيد عبدالرؤوف
- الدليل الأبجدي في شرح نظام العمل السعودي الدكتور محمد أمين ساعاتي
- رعب على ضفاف بحيرة جنيف الأستاذ أحمد محمد طاشكندي
- العقل لا يكفي (مجموعة قصصية) الدكتور عاطف فخري
- أيام مبعثرة (مجموعة قصصية) الأستاذ شكيب الأموي
- مواسم الشمس المقبلة (مجموعة قصصية) الأستاذ محمد علي الشيخ
- ماذا تعرف عن الأمراض ؟ الأستاذ فؤاد عتقاوي
- جهاز الكلية الصناعية (مجموعة قصصية) الأستاذ محمد علي قدس
- القرآن و بناء الإنسان الدكتور اسماعيل الهلباوي
- اعترافات أدبائنا في سيرهم الذاتية الدكتور عبدالوهاب عبدالرحمن مظهر
- الأستاذ صلاح البكري
- الأستاذ علي عبده بركات

- الطب النفسي معناه وأبعاده
- الزمن الذي مضى (مجموعة قصصية)
- مجموعة الخضراء (دواوين شعر)
- خطوط وكلمات (رسوم كاريكاتورية) (الطبعة الثانية)
- ديوان السلطانيين
- الامكانيات النووية للعرب وإسرائيل
- رحلة الربيع
- وللخوف عيون (مجموعة قصصية)
- البحث عن بداية (مجموعة قصصية)
- الوحدة الموضوعية في سورة يوسف
- المجنونة اسمها زهرة عباد الشمس (ديوان شعر) (الطبعة الثانية)
- من فكرة لفكرة (الجزء الأول)
- رحلات وذكريات
- ذكريات لا تنسى
- تاريخ طب الأطفال عند العرب
- مشكلات بنات
- دراسة في نظام التخطيط في المملكة العربية السعودية
- نفحات من طيبة (ديوان شعر)
- الأسر القرشية .. أعيان مكة الحمية
- الماء ومسيرة التنمية (في المملكة العربية السعودية)
- الدليل لكتابة البحوث الجامعية (الطبعة الثالثة)
- القطار والحليل (مجموعة قصصية) (الطبعة الثانية)
- المذاهب الأدبية في الشعر الحديث لجنوب المملكة العربية السعودية
- مسائل شخصية
- مجموعة النيل (دواوين شعر)
- عام ١٩٨٤ لجورج أوروبل (قصة مترجمة)
- الزكاة في الميزان (الطبعة الثانية)
- من فكرة لفكرة (الجزء الثاني)
- البسمات
- مشكلات لغوية
- مجموعة فاروق جويدة (دواوين شعر)
- صور وأفكار
- ديوان حمام (ديوان شعر)
- اتجاهات نفسية وتربوية
- التليفزيون التجاري في الولايات المتحدة
- العلاقات الدولية (الطبعة الثانية) (ترجمة)
- الدكتور محمد محمّد خليل
- الأستاذ صالح إبراهيم
- الأستاذ طاهر زنجشيري
- الأستاذ علي الخرجي
- الأستاذ محمد بن أحمد العقيلي
- الدكتور صدقة يحيى مستعجل
- الأستاذ فؤاد شاكر
- أحمد شريف الرفاعي
- الأستاذ جواد صيداوي
- الدكتور حسن محمد باجودة
- الأستاذة منى غزال
- الأستاذ مصطفى أمين
- الأستاذ عبدالله حمد الحقييل
- الأستاذ محمد المجذوب
- الدكتور محمود الحاج قاسم
- الأستاذ أحمد شريف الرفاعي
- الأستاذ يوسف إبراهيم سلوم
- الأستاذ علي حافظ
- الأستاذ أبو هشام عبدالله عباس بن صديق
- الأستاذ مصطفى نوري عثمان
- الدكتور عبدالوهاب إبراهيم أبوسليمان
- الأستاذ السيد عبدالرؤف
- الدكتور علي علي مصطفى صبح
- الأستاذ مصطفى أمين
- الأستاذ طاهر زنجشيري
- الأستاذ عزيز ضياء
- الدكتور محمد السعيد وهبة
- الأستاذ عبدالعزيز محمد رشيد ججوم
- الأستاذ مصطفى أمين
- الدكتور حسن نصيف
- الدكتور شوقي النجار
- الأستاذ فاروق جويدة
- الأستاذ عثمان حافظ
- الأستاذ محمد مصطفى حمام
- الأستاذ فخري حسين عزري
- الدكتور لطفي بركات أحمد
- الأستاذ غازي زين عوض الله
- الدكتور غازي عبدالرحمن الفصيبي

الأستاذ مصطفى عبد اللطيف السحرتي
الدكتور محمد عبد الله القصيمي
الأستاذ محمود جلال العلامات
إعداد وزارة الصحة
الأستاذ شاكر النابلسي
الشيخ أبو تراب الظاهري
المهندس سعد أحمد شعبان
الدكتور مصطفى محمود

الأستاذ سليمان عبد الرحمن الجبهان
الأستاذ غازي زين عوض الله
الدكتور أحمد عطا المهربي

تيري ودانييل موجيه
تيري ودانييل موجيه
تيري ودانييل موجيه

الدكتور غازي عبد الرحمن القصيبي
الأستاذ غازي محفوظ فلمبان
الدكتور محمود حجازي

الدكتور حمد المرزوقي
الدكتور أحمد نبيل أبو خطوة

الدكتور يسري عبد المحسن

• الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث
• في بيتك طبيب
• السببون وسد مأرب
• مرشد الأسماء العربية (الطبعة الثانية)
• سعودية الغد الممكن
• سرايا رسول الله
• الطريق إلى القمر
• الماركسية والإسلام (باللغة الانجليزية)

• الإدارة والعلاقات الإنسانية
• صورة العربي في الصحف الأمريكية
• ايدز (مرض نقص المناعة المكتسبة)

• في ظلال الخيام السوداء (باللغة الانجليزية)
• في ظلال الخيام السوداء (باللغة الفرنسية)
• في ظلال الخيام السوداء (باللغة العربية)

• ١٠٠ ورقة ورد

• الاستثمار بالأسهم في المملكة العربية السعودية
• الأمراض الجلدية
• الفات

• الزواج وفترة الخطوبة

تحت الطبع :

الأستاذ أحمد عبد السلام البقالي
الدكتور اسامة عبد الرحمن
الدكتور غازي عبد الرحمن القصيبي

• مغامرات سفير عربي في
اسكندنافيا منذ ألف عام
• نوع من العشق وشجون أخرى
• سيرة شعرية

كتان للاطفال

صدر منها ،

مجموعة : حكايات للأطفال ينقلها إلى العربية الأستاذ عزيز ضياء

- سعاد لا تعرف الساعة
- الحصان الذي فقد ذيله
- نوزة الفراولة
- ضيوف نار الزينة
- الضفدع العجوز والعنكبوت
- الكؤوس الفضية الاثنا عشر
- سرحانة وعلبة الكبريت
- الجنيات تخرج من علب الهدايا
- السيارة السحرية
- كيف يستخدم الملح في صيد الطيور

تحت الطبع

- الأرنب الطائر
- معظم النار من مستصغر الشرر
- لبنى والفراشة
- ساطور حمدان
- وأدوا الأمانات إلى أهلها
- سوسن وظلها
- الهدية التي قدمها سمير
- أبو الحسن الصغير الذي كان جائعا
- الأم ياسمينه واللص

مجموعة : لكل حيوان قصة للأستاذ يعقوب اسحق

- القرد
- الكلب
- السلحفاة
- الأسد
- الضب
- الغراب
- الجمل
- البغل
- الفراشة
- الثعلب
- الأرنب
- الذئب
- الفأر
- الخروف
- البوم
- البجع
- الهدهد
- الكنغر
- الخفاش
- النعام
- فرس النهر
- التمساح
- الضفدع
- الذب
- الخرتيت

إعداد : الأستاذ يعقوب محمد اسحق

- أسد غررت به أرنب
- المكاء التي خدعت السمكات

مجموعة : حكايات كلية ودمنة

- عندما أصبح القرد نجارا
- الغراب يهزم الثعبان

مجموعة : التربية الإسلامية

للأستاذ يعقوب محمد اسحق

- الله أكبر
- الصلاة
- صلاة المسوق
- الصلاة
- قد قامت الصلاة
- الاستخارة
- صلاة الجمعة
- الصوم
- صلاة الجنائز
- الصدقات
- المسح على الخفين
- سجود التلاوة
- المسح على الجبيرة والعصابة
- زكاة النقدين
- زكاة هبمة الأنعام
- زكاة العروض

قصص متنوعة :

- الصرصور والنملة
- السمكات الثلاث
- النحلة الطيبة
- الأستاذ عمار بلغيث
- الأستاذ عمار بلغيث
- الأستاذ اسماعيل دياب
- الكنكوت المتشرد
- المظهر الخادع
- بطوط وككت
- الأستاذ عمار بلغيث
- الأستاذ عمار بلغيث
- الأستاذ اسماعيل دياب
- نتيجة الطمع
- الدعوة الخفية
- الحارس الذكي

كتاب الناشئ

صدر منها :

مجموعة: وطني الحبيب

- جدة القديمة
- جدة الحديثة

مجموعة: حكايات ألف ليلة وليلة

- الأستاذ يعقوب محمد اسحق
- السندباد والبحر

- الديق المغرور والفلاح وحاره
- الطافية العجيبة
- الزهرة والفراشة
- سلمان وسليمان
- زهور البانونج
- سنبل القمح وشجرة الزبتون
- نظيمة وغنيمة
- جزيرة السعادة
- الحديقة المهجورة
- البید السفلی

- الأستاذة فريدة محمد علي فارسي
- الأستاذة فريدة محمد علي فارسي
- الأستاذة فريدة محمد علي فارسي
- الأستاذة فريدة محمد علي فارسي
- الأستاذة فريدة محمد علي فارسي
- الأستاذة فريدة محمد علي فارسي
- الأستاذة فريدة محمد علي فارسي
- الأستاذة فريدة محمد علي فارسي
- الأستاذة فريدة محمد علي فارسي

الدكتور محمد عبده يمانی
الأستاذ يعقوب محمد اسحق

إعداد

Books Published in English by TIHAMA

- **Surgery of Advanced Cancer of Head and Neck.**
By: F.M. Zahran / A.M.R. Jamjoom / M.D.EED.
- **Zaki Mubarak: A Critical Study.**
By: Dr. Mahmud Al Shihabi
- **Summary of Saudi Arabian Third Five Year Development Plan.**
- **Education in Saudi Arabia, A Model With Difference. (Second Edition)**
By: Dr. Abdulla Mohamed A. Zaid
- **The Health Of The Family In A Changing Arabia. (Third Edition)**
By: Dr. Zohair A. Sebai
- **Diseases of Ear, Nose and Throat.**
By: Dr. Amin A. Siraj / Dr. Siraj A. Zakzouk
- **Shipping and Development in Saudi Arabia.**
By: Dr. Baha Bin Hussein Azzee
- **Tihama Economic Directory. (Second Edition)**
- **Riyadh Citiguide.**
- **Banking and Investment in Saudi Arabia.**
- **A Guide to Hotels in Saudi Arabia. (Second Edition)**
- **Jeddah City Guide**
- **Who's Who in Saudi Arabia. (Second Edition)**
- **An Ethnographic Study of Al-Hasa Region of Eastern Saudi Arabia.**
By: Dr. Faiz Abdelhameed Taib
- **The Role of Groundwater In The Irrigation And Drainage Of The Al-Hasa of Eastern Saudi Arabia.**
By: Dr. Faiz Abdelhameed Taib
- **An Analysis Of The Effect of Capitalizing Exploration And Development Costs In the Petroleum Industry — With Emphasis On Possible Economic Consequences in Saudi Arabia.**
By: Mohiadin R. Tarabzune
- **Community Health in Saudi Arabia**
By Dr. Zohair A. Sebai
- **Marxism and Islam**
By: Mostafa Mahmoud
Translated from Arabic by: M.M. Enani,
- **The Demand for Housing Application at a Portfolio-Balance Model.**
By: Dr. Farouk Saleh Khatib
- **In The Shadow of the Black Tents**
By: Thierry & Danielle Mauger
- **The Effect of Listening Comprehension Component on Saudi Secondary Students' EFL Skill**
By: Mamoun Yousef Banjar

Books Published in French by TIHAMA

- **A L'ombre De Tentes Noires**
Therry ET Danielle Mauger